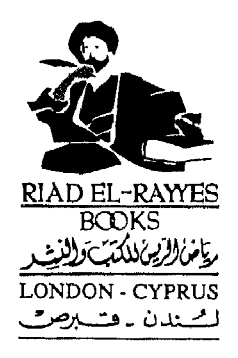
نقولا زياده

لبنانيات

تاريخ وصور



لبنانيّات

تاريخ وَصُوَر

LOUBNANIYAT

by

NICOLAS ZIADE

First Published in the United Kingdom in 1992

56 Knightsbridge, London SW1X 7NJ
U.K.

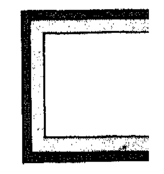
CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data
Ziade, Nicolas
Loubnaniyat
I - Title
956.21

ISBN 1855131102



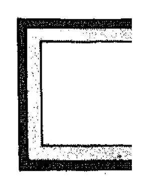
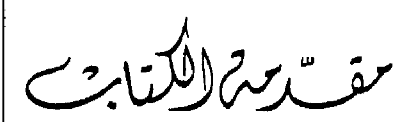
الطبعة الأولى: تموز/يوليو ١٩٩٢



محتويات الكتاب

القسم الثالث
مذكرات لبنانيين

القسم الرابع
لبنان في كتابات الآخرين

مقدمة الكتاب

(١)

تعود صلتي بلبنان، لأوّل مرة، إلى سنة ١٩٢٥. ففي تلك السنة، قمت، مع استاذي وصديقي درويش المقدادي، برحلة على الأقدام، بدأت في صفد بشمال فلسطين، وانتهت بانطاكية، التي كانت لا تزال يومها رسميًا جزءاً من سوريا.

وقد كان طريقُنا على النحو التالي: صفد ـ منطقة الحولة ـ بانياس ـ جَبّاتا الزيت ـ قمة جبل الشّيخ ـ شِبْعا ـ صيدا ـ جِزّين ـ عمّاطور ـ بعقلين ـ دير القمر ـ بيروت (زيارة لجبيل) ـ صوفر ـ ضهور الشوير ـ صنين ـ العاقورة ـ حَصْرون وبَزْعون ـ الأرز ـ طرابلس ـ تل كلخ ـ قلعة الحصن ـ صافيتا ـ جبلة ـ اللاذقيّة (٤ أيام في جبال النُصيريّة) ثم بحراً إلى انطاكية. والعودة من انطاكية عن طريق حلب ـ حماة ـ حمص ـ بعلبك ـ زحلة ـ دمشق ـ القاهرة، بالسيارة والقطار.

ذكرت محطات الطريق، لأبيِّن مدى ما تغلغلنا، يومها، في داخل البلاد؛ ولأنّ التنقّل كان على الأقدام فقد كان التصاقُنا بالأرض وما فيها أقوى.

وزرت لبنان، ثانية، سنة ١٩٣٥. وتسلّقت جبل الشيخ، ثانيةً، من راشيا، وصعدت إلى القرنة السوداء (أو ظهر القضيب) أعلى نقطة في بلاد الشام، في شمال لبنان.

هاتان الزيارتان لا تزال آثارهما منطبعةً في ذهني؛ فأنا لا اكاد اذكر شبعا او اسمع باسمها (والاسم يسمع كثيراً في هذه الأيّام) حتى اتذكّر نزولنا من قمة جبل الشيخ اليها في الليل. والدليل يعرف الطريقَ معرفةً عامةً، ولم يخطئه، لكنّ تفاصيل الحجارة، وما يحيط بنا ليست مما يدخل في علمه. لذلك لما وصلنا مكاناً ـ قبل شبعا ـ عوى كلب، فاستشهد درويش بالبيت القائل:

عوى الكلبُ فاستأنستُ بالكلب إذ عوى
وصوّتَ إنسانٌ فكدتُ أطير

وأنا، إذ أتأمّل العقود، التي مرت على زيارتي الثانية لجبل الشيخ، لا ازال اتذكّر العتابا والميجانا والدلعونة، التي غناها دليلنا، في الليلة المقمرة، التي تسلقنا فيها الجبل نحو قمته.

وهناك أماكن كثيرة من لبنان رأيتها بعد ذلك مرات، لكن تلك الهنيهات الأولى لا يزال لها «في قلبي تلفت وخفق».

وأنا، منذ سنة ١٩٤٩، أقيم في لبنان. لكن هذه أيام لها قصة أخرى، أرجو ان ارويها يوماً من الأيام.

ثمة أمور أدركتها، وأخرى مـلأت قلبي غبطة وسروراً، جاءتني من هذه الصلـة الأولى بلبنان. فـالوقـوف على قمّـة جبلِ الشيـخ وقمةِ صنـين وظهر القضيب علّمني معنى كلمـة «الجبل الأشم» و «الرفعة» و «الصمود»؛ والتنقّل على مهل في ربوعِ الجمال ومغانيه في لبنان يومَها كان لـه معنى غير المعنى الذي صار له فيما بعد. رأيت الجمال على طبيعته. لم يكن هناك مقهى عند نبع العسـل مثـلاً، ولم تصل الطـريقِ إلى المُنَيْتـرة وأفقـا، ولم يُتلف أرزَ الـربّ فنـادق. وكـان وادي العـرايش (البـردوني) في زحلة حقـاً وادي عرائش. وكـان النادل في المقهى المعـرّش هناك يستهجن أن يطلب أحـد الزبـائن وسكي أو بيرا. وقـد روى لي لاعب البُرُق المعـروف محمد عبـد الكريم أنـه زار وادي العرايش مع بضعة أصحاب (حتى في سنة ١٩٣٦). فطلب الجميع العرق وطلب محمد عبد الكريم الويسكي. فصاح النادل (الغرسون) بأعلى صوته: «سبعة عرق للشباب وواحد وسكي لهز...».

وكان أن زرت جبيل (١٩٢٥) وكانت الحفريّات الأثريّة حديثة العهد هناك يومها، وكان الأستاذ مونتيه يشرف عليها. فتفضّل ورافقنا وشرح لنا ما كان قد عُرِف. ولما تسلّقت آثار القلعة فيها وهي من آثار العصر الصليبي، وألقيت نظرةً على ما حـولي وما هـو قائم تحت، أدركت أن كـلَّ شخص يقيم في المشرقِ العربيّ يشاركني يومَها في أنّنا نحمل على أكتافنا وِزرَ تاريخٍ يمتد، على الأقلّ، سبعةَ آلافِ سنة. وما أثقله من حمل.

ولما تلفتُّ يمنة ويسرة، رأيت التطوّر الذي أصاب لبنان وجيرانَه خلالَ هذه القـرون الطويلـة. فهناك مقبرةٌ فينيقيّةٌ قديمة وهيكلٌ مصريٌّ وبقايا مسرحٍ يونانيٍّ وآثـار مدرّجٍ رومـانيٍّ. إلى جانب هذا كله، تقوم كنيسة مار يوحنـا ومسجد عـلى مقربـة منّها. هـذه خلاصـة للتّاريـخ الذي عـرفته المنطقة.

وفي أفقا (قرب قـرية المنيترة)، لما دخلت المغـارة ورأيت الماء، ينبثق من الصخـر، عرفت معنى الأسطورة مفسرة بأسطورة تمّوز/ أدونيس.

وفي سنة ١٩٢٥، تسلقت من نهر الليطـاني (القاسميـة) إلى قلعة الشقيف، تسلّقـاً يكاد يكـون عموديًّا. فلما وصلت القلعة ووقفت هناك أتأمّل الجوارَ، وهـو واسع، اتّضـح لي معنى القلعة التي تسيطر على الطريقين التجاريّ والعسكريّ.

وبعد سنوات من القيام بهذه الزيارة، (ثم بالزيارة الثانيـة المحدودة نسبيـاً) دوّنت وصفاً لمـا شاهدت، وذكرت الأثر الذي خلفته تلك الأيام في نفسي. وها أنا أنقل بعض هذا الذي كتبت يومها.

(٢) فوق جبل الشيخ

أمنيةٌ جاشت في نفسي منذ أن كنت يافعاً ـ هي أن أصل الى قمة جبل الشيخ. فقد رأيتُ الجبـل الكبير، رابضاً على أطراف السهول الواسعة لأول مرة، إذ كنت مسافراً بالقطار من دمشق إلى حيفـا، فألهاني منظره عن الأراضي الفسيحة التي يجتازها المسافر، وشغلتني رؤيته عن كل مـا عداه فمـلأ نفسي رهبـة شـاعت فيهـا خشيـة الشيء العظيم الأبيّ، ورغبتُ في أن أرقـاه. وكنت أينمـا سرت في مرتفعات هذه البلاد، يبدو لي جبل الشيخ يدعوني لارتقائه، وكأنه يتحداني. وكل مرة كنت أسمـع فيها دعوته، كنت ألبّي نداءه وأعـده بالـذهاب، حتى تم لي ذلـك مرتـين. فتسلقت جبل الشيـخ من جهتين مختلفتين، وبشكلين متبايـنين، وعرفت لـذة الوصـول إلى القمة، وأدركت معنى الاستمتـاع بالأفق الواسع يشرفُ منه المرء على الأمور إشرافاً كليًّا، فتغيب الجزئيات والصغـائر أمـام الكليّات والعظائم.

كان اليوم أحـد أيام النصف الأول من شهـر آب (أغسطس) سنة ١٩٢٥، وكـان الحرُّ شـديداً، وكانت الشمس قد ملأت الأفق، لما اتخذنا طريقنا ـ أنا وصديقي درويش المقـدادي ـ من الخالصـة

إلى جبَّاتا الزيت. كان طريقنا يمرُّ في بقعة من أجمل بقاع البلاد، إذ علينا أن نجتاز المنطقة التي تقطعها روافد الأردن. وكان تل القاضي أجمل هذه الينابيع وأولها في طريقنا. فقد وصلنا إليه قبيل الظهر، فأشرفنا على تلّةٍ، لعل طولها لا يتجاوز الثلاثين من الأمتار، ولا تكاد ترتفع عشرين متراً، تكسوها الأشجار والأنجم البرية، وينبثق من غربها نبع ماء قوي، يشقُّ طريقه من أحشاء الأرض ويبري الجنادل في سيره، ويملأ الجوَّ صوتاً موسيقياً، ويملأ النفس لذةً وسروراً. ويأبى الرعاة إلا أن يجعلوا لهذا الشجر الجميل هالةً من القداسة، فهم يحملونك على أن ترى عشر شجرات منفردة عن غيرها، وإذ تقتنع بذلك يتقدّم أحدهم فيروي لك، في كثير من الإيمان وكثير من اليقين، أن عشرة من الصحابة الكرام مروا بهذا المكان، فربطوا خيولهم في أوتاد غرسوها خاصةً لذلك، فإذا الأوتاد تنبت شجراً كريماً، وإذا الشجرات العشر تبقى إلى يوم الناس هذا. وفي هذه الأماكن التي اجتزناها متعةٌ تهيىء المرء السائر فيها لقبول ضيافة المساء في جبَّاتا الزيت، إذ يصلها والشمس قد جمعت آخر خيوطٍ لها في الأفق. ونقضي بعض المساء في تحدث عن رحلة الغد. نعم، إلى قمة جبل الشيخ الواقعة جبَّاتا على طرفه الجنوبي. إن حلم الصبي على وشك أن يتحقق. ويتقدم القوم المجتمعون محاولين إقناعنا بالعدول. فالطريق صعب المرتقى، والمسافة طويلة، والماء نزرٌ، ولا سبيل إلى الحصول على دليل يرافقنا. ويرى مضيفنا أننا نسمع كلامه وكلام رجاله، دون أن نقبل نصحَهم، ويتأكد من أننا لا بد صاعدان. فيهيىء لنا كلَّ ما نحتاج، فثمة دليلان بدل الواحد، وكلٌ منهما يأتي ببغلته معه، على سبيل الاحتياط. والحيطة هذه ظهرت بعد ساعات إذ امتطى كلٌ من الدليلين دابَّته، وسارا يرشداننا الى الطريق. وهذا مضيفُنا الكريم يعدّ لنا زاداً كثيراً، وماءً نحمله في تنكتين، فقد لا نجد عند القمة ثلجاً نذيبه، لأن ذوبان الثلج بدأ مبكّراً تلك السنة، ولعله زال مبكّراً أيضاً، أو لعله زال كلُّه عن الجبل، وهذا ما لقيناه فعلاً...

كانت الساعة الرابعة صباحاً لما خرجنا من جباتا. وإن أنسى لا أنْسَ مختار القرية، وقد رآنا نخرج منها، إذ لحق بنا يحاول، في آخر لحظة، أن يُثنينا عن عزمنا. لقد أقسم بوجود الخطر، ولما يئس منا، بعد أن سايرنا مسافة طويلة، أشهد الفلاحين علينا أنه براءٌ من دمنا، إذا مسَّنا ضُرٌّ، فقد أنذرنا ولم نلتفتْ له، وتركنا صاخباً. فقد كانت سوريا تغلي بثورة ١٩٢٥.

سرنا بين كروم العنب أولاً، لكن هذه لم تلبث أن انقطعت. واستعضنا عن رفقة الكرم بالحمّص الأخضر، حتى وصلنا «مرج أبو عبد الله»، وهو آخر الجزء الذي يزرع ولم نر بعد ذلك إلا بقية أعشاب ترعاها الماشية، التي تصطاف هناك مع رعاتها، وترتوي من نبعة «معنون» الباردة، على أن الأعشاب نفسها أخذت تتناقص شيئاً فشيئاً وتحلُّ محلَّها نباتات شائكة ذات رائحة زكية.

بعد عشر ساعات من السير، وجدنا أنفسنا على قمة جبل الشيخ، على قصر عنتر أو شيبوب، وعلى أنقاض الهيكل القديم المكرّس لبعل حرمون. وإن كان الهيكل القديم رمز العبادة الإلهية، وقصر شيبوب رمز البطولة الفذة، فعلى قمة جبل الشيخ أثر صغير كان رمز الآمال العربية. فهناك رأينا قطعة رخام منقوش عليها ذكرى زيارة المغفور له فيصل الأول لقمة جبل الشيخ أيام كان ملكاً على سوريا.

أما المرة الثانية، فقد كان صعودي جبل الشيخ من راشيا، من الغرب. بدأنا السير أنا والشيخ سامي العيد في العاشرة مساءً، وأمامنا الدليل ومعه بغلته تحمل زادنا ودثارنا، فقد أُنْبِئْنا أن البرد يكون في الصباح شديداً. كانت الليلة هادئة، وكان القمر بدراً أو يكاد، وكانت النفس مطمئنةً، وكانت السفرةُ مهيَّأةً، وأراد الله أن يُتم نعمته علينا فكان دليلنا رخيم الصوت. ولم نكد نلتحف الوادي، ونطمئن إلى أننا في الطريق الصحيح، حتى أخذت صاحبنا فورة من الطرب، فانطلق يغنّي

غناءه الجبلي القوي العذب، وأخذ الوادي يردد صدى غنائه، فيبعثُ في نفوسنا رهبةَ الجبل العظيم، وسرور الطبيعة، وأمل الليل البهيم. فعتَّب صاحبنا ما شاء له الهوى، (ومَيجن) ما شاءت له الذكرى، (ودَلعن) ما هاجه غرامه، وهو في كل ذلك جذلان طرب، ونحن معه جذلان طربان.

إنها قرابة خمس ساعات، فإذا الدليل يصيح بأننا على وشك أن نصل وإذا بالطبيعة تقدم لنا كهفاً يأوي اليه صديقي والدليل، فيعطيان جسديهما حقهما من الراحة، وأبى أنا على نفسي ذلك. لقد خشيت، إن أنا استلقيت أيضاً، أن تأخذنا كلّنا سِنةٌ من النوم، فلا نصحو إلا وقد أضعنا الفرصة. لقد كنت ضنينا بأن أُضيِّع هذا الجهد دون أن أرى هذا المنظر الجميل، الذي تتعاقب عليه السنون، فلا تُبلي جدته، ولا تُزيل أثره. أبيت على نفسي أن أعطي جسدي حقه، وقمت بدور الحارس، فلما حسبت أنهما اكتفيا، أيقظتُهما، وتابعنا السير. ولم نسر إلا نصف ساعة فإذا بنا على قصر عنتر، وإذا بي أقف هناك للمرة الثانية. ولكن هذه المرة في آخر الليل، فالمرة الأولى، كانت في وضح النهار.

ولست أشك، وقد وقفت، ثانية، عند الفجر، على قمة جبل الشيخ، وهو من أكثر الجبال ارتفاعاً في بلادنا، ان ما يراه المرء من قمة جبل الشيخ أوسع من كل ما يرى من أي جبل آخر. وتنوُّع المناظر التي تجتليها العين من قمته لا يتيسر في مكان آخر. فأنت إذ تقف على قمة الجبل ـ على أنقاض قصر عنتر أو هيكل بعل حرمون ـ وتمدّ ببصرك حولك، تستجلي عينك آفاقاً مترامية، وأبعاداً شاسعة: ففي الغرب يخيل إليك أن البحر، بين جبل الكرمل وصور، يرتمي عند موطىء قدميك، أما في الشمال الشرقي، فأنت تطل على دمشق وغوطتها التي تضم كل البقاع الخضراء على سيف البادية. وثمة اللجاة ذات الصخور النارية، وحوران وسهوله الخصبة. وفي الجنوب الشرقي الجولان وفوهاته البركانية.

كان الليل لا يزال يرخي سدوله الكثيفة على قمة الجبل لما وصلنا هذه المرة. وكان القمر رفيقاً بنا في سيرنا، وازداد بنا رفقاً لما وصلنا، إذ تركنا لما نحن قادمون عليه، واختفى في الغرب وعلى فمه ابتسامة من يعرف ما يختبّىء القدر لهذه الجماعة الصغيرة من متعة ولذّة. ولكنه اختفى دون إنذار أو تحذير، حتى كدنا نتعثر في سيرنا، في الجزء الأخير من القمة العنترية، وما إن استقرّ بنا المقام، حتى تدثرنا بالسميك من أحرمتنا، واتجهنا نحو الشرق، نرتقب الجمال والضياء.

ولم يطل انتظارنا. بدت تباشير النور في أشّعة فضيّةٍ باهتةٍ، تبين لنا فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أغدقت هذه الأشعة من نورها على الأفق العريض البعيد، فبدا كلُّه مفضّضاً، ثم استحالت فضّتُه ذهباً يخالطه مزيج من الألوان الناشئة عن انعكاس الأشعة على السماء الزرقاء والرمال المنتشرة في عرض الأفق. ولم تلبث الشمس نفسها أن تجاوزت الخط الفاصل بين الأرض والسماء، فبدا كل شيء موشّى بنورها ملتحفاً بضيائها. وشعرت آنئذ أنَّ الحياة انبعثت في كل ما يرى، من جديد: فظباء الفلاة أخذت تتلفَّتُ نحو مصدر الحياة السماوي، ورمال الصحراء أخذت ترقص طرباً وحبوراً، وأزاهير غوطة دمشق وأشجارها نفضت عنها رداء الليل البهيم، ووجَّهت وجهها نحو الشمس، وحنت رؤوسها إجلالًا لها. ملأ قلبي بعض هذه الحياة التي انتشرت في كل شيء، فملأت فراغه، وأشاعت فيه امتلاءً روحيًّا. ووقفت مكاني مشدوداً، لا أتحرك ولا أتلفّتُ، حتى كأنني أصبحت جزءاً من جبل الشيخ. وعندها سرت في نفسي شرارةٌ من عزيمته وثباته، فرأيتني أحسُّ بقوة ونشاط عجيبين. وطال استمتاعي بالمنظر الخلّاب، تتبدّل فيه الألوان دقيقةً بعد دقيقة، وتتوالى فيه الصور مع تبدُّل الألوان، حتى صاح صديقي: «انظر». فتلفتُّ إلى حيث أشار فرأيت ظلَّ جبل الشيخ مبسوطاً على سهل البقاع والجبال الواقعة الى الغرب منه، ثم رأيت هذا الظلَّ المديد يتقلص تباعاً لارتفاع الشمس في الشرق.

وهكذا تمت أمنيّتي مرتين، فعرفت جبل الشيخ. وانحدرت منه مرة في الليل وأخرى في النهار. في المرة الأولى، كان نزولنا في وادي جنعم الصخري الملتوي، وطال سيرنا، فصرفنا أربع ساعاتٍ هبوطاً حتى وصلنا شِبْعا. وكانت الساعة الأخيرة من سيرنا بين بساتين شبعا، لكن الظلام كان حالكاً فلم نتبين منها شيئاً. وأيّ لذةٍ شعرنا بها، وأيّ سرور شملنا! لما أوينا إلى فراشنا تلك الليلة بعد صعود استمر عشر ساعات، وهبوط استمر أربع ساعات، وكانت غايتنا في السير قمة جبل الشيخ.

أما هبوط النهار، فكان عوداً إلى راشيا. وأطبق دليلنا، فما يحدث ولا يغنّي. ومن غنى في الليلة المقمرة يصمت في النهار، ومن رأى شروق الشمس على بادية الشام من قمة جبلٍ، يطبق جفنيه لتطبع هذه الصورة في ذهنه. وهذه سنوات تمر على ذلك اليوم، والصورة لا تزال ثابتة في خيالي، كأنها وليدة صباحي هذا.

ونحن في انتقالنا من شِبعا إلى حاصبيا نجتاز وادي التّيم من شرقه إلى غربه، ونعبر نهر الحاصباني وهو ثالث فروع نهر الأردن الكبيرة، ونمرّ بقرية الهبارية، القرية التي استغرب أهلها زيَّنا، وكنا نرتدي السراويل القصيرة، وسألونا إن كنا جنوداً فارّين أو بائعي حكمة (أي عقاقير). وأهل الهبّارية فخورون بسبيل الماء الذي أنشىء ببلدهم. فقد نقشوا عليه: «وجعلنا من الماء كل شيء حيّ. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى». حبّذا أهالي الهبارية، وحبّذا سعيهم المأثور وثباتُهم المشكور. بذلوا في سبيل بغيتهم النفائس، فباءوا بنجاح باهٍ باهر، أجرى عليهم ماء سلسبيلاً وشراباً طهوراً فاشرب أيها الوارد، وادع بالخير للنزيه الهمام زكي قَدري بك، الذي بفضل همته الشماء، تسنّى جرُّ هذا الماء، لهذا البلد الطيب، فأحيا الزرع والضرع. وهذا من بعض آثاره الكريمة حيّاه الله وبيّاه سنة ١٣٣١».

(٣) من صنين إلى الأرز

نحن على قمة جبل صنين ـ أنا ودرويش المقدادي.

كنا قد وصلنا نبع صنين بعيد الظهر، وكنا قد سرنا إليه من ضهور الشوير، في طريق وعر لكنه جميل، بين أشجار تتكاثف حيناً وتتباعد حيناً آخر، وبين ينابيع متعددة، وينابيع لبنان كثيرة كريمة. وكان الجوع قد نال منا، وكان الجمال قد نلنا منه، فجئنا النبع القوي العذب، نستمتع بخرير مائه، ونستجلي محاسن وادي بسكنتا، ونلتهم طيّبات ما رزقنا الله عند صاحب المنزل القائم فوق العين. وما إن نلنا هذا كله، حتى كان النشاط قد عاد إلينا، فرنت أعيُننا إلى صنين، وعقدنا النية على التسلّق. فقال قائل: «الوقت متأخِّر، فلن تصلا إلا والشمس قد آذنت بالمغيب». وأعجبتنا الفكرة التي قصد تحذيرنا منها، فزادتنا شوقاً إلى الصعود. فأشار صاحب المنزل إلى الطريق. لكننا كنا قد اعتزمْنا أن لا نسير في طريق ملتوية طويلة سهلة يسيرة، ورأينا أن نجابه الجبل رأساً فنصعد فيه باستقامة. وبلغ الجبل أن اثنين من البشر تحدياه، فضحك في نفسه وتذكر أنه قد قيل في أشباهه.

رسا أصله تحت الثرى وسما به
إلى النجم فرع لا ينال طويل

وقد فات الجبل أن الأرض التي تحمل مثله قد أنبتت جيلاً من البشر فيه «شباب تسامى للعلى وكهول».

وأخذنا نصعد فيه، وأدرك الجبل الأشم أن عزمنا قد صَحّ، فأخذ يقذفنا بأسلحته الواحد تلو الآخر. فحجارته تتدحرج تحت أقدامنا فتتعثّر، وصخوره تغرينا بالدوس عليها ثم تروغ فتنزلق أقدامنا، وأشواكه تلتف على أرجلنا فتدميها. وقضينا ساعة ونصف الساعة ونحن في هذه المشادّة، وكلما حسبنا أننا على وشك الوصول إلى القمة رأينا الجبل يتسامى كأنه يسابقنا. ولكن أدرك الجبل أخيراً أن زائريه لن يتراجعا فكفّ عن تحدّيه، وهدأت ثائرته، واستعاض عن لذع أشواكه برائحتها الزكيّة، وهشّ لنا. ووصلنا إلى القمة.

وكان صنين شريفاً في خصومته. فما إن رآنا قد بلغنا غايتنا حتى انبسطت أساريره، وضمّنا إلى صدره وحنا علينا وغمرنا بهدوئه وجلاله، وملأ نفسينا شعوراً بأننا جزء منه، فشعرنا بالشمم والإباء يجريان في عروقنا. ثم طفق يحدّثنا حديث النّد للند، فقص علينا قصته في عذوبة ورقّة، لكنها عذوبة فيها قوة وفيها عزمٌ؛ وهو يهيب بنا أن ندرك سرَّ عظمته، ثم أخذ صوته يخفت حتى صار همساً نكاد لا نتبينه، وأصغنا السمع فإذا بالجبل يشير إلينا أن نصمت ونفتح أعيننا، لأنّ وقت العبادة قد حان.

وخشعنا، واتجهنا إلى حيث أشار، فرأينا الشمس فوق بيروت تنحدر بتؤدة ورفق، نحو البحر، ورأينا نورها يضعف شيئاً فشيئاً، فيبهت لونها، ويستحيل احمرارها شحوباً واصفراراً، وإنها لتمسُّ الماء، فتشعر أن ساعة هلاكِها قد دنت، فتعود إليها رغبتها في الحياة، وتحاول للمرة الأخيرة أن ترتفع، ولكن الجهد الذي تبذله كبير لا تستطيع أن تتحمله فتخرُّ صريعةً، وقد تضرّجت بدمائها. وتنتشر هذه في الأفق، وتراف غيوم المغرب بالدماء المراقة فتلمُّها وتنصبغ بها، فيحمرُّ الأفق الغربي كله إذ آلمه أن يؤول أمر ربة النور إلى مثل هذا. ويسود الكون صمت تحلو معه العبادة، فيردد صنين صلاته، وتنقلها الأودية منه، وتحمل الينابيع صداها إلى البحر. ويقف الزائران مشدوهين ـ فالجمال أكثر من أن يحيط به وصف، والألم أكبر من يُحدَّ، والهدوء لا يشوبه شيء، فيفزعان إلى الصلاة، وهما على مقربة من السماء. واذ هما ينظران حولهما، بعد أن ثابا إلى رشدهما، لا يريان شيئاً، فقد ألقى الظلام سدوله الكثيفة على كلِّ شيء، فاستوى الجبل والوادي. ويبدآن النزول في هذا السكون الشامل، ودليلهما عصا انطوت عليها اليد تتلمس لهما الطريق. ولكن صنين كان رفيقاً بهما في هذا الدور، فما خاصم ولا رمى بحجارته، بل إنه جنّبهما الكثير من العثرات. ويقضيان ساعة وبعض الساعة، وإذا بنور النزل يبدو، وإذا بالكلب يعوي فيتمثل صديقي: «عوى الكلب فاستأنست بالكلب إذ عوى»، وإنها لدقائق قليلة، فإذا نحن عند الجماعة الطيبة، التي أقلقها تأخّرنا فأخذت تعدُّ العدة للخروج إلى الجبل تسأله عنا وتحاسبه عما فعل بنا. وتخرج من القوم تحية بالسلامة ممزوجة بالعتب الرقيق...

وهكذا أتيح لي أن أرى ولادة الشمس، من قمة جبل الشيخ، وهلاكها من قمة صنين.

وكان جسمانا بحاجة إلى الراحة، ولكن من يستطيع أن يترك صوت الماء المتدفق من الصفا، وأحاديث أهل لبنان العذبة، ويأوي إلى فراشه؟ لقد أكسبتنا هذه نشاطاً من جديد، فجلسنا نتحدث إليهم حتى مرّ من الليل شطر كبير، كبير، وتفرق السمار فتفرقنا معهم، وأوينا إلى الفراش، لننعم بالراحة، ونحلم.

ودعانا الفجر إليه، فهرعنا إلى الماء، نحاول أن نغسل به أيدينا ووجهينا، فما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، لقد كان بارداً، فاكتفينا بما نلنا. وحملنا زاداً كان قد أُعدَّ لنا، وسرنا ـ وذُكاءُ بعد لم تجمع كل قوتها ـ نهبط وادياً ونصعّد جبلاً، فمررنا بنبع اللبن ونبع العسل، واجتزنا جسر الحجر، وهو جسر طبيعي نحتت منه المياه على توالي الأيام أجزاءه السفلى وتركته معلّقاً، لو أن مهندساً وضع تصميمه ويدا صناعٍ بَنته، وهو أحد عجائب الطبيعة الكبرى في لبنان.

ومررنا بقوم يحصدون ويزرعون ويعملون في الأرض، لكن الأرض هناك ضنينةٌ، ذلك لأننا كنا نُساير أعلى أجزاء السلسلة الكلسية حيث تسقط المياه وتتسرب إلى طبقات التربة السفلى، فلا يُنتفع بها ولا يستفاد منها، إلا حيث تتجمَّع فتنبع في صدر وادٍ، دانٍ أو قصيّ.

وأشرفنا، بعد خمس ساعات، على المكان الذي استأثر بمياه الجِّهة كلِّها؛ ذلك أننا انتهينا، بعد اجتياز جبل معتدل الارتفاع، إلى منابع نهر ابراهيم، إلى أفقا فرأينا عجباً من الأمر. ماء يتفجر من صدر كهف اعتلى كتف الوادي، ويعجز الكهف عن حمله، فينحدر في شلال صغير، إلى بركة، يتجمع فيها حيناً، إلى أن تُجمِّع قوته، ويعود إلى السير، لكن كتف الجبل التالي يعجز عن حمله، فيهبط ثانية. ويتوالى هذا التجمع والهبوط في سلسلة من الشلالات، وتغذّيها ينابيع أخرى على جانبي النهر، وتغذي المياه بدورها عدوات الوادي وجنباته، فتكتسي بثوب، من الخميلة، وتقع العين على هذا الجمال المتناسب المتسق من مياه تتعثر في سيرها، وأشجار الجوز الوارفة الظل وشجيرات منوّعات مزهرة كالدفلة وغيرها، وكلها تتحدث بنعم الخالق.

وأوينا الى ظل شجرة، نستريح، ونمتِّع أنفسنا بهذا الذي نرى، وقال صاحبي: «هذا النهر هو نهر ابراهيم، وهو شديد الانحدار إلى الساحل، وقوته المائية كبيرة، وقد كانٍ ولا يزال يدير الطواحين في طريقه. ولو أن الكهرباء وُلِّدت منه، لكانت قوتها كافية لإنارة الجهة كلِّها، و إدارة عدد كبير من الآلات. أما ابراهيم، فاسم أحد الأمراء الذين حكموا هذه البلاد، قبل مدة».

وقبلت ما قال صاحبي، فقد كان أعرف مني بجغرافية البلاد وتاريخها، لكن شيئاً من الريبة خالجني حول الاسم. فالنهر أقدم من أمير كان يحكم تلك الجهة، فما هي قصة هذا النهر؟

ولم يطل تساؤلي، فلم نكد ندخل الكهف الأول، لنرى انبثاق الماء من الصخرة، حتى سمعت صوتاً يسرُّ في أذني: «أن أصغ إلى قصتي ففيها متعة لك». وحاولت أن أتبين مصدر هذا الهمس، فلم أتمكن، لكن الصوت استمر قائلاً: «أنا مغارة قديمة العهد في هذه البقعة... وقد أُعجبت بي الإلهة القديمة عشتاروت، فأوت إلى صدري أحنو عليها، وتفيأت ظلال هذا الوادي، تنعم بخيراته خالية البال. حتى بدا لها يوماً شابٌ وسيم الطلعة جميل الخلقة، فأسر لبَّها، وملك عليها قلبها، فاغرمت به؛ وأغرم هو بها، وملأ الحب نفسيهما من كؤوسه، وعاشا في غبطة وهناءة. وكان اسم هذا الحبيب تموز، ولم يعرف أحد من أين جاء، ولكنه كان يتحلى بصفات أقنعت عشتاروت أنه من الآلهة. وكان تموز يغيب عن حبيبته، أياما بلياليها، يجوب فيها الآفاق، فيوزع على البشر من بذور حبه ما شاء، فتنبتُ هذه في قلوبهم حباً قوياً، يعصف بهم حيناً، ويملؤهم اطمئناناً حيناً آخر. وإذ عاد تموز إلى عشتاروت، أحست هذه بأنفاسه تعطر الجو، فاستقبلته وفي قلبها أغنية وفي نفسها سرور.

«وطوَّف مرة بالآفاق، كعادته، وعاد، لكنه لم يكد يطلُّ على الوادي، حيث تقيم حبيبته، حتى استشعر في وجهها وجلاً، وفي نفسها اضطراباً. فأقبل عليها يسائلها، فحدثته أن وحشاً قوياً اعتدى على الحي، وعاثَ في الوادي فساداً، وأنه طاردها مرة، وكاد أن ينال منها، لولا أن عصمتها الأشجار منه. فطار صواب تموز، وتقلّد سلاحه، وأخذ يطوف في الوادي صاخباً منذراً، حتى وجد الوحش، وقد أسند ظهره إلى صخرة قوية، وتدرع للقتال. واقترب منه تموز، ونشبت بين الاثنين معركة صال فيها كلٌّ وجال، ونال من صاحبه، ما شاء له القدر أن ينال. وثار ثائر الوحش، فنبت له قرنان من شدة غضبه، فضرب تموز بأحدهما، فبقر بطنه، وخلّاه صريعاً، يتضرج بدمه، وفرّ هو كمن اصيب بالصرع، ولم يقف له أحد على أثر. وبلغت أنات تموز مسامع عشتاروت، فأقبلت على الحبيب تضمّد جراحه، وحملته إلى الماء تغسلها به، لكن الدم، الذي نزف، كان كثيراً، فلم يقو تموز على مغالبة الموت الذي حمل إليه. وندبت عشتاروت حبيبها، وسمعت النساء بما أصابها، فحزنّ

على تموز، وشاركنها أساها، وندبنه معها وأقمن يوماً لإحياء ذكراه. وسالت دماء تموز في النهر، فصبغته، ولا يزال الماء، إلى يوم الناس هذا، تجري فيه بقية من دمائه.

«وأنت يا صاح، إن سرت مع هذه المياه، التي تنبع من هذا المكان، ساعة وبعض الساعة، وصلت إلى أنقاض هيكل أدونيس، حيث كان القوم يحيون ذكرى الصراع بين الخير والشر، بين الحياة والموت، بين المودة والهلاك» (وصمت الصوت).

وانتهى بنا التطواف، ذلك اليوم، في العاقورة، فقضينا فيها ليلة ماتعة حقاً، وسرنا مع شروق الشمس في اليوم التالي، فمررنا بعرب اللقلوق، وأقسمت نوخة بنت حسين الآمنة أن لا نبارح طنبها قبل أن نأكل: نذوق العيش والملح.

وتنقلنا من مكان إلى آخر حتى مررنا بوادي الدوير، وكان القوم يحصدون، والشمس تلفح وجوههم. وقد انتهى أحدهم من عمله، مبكراً، فانتبذ من دون الناس مكاناً قصياً، وأوى إلى ظل شجرة تقيه حرّ الشمس اللافح، وكأن الجو أطربه فأخذ يغني:

لأطلع لراس الجبل — واشرف على الوادي
وأقول يا أهل الجبل — نسّم هوا بلادي
أيمتى يسيل النهر — تيجرّ الوادي
لحط صدري جسر — لتعبر البنيّة

وردّد الوادي غناءه، وحمله إلى آذان البنيّة.

وتسلقنا جبل بريصات، وأشرفنا على وادي قاديشا الذي يرتكز رأسه عند أقدام الأرز الخالد. شعرنا بنسيم المساء يحمل إلينا عبيراً كان جديداً علينا.

(٤) من الأرز إلى طرابلس

أطللنا على الأرز من فوق الجبل الذي يحتضن حصرون وبزعون، إلى الجنوب منهما. كانت ساعة الغروب تقترب، لكن الضباب كان يكسو المنطقة بحيث أن الذي تراءى لنا، حيث تقوم غابة الأرز، بدا كأنه مجموعة من الأشجار متداخل بعضها مع بعض؛ كادت تبدو دكناء بسبب انحجاب أشعة الشمس عنها وراء الضباب. لكن، مع ذلك، تركت المنطقة، لما أطللت عليها، في نفسي نوعاً من الرهبة ممزوجاً بالشمم والحنوّ. غريب مثل هذا الشعور. هل كان، يا ترى، نتيجة قراءة بعض ما كتبه جبران وغيره من أدباء لبنان عن الأرز؟ أم هل كان هذا ردَّ فعل لما توقعته؟ كنت أحسب أنني سأرى غابة من الأرز تغطي الجبل والمنطقة. فرأيت حُفنة من الأشجار. فهل أقنعتني هذه الأشجار، وبدون مقدمة، أنها قوية متينة عنيفة، ولذلك، تمكنت من التغلب على عناصر الإتلاف وصمدت؟

وكان علينا أن ننتقل من حصرون إلى بشري، لنقضي الليلة هناك. وفي هذه الدورة من الطريق، أدركتُ تماماً، أن وادي قاديشا يرتكز رأسه عند أقدام الأرز. وقد علا الأرز إلى السماء طمعاً في عطفها، فانحنت عليه تقبله، وانهمرت دموع الفرح من عينيها، فأشفق الأرز وجبله على هذه الدموع أن تهدر فجمعها حبةً حبة وأودعها قلبه، فلما ضاق صدره عنها، انبثقت ينبوع ماء صافٍ مقدس، كان له في يوم من الأيام إلّهه، الذي زال مع غيره من الآلهة القديمة، واستبدله الناسُ اليوم بآلات تولّد الكهرباء.

كنا استفسرنا فيما إذا كان من الممكن قضاء ليلة أو ليلتين في الأرز، فقيل لنا إن الناس لم يبنوا بعد الفنادق في الأرز. على كل فنحن في بشري، بلدة جبران خليل جبران، صاحب الكتب التي استمتعنا بها، مثل: العواصف، والأجنحة المتكسرة، ولما سمعتُ، في ذلك المساء، أن في بشري

سبعة وثلاثين من رجال الدين ـ ولعل هذا الرقم كان مبالغاً فيه ـ أدركت لماذا كتب جبران قصة «خليل الكافر».

وبهذه المناسبة، فإننا، أنا وعدداً من أصحابي في الناصرة، كنا عزمنا على كتابة القصة في نص مسرحي لنمثلها في الناصرة. لكننا لم نلق تشجيعاً من أحد، فصرفنا النظر عنها.

صرفنا اليوم التالي في الأرز، وفي ما حول هذه الشجرات. كم يبلغ عمرها؟ من يدري. ولكن الذي يدريه الناس، رواية وحكاية وقصة وتاريخاً، هو أن هذا الجبل الذي نحن واقفان عليه كان مغطى بالغابات من أقدم عصوره، ويبدو أن الأرزة كانت الشجرة الغالبة عليه. لكن منذ الألف الثالث قبل الميلاد أخذ السكان يقطعون هذه الأشجار: البعض قطعها ليصطلي بنارها ويطهو طعامه، والبعض الآخر قطعها ليصنع منها باباً أو شباكاً أو طبليّة. وهناك بعد الأهم، وهو قطع الأشجار للمتاجرة بالأخشاب التي كانت مطمحَ أنظار المصريين، كما كانت أخشاب جبال الأمانوس محط أنظار أهل أرض الرافدين ـ كانت هذه الأخشاب تصلح جوائز للهياكل ولأجزاء من السفن التي تمخر عباب اليم. لذلك تعرت الجبال، ولم يبق في المنطقة بأجمعها، سوى هذه المجموعة الصغيرة نسبياً.

عرفت يومها لأول مرة أن سكان المنطقة يسمون أرزهم «أرز الرب». ولكن لماذا؟ الجواب الذي جاءني كان أن التجلّي حدث هنا، والمسيحيون يحتفلون بعيد التجلّي في اليوم السادس من آب/ أغسطس من كل عام.

إلّا أن الأمر الذي أعرفه أنا هو أن التجلّي تمّ على جبل طابور في شمال فلسطين. وأن الاحتفال يتمّ هناك. فكيف نُقل الاحتفال بعيد التجلّي إلى أرز الرب؟

كان الاسم الساميُّ القديم الأكثر شيوعاً على ألسنة الناس للإلـه هو «بَعْل» ومعناه الرب أو السيد، ويليه اسم آخر هو «إيل». وقد توزع هذان الاسمان فيما بينهما الكثير من أسماء المدن والقرى مثل بعلبك وبعل شمي (بعلشمي) وبيت ايل. على أن الأماكن المرتفعة، التي كانت تعتبر في نظر القوم الأوائل أماكن عبادة، اعتبرت تابعة لهذا الإله أو ذاك ولو لم تكن حولها قرية أو بلدة. فكان الأرز هذا يقال له «أرز بعل».

ويبدو أن السكان كانوا يقيمون احتفالاً خاصًا بالمنطقة. وبهذه المناسبة فإن أيّ احتفال في الأرز يرجَّح أن يرتَّب في الصيف. ولما اعتنق سكان المنطقة المسيحية، لم يتخلوا عن الاحتفالات المرتبطة بالأرز، وسموا أرزهم أرز الرب، ولكنهم، ربطوها بالأشياء المسيحية، ووقع اختيارهم على عيد التجلّي لأنه عيد صيفي. والذي نعرفه هو أن الاحتفال بعيد التجلي في أرز الرب يعود إلى القرن الثالث عشر. وقد تكون ثمة أخبار من فترات أقدم لكننا لم نعثر عليها بعد.

لم يُتح لنا يومها أن نصل إلى ظهر القضيب (أو القرنة السوداء) أعلى قمة في لبنان. هذه الزيارة، بالنسبة لي، انتظرت عشر سنوات حتى حققتُها في سنة ١٩٣٥. لما زرنا الأرز سنة ١٩٢٥ كان فندق الأرز يبنى، ولما ذهبت بعد عشر سنوات كان ثمة إلى جانبه فندق «مون ربو»، الذي يشرف على وادي قاديشا إلى مسافة بعيدة. وفي هذا الفندق أقمت بضعة أيام في زيارتي الثانية.

وانحدرنا، طبعاً على الأقدام، نحو طرابلس. وكانت أول مدينة مررنا بها إهدن، التي تتَّكىء على وادي قاديشا. واسم هذه البلدة قديم منذ أن كانت قرية صغيرة، والكلمة آرامية الأصل ومعناها المكان المنيع القوي الهادىء. واسمها، وأنا أتحدث عن سنة ١٩٢٥، ينطبق عليها تماماً. وكان سيرنا مع طريق العربات غالباً، إلا أننا كنا نُقودِمُ، أحياناً اختصاراً للوقت. وأخيراً أشرفنا على طرابلس.

كان هذا الإشراف الأول من مرتفع يمكّنك أن ترى وحدتين من التجمعات السكانية، بين الواحدة والأخرى قرابة الكيلومترين من المسافة. هاتان يتحدث عنهما البعيدون عن طرابلس بهذا الاسم فقط. أما محلياً فالأولى تقع الى الشرق وعلى جزء من تل وفيها القلعة، وهي طرابلس. أما الجزء القريب من البحر فهو الميناء. والميناء هي التي انطمرت تحت أنقاضها وفي جنباتها المدينة الفينيقية واليونانية ومدينة العصور الوسطى. ذلك أن المماليك، لما استعادوها من الصليبيين، دمّروها تماماً كي لا تقع ثانية في أيدي الأعداء الذين نقلوا مملكتهم من فلسطين إلى قبرص. ثم أدرك هؤلاء الحكام أنه لا يجوز أن تظل المنطقة بدون حصن أو قلعة للدفاع عنها، فكان أن بنوا القلعة، وهي التي شاهدناها وإن كانت فيها زيادات عثمانية. وكان من الطبيعي أن تنشأ حول القلعة مدينة جديدة.

ويدرك المرء، كما أدركت يومها، أهمية طرابلس بالنسبة للمنطقة. هي أولاً مرتكز دفاع هام عن المنطقة الساحلية هناك، باعتبارها مدخلاً إلى المناطق الواقعة شرقي طرابلس. وهي ثانياً، وهذا ما أدركته بعد يومين لما خرجنا من طرابلس نقصد تل كلخ. هذا الطريق الذي سرنا فيه هو جزء من الطريق الذي يصل بين طرابلس وحمص ويسمى، في جزئه الغربي، سهل البقيعة. وعندما يتذكر الواحد منا أن الساحل الشامي كله تقع الى شرقه سلاسل جبال صعبة المرتقى، بدءا من أمانوس في الشمال وحتى جبال القدس والخليل في الجنوب، عبوراً بجبال النصيرية ولبنان والجليل ونابلس - عندما يتذكر هذه الجبال، يدرك معنى وجود ممرٍّ جبليٍّ يصل الساحل بالداخل وأهميته. وهذه الممرات هي، من الشمال إلى الجنوب، مدخل أنطاكية إلى حلب، وممر اللاذقية إلى حماة، وسهل البقيعة الذي يربط الساحل بحمص، وطريق صيدا شرقاً إلى دمشق، ومرج ابن عامر من سهل عكا إلى شمال غور الأردن.

نعم هذه الإطلالة على طرابلس تمكّنك، كما مكّنتني، من تصوّر هذه الأمور، إذا كنت تعرف الحد الأدنى من التاريخ وعندك تصوُّر للجغرافية. ومررنا بالقلعة التي تحمل آثار ستة قرون من البناء والتخريب. ذلك أنه لما بناها المماليك واستعملوها ظلت العناية بها قائمة. لكن بعد مجيء العثمانيين، كانت تمر بها فترات إهمال، فيسطو الناس على حجارتها. فإذا عاد أحد الحكام العثمانيين لاستعمالها، حال حجمها دون إصلاحها بأكملها. فيكتفي بإصلاح جزء منها، بل وقد يضيف إليها أجزاء أخرى. وبذلك يظل بعضها خرباً. ولما زرناها، لم يكن فيها سوى فريق صغير من الجنود والدرك.

ومما أدخل السرور إلى نفسي رؤية البساتين المحيطة بطرابلس. فقد كانت المناطق المأهولة صغيرة، بحيث كانت المدينة تبدو كأنها قد ألقيت وسط خميلة خضراء.

واتجهنا نحو المدينة نستجلي معالمها، وما أكثرها وأغناها. وكان أول ما بحثنا عنه مكاناً للأكل. ولم نلبث أن عثرنا على مطعم صغير لكنه مرتَّب فدخلناه. وكانت الآرمة المعلقة فوق الباب مكتوباً عليها بالعربية «المطعم الوطني»، وبالفرنسية Restaurant Français. وقد كان هذا المطعم لا يزال موجوداً في مكانه لما زرت طرابلس للمرة الثانية سنة ١٩٣٥.

وسرنا بعد الظهر في شارع عزمي، وكان أنق شوارع المدينة، ثم زرنا الميناء. وكان الخط الحديدي للترامواي الذي بني لوصل طرابلس بالميناء لا يزال مكانه. ولهذا الترامواي قصة. فقد كان من الطبيعي، بعد أن دخل الترامواي بيروت، أن يفكر فيه بالنسبة لطرابلس رغبة في وصل الميناء بالمدينة. والحركة بين القسمين كانت نشيطة بسبب النشاط التجاري الذي كانت طرابلس تتمتع به. فطرابلس، كما أشرنا قبلاً، كانت ميناء المناطق الوسطى من سوريا الداخلية. ورُتِّبت الأمور لإنشاء الترامواي، وبني الخط وجاءت عربات الترامواي، ولكن القاطرة لم تصل بسبب

الحروب المتعاقبة التي اشتبكت بها الدولة العثمانية منذ سنة ١٩١١ ـ من الحرب الايطالية وذلك لاعتداء ايطاليا على ليبيا، إلى حربي البلقان ثم لم تلبث أن تلتها الحرب العالمية الأولى. ولكن ذلك لم يفت في عضد القائمين على الأمر؛ فقد أحضروا خيولاً قوية، فاستخدمت في جر الترامواي بين المدينة والميناء.

في الصيف يكون النهار طويلاً، وهذا ما يسَّرَ لنا زيارة معالم طرابلس وقضاء ساعة أو أكثر في أحد مقاهيها نستمتع بالراحة التي أصبحت حقاً لنا، بعد السير الطويل والتي يجب أن نختزن بعضها للغد.

في يوم واحد تركنا نبع قاديشا، وسرنا مع واديه، ولما وصلنا الى طرابلس، اكتشفت أن اسم هذا النهر هنا هو أبو علي.

(٥) أربعون سنة ويزيد

في سنة ١٩٤٩ التحقت بهيئة التدريس في الجامعة الاميركية ببيروت (دائرة التاريخ) وظللت فيها إلى سنة ١٩٧٣ اذ استُغنيَ عني بسبب بلوغي السن القانونية؛ ولكن بيروت لم تستغنِ عني ولم أستغن أنا عنها، ولا لأي سبب!

وأود أن أقول إن الذي لم يعش في بيروت مدة تكفي للاستمتاع بالمدينة والتأسّف لما أصابها فيما بعد، لا يمكنه أن يدرك عمق المحبة التي أشعر بها نحو هذه المدينة. بيروت أعجوبة في دنيا العرب؛ كما أن لبنان واللبنانيين أعجوبة أيضاً. ولن أحاول تفسير هذه الظاهرة الآن، ولن أحاول وصفها بلة وصفَ الشعور الذي أحسّ به بسبب إيماني باجتماع عناصر الأعجوبة هنا. ولأكتف الساعة بتقرير الموقف؛ وأنا أعرف أن عيوناً كثيرة ستحمّر وأخرى ستزور عندما يمر بها هذا القول؛ ولكنني، وإن كان لا يبدو علي في كلامي وتصرفي أنني أحتضن في أعماقي نفساً ثائرة وعقلاً متحفزاً وقلباً خفاقاً، فإنني أعرف أنني أؤمن بأمور معينة، وأعلن عنها دون ضجة وصخب، وأدافع عنها دون إعلان، وأقف عندها دون أن أحيد عن الخط الذي اخترته لنفسي.

لذلك، فأنا أقول إن بيروت ولبنان واللبنانيين أعجوبة، وإنني أحبّ بيروت لمئة سبب وسبب، وإن كنت لا أستطيع أن أعدّ أكثر من عشرة أسباب.

وعندي أن الحب ـ حب شخص أو مكانٍ أو شيءٍ ـ قد يأتي من أول نظرة؛ لكنه ان لم يتح له عنصر المعرفة الحقيقية (بمن تحب وما تحِبُّ) فإنه يتلف بعد مدة: فهو قد يتخثّر ويحمّض فيؤذي؛ وقد يجمد وعندها يفقد عنصراً أساسيًّا من وجوده؛ وقد ترتفع فيه درجة الحرارة، تعويضاً عن المعرفة الحقيقية المفقودة، فيحرق؛ وقد يصل المتحابّان إلى وضع ليس فيه تخثّر ولا جمود ولا ارتفاع في درجة الحرارة، لكنه وضع يتلخص في موقف العناد. ومثل هذا الموقف يجهد ويضني وتكون النتيجة الفناء ـ لا فناء المحب في محبوبه على طريقة الصوفية، بل الفناء الناتج عن جهد الخصومة والتشبث بالموقف ـ صحيحاً كان الموقف أم خطأ ـ والاعياء ثم الارتماء.

وحبي لبيروت الذي بدأ لما قرأت، قبل سنوات كثيرة طويلة قول الامبراطور ولهلم (وليام) الأول قيصر ألمانيا: «إن بيروت درة في تاج آل عثمان»، والذي قوي اذ لمح بيروت لأول مرة خلال ثلاثة أيام مع درويش المقدادي (١٩٢٥)، ونما وترعرع وقوي (لا في زيارتين بعد ذلك ولكن) لما جئت إلى بيروت مستجيراً فأجارتني كما أجارت غيري. وهذا الحب قوي تدريجاً عبر أربعين سنة ونيف، لأنني جربت أن أعرف بيروت الحقيقية وبيروت المظاهر.

وبيروت المظاهر أيسر على المرء أن يتعرف عليها عندما يقيم مثل هذه المدة فيها. أنا أذكر أننا لما سكنّا في شارع جاندراك (١٩٥٠) كنا، في السنوات الأولى، نذهب صباحاً إلى أصحاب البساتين

من جيراننا لنشتري بعض أنواع الخضار والبقول «من الحقلة». لكنني رافقت اختفاء هذه البساتين تدريجاً في الخمسينات ثم بالجملة وبسرعة في الستينات. ولم تختف «الحقلة» من حيّنا فحسب، بل اختفت من جهات كثيرة. وفي أكثر الحالات قام مكانها مبان ضخمة.

وأنا أذكر أن قراراً رسمياً صدر بأن لا تقام أية أبنية بعد الطريق (الكورنيش) لجهة البحر، كي يظل الشاطىء طبيعيًّا جميلاً ومكان فسحة للعين والجسم. لكن نفوذ شخص لدى بعض الحكام سمح له أن ينشىء مقهى تحت الطريق. فكرّت السبحة، وأفسد الشاطىء في بيروت (وفي كل لبنان تقريباً).

أذكر أنني في سنتي ١٩٤٩ و ١٩٥٠ كنت أذهب إلى باب ادريس كي أتمكن من شراء قطعة من اللحم للروستو أو للبفتك، ولكن لم يمر علينا سوى وقت قصير حتى فتح تقلا وشريكاه (شارع الحمراء) سوبر ماركت من نوع ممتاز، وكانت أصناف اللحوم تباع فيه على ما يشتهي الزبون - والتقطيع كان بلديًّا وافرنجياً.

أذكر المظاهرات التي كان الطلاب يقومون بها في الخمسينات، يوم كانت هذه تنطلق من نواحي الجامعة الاميركية، حيث كان الطلاب من المدارس المختلفة يتجمعون هناك في وقت مبكر، ثم يبدأون في الاتجاه المعين لهم. ومن المظاهرات المبكّرة هذه تلك التي انطلقت سنة ١٩٥٣ احتجاجاً على عزل محمد بن يوسف سلطان المغرب عن العرش على أيدي الفرنسيين. ولكنني أذكر أنه بعد انشاء الجامعة اللبنانية أصبح هناك مركزان لانطلاق التظاهرات؛ وجاءت جامعة بيروت العربية كي تعطي المتظاهرين مركزاً ثالثاً للانطلاق.

أذكر بيروت في الستينات مثلاً وقد أحصيت عدد المناسبات الثقافية التي كان يعرفها رأس بيروت فكانت ثلاثاً ونصف المناسبة في اليوم الواحد بين محاضرات وندوات ومعارض فنية وأمسيات موسيقية وتمثيليات. فقد كانت الجامعة الاميركية وكلية بيروت للبنات (كلية بيروت الجامعية اليوم) والمجلس الثقافي البريطاني ومعهد غوته الألماني والمركزان الثقافيان الايطالي والاسباني والملحقية الثقافية في السفارة السوفيتية، تعمل جاهدة لدعم الثقافة والفن والأدب بشكلٍ من الأشكال. كان الراغب في نواحي التثقف، على اختلافها، يجد ضالّته في رأس بيروت.

وكلنا - ممن عرف بيروت ظاهراً - يذكر مقاهي الحمراء والرّوشة ومطعم فيصل ومقهى انكل سام مقابل الجامعة الاميركية، ويذكر ان هذه لم تكن مجرد مقاه يجلس الواحد فيها يحتسي فنجاناً من القهوة أو الشاي أو كوباً من البيرة فحسب، بل كان بعضها، إن لم تكن كلها، شبه أندية أدبية أو فنية تتحلق فيها «العصافير ذات الريش المتشابه» حول موائد صغيرة يتحدثون - أو يزقزقون - عن شؤون الأدب والسياسة والفن. وكم أوحت هذه الجلسات - مثل جلسات الهورس شو والدولتشي فيتا - إلى أحدهم بقصيدة قد ينظمها فتفيد، أو يعطسها فتذهب هباءً منثوراً، إلا إذا كان مصاباً بالزكام فقد يصيب سواه بأذى.

وتدفق المال على لبنان من الخليج في الدرجة الأولى: أولاً لأن الكثيرين من اللبنانيين أفادوا من مجالات الأعمال المالية والتجارية التي هي واحدة من مهن الساحل اللبناني بشكل خاص. وثانياً لأن الكثيرين ممن كانوا يعملون في الخليج، ومن الفلسطينيين خاصة، كانوا يقضون بعض عطلهم في لبنان. وثالثاً لأن أهل الخليج أنفسهم أعجبهم لبنان فقصدوه متنزّهين ومستروحين ومصطافين. وكم بنى هؤلاء من البيوت الفخمة - التي يصر الناس على تسميتها بالقصور - في جبال لبنان الأوسط!

وهرع الكتّاب العرب، من أهل البلد وغيره، إلى بيروت لنشر كتبهم، وذلك لأسباب كثيرة،

فأصبحت بيروت مدينة النشر الأولى في دنيا العرب. قد لا يكون هذا صحيحاً بمعنى الكمية، ولكنه كان صحيحاً من حيث فنّ إخراج الكتاب.

كان هذا كله يسير إلى الأمام، وكان يسير بخطى حثيثة، إلى أن جاءت سنة ١٩٧٥، وبدأت بيروت أولاً، ولبنان بعدها، «مسيرة العذاب الطويلة» (لا نزال فيها الآن وأنا أكتب سنة ١٩٩٠). وقد لقيت، كما لقي غيري، الكثير من النصب والخوف والتعب والنزول إلى الملاجىء وانقطاع الماء والكهرباء وحتى الخبز. ولعل ما أصابني أقل بكثير جداً مما أصاب غيري. على كلٍّ ـ وقد كان بامكاني أن أترك بيروت ـ بقيت فيها.

بقيت فيها لأنني أحبّها، ولأنني أشعر أن بيروت تحبني. لقد عرفت عن بيروت الكثير مما لم يتح لغيري لأنه لم يُعنَ به، وأحسب أن بيروت عرفت عني الكثير بسبب موقفي أنا منها. ومن هنا جاء هذا الحب. والحب لبيروت لم يكن أقل من حبي للبنان.

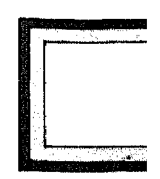
وهنا أقول أيضاً إنني أحب لبنان لأنني أعرفه ـ أعرفه جبالاً وهضاباً وسهولاً وآثاراً وثقافة وشعباً وشعبيًّا. هذه المعرفة الحقيقية لهذا البلد وعاصمته هي أساس حبي.

وهذا الكتاب الذي أضعه اليوم بين يدي القارىء انما هو عربون لهذه المحبة ولهذه الصداقة.

نقولا زياده
بيروت ـ خريف ١٩٩٠

القسم الأوّل

هؤلاءِ أرّخوا للبْنان



١

مقدمة

لبنان، هذا البلد الأمين، يتذكر ماضيه، ويفكر بحاضره، ويحلم بمستقبله. لبنان ذو التاريخ الطويل، من كتب تاريخه؟ وكيف كُتب تاريخه؟ أين نبحث عن هذه الحضارة القديمة فيه؟ وأين نفتش عن أعمال أبنائه؟ وأين ننقب عن آثارهم؟

تلك أسئلة تجول في ذهن كل من يحاول أن يفكر بهذا التاريخ اللبناني الطويل. إنه تاريخ موغل في القدم. فهذه رقعة من العالم استيقظت على النقرات الأولى للضمير الانساني، وكانت إحدى قبلتين تطلّع نحوهما العالم في مطلع حياته، في شواطىء البحر المتوسط الشرقية. فأين نتعرف إلى هذا التاريخ؟ أين نجد أولئك الذين دوّنوا هذا كله؟

ونحن عندما نقلب وجوهنا، محاولين أن نجد شيئاً نقف عنده، لنرى أولئك الذين دوّنوا الصفحات الأولى من هذه القصة الجميلة الأنيقة المشرقة الصفحات، فقد تصدمنا مرارة الخيبة. ذلك أن البعض من دارسي التاريخ، لا يرون التاريخ إلا في وثيقة أكيدة، أو نص صحيح السّند. وأنّى لنا الوثيقة الأكيدة والنص الصحيح السند لزمن يرجع إلى ثلاثة أو أربعة أو خمسة آلاف من السنين؟

على أننا لسنا من الذين يتقيدون إلى هذا الحد بالوثيقة والنص، متى كان الزمن بعيداً عنا إلى هذا الحد. وإنما نحاول أن نجد ضالتنا في كل مكان وفي كل زاوية. وسرعان ما تنجدنا الأمور.

ونحن واجدون أن أول مؤرخ للبنان هو ذلك الذي وضع أول أسطورة عنه. وأحسب أن البحث العلمي لن يكشف في يوم من الأيام عن شخصية واضعي الأساطير. فأولئك أشخاص حجبهم عنا الزمن، ولكن الزمن لم يحجب عنا آثارهم. ومن ثم كان لنا هذا الفيض الكبير من الأساطير التي تلقي أشعة من النور، بعضها باهت، ولكن أكثرها قوي بحيث ينير لنا من الزوايا الكثير، ويطرد الظلام المخيم عليها.

ولسنا هنا في مقام تعداد هذه الأساطير أو تحليلها، فذلك أمر لا يتسع له المقام، ولكن لا بد لنا من تذكير القارىء الكريم ببعض هذه الأساطير ليرى ما ذهبنا إليه من أن واضع الأسطورة هو المؤرخ الأول للبنان. فمن هذه الأساطير أسطورة تموز. وقد تكون هذه القصة، بما فيها من حب وبطولة، وبسبب حدوثها في وادي نهر ابراهيم، تسلية ومتعة لمن يريد أن يمتع نفسه، ولكن فيها غير ذلك تفسير لكثير مما كان يفكر به هؤلاء الذين سكنوا هذه البلاد في تلك الأزمنة البعيدة. وإلا فما معنى هذا الاحتفال ببطل القصة تموز أو أدونيس! وما هي دلالة إحياء هذه الذكرى لو لم يكن المقصود منها الإحتفاء بمولد الطبيعة والحياة في أوائل الربيع؟ وما معنى خروج الناس زرافات ووحدانا إلى الوادي لو لم يكن الناس يعتقدون بالخصب وما إليه؟

ونحن نسمع بأسطورة أخرى اسمها قدموس. وما هي هذه القصة؟ إنها قصة رجل مهيب، نقل

الخير من شواطىء لبنان إلى الجيران. وأي خير؟ حروف الهجاء. وهكذا ترى أنه حتى قبل أن يقول التاريخ وعلم الآثار الكلمة الفاصلة أو شبه الفاصلة في الموضوع، كان واضع الأسطورة قد أرّخ لهذه المسألة.

ولسنا نستطيع أن نسير في هذا السبيل إلى أبعد من هذا الحد. فالأسطورة التي تدور حول لبنان شاطئاً وجبلاً وسهلاً، منوعة إلى حد كبير، متعددة إلى درجة بعيدة. ونحن انما قصدنا الاشارة لا أكثر. فإذا تركنا الأسطورة جانباً، وأخذنا القصة التي روت الحادث كما هو، دون أن يدخل فيه العنصر الإلّهي والخيال غير المحدود، لوجدنا عشرات من هذه القصص تساعدنا على فهم التاريخ اللبناني. واذن، فالقاص هو، بعد واضع الأسطورة، الذي يستأثر باهتمامنا الآن. وكما أنّا لم نُطِلْ في الاسطورة، فإننا لن نطيل في القصة. وسنكتفي بواحدة تشير إلى ما نرمي اليه. تلك هي قصة وينامون، وهو مصري جاء إلى هذه البلاد، في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ليبتاع خشباً. وقبل أن يصل لبنان طلع عليه اللصوص البحريون، وسلبوه أمواله. ولكن وينامون وصل إلى لبنان، وأخذ الخشب الذي كان بحاجة إليه، على أن يبعث بالثمن فيما بعد. هذه القصة بأقل ما يمكن من الكلمات. فما الذي نستطيع أن نستنتجه من هذه القصة؟ أما أولاً فهو أن مصر كانت تبتاع أخشابها من لبنان وثانياً ان الطريق لم يكن دائماً آمناً. ولكن الأهم من هذا كله هو أن نذكر أن التاجر المصري حصل على حاجته من الخشب على أن يبعث بالثمن فيما بعد. ومعنى هذا هو أن العلاقة التجارية كانت متينة بين البلدين حتى يقبل مثل هذا النوع من الدفع.

فإذا انتهينا من هذه الاشارة العابرة إلى واضع الأسطورة والقاص على انهما ممن أرّخوا للبنان في أطواره الأولى. فنحن واجدون أن المؤرّخ الذي يتطلب الوثيقة الأكيدة والنص الصحيح السند، واجد ضالته في هذه النقوش الكثيرة التي خلّفها لنا أولئك الذين صنعوا التاريخ اللبناني. ومع أننا حتى في هذه الحالة قلما نعرف من هو الذي وضع هذه النصوص، إلا أننا نعرف هذه النصوص أو النقوش، ونستطيع أن نقرأها ونعرف منها الكثير.

هذه النقوش موزعة، بعضها وجد في لبنان، ولكنه الآن خارجه. وبعضها عثر عليه خارج لبنان، ولكن دلالته وأهميته لتاريخ هذه البلاد، لا تخفى على أحد. وهذه النقوش مبعثرة، لأنها وجدت على حجارة القلاع القديمة، وعلى النواويس التي عثر عليها هنا وهناك، وعلى عتبات الهياكل. وهي، فوق هذا وذاك، قد وجدت مجموعة مع بعض بحيث تمكن الباحثون من درسها، ولو على عجل، وأخذوا يرون امكان تغير النظر في تاريخ الشرق القديم كله على أساسها. ولعل ابعد هذه المجموعات خطراً فيما يتعلق بتاريخ شرقي البحر المتوسط، وتاريخه الفكري خاصة، هي تلك التي كشفت عنها حفريات رأس شمرا أو أوغاريت. لقد أظهرت حرفاً هجائياً أقدم مما كان قد عرف بما يقرب من القرن، وبينت أن وسائل الكتابة وأشكالها، اختلفت عما كان معروفاً. لكن الضجة التي أحدثتها هذه الاكتشافات لم تقتصر على الكتابة والوسائل، ولكنها تعدتها الى المحتويات. فقد تبين، وان كان الأمر لا يزال موضع جدل، أن بعض ما كان يعتبر أدباً لقوم في الجنوب، إنما هو أدب له أصوله في هذه الرقعة. وهذه قضية تهم العالم والمؤرّخ بقدر ما تهم المؤمن والمتعبد.

ونحن عندما نتحدث عن النقوش فانما نضع إصبعنا على أصل مادي لمعرفتنا لتاريخ لبنان، لكننا نكون في أول الطريق. فالأثر المادي الذي يمكن أن يعيننا في تفهم هذه الناحية كثير الانتشار. فانت قلما تنتقل من بقعة إلى بقعة في لبنان دون أن تجد بقية هيكل أو قلعة أو قصر أو دير تحدثك حديثاً مستفيضاً عن الذي مر على هذه البلاد من انشاء وعمران وتهديم وتخريب واعادة بناء وتطور في الشعور والعبادة والتوجه واستعباد أو محاولة الاستعباد ثم الثورة والاستقلال. كل هذه النواحي وجميع هذه الصفحات مكتوبة كتابة نافرة على أرض لبنان في هذا الذي تبقى من أبنية منوعة منتشرة مهدمة أو محافظ عليها.

وإذا أنت خرجت من لبنان وجدت من الآثار ما يدل على ما عمله لبنان في قديمه. وقد لا تجد الكثير من ذلك عند الجيران الأقرباء، ولو أنه موجود حتماً، ولكنك واجد منه الأكثر جداً عند القوم البعيدين قليلاً. ففي ليبيا وتونس آثار بناء وعمران أقامهما أبناء صيدا وصور قبل نحو من ثلاثة آلاف سنة. نعم على مقربة من مدينة تونس الحالية تقوم آثار مدينة كبيرة هي قرطاجة التي أنشأها لبنانيون تركوا بلادهم وضربوا في الآفاق حتى استقروا هناك. وقد تهدمت قرطاجة على أيدي الرومان، لما فتحوها في القرن الثاني قبل الميلاد، لكن الزائر لآثارها اليوم، بعد كل هذا الزمن، يستطيع أن يتصور أي مدينة كانت، وأي عظمة احتوتها تلك المدينة. وأنت تقف على أطلالها، وتزور المتحف الخاص المقام حيث كانت تقوم قصور المدينة، فتشعر أنك تقرأ صفحة ناصعة جلية من تاريخ لبنان، في البناء والفن والصناعة والتجارة.

هؤلاء هم الفريق الأول الذي أرخ للبنان: واضع الأسطورة، والقاص، وحافر النقش، والبنّاء. هم الجماعة الأولى من مؤرخي لبنان، تحدثنا عنهم راجين أن نتحدث عن بقية الجماعة التي كتبت تاريخ لبنان.

٢ من هيرودتس الى سترابو

في أوائل القرن الخامس ق.م. تعرضت بلاد اليونان لمحنة قوية، كادت أن تطيح بها، لولا أن قُيِّض لها من القادة والحكماء من أنقذها. أما المحنة فهي هجوم الامبراطورية الفارسية بخيلها ورجلها، على المدن اليونانية. وقد كانت أحداث الحرب سجالاً بين الفريقين، حتى تم لليونان الانتصار، وإخراج الفرس من بلادهم. وكان من أثر هذا الفوز أن أينعت الحياة الأدبية والفنية، بحيث كثر الشعراء الذين اتخذوا من هذه اليقظة موضوعات أغانيهم. وممن أنجبت هذه الفترة اليقظة في التاريخ اليوناني المؤرخ اليوناني الكبير هيرودتس، الذي أرّخ لهذه الحروب.

عكف هيرودتس على التأريخ لهذه الحروب الفارسية اليونانية، وأراد أن يبين أصولها وسيرها ونتائجها، ومن ثم فقد رأى أن يعرض للقوى التي اشتركت في الحروب، بحيث يبين كل ما ساعدها أو أعاقها. لذلك أخذ الامبراطورية الفارسية فدرس تاريخ قيام الدولة، وعرض لحياتها الدينية، وبيّن فتوحها واستيلاءها على البلاد التي حكمتها، ثم أخذ نظامها الإداري بالتفصيل الكامل، مبيّناً مراكز الادارة معطياً ما كانت تقدمه كل ولاية من ولايات الامبراطورية.

ولما كان لبنان، في أثناء الحروب، خاضعاً للفرس بعد أن فتحوه في أيام دارا الكبير، فقد ناله من عناية المؤرخ قسطاً كبيراً، من حيث جغرافيته وتطوره السياسي وادارته ونظمه في تلك الفترة، أي في القرن الخامس ق.م.

كانت الامبراطورية الفارسية قد قُسِّمت في أوائل هذا القرن إلى ولايات تدعى واحدتها استرابيّة، ويدير شؤون كل منها مرزبان. وقد كان لبنان يقع في إطار استرابية واحدة، هي الولاية الثالثة، وكانت تدفع هذه الولاية ٣٧٠ وزنة من الفضة. والوزنة الواحدة تساوي في عملة هذه الأيام نحو مئتي جنيه استرليني، ومعنى ذلك، أن الولاية الثالثة كانت تدفع نحو ثلاثة أرباع المليون من الليرات اللبنانية، يدفع لبنان جزءاً منها فقط. على أنه من الضروري أن نتذكر أن قيمة النقد الشرائية في ذلك الوقت كانت نحو عشرين ضعفاً من قيمته الشرائية اليوم (كتب هذا سنة ١٩٥٥).

وهيرودتس حريص على أن يعطي وصفاً وافياً للشعوب التي يذكرها. فهو عندما يمر بالفينيقيين يقول عنهم:

«والفينيقيون أدخلوا في إغريقيا مدة اقامتهم في تلك البلاد عدة معارف ومن جملتها الحروف التي كانت في رايي مجهولة سابقاً في تلك البلاد. استعملوها أولاً على طريقة الفينيقيين، لكن مع مضي الزمن تغيرت تلك الحروف بتغير اللغة، وصارت ذات صور جديدة. وكان اليونان حينئذ أهلّ البلاد المجاورة فاتخذوا تلك الحروف كما علمهم اياها الفينيقيون لكن غيروا فيها بعض التغيير. وكانوا يعترفون عن طيب خاطر، وكما يقتضي العدل، فسمّوها بالحروف الفينيقية لأن الفينيقيين أدخلوها في اغريقيا».

وعندما يفصّل المؤرخ اليوناني أنباء حملة أزركسيس أو احشويرش على بلاد اليونان، وهي الحملة التي انتهت بانتصار الفرس أولاً، يعدد الفرق المختلفة التي ساهمت في الحملة. فيقول عن الفينيقيين مثلاً إنهم أثناء العمل على تحضير الأسطول العام لمهاجمة بلاد اليونان، كانوا يربطون المراكب بحبال من الكتّان. وأخيراً لما أن الوقت لربط المراكب في سبيل اقامة الجسر كان للفينيقيين يد كبرى في نجاح العمل. لكن العمل الرئيسي للوحدات الفينيقية في الأسطول الفارسي جاء في معركة سلاميس، التي انتهت بانتصار اليونان. ذلك أن التنظيم جاء من الفينيقيين، لكن بقية الوحدات هي التي اختلّ نظامها، فاضطربت، وأدى ذلك إلى هزيمة الاسطول بكامله.

ولا يكتفي هيرودتس بالحديث عن الفينيقيين في بلادهم، وانما يتعدى ذلك الى ذكر القرطاجيين، الذين كان معجباً بهم، فيحدثنا عن الجماعة الصورية التي أنشأت قرطاجة، والنجاح الذي أحرزته في تلك الجهات، والمدنية التي انتشرت في المنطقة كلها. وكان هيرودتس يحب الكثير من الأمور الغريبة، فأكثر من رواية الأساطير والقصص التي تعبر تعبيراً صادقاً عن كثير من آراء القوم وعقائدهم.

وكان الحدث الآخر المهم في تاريخ لبنان، بعد الامبراطورية الفارسية، هو مجيء الاسكندر الكبير إلى هذه البلاد. القراء الكرام يعرفون أن صور قاومت الاسكندر مقاومة عنيفة. ومؤرخ الاسكندر هو أرْيان. وأرْيان يتحدث عن صمود صور أمام القائد الكبير، وعن محاولته اقتحامها. ثم يروي خبر طمر الجزء البحري بين البرّ والمدينة، وعمل البحر في ازاحة الرمال والتراب، حتى انتهى الأمر بالقائد إلى فتح صور، ومعاقبتها على نحو ما عاقب غزة فيما بعد، ذلك أنه باع الكثير من أهل هاتين المدينتين في سوق الرقيق.

وفي النصف الأول، من القرن الأول، قبل الميلاد، احتل الرومان هذه البلاد، وكان ذلك على يد بومبي سنة ٦٣ ق.م. ولم يستتب الأمر لهم إلا بعد مدة. وقامت على الحكم الروماني ثورات كثيرة خصوصاً في نهاية القرن الأول بعد الميلاد. ومع أن هذه الثورات كانت تقوم في فلسطين، فقد وصلت آثار بعضها إلى جنوب لبنان، وهنا يتوجّب علينا أن نرجع إلى يوسيفوس لنستقي منه أخبار هذه الحوادث في هذا الجزء من لبنان. ولا شك أنّ التفاصيل التي نحصل عليها قليلة، لكن مما لا شك فيه أيضاً أن قراءة هذه الصفحات تطلعنا على نواحٍ من التاريخ الاجتماعي للمنطقة، من حيث شيوع اللغة الفينيقية في الأجزاء الساحلية، وبقية من الآرامية في الأجزاء الداخلية.

وفي القرن الثاني، بعد الميلاد، ظهر في روما كتاب كان له قيمة كبيرة في حفظ أخبار الامبراطورية الرومانية الجغرافية والتاريخية والسياسية، هو كتاب سترابو المسمّى: «جغرافية». وقد حلل فيه الكاتب الحالة في الولايات، وأوضح معالم تطوّرها، وبيّن نموّ الحياة العامة فيها. ولعلنا لن نثقل على القرّاء إذا نحن نقلنا وصفاً عامًّا للبنان في ذلك الوقت عن سترابو الذي كتب باليونانية، لكنه كان رومانيَّ التبعية. ففي الفترة التي نشير إليها:

«كانت هذه البلاد مستمتعة بالأمن والحكومة المنظمة، فانتظمت فيها الحياة الاقتصادية، فأنتجت كميات كبيرة من الخمور الجيدة، التي صُدِّرت الى الهند وفارس وديار الغرب. كما وصل زيتون هذه الديار إلى الغرب أيضاً، ووصل زيتها إلى جهات كثيرة من الامبراطورية. وكانت صيدا تصدر العطور من الأنواع الفاخرة. على أن الحياكة والصّباغة ظلّتا في مقدمة الصناعات اللبنانية. فصور وصيدا وبيروت وجبيل كانت تنسج الأقمشة وتصبغها باللون الارجواني الجميل. وكان الحرير الخام يأتي من الصين، فتتناوله الأيدي الصناع بما يلزمه، ثم تصدره إلى بلاط روما وأسواق الغرب. كما كان الزجاج من مصنوعات صيدا الأولى».

«وقد ازدادت المدن، بسبب هذا الاطمئنان، الذي استمتعت به البلاد. فتم في ذلك الشيء الكثير، إذ ان المدن كانت منتظمة الشوارع، منسّقة الأبنية العامة، مليئة الأسواق. والفن الذي ظهر في ذلك الوقت يمثل شخصية مستقلة على ما يبدو في مباني بعلبك».

٣ من مؤرخي لبنان العرب

في سنة ٦٣٦ للميلاد، انتصر العرب في معركة اليرموك على جيوش بيزنطية، وبذلك بدأ احتلالهم لسوريا ولبنان. ولم تمر عليهم فترة طويلة حتى كانت البلاد تحت نفوذهم، أو تحت سلطانهم. وبدأت بذلك فترة جديدة في تاريخ هذه الديار. ولسنا نريد أن نحدد لهذه الفترة نهاية، إذ أن نتائجها لا تزال تعمل إلى الآن في تاريخ هذه البلاد وحياتها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية. ولكن ثمة ملاحظات عامة نرى من الواجب أن نذكرها في بدء هذا الحديث. وأولى هذه الملاحظات هي أن الفتح العربي لهذه الأصقاع، غيّر، على توالي الزمن، الكثير من معالمها. وأهم نواحي هذا التغيير هي تلك المتعلقة بانتشار اللغة العربية في لبنان. فقد كان لبنان، شأن غيره من البلاد الشرقية آنذاك، قد غرق في الحضارة اليونانية والهلينستية، وكان قد قدّم للحضارة مجموعة ممتازة من رجال الفكر. ولكن لغة هذه الحضارة، مثل لغة القانون والإدارة، ظلت محدودة الانتشار، إذ لم تتعدَّ المدن. وظل أهل الريف اللبناني، مثل أهل الريف السوري والفلسطيني، يستعملون لهجاتهم الخاصة بهم. ومن ثمة كانوا محرومين ثمار هذا الجهد الذهني الذي كانت تتمخض المدينة عنه. فلما جاء الفتح العربي، وجاءت معه العربية، أخذت هذه اللغة تنتشر في أصقاعه، فكان منها، على توالي الزمن، لغة موحدة في أصولها وأسلوبها، ولذلك صار الريف يشارك المدن في نتاجها الفكري، ويشترك معها في ثمراته. ولسنا ننكر أن هذا الانتشار اللغوي للعربية لم يتم كله في الفترة التي نعرض لها، ولكنّ أُسسه على الأقل تمّت فيها.

وليسمح لنا القراء الكرام بملاحظة أخرى وهي أن لبنان تمتع في أيام الأمويين بمركز خاص، بسبب ان عاصمتهم كانت في دمشق، وبسبب من اهتمامهم بالموانىء والسواحل والأسطول. ولذلك نرى المؤرخين الذين يتناولون هذه الفترة يتحدثون عن المدن اللبنانية بشيء من التفصيل. لكن ما كادت الدولة العباسية تغلبُ الأمويين على أمرهم، وتتّخذ من بغداد عاصمة لها، حتى أهملت شؤون البحر إهمالاً كبيراً، وعادت دولةً برّية. فكان من نتائج ذلك أن فقدت المدن الساحلية في لبنان قيمتها العسكرية، لكنها احتفظت بقيمتها التجارية. على أن قيام العباسيين كان له أثر آخر، ذلك أن القسم الأكبر من رجال العلم والبحث اتخذوا بغداد أو ما اليها موطناً، ولما كان الناس على دين ملوكهم، فقد ترتب على ذلك أن أهمل المؤرخون لبنان وسوريا إهمالاً شنيعاً معيباً. على أن البلاد لم تفقد من عُني بتاريخها من أبنائها.

وإذا نحن عرضنا للمؤرخين الذين تحدّثوا عن لبنان وأرخوا له في هذه القرون التي تلت الفتح العربي، وجدنا كثرة من الأسماء. لكننا نريد أن نقف عند جماعة قليلة منهم يرجع إليها الفضل في توضيح الأمور. ومن هذه الجماعة البلاذري من أهل القرن التاسع للميلاد، إذ توفي في أواخره. وهو بغدادي النشأة وكان قريباً من الخلفاء، تقرّب اليهم بشعره وكتابته. وقد كتب كثيراً، لكن الذي يهمّنا من كتبه كتاب «فتوح البلدان» الذي تناول فيه أخبار الفتوح من أيام النبي (ص) لكنّه رتبها ترتيباً جغرافياً. والكتاب غزيرُ المادة، ويعتبر حجةً من حيث توخّي الدقة والعناية بالتثبت من الوقائع. على أن الكتاب إلى ذلك كله حوى أبحاثاً عمرانيّة وسياسية واقتصادية وادارية.

ومما هو جدير بالذكر أن مؤرخاً لبنانياً حديثاً نقل الكتاب إلى اللغة الانكليزية ونشره في نيويورك سنة ١٩١٦. أما المترجم فلم يكن إلا الدكتور فيليب حتي.

وبين المؤرخين الذين عالجوا هذه القضايا العامة الطبريّ، الذي عاش في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر للميلاد. والطبري مؤرّخ ومفسر، وكان كثير الرحلة في طلب العلم، لذلك جمع المواد الكثيرة. ومع ذلك فإن أخباره عن لبنان وسوريا، خصوصاً بعد زوال الدولة الأموية، قليلة، لأنه يمثل هذه النزعة

التي كانت تطغى على المؤلفين في ذلك الوقت وهي إهمال مواطن الأمويين، وإهمال البحر وما إلى البحر.

وبين الذين كتبوا عن هذه البلاد، المقدسيّ. والمقدسي، مبدئياً، جغرافي. وهو دقيق في بحثه، حريص على الصحة في روايته، ولما كان أصله من الرملة (أو من القدس) بفلسطين، فقد كان يعرف البلاد معرفة وافية. وصوره الجغرافية مصدر غني بالمعلومات، عن الديار اللبنانية والأقطار المجاورة. كما وردت في كتابه «أحسن التقاسيم». والمقدسي من أهل القرن العاشر الميلادي. والقطعة التالية، التي يتحدث فيها عن موارد الثروة في لبنان والأقطار الشقيقة، تبيّن إلى أيّ حدّ كان الرجل دقيقاً ناصع العبارة بيِّن الأسلوب.

يقول المقدسي: والتجارات بها مفيدة:

«يرتفع من فلسطين الزيت والقطّين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفُوط. ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينوني **والدوري غايةً** والتفاح وقضم قريش الذي لا نظير له والمرايا وقدور القناديل والأبر، ومن اريحا **نيل غاية**، ومن صُغَر (زُغَر) وبيسان النيل والتمور. ومن عمان الحبوب والخرفان والعسل. ومن طبرية شقاق المطارح والكاغد وبزّ. ومن قدس ثياب المنيّرة والبلعيسيّة والحبال. ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات. ومن موآب قلوب اللوز. ومن بيسان الرز. ومن دمشق المعصور والبنعيسي ودهن بنفسج دون الصفريات والكاغد والجوز والقطين (التين المجفف) والزبيب. ومن حلب القطن والثياب والأشنان والمغرة. ومن بعلبك الملابن. ولا نظير لقطين وزيت الانفاق، وحواري وميازر الرملة، ولا لمعنقة وقضم قريش وعينوني ودوري وترياق بيت المقدس».

هؤلاء المؤرخون، الذين تحدّثنا عنهم هذا الحديث المقتضب، انما هم قلة من كثرة. واذا نحن حاولنا عرض الأسماء فقط، لكان لنا من ذلك جريدة طويلة. ولكننا لن نفعل هذا، تجنيباً للقراء الكرام أن يُزعجوا الى هذا الحد. لكننا نرى لزاماً علينا أن نشير بكلمة إلى عدد من الرحّالين، زاروا هذه البلاد، في القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد، وتركوا لنا صوراً جميلة جداً، تنبض بالحياة. وفي مقدمة هؤلاء، ناصري خسرو، الذي مر، في أواسط القرن الحادي عشر، بطرابلس وصيدا وصور فوصفها وصفاً جميلاً لطيفاً دقيقاً.



٤ من مؤرخي لبنان في فترة الحروب الصليبية

تعرّض لبنان، كما تعرضت فلسطين وأجزاء من سوريا، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، لمحنة كبيرة. فقد هاجمت هذه البلاد جيوش الصليبيين واحتلّتها، وظلّت فيها قرابة قرنين من الزمان، ويمكن تقسيم هذه الفترة إلى ثلاثة أدوار. كان الأوّل دوراً انتصر فيه المهاجمون من الغرب، وأنشأوا ملكاً قوياً، وتجارات واسعة، ومدناً حصينة، وقلاعاً ضخمة. لكن قيام الدولة النّوريّة ثم الدولة الصلاحية أدى الى انتعاش في هذه الديار، فكان ذلك الدور الثاني. ثم جاء المماليك، في أواسط القرن الثالث عشر، فتم لهم الانتصار على الصليبيين، وإخراجهم من البلاد. وهذا هو الدور الثالث.

وهذه الفترة من التاريخ اللبناني، على كثرة ما كان فيها من حروب وخصومات، كانت فترة ثراءٍ وانتعاش. ذلك أن لبنان وجيرانه، هي بلاد تقع على طريق تصل بين الشرق والغرب، وكانت الموانىء هنا، هي الأماكن التي تتبادل فيها سفن اليمّ وسفن الصحراء أحمالها.

وفضلاً عن الانتعاش التجاري والصناعي، فقد شهدت هذه الفترة انتعاشاً نسبياً في الأدب العربي. ذلك أن الخصومات والحروب استدعت شحذ الهمم، والسبيل إليه شعر ينظم، ونثر ينضّد. ومن هنا، كان هذا السيل الدافق، الذي يجد الباحث نفسه أمامه، عندما يستعرض منتوج العصر الأدبي. وقد لا يكون هذا الانتاج غنياً بالفكرة، ولكنه كان، ولا شك غنياً بالعاطفة المتأججة.

وبقدر ما كانت الفترة نابضة بالحياة، بالنسبة للمشارقة، كانت عنايتهم بتدوين أحداثها كثيرة، وكان اهتمام الغربيين بذلك كبيراً. فالحروب الصليبية، بالنسبة لهم، ليست شيئاً يحدث كثيراً. وبسبب اهتمام الجماعات المختلفة، على تباين نزعاتها، بالحروب وما جرّت معها، فقد كثر الكتّاب والمؤرخون فيها. ومن ثم، فنحن أينما اتجهنا، وجدنا عدداً كبيراً من المؤرّخين لهذه الفترة. وبقدر ما أثّرت الحروب الصليبية على الامبراطورية البيزنطية وأرمينيا، فقد شملت مصادرها مؤلفات يونانية وأرمنية. ولنضف، إلى كل هذه المؤلفات، ما خلفه الحجاج الأوروبيون، وهم كثر، من يوميّات لرحلاتهم.

لذلك، عندما جئنا لنختار جماعة من مؤرخي لبنان، نتحدث عنهم هنا، لم تزعجنا القلّة، ولكن حيّرتنا الكثرة. ولنتحدث، بادىء ذي بدء، عن مجموعة من المؤرخين العرب، كان لهم، في توضيح هذه الفترة، يدٌ طولى. وفي مقدمة هؤلاء العماد الأصبهاني، وهو مشرقيّ الأصل، لكنه قضى فترة طويلة من عمره في دمشق، فخدم نور الدين، وولي المدرسة العمادية، ثم التحق بالسلطان صلاح الدين، الذي كان يعزّه، كما كان يعزّه نور الدين قبله. والعماد صاحب عدد من الكتب، أشهرها. «الفتح القسيّ في الفتح القدسي»، أرخ فيه لفتح صلاح الدين للقدس. لكن الكتاب، الذي يمكن أن يفاد منه، في تاريخ لبنان، لهذه الفترة من مؤلفات العماد، هو «البرق الشامي»، لأنه أرّخ فيه لحروب صلاح الدين في بقية أنحاء هذه البلاد. كما أن العماد عرض في «خريدة القصر» لتراجم علماء هذه البلاد في القرن الثاني عشر للميلاد.

ومن مؤرّخي هذه الفترة الأفذاذ، في العربية، عز الدين بن الأثير، من أهل القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وكان ابن الأثير دقيقاً في عبارته، قادراً على تنسيق أخباره، محيطاً بالأمور التي كانت البلاد تجتازها. لذلك، جاء كتابه «الكامل» في التاريخ مرجعاً خصباً، لمن يريد أن يحيط بالأمور إحاطةً وافيةً. وهو يروي لنا الكثير من حوادث القتال والحروب، التي كانت تقع على، ما يصح اعتباره، الحدود اللبنانية السورية.

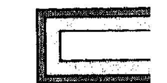
وإذا كنا نكتفي بهذين من المخيم العربي، فلأننا نريد أن نشير إلى بعض المؤرّخين الغربيّين. وعندنا من هؤلاء اثنان حريّان بأن نتحدث عنهما، وهما وليم الصوري ويعقوب أسقف عكا. ووليم الصوري

وضع كتابه عن تاريخ الصليبيين سنة ١١٨٣، وكان، إذ ذاك، يشغل منصب رئيس أساقفة صور. وقد وصف فيه لبنان وصفاً جغرافياً دقيقاً، لعلّه أول وصف صحيح كتبه مؤلف غربي. وفي الكتاب معلومات عن «الحشاشين». ولعلّ ما يلذ للبنانيّ أن يعرفه، أن وليم وصف صور وبساتينها ونظام توزيع المياه فيها. وعلى روايته، كان للمدينة خزان عظيم، يجمع المياه من غير مكان واحد، ثم تنحدر المياه منه، لا لحاجة السكان فحسب، ولكن لريّ البساتين، التي كانت تنتج كميات كبيرة من قصب السكر.

ويعقوب سيم مطراناً لعكاء سنة ١٢١٧ م، بعد أن قضى عشر سنوات في هذه البلاد. وتاريخه يحوي معلومات جغرافية أكثر مما نجد عند وليم. وقد عرض للطوائف النصرانيّة، فتحدث عنها حديث العارف بأمورها. إلّا أنه احتفل كثيراً بجمع العدد الكبير من القصص الخرافية والأساطير، ونقل كثيراً من المعتقدات المنتشرة، آنذاك، والمتعلقة بالعيون والينابيع وأنواع المياه وعلاقتها بشفاء الأمراض وإزالة العقم. ومع ذلك، فوصفه للمدن الساحلية في لبنان وسوريا وفلسطين، قلما يُجارى، من حيث دقته.

وحريٌّ بالذكر، أن هذه الفترة، أرخ لها اثنان، بالسريانية، هما ميشيل السريانيّ وأبو الفرج العبريّ، وميشيل كان بطريرك انطاكية، لليعاقبة، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وروايته عن الأحداث، التي عاصرها، ذات قيمة كبيرة، في تاريخ تلك الحقبة. وهو يتناول شمال لبنان، بكثير من الرواية المفصلة. أما أبو الفرج، فقد دوّن أخبار الفترة المتأخرة من العصر الصليبي، وسنوات المماليك الأولى.

أشرنا، من قبل، إلى كثرة الحجّاج والرحالين، في هذه الفترة، وهي كثرة تدعو إلى الحيرة، عندما يحاول الواحد أن يختار، فالأسماء تتجاوز العشرات. فهناك دانيال الروسي ويوحنا وثيودورتش الألمانيان، وبنيامين الأسباني، وفوكاس الكريتي وتتمار وبُرْكارد الدومنكاني. هذا من الناحية الغربية، أما من الناحية العربية فثمة ابن جبير والهروي وأسامة بن منقذ وعبد اللطيف البغدادي. ولعل أكثرهم فائدة بالنسبة للتاريخ اللبناني ابن جبير وأسامة بن منقذ. فابن جبير، اجتاز من دمشق إلى عكاء، وزار صور. وبذلك مرّ بالأجزاء الجنوبية من لبنان، وترك لنا وصفاً دقيقاً لثراء صور. أما أسامة بن منقذ فقد روى الكثير عن هذه البلاد، ولعل أطرف ما روى قصة الطبيب الافرنجي، الذي كان في المُنَيْتَرَة، والذي عالج المرأة المصابة بضغط الدم، بأن حلق شعرها، وحفر في جمجمتها صليباً، وفرك الجرح بالثوم والملح، اعتقاداً منه، بأن فيها شيطاناً يجب أن يخرج، فماتت، وبالمقابل، يروي ابن منقذ قصة الطبيب العربي من تلك الجهات، الذي كان قد نصح لها، بأن تخفف من أكل الأشياء الحارة، حتى يخف هياج دمها، وكانت على وشك الشفاء، حين جاء الطبيب الافرنجي.



٥ صالح بن يحيى

أما المؤلف فهو صالح بن يحيى من آل بحتر أمراء الغـرب، وأما الكتـاب فهو «تـاريخ بـيروت». وآل بحتر، أمراء الغرب، استقرّوا في المنطقة الممتدّة من بحمدون إلى خلدة من لبنان، في أواسط القرن الثـاني عشر للميلاد، إبان كانت هذه البلاد خاضعة جزئياً للصليبيين. وكان طبيعياً أن تنمـو إمارتهم بنمـو القوة المملوكية فيما بعد. وكان لهم نفوذ كبـير من جهات مختلفـة، وكان منهم طبقـات في الامارة، وقـد تركّـزت فروع هذه الطبقات في عبيه وعرمون وغيرهما. وظهر في الأسرة، فضلاً عن أمراء الاقطاع وسادة الضياع، جماعة برزت في الأدب، وعرفت من العلم شيئاً تحسد عليه، آنئذ.

وصـالح بن يحيى تـوفي في أواسط القرن الخـامس عشر للميلاد، أي أن أمـراء الغرب، كـان قد مـرّ عليهم، نحو ثلاثة قرون، منذ أن استقرّوا في إقليم الشّوف. ولعل تأصّل نفوذهم واستتباب أمرهم، هو مـا دعا صالح بن يحيى لأن يدوّن أخبارهم، مستخرجاً الكثير منها، من وثائق عـائلية وأخبـار خاصـة، رواها السلف للخلف. وقدم لكتابه بتاريخ أثريّ موجز لبيروت، قد لا يكون له قيمة تاريخيـة كبيرة. ولكن الجـزء الخاص بتاريخ بيروت وما حولها، في أيام آل بحتر، هو الذي خدم به صالح المؤرّخين المحدثين. والمعلومات التي جمعها المؤلّف في كتابه منوعة. فهو يقص أخبار الأسرة ورجالها، طبقات طبقـات، لكنه يضيف دائمـاً الأخبار العامّة المعاصرة، ليمكّن القارىء من إدراك ما أصاب الأسرة، في الإطار التاريخي العام.

ونحن، إذا تناولنا الكتاب، وجدنا أن كثيراً من هذه الأخبار العامة، لا يـوجد عنـد أحد غـيره، ولولاه لضاعت. على أن صالح بن يحيى لا يكتفي بذلك، بل يشير إلى أمور كثيرة خاصة بعلاقات الإفـرنج بهـذه البلاد، أيام اقامتهم فيها، ثم بعد خروجهم منها. ومع أن هذه الأمور كلها حريـة بالاهتمـام، فإن «تـاريخ بيروت» يعطينا أشياء أخرى. فهو سجل للتطور الاجتماعي والاقتصادي لبيروت وما حولها، في الفترة التي يؤرخ لها. لن تجد، أيها القارىء، هذه الأخبار في باب خاص أو فصل معيّن، ولكنك واجدها ومفيد منهـا، إذا سمحت لنفسك بأن تصبر، فتنال بغيتك.

ومما يجدر ذكره عن الكتاب، هو هذه البساطة المتناهية التي يشير بها المؤلف إلى كتابه وإلى نفسـه. فتراه يقول:

> «وبعد فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى صالح بن يحيى بن صالـح بن الحسين بن أمـير الغرب لطف الله بـه، إني اردت أن أجمع شيئاً يستفيد به الخلف من أخبار السلف، من ذريّة بحتـر بن علي أمـير الغرب ببـيروت، فجمعت هذه التذكرة معتذراً إلى الواقف عليها من ركة اللفظ ومواقع الخطأ بعـد الاجتهاد عـلى صحة النقـل وحذف الفضول. لأني لا أريد أن أكون مغالياً في السلف فأصفهم بأزيـد مما فيهم، أو حسـوداً فأنعتهم بمـا ليس فيهم. وقد جعلت هذه التذكرة وقفاً على البيت لا تخرج عن الخلف ولا تعار لغـيرهم لأنها كتـاب لا ينتفع به غير اربابها».

ومع ذلك، فقد خرج الكتاب من حيث وقف، ليصير مخطوطة فريدة في خزانة كتب بـاريس، حيث عثر عليه المستشرقون فقلّبوا صفحاته، وأفادوا منه، دون أن يخرجوه، حتى قنصه المرحوم الأب لويس شيخو، فنسخ بعضه وصور بعضه، ونشره في مجلة المشرق، ثم طبعه، على حدة، مع تعليقات وإفـادات، قبل نحـو نصف قرن، ثم طُبع طبعة ثانية عام ١٩٢٧ م. وهي خدمة جـلى قدمهـا ذلك المؤرخ الكبـير ثم طبع ثـالثة بعناية أور والدكتور كمال الصليبي.

وبعد، فليسمح لي القراء الكرام، أن أنقـل لهم نماذج من أخبـار صـالـح بن يحيى، التي يتحفنا بهـا هذا الرجل.

يتحدث عن حملة إفرنجية، هاجمت هذه البلاد سنة ١٣٨٢ م، فيقول:

«ومن الحوادث أنه في العشر الأوسط من جمادى الآخرة سنة أربع وثمانين وسبعمائة (للهجرة) حضرت تعميرة الجنوية إلى صيداء فأخذتها وجاءت إلى بيروت. وكانوا سمعوا في دمشق بخبر حضورها إلى صيداء. فقال ملك الأمراء أيدمر: صيداء ما بقينا نلحقها لكننا نروح نلحق بيروت. فوافق حضور العساكر الشامية إلى بيروت حضور التعميرة فلم يتعرض أصحابها للنزول إلى البر، وتوجهت التعميرة الى جهة قبرص. ثم إن التعميرة المذكورة آنفاً غابت أياماً قلائل وعاد الجنويون إلى بيروت بعد أن تركوا في قبرص بعض مراكب صغار ومراكب نوافذ كسبوها من صيداء وفي طريقهم مع ما كانوا غنموه من صيداء. فحضر الى بيروت اثنا عشر غراباً كبيراً ودخلوا الميناء، وكان فيها قرقورتان للبنادق فأخذوهما وشحنوهما بالرجال وقدموهما حتى تمكن الرماة منهم بالجروخ والحجارة من صواريها على برج بيروت الصغير البعلبكي. ولم يكن في ذلك الوقت بني البرج الكبير وكان مكانه خرائب قديمة. فرمى الفرنج المسلمين بالجروخ والمدافع فتنحى المسلمون عن قبالة الفرنج واستتروا بالحيطان. فتقدمت شواني العدو إلى البر ما بين البرج الصغير والخرائب التي كانت مكان البرج الكبير، ونصبوا صقائلهم من الشواني إلى البر. ونزل منهم شرذمة كبيرة وعليهم مقدّم من كبارهم وبيده سنجق وصعدوا في الجونة إلى جهة الخرائب لينصبوا السنجق على علوة اشارة منهم أنهم ملكوا البلد. وشرعوا ينزلون من الشواني شرذمة بعد أخرى. فهجمت فرقة من المسلمين مع الوالد على الذين معهم السنجق فقهروهم ورموا السنجق. فلما نظر الفرنج وقوع السنجق وقف عزمهم وقويت قلوب المسلمين فحمل منهم ذوو النخوات فانهزم من كان نزل من الفرنج وازدحموا على الصقائل فانقلب بهم بعضها فغرق منهم جماعة وقتل جماعة وانكسروا شر كسرة».

ويحدّثنا صالح بن يحيى عن النشاط التجاري والاداري في بيروت، في القرن الرابع عشر، فيقول:

«ثم بعد ذلك صارت بعض مراكب الفرنج تتردد اليها بالمتاجر قليلاً قليلاً. وكانت مراكب البنادقة تحضر الى قبرص فيرسل صاحب قبرص بضائعهم في شونتين كانتا له إلى بيروت نقلة بعد أخرى. وكان للقبارسة كنس ببيروت وجماعة من التجار يسكنون فيها ولهم خانات وحمامات. ثم بطل ذلك وتكاثر حضور مراكب طوائف الفرنج. كانت ضرائب الواردات والصادرات تؤخذ ببيروت وهي تبلغ جملة مستكثرة. وكان على باب الميناء دواوين وعامل وناظر ومشارف وشاد يوليهم نائب دمشق. والمتوفر عن المرتّبات يحمل الى دمشق».

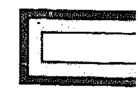
«وكانت تعطى وظائف للعمال فتحصل جامكيّة للمتولي وجوامك للقاضي والخطيب ولأربعين قرا غلام بخيول وعشرين مشاة وطبلخانات وكوسات وانفرة وزمر ومناظرية للبحر ورهجية وحمام بطاقة مدرج الى دمشق وبريد. وقرروا أيضاً أعلاماً نارية تصل إلى دمشق في ليلة. فكانوا يشعلونها من ظاهر بيروت فتجاوبها نار في رأس بيروت العتيقة، ومنه الى جبل بوارش ومنه إلى جبل يبوس ومنه إلى جبل الصالحية ومنه إلى قلعة دمشق فكانت النار للحوادث في الليل وحمام البطاق للحوادث في النهار والبريد للأخبار».

«ولما جدد الأمير أيدمر نائب الشام سور بيروت على جانب البحر جعل أوله من عند الحارة التي لآل بحتر على البحر واصلاً إلى تحت البرج الصغير العتيق عمارة تنكز نائب الشام المعروف ببرج البعلبكية. وجعل بين هذا السور وبين البرج المذكور باباً وركب عليه سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج فسمي باب السلسلة».

«وقد عمّر أمراء الغرب ببيروت كثيراً. فمن ذلك أن ناصر الدين اختار أن يكون مجاوراً للبحر فاتخذ الحارة التي هي على جانب البحر وعمر اطباقاً على الاقبية ودارا عليها سور فجاءت احسن ما يكون وجعل الأطباق مسجداً. وأما بدل العيانية (أمراء عيناب) ومن أضيفوا اليهم فإنهم اتخذوا لم الدار المعروفة بدار صاحب بيروت المجاورة للحمام العتيق. ثم بعد استملاك الحارة الجديدة المذكورة استملك الزقاق المعروف بزقاق الخيالة، وهو من باب الحارة بجهة القبلة الى قرب الحمام العتيق جانبي الزقاق يمنة ويسرة».

ويتحدث مؤرخنا عن عز الدين جواد، أحد حذاق الصناعة من آل بحتر، فيقول:

«كان حسن الشكل ذا ذكاء ومعرفة، لم ينشأ في وقته أحد مثله في جمعه للصنائع وكتابته المنسوبة. وقد رأينا من ذلك أشياء حسنة متقنة تدل على فضله. كتب على الشيخ بهاء الدين محمود بن محمد خطيب بعلبك شيخ البلاد الشامية بكتابة المنسوب الفائق فاتبع طريقته وجاراه في قلم الطومار حتى انه لا يكاد يعرف من طومار شيخه. وله اختراعات لم يسبقه اليها غيره منها انه كتب آية الكرسي على حبة أرز وشاهدتها عياناً. ورأيت في آخر الآية: كتبه جواد».



٦ من مؤرخي العصر العثماني الأول

في أوائل القرن السادس عشر، احتل العثمانيون بلادنا، وضموها إلى امبراطوريتهم الواسعة. ومع أن الاحتلال كان تاماً، إلا أن الادارة العثمانية المركزيـة رأت أن تترك الأمـور على مـا كانت عليـه إلى درجة كبيرة، خصوصاً في لبنان، على الأقل من حيث المبدأ. ذلك أن البـلاد كانت قـد اعتادت أن تُـدار أمورهـا إدارة محلية، على يد أمرائها ومقدّميها، ورأى العثمانيون أن يتركوا ذلك على ما كان عليه، مـع أنهم غيروا الأشخاص، اذ عهدوا الى المعنيين بالأمر.

ومع أن التغيير السياسي كان كبيراً، وقد شعر به الكثيرون ممن تردّدوا على هذه البـلاد من الأجانب، فإن اهتمام أبناء البلاد به لم يكن يتناسب مع أهميته. ولعل الجهل الذي كان مُطبقاً على السكـان، نتيجة حكم المماليك الطويل، مسؤول إلى درجة كبيرة عن هذه الحالة. ومن هنا، كان الباحث عن تاريخ لبنـان، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، يتحتم عليه أن ينبش دفائن المكتبات الأجنبيـة، ليطلع عـلى الوثـائق الرسمية وأخبار الرحّالين الكثر، الذين اهتموا بأمورنا.

على أنه من الحق أن نذكر، أن القرن السابـع عشر بدأ النـاس فيه يتحسســون الكثير من شؤونهم، ويكتبون عنها. ولعل من الأمور، التي حفزتهم إلى ذلك، كثرة المتعلمين ـ نسبياً ـ بين رجال الدين، نتيجـة لفتح مدرسة روما المارونية، وعودة هؤلاء الأحبار إلى لبنان، وإنشاء المدارس الكثيرة هنا.

ولعل من أهم هؤلاء الأفراد، من حيث الموضوع، الـذي نعالجـه، هو البطـريرك اسطفـان الدويهي، الذي نودّ أن نتناوله كمؤرخ لهذه الفترة الخاصة من تاريخ لبنان، إذ نعرض لكتابه «تاريخ الأزمنة».

ولنبدأ الحديث بعـرض حياة المؤلف. ولـد إسطفان الـدويهي في ٦ آب/ أغسطس سنة ١٦٣٠ م، في إهدن. وقد تعلم مبادىء العربية في ظل كنيسة القرية، شأن الكثيرين من مواطنيه في ذلك الوقت. ولمّا بلـغ من العمر إحدى عشرة سنة، سافر إلى روما، حيث التحق بكليتها المارونية، التي كانت، يومئذٍ، تحت إدارة الآباء اليسوعيين. وظل هناك أربع عشرة سنة، بلغ، في أثنائها، من العلم والمنزلة حـدًّا كبيراً، وكـان كثيراً ما يُكلف بمجادلة الكثيرين من أعلام الوقت. وقد روى عنه البطريرك مار سمعان عـواد، أن أحد أسـاتذة روما، قال عن الدويهي:

> «إني قد علّمت في بلدان كثيرة ولم ار تلميذاً مثل إسطفان علماً وعملاً».

في سنة ١٦٥٥ م، عاد اسطفان الدويهي الى بلدته إهدن، وأخذ يعلّم أولادها، وكان أثره فيهم كبيراً، كما كان أثر هذا التعليم هـامًّا في حيـاته، ذلـك أنه أعطـاه مجالاً لتقـويم لغته العـربية وتهـذيبها. وبعـد سنوات، أُرسل إلى حلب، حيث كانت ثمة طائفة كبيرة، فعمل الدويهي واعظاً هناك. وقد حـرِّرت عظاتـه في مجلدين ضخمين. وفي سنة ١٦٦٨ م سيم الرجل مطراناً على قبرص، فجال البلاد متفقّداً الرعايـا. ويقول الدويهي، عن نفسه، بهذه المناسبة:

> «سنة ١٦٦٨ توجهنا إلى زيارة القدس الشريف وبعد ما تباركنا من تلك المواضع المقـدسة وصحبتنـا والدتنـا وأخونا الحاج موسى، وعاودنا بسلامة إلى تقبيل أيادي السيد البطريرك جرجس، بـدير قنـوبين، صـار نصيب أنه رفعنا إلى درجة المطرانية على الأسقفية بقبروس... وامرنا نـخرج في زيارة الرعايا الذين في ايـالة طـرابلس وجزيرة قبرص. ولئلا نكون بطّالين أشغلنا ذاتنا في سياسة الشعب».

بعد سنتين فقط، رُفع الدويهي إلى مقام البطريركية. وقد قال هو نفسه، عن هذه المناسبة، ما يأتي:

> «في سنة ١٦٧٠ في الثاني عشر من شهر نيسان/ ابريل عرضت وفاة البطرك جرجس ابن الحاج رزق الله من

بسبعل بدير مار شليطا... وكان رجل شجيع ذو مكارم، احتمل مشقّات كثيرة من الداء الكبير ومن جور الحكام. ساس الكرسي الأنطاكي (الماروني) ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر ومن شدة الواغش ما صار اجتماع للروسا في تاسعه وتأخرت رسامة الجديد... حينئذ في نهار الأربعين أعني في عشرين في أيار/ مايو اجتمع الروسا وأعيان الشعب والزمونا بالتخلّف بعده».

ونحن، إذا رجعنا إلى الذين أرّخوا للدويهي، وجدنا، حقًّا، أن الرجل أُلزِم بقبول منصب البطريرك. وتوفي الدويهي سنة ١٧٠٤، أي بعد أن ساس أمور الرعية ثلث قرن.

والكتاب الذي يهمنا أمره، من مؤلفات الدويهي، هو «تاريخ الأزمنة»، الذي جمع فيه المؤلف التاريخ إلى ١٦٩٩ م. وقد كتبه المؤلف، بالخط الكرشوني (خط سرياني كتبت به العربية أحياناً). وفي سنة ١٨٩٠ م، نشر رشيد الخوري الشرتوني تاريخ الموارنة للبطريرك الدويهي، وضمن هذا الكتاب الكثير من تاريخ الأزمنة. لكن الكتاب، جملة، ظلّ مخطوطة، حتى أتيح لجزء هام منه أن ينشر على الناس، نشراً علميًّا، كثير الحواشي والشروح، على يد الأب فرديناند توتل اليسوعي سنة ١٩٥١ م. ولعله من المهم أن نشير إلى أن الأب توتل اكتفى بنشر القسم الثاني من الكتاب، لأن القسم الأوّل ليس فيه كبير عناء.

والكتاب، يتبع مؤلفه فيه نظام الأعوام، فهو يؤرخ لكلّ سنة بسنتها، ويظهر أن الغاية من وضعه، في نفس مؤلفه، كانت «الإلمام بأهم ما يتوجب على الأديب الشرقي معرفته من حياة جدوده السياسية والاجتماعية والدينية».

أما وقد تحدثنا عن الكتاب وصاحبه، فلننقل نُبَذاً من محتوياته، تمكّن من الحكم على المؤلف وكتابه وقيمته في تدوين التاريخ اللبناني. وسنحتفظ بلغة المؤلف على حالها. يقول الدويهي:

«في سنة ١٥٤٣ كانت عودة البادري مسعد البندقي ورديان جبل صهيون إلى رومية. فبعث صحبته البطرك موسى مكاتيب إلى البابا بولص الثالث يسأل قدسه أن يوصي ريس الرهبان الصغار حتى يوجه إليه ستة كهنة من رهبانه يقيموا مدرسة في جبل لبنان لتاديب الأولاد في اللغة اللاتينية، ليفهموا الكتب المقدسة ويرشدون الرعية... فتشكر البابا من نيته الصافية وارسل في مكتوبه غفران لساير الرعية يكون مخلداً، ومكاتيب إلى المقدم عبد المنعم حنا البشراني، وإلى الرؤساء وساير الشعب بفرح ليحظوا بالخيرات الموعودة لصانعي البر».

وأخبار القرن السابع عشر، وخصوصاً نصفه الثاني، يروي فيها الدويهي، باعتباره شاهد عيان أو راوياً عن شاهد عيان. وهنا نجد للكتاب قيمة خاصة. فقد روى عن سنة ١٦٣٠ م:

«في الخامس من تشرين الثاني نهار الأحد حدثت زلزلة مريعة وفي الساعة الثالثة من الليل حلت في قلعة سمر جبيل وهدمت البرج الوسطاني من أربع جوانبه وأخذت جميع ما كان في القبو التحتاني المركب على البير وخطف العارض نوفل ابن الشيخ نادر بن الخازن ووالدته بنت الشيخ معتوق بن حبيش مع ست أنفس».

وأما في السنة التالية، فننقل عنه:

«في سنة الف وستماية واحدى وثلاثين مسيحية قدمت المراكب من بلاد الفرنج إلى عكا وصور والرملة وطرطورة بسبب وسق القمح فكانت الغلّة شحيحة، وهم يشترونها بأغلى ثمن، وكان الأمير فخر الدين معضداً لهم حتى ان في مدينة عكا وجدها بلغ عددهن إلى ماية وعشرين برشة بطلب القمح. وزادت الشحطة حتى أن في طرابلس بلغ شنبل القمح إلى ثلاثة قروش والشعير والذرا إلى قرشين وربع. ولم يجد في كل سواحل البحر، فسمع بورودهم قبطان البحر وارسل عشر اغربة لأجل محافظة السواحل، وفي أول شهر أيلول اجتازوا على مدينة طرابلس ومن هناك الى بيروت وصيدا وعكا وقبروس».

ويحدثنا عن طاعون أصاب البلاد، فيقول:

«في سنة الف وستماية واحدى وستين مسيحية حدث الطاعون في بلاد الشام، أهلك كثيرين وكان الخلق بوجلٍ عظيم من الوبا ومن الظلام».

كما ينقل الينا أخبار غلاء لسنة ١٦٦٣ م، بقوله:

«في سنة ألف وستماية وثلث وستين مسيحية اشتد الغلاء في بلاد الشـام بسبب الجراد الـذي ارتعى الزرع. فلحق شنبل الحنطة في طرابلوس إلى أربعة قروش وكيلة الرز إلى قرب القرش، وكان رطل الخبز بحلب بنصف القرش».

ولعل الذين، يستكثرون أمطار لبنان أحياناً يرون شبهاً فيما قاله الدويهي عن سنة ١٦٧٤ م:

«وفيها في أواخر تشرين الأول دام المطر نحو عشرين يوم وحمل السيل أملاكاً كثيرة، وأخرب طواحين وعمايـر، فوصل الثلج إلى البحر وفي رشيد جذفوه عن المراكب، ودنق فيه اثنين من النوتيه، وفي وادي المسيلـخ بناحيـة كسروان انفتحت هوّة كبيرة شرقي ديـر ماري يـوحنا حـراش فبلغت سيل الـوادي، وفي كفر سلـوان بيع طبق الزبل بأربعة قروش لشدة البرد».

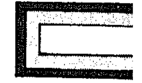
وكان الدويهي يتعرض للأذى، بسبب اضطـراب حبل الأمـور، في تلك الأيـام. وكثيراً مـا اضطر إلى الرحيل والهرب والاختفاء. ويروي خبر واحدة من هذه المحاولات حدثت سنة ١٦٨٣ م، قائلاً:

«وفيهـا في أول أيلول من جـور حكام جبـة بشري ولعدم الـوفق بين مشـايخ كسروان تـوجهنا إلى ديـر القمر، وضمتنا مع حضرة الأمير أحمد ابن معن قرية مجدل معوش، ثبتنا سنتين ورممنا كنيستها وجملة مساكن، ثم ان أولاد الجبة ارتموا على حضرة الأمير بمكاتيب خضوع من أولاد الشيـخ أحمد أنهم مـا عادوا يبـدلوا ولا يغيروا شروطهم معنا، فرجعنا معهم».

وفي سنة ١٦٨٦ م، تعرضت البلاد لكارثة، بسبب تأخر المطر، فوصفها الدويهي بقوله:

«في سنة ألف وستماية وست وثمانين مسيحية دخلت التشارين والكوانين دافية، فكثرت دبابات الأرض والفار والدود، فتباين في صوم النصارى الفرفور وكان بكثرة على شبه الجراد في السواحـل والجبال، فـرعى الزهـور وأمات النحل، وكثر الصرصر في سواحل البحر حتى ان بلذاعته أهلـك دود القز، وكـذلك الحـرقص رعى نبات الزرع والذرا في مـواضع كثـيرة. وفي الجرد تسلط الفـار على دود القـز حتى اضطروا ينقلـوه من البيوت إلى الخصاص وكذلك الدودة قشرت الكروم والسنديان في الأودية».

هذه مختارات قصيرة، نقلناها للقراء، رغبة منا في أن يذكروا أولئك، الذين أرّخوا للبنان.



٧ من مؤرخي القرن التاسع عشر

ليس القارىء الكريم بحاجة إلى أن يذكر بما أصاب لبنان في القرن التاسع عشر من أحداث. فلا شك أن أيام المدرسة لا تزال عالقة بذهنه، ولذلك فهو يذكر أن أحداثاً هامة مرت على هذه البلاد، بعضها داخليٌ وبعضها خارجيٌ، بعضها سارٌ وبعضها مؤسفٌ، ولكن كلها تركت في حياة هذه البلاد وسكانها آثاراً قوية لا تزال الحياة هنا تضطرب بها أو تضطرب منها.

وبسبب انتشار نوع جديد من الوعي، وإقبال غير مألوف، قبلاً، على الكتابة والتأليف، ظفرت، هذه الأحداث، بعدد كبير من الأشخاص، الذين دوّنوا أخبارها وعلقوا عليها، بما شاعت لهم أهواؤهم أو اتجاهاتهم أو ميولهم أو ثقافتهم. وهذه الأخبار والمذكرات والوثائق كثيرة العدد، كبيرة القيمة. ومع أن الكثير منها قد ظهر للعيان ونشر، فإن جلها لا يزال بعد قابعاً في جحره، ينتظر المنقب والباحث، وإن كان يُخشى أن تأتي عليه الأرضة قبل أن يرى النور.

ولست أعتزم، في هذه العجالة، أن أعدد هؤلاء، الذين كتبوا، ونشرت آثارهم، والتي عالجت موضوعات ضخمة، مثل الأمير أحمد حيدر الشهابي ونقولا الترك والمطران يوسف الدبس وميخائيل مشاقة. فهؤلاء لهم، من الأفضال، ما لا ينكر. وقد عرفها الكثيرون من الباحثين. ولكنني أود أن أتناول، على سبيل المثال، مؤرخاً محلياً، لعلّي أوفق أن أوضح للقراء ما أقصده، عندما أشير إلى هذه النواحي، التي لا يعرفها إلا القلائل من تاريخ القرن التاسع عشر ومؤرخيه.

والرجل الذي أريد أن أتحدث عنه، هو الشماس الشيخ انطونيوس أبي خطار، المعروف بالعينطوريني. وكتابه هو مختصر تاريخ لبنان،الذي نشر سنة ١٩٥٣ م، على يد الأب أغناطيوس الخوري، من الرهبنة اللبنانية. وقد عرّف المؤلف بنفسه، في كتابه، فقال:

> «قد اعتنى في تأليف ونسخ هذا التاريخ الوجيز، الشّماس انطانيوس ابن الشيخ بو خطّار الشدياق من بيت الحاج عبد النور، من قرية في جبّة بشري من أعمال طرابلس...».

ولد في سنة ١٧٥٧ م.

والظاهر أن المؤلف كان حاكماً اقطاع قريته عينطورين وما يليها، وارثاً ذلك عن أبيه وأجداده. وأسرة هؤلاء المشايخ الإقطاعيين عريقة في عينطورين. جدّها الأعلى عبد النور، هجر لبنان إلى دمشق، نزولاً عند محن وظروف. ثم عادت الأسرة إلى لبنان موطنها الأصلي. وقطن أحد افرادها قرية عينطورين، في سقي إهدن، من أعمال جبة بشري.

ومن دلائل وجاهة المؤلف لقبه الشماس. وهذا تقليد عريق في لبنان، إذ كان الرؤساء الروحيون يُنعمون على مقدّمي لبنان، وبعض حكامه الآخرين وأعيانه النبلاء، بدرجة الشدياقية أو الشماسية، ويرقّونهم إليها، استكمالاً لدواعي إجلالهم في أعين رعاياهم أولاً، وإدماجاً لهم في مصاف الاكليروس، فيتوفّر لهم حق الجلوس معهم في خورس الكنيسة، تمييزاً لهم عن عامة الشعب.

وكان، بالإضافة إلى ذلك، واسع الثراء، وقد لقب شيخ مشايخ الجبة. وقد جاءه هذا اللقب، على ما يرويه معاصروه، إثر استعصاء أهل بشري على الأمير بشير الكبير، ورفضهم تأدية خراج زاده على البلاد. فوكل الأمير إلى الشيخ انطونيوس أمر إخضاعهم لِما يرى. فاضطلع الشيخ بالمهمة، وحلّ المشكل على وجه أعجب الأمير ووافق الأهلين، مدللاً على بطولة واخلاص وحنكة ورشاد. فكافأه الأمير بذلك اللقب: شيخ مشايخ الجبّة.

ويظهر أن شيخ المشايخ هذا، سولت له خطورة مكانته، وما كان له من جاه ونفوذ وثراء، السّعي لدى

مصطفى آغا بربر، «متسلم» طرابلس، وبعض أعيان هذه المدينة، ليتسأثر بحكم الشمال. ودرى به الأمير بشير فجابهه بتشديد النكير والنهي الزّاجر، وهدده بأشد العقاب صرامة، آخذاً عليه عهداً مغلّظاً. والمعروف أيضاً أن المترجم كان منحازاً وصهره الشيخ بطرس كرم، حاكم اقطاع إهدن وما يليها، ووالد يوسف بك كرم، مع مصطفى بربر الآنف الذكر، إلى حزب أولاد الأمير يوسف شهاب، أخصام الأمير بشير ومزاحميه.

وأخيراً، تمادى حساد المترجم في الوشاية به، فأقنعوا الأمير أبا سعدى أن محسودهم يعمل، مع صهره المذكور، على سلخ شمالي لبنان عن الإمارة وإتْباعِه إلى طرابلس، ليتسنى له بسط نفوذه فيه، والاستئثار بمقدراته، وأن بعض أعيان طرابلس يؤازرون الشيخ وصهره، لدى «الآستانة العلية». ففار غضب الأمير بشير فوران المرجل، وجاء برجاله إلى الجبّة، فاعتقل الشيخ انطونيوس هذا، وصهره الشيخ بطرس كرم، واقتادهما مكبّلين بالأصفاد، بعد أن غرمهما بخمسمائة كيس، والكيس خمسمائة غرش، إذ ذاك. وإذ بلغ بهما إلى قرية عين بطرام، افتدت الشيخ بطرس سيدة افرنسية بالمال اللازم، فأطلق الأمير سراحه، واكتفى بالمترجم، فسجنه في قلعة جبيل، وأمر بقتله من دون محاكمة.

وكانت وفاته في ١٢ كانون الأول من سنة ١٨٢١ م.

والكتاب مختصر لتاريخ لبنان، إلى زمن المؤلف، ولا شك في أن الشيخ انطونيوس لخّص الكثير مما كتب قبلاً. ولذلك، فإن الأجزاء الأولى من الكتاب لا قيمة لها. ولكن المؤلف يصبح شاهد عيان لحوادث أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر.

أما وقد عرّفنا القراء الكرام بالمؤلف وكتابه، فليسمحوا لنا بأن ننقل اليهم نبذاً من أخباره.

يقول، عن تأسيس مدرسة عين ورقة في غوسطا:

«وفي سنة ١٧٨٩ م نقلوا منه [من دير عين ورقة] الراهبات إلى غير اديرة. وجمعوا اليه اولاد من كلّ الرعايا. وقدّموا لهم معلمين ومرشدين. وابتدوا يعلموهم ويهذبوهم بالأمور الروحيّة. وتعلم بها تلاميذ كثيرون اكثر من خمسين تلميذاً، من حين قيامها إلى هذا الوقت، أي سنة ١٨١٩. وقام منها مطارين وكهنة كثيرون، افادوا الطايفة فايدة عظيمة، بإرشادهم ووعظهم وتعليمهم. لانهم كانوا ينذرون ذلك نذراً عليهم، بموجب نذر تلاميذ مدرسة رومية. ولم تزل قايمة هذه المدرسة بمعونة الله».

«وكانوا يتعلمون بها علم الغرامطيق السرياني، والنحو العربي، والفصاحة والمنطق، وعلم اللاهوت الادبي والنظري. وعندما اشتهرت هذه المدرسة، صارت الغيرة على قيام بعض مدارس، مثل مدرسة الرهبان اللبنانيين، في دير البنات (جبيل)، ومدرسة دير مار يوحنا مارون كفرحي، مدرسة دير مار جرجس الرومية. وبهذه الطريقة تفقهت كهنة الطائفة في العلوم، لا سيما علم الذمّة».

وقال عن مدرسة الرهبان، بدير البنات وقرطبة:

«ان قدس الأب العام اغناطيوس بليبل المحترم، أخذته الغيرة الأبوية على ابناء رهبنته. واقام لهم مدرسة في دير البنات، الذي فوق مدينة جبيل. ووضع بها معلمين لكي يعلموا الكهنة والرهبان العلم العالي، الذي يلزم وظيفتهم. وقد نتج من ذلك خير جزيل. وتفقهت جملة كهنة ورهبان من الرهبنة المذكورة. ولم تزل هذه المدرسة يظهر منها معلمين، ويفيدوا رهبنتهم وغيرها، لمن يسألهم.

«ثم إنّ قدس الأب العام المذكور، قد باشر في قيام مدرسة في قرية قرطبا، في جبّة المنيطرة، في بلاد جبيل. فأهالي القرية المذكورة قدموا الكنيسة (مار سركيس) والرزق الذي لها لقدس الأب المذكور. وما بقي من عمار محلات وأماكن لسكنة الرهبان، ومدرسة الأولاد، وشراية الرزق، فهذا جميعه وغيره مما يخص هذه المدرسة، من خير الأب المذكور، لأجل قيام هذه المدرسة، لتعلم علم البسيط إلى اولاد أهالي قرطبا وجيرتها مجاناً. وكل من راد من أهالي بلاد جبيل، أم غيرها، يوجه ولده ليتعلم مجاناً، ولا مانع من ذلك، حسب نية مؤسسها الأب المشار إليه. لكونه جاعل عليها نظر أوفر من كافة مدارس رهبنته».

وفي سنة ١٧٧٦ م، أتمّت مساحة المنطقة، وضمنت عقاراتها، فقال، في ذلك:

«وعملوا الديموس على قدر مال البلاد. فطلع حمل الورق (التوت) زلطة وشاهية [نقد ذلك العهد]. وبدار شنبل الأرض غرش وشاهية. واصل الجوز نصف غرش. وأصل الزيتون ثمانية فضة، ومـاية جفنـة الكرم نصف غرش. وجالية الرجل المزوج خمسة غروش ونصف، والعزب ثلاث غروش إلا ربع».

ولعلّ، من ألطف ما في الكتاب، ذكره لحملة نابليون إلى فلسطين سنة ١٧٩٩ م، إذ يقول:

«وحاصر عكا حصار عظيم. وصنع بها هولا جسيم. وذاق من فيها الموتات، وأنفذ على أهلها أمـر الحصارات، بما نالهم من الضربات. وعمل بها أعمال تعجز عنها الأسود. وكان، يـومئذ، وزيـرها أحمـد الجزار، صـاحب السطوة الكبرى والمعارف المعتبرين، ريس وكبير كافـة وُزَرِ (وزراء) عرب بستـان [سوريـا وجوارهـا]، وحلب والشام، في عصره وقلبه، كما أخبرنا الاقدمين.
وحين عرف هذا الوزير ما حصل من الجيوش الفـرنساويـة في الديـارات المصرية، حـالا باشر جمـع عساكـر وجيوش من كافة المحلات، وباشرت الجيوش [ترد] على عكـا، حتى لم عادت تسـاع من العساكـر. وفي وصول الجيوش الفرنساوية، انعقد الحرب والقتال. وبدت الأهوال من كل جانب إلى عكا. وكـان المساعـد الأكبر مـع الوزير، مراكب الانكليز، الذي كان قبطـانهم (قائـدهم) سيد (سـدني). وساعـد (هذا) سكـان عكا مسـاعدةً عظيمةً. ولو ما مساعدته، ما كانت لقيت إلا برهة وجيزة.
وانتصب الحرب بين الفريقين. وذاقوا سكانها كافة الأهوال. وقتلوا منها جملة عساكر. وتم في عكا قـول الغفر [أو الجفر]: «وعكا سوف تعلوها جيوشاً كما تعلو الغيوم على الجبال. ودخلـوا اليها، وملكـوها مـرتين. والمـرة الثانية قتلوا منها جمـع غفير. والبعض من العسـاكر ومن سكـانها رميـوا حالهم في البحـر. والبعض هربـوا لنواحي صور وصيدا. وبقي الجزار ومعه عسكر قليل في سرايته. وبعد حصاره ثلاثة وستين يوم، قاموا عنهـا الفرنساوية في ذي الحجة سنة ١٢١٣ (ذاتها).
وسبب هذا القيام أنـه حضر هجان (رسـول) الى بونـابارتـه من مصر، ومعرفيـه، انه حضر لـه علم من البلاد (فرنسة) أنه يرجع اليه حالا. وبوقته طلع العسكر الذي دخل لعكا. وفي الليل ترك جميـع الاثقال الـذي معه. واخذ الذي يقدر على حمله بسهولة».

وقد اهتم المؤرخ بو خطار بأخبار الطاعون والغلاء والجوع، فقال، في طاعون سنة ١٧٨٥ م:

«وفي سنة ١٧٨٥ م، صار طاعون في ايالة طرابلس وبرها. ودار في كافة البر من ضيعة إلى ضيعة، كل سنة في مطرح. وينقل من مدينة إلى مدينة، من مدينة يافا إلى مـدينة حمـاه والشام، وبـر هؤلاء المدن. ومـات في هذه الاماكن خلقاً لا تحصى. ولم يزل يتناقل من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية، مدة ثلاثة وثلاثين سنة. وأما هذه السنة (١٨١٩)، لله الحمد ما عاد بان له أثر».

وفي غلاء أصاب البلاد سنة ١٧٩٣ م، قال:

«وفي سنة ١٧٩٣، صار غلا في بلاد سورية وما يليها. حتى وصل شنبل القمح إلى ثلاثين، ومطارح الى أربعين وأنوف (أكثر). ولكن الغلة كانت موجودة. وفي سنة ١٨١٦، صار غلا في بر الشام، وطرابلس، وما يليهم. حتى وصل شنبل القمح الطرابلسي، في البيدر، إلى ٢٥ غرش، وفي بعض أماكن إلى أربعين وينوف، وشنبل الدرا إلى عشرين، والشعير ١٥، وقفة الـرز ستين، وقلـة الزيت خمسـين. ولكن الباري ألطف في عبيـده. واستقام هـذا السعر على حاله، من غير زيادة، إلى المـوسم الآتي، أي موسم سنـة ١٨١٨ م. فأخصب اللـه جميع الغـلات. ورجعت تهاودت الأسعار، أي شنبل القمح سبع غروش، ومـا دون. وتنازلت كـافة الاسعـار على هـذا الموجب فنشكر مراحمه تعالى على ذلك».

وفي سنة ١٨٠١ م، أصابت البلاد موجة شديدة من البرد والمطر، فقال، عنها:

«وفي ١٨٠١ (ألف وثمانمائة وواحدة)، في ٢٧ ادار، صارت ضربة قوية من قـرية صليمـا في المتن، ووسط بلاد كسروان لنهر ابراهيم، نزل بردٌ بكثرة في الليل استقام مقدار ساعتين. وكانت ساعة مهولـة. خشي على كثـيرين أن الله سمح في انهدام العالم، لكونه أعدم الزروع، ونثـرت أوراق الاشجار الجـوي والبري. وأذاب العشب. وقتل جملة طيور برية كبار وصغار. وأصبح البرد في بعض محلات، مقدار ذراعين. وقيـل من اناس صـادقين

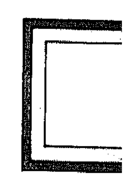
أن في وقت نزوله، شاهدوا البرد قريب لبيض النعام. وهذه الضربة ما حكمت (أصـــابت) لا ساحـل البحر، ولا الجرد، سوى الوسوط.
وفي سنة ١٨١٨ م، صـارت سيلة في مدينـة حماة روحت منهـا مقدار سبعمـاية وخمســين بيت. ومات فيهـا ما ينوف على الفين نفس. وكان ذلك في ١٥ نيسان».

أما الجراد، الذي هاجم هذه البلاد، في أوائل القرن التاسع عشر، فقد روى أخباره كما يلي:

«و ١٨٠٥ (ألف وثمانمائة وخمس) جاء جراد الى طرابلس، ورعي الزرع والفواكه، وصار منه ضيم عظيم.
وسنة ١٨١٤، جاء ايضاً جراد إلى المحـلات المذكـورين وأرسل سعـادة الامير بشــير [شهاب الكبـير] المفخم، الحاكم يوميذ، أناس من قبله، وجمعوا أهل المقاطعات. وشرعوا يقتلوا ويحرقوا به، ويـلاشوه. ومـا صار منـه ضرر. وجاء أيضاً في سنة ١٨١٥، وحصل له مداركة مثل الأول.
وفي سنة ١٨١٦، و ١٨١٧، رجع الجراد ايضاً. وبعناية سعادة المشار اليه [الأمير بشير]، ما حصل منه ضرر.
ولو ما (ولولا) عناية سعادته، كان خرب هذه الاماكن (البلاد) وعدمها بالكلية».

القسم الثاني

من خبايا التاريخ اللبناني



١

الالياذة والفينيقيون

عاش هوميروس الشاعر اليوناني المغني، الذي تُنسب إليه الملحمتان المشهورتان: الالياذة والأوديسة، بين القرن التاسع والقرن السابع قبل الميلاد. والأمر الغريب، هو أن نقـول عنه «تُنسب إليـه الملحمتان»، على الرغم من أننا تعلمنا في المدرسة، أنه هو صاحب هاتين الملحمتين.

فالقضية ليست قضية ريبة أو شـكٍّ، ولكن المسألـة أعمق من ذلك. وقبـل أن نلقي الضوء عـلى هذه النقطة بالذات، لا بد لنا من العودة إلى هاتين الملحمتين، فنذكر، عن كل منهما، الأمور التي تساعدنـا على جلاء أمر النسبة ـ أي نسبة الملحمتين إلى هوميروس. فالإلياذة، على ما يرى الباحثون، تتحـدث عن حملة إغريقية واسعة النطاق ضد طروادة، التي كانت تقوم على الساحل الآسيوي لبحـر مرمـرة، عند الـزاوية الشمالية الغربية لآسيا الصغرى.

والقصــة تقول إن هيلـين اليونـانية الجميلـة، خطفها بـاريس، وحملها إلى طـروادة. فقامت الحملـة لاستردادها. لكن الإلياذة لا تتحدث عن الحصار، الذي ضرب حول طروادة نيفـاً وعشر سنين؛ بـل إن كل ما تذكره الإلياذة، لا يعدو بضعة أسابيع من هذه الفترة الطويلة. هـذا مع العلم بـأن الملحمة مكـونة من سبعين ألف بيت من الشعر!

ومن المعروف، أن الأوديسة، هي أيضاً، قصة مغامرات، دامت عشر سنوات، قضاها أوديسيوس (أو عـولس كما عُـرِّب اسمه) حتى تمكن من العـودة من طروادة إلى بلـده إيثاكـا. والغـريب، أن الكثـير من مغامرات هذا البطل، قد تم في الحوض الغربي من البحر المتوسط، بدل أن يعود من طروادة إلى إيثاكا، في بلاد اليونان، رأساً.

وإذا ألقينا نظرة على البحوث والدراسات، التي وضعت عن الإلياذة، نجد أن المؤرخين ورجال البحث الأثري، متّفقون على أن طروادة تعرضت لغزوة اغريقية مدمرة، حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م. ولكن ليس بينهم اتفاق على سبب هذه الغزوة. وقد أظهر البحث الأثري، أن هذه المدينة، التي دمرت في ذلك الـوقت، كانت المدينة السادسة، التي قامت في ذلك المكان. ومعنى هذا، أن الموقع كـان يتعرض للغـزوات، عبر تـاريخه. ولم تأت الغزوات جميعهـا من الإغريق، بـل إن بعض هذه الغـزوات، جاء من البـر، من الشرق وغيره من الجهات. فهل كان موقع طروادة البحري التجاري، وتمكُّن المدينة من التحكم بالطرق التجارية، وحتى من احتكار الاتجار، سبباً من أسباب غزوها ومحاصرتها وتدميرها المرّة بعد الأخرى؟

نقول إن هذا الأمر محتملٌ، لأن الحكايات تدخل نسيج الملاحم، بـالشكل الـذي يريـده لها الشـاعر المغني. وبهذه المناسبة، فالإليـاذة فيها حكـايات كثـيرة لا تمت إلى الفكرة الأصليـة بصلة، لكن الشـاعر المغني كان يضيفها، كما يحلو له، وكما تتطلب الأحوال المحيطة به.

ولكن هل يمكن للشاعر أن يخلخل بنية قصيدة طويلة من هذا النوع؟ ألم يكن ثمة نص يتقيد به؟

من الطبيعي أن الشاعر المغني ـ وهنا نؤكد على كلمة الشاعر المغني ـ كان يتقيد بالنص، متى وجد هذا النص، سبيله إلى التدوين. ولكن ما دامت الملحمة، بتفاصيلها وجزئياتها وحكاياتها، أمراً يرويه الخلف عن السلف مشافهة، فالشاعر المغني حرٌّ بأن لا يتقيد بالنص، لأن المهمَّ، في هذه الحالة، الصلة التي تربط بين الشاعر المغنّي القاص وجمهور مستمعيه. وقد تعاقب على رواية الإلياذة، قبل أن وصلت إلى شكلها المعروف، عشرات من الشعراء المغنين القاصين. وكان الكثيرون منهم، إن لم يكونوا كلهم، يضيفون إلى الملحمة من عندياتهم. بل لعلَّ البعض منهم، كان يحذف أشياء من الملحمة، لم تكن تعجب السامعين.

ونحن لا ننفي عن الإلياذة صفتها التاريخية إطلاقاً، ولا نزعم أنها ليست مصدراً من مصادر التاريخ اليوناني. ولكن لا بدّ من لفت النظر أيضاً، إلى أننا لسنا معنيين هنا بالإلياذة التاريخية، بل بالإلياذة الأسطورة أو الأسطورية. فمن الناحية التاريخية، مرت بلاد اليونان، بعد سقوط طروادة، بفترة، من تاريخها، مظلمة، بالنسبة لنا. والصور، التي ترسمها الإلياذة، فيها الكثير الخاص بالفترة التاريخية، التي تلت ذلك، أي بعد القرن العاشر قبل الميلاد. وعلى سبيل المثال، إن القصور والقلاع، التي يمر وصفها في الإلياذة، لا تعود إلى زمن الحملة الأصلية، بل هي قصور وقلاع عرفتها بلاد اليونان، في العصر الملكيّ، بين القرنين التاسع والسابع، أو ما إلى ذلك. فعناصر التاريخ الاجتماعي والفني والمعماري، التي يمكن أن نحصل عليها من الإلياذة هي أمور مشكوك فيها. أما القصص المتعلقة بالآلهة اليونانية، فلعلها أقرب إلى الواقع.

ولا بد هنا من الإشارة إلى الأوديسة. فأوديسيوس أو عولس متشوقٌ إلى العودة الى إيثاكا. ولماذا هذا الشوق؟ عولس يريد العودة إلى وطنه، إلى ملكه. لكنه أيضاً متشوق إلى العودة الى زوجته بنلوب، التي كان يحبّها بقدر ما كانت تحبه. ومع أن المدة تطول عشر سنوات قبل أن يعود، وقبل أن يصل إلى إيثاكا متخفياً. فقد انتظرته بنلوب. وكان النبلاء الكبار قد قطعوا الأمل من عودة عولس، لذلك أخذوا يتقربون من بنلوب كي تختار أحدهم زوجاً لها، فيصبح الملك. فأقاموا في القصر، وتنعّموا بخيراته. ووعدتهم بنلوب، أنها عندما تفرغ من نسج قطعة من الحرير، كانت على النّول، فإنها ستختار أحدهم زوجاً. وتقول الحكاية إن بنلوب، كانت تنقض في الليل ما تنسجه في النهار. وقد دامت على ذلك كل هذه السنين، حتى عاد إليها زوجها.

فقصة عولس، هي أيضاً، قصة بطل يبحث عن الفتاة الجميلة، لذلك، يتحمل عشر سنوات من المصاعب والمتاعب والمخاطر حتى يصل إليها.

فلما غادر عولس إيثاكا، ودّع زوجته، وسار في الحملة الكبرى، قائداً ومحارباً، وقد حسب نفسه قد فقد. ولما نجا من الموت، أخذ يبحث عن هذه الجميلة، التي نسجها خياله، على صورة امرأته ومثالها. لكن الشوق عنده، كان شوقاً جديداً، لشيء جديد.

وإذا عدنا الى الإلياذة، وجدنا أن منيلاوس، لما أثار اليونان لاسترداد هيلين الجميلة، كان البطل الذي يبحث عن الفتاة الجميلة، فتاة الأحلام. ومع أنه كان يعرفها ويحبها، فقد أصبحت أمراً جديداً بالنسبة له، بعد أن خُطفت.

إن كلًّا من منيلاوس وعولس يمثل البطل، الذي يبحث عن فتاته. والأول يثير، وعلى ذمة الحكاية، الأغارقة لمساعدته. والأغارقة، على ذمَّة الحكاية، يهبّون لنجدته. أما الثاني، عولس، فلعل مجازفاته في الأراضي البعيدة، هي نوع من البحث عن مكان جديد، يجد فيه ضالته. فلماذا لا نحسب أن هناك من أسرّ إليه ـ والحكاية قادرة على إدخال هذا في الملحمة وإسقاطه منها فيما بعد ـ أن بنلوب بَرِمَت بالأمراء، وهجرت إيثاكا. فكان هو يجوب الآفاق، بحثاً عنها. ثم يدلّه قلبه أو هاجسه، أن إيثاكا هيَ المبتغى، لأن

بنلوب لا تزال هناك. ولا بد من القول هنا، إن هذه الفكرة ـ فكرة البطل الذي يبحث عن فتاته ـ معروفة في غير هاتين الملحمتين.

ففي الآداب الشرقية القديمة، السومرية ـ الأكدية مثلاً، نجد أن اهتمام الأسطورة، كان يدور أصلاً حول الخليقة والخلود: كيف خُلِق العالم؟ وكيف يُمكن الحصول على الخلود؟ وأساطير الخليقة وقصصها متنوعة، لكن أساطير الخلود تنتهي عادة بالفشل، أي بأن يفشل الإنسان في تحقيق الخلود لنفسه، فتفلت منه الفرصة، أو يقتل. وقد يبدو، أن ليس هناك شبه بين أساطير الخليقة والخلود من الجهة الواحدة، وأسطورة البطل، الذي يبحث عن فتاة، أو يلحقها، ولو اقتضى الأمر قيام حرب بين جماعته وجماعتها.

ولكن من الممكن أن يكون ثمة صلة عضوية، ولكنها غير ظاهرة، بين الفشل في الحصول على الخلود، وبين السعي للحصول على فتاة جميلة، لتكون زوجة. فالزوجة، في هذه الحالة، تكون سبيلاً لإنتاج النسل، وهو نوع آخر من الخلود. إن المرء، والرجل بشكل خاص، يهمه أن يخلد ذكره، وهو أمر نجده بين الناس، حتى في هذه الأيام. وتخليد الذكر، عن طريق الأولاد والأحفاد، هو تعويض سيكولوجي عن الخلود الشخصي. والجدير بالذكر، اننا نجد أيضاً، في ملحمة كِرت، شيئاً من هذا.

فملحمة كرت، من حيث لغة تدوينها والحفاظ عليها، أوغاريتيّة، أي أنها مدونة باللغة التي عثر على ألواحها في آثار مدينة أوغاريت أو رأس الشمرا، الواقعة على الشاطىء الشامي للبحر المتوسط شمالي اللاذقية. والمادة، أي محتوى الملحمة، ساميّ فينيقيّ.

والقصة، باختصار، هي أن كِرت فقد أسرته كلها. ولعل فقده للأسرة كاملة، كان بسبب محاولات ومجازفات ومغامرات، في سبيل الخلود.. المهم، أن الإله (إل) يظهر له في الحلم، ويأمره بأن يقود حملة إلى أراضي أُدُم. فإنه اذا قهر ملكها وتزوج ابنته، فإن ذرية جديدة له، ستأتي منها.

ويقود كرت حملة، إلى بلاد أُدُم، ويفتحها، ويطلب إلى رسل الملك المغلوب، ابنته الأميرة، زوجاً لها، ويرفض كل شيء آخر. إنه يقول:

«هب لي حُرِّي الرقيقة الوسيمة التي مقلتاها كفصوص اللازورد وجفناها كأقداح المرمر».

وتصبح الأميرة زوجاً لكرت، وتنجب له ذرية.

وفي الإلياذة، نجد أن الأمير اليوناني منيلاوس يجنِّد، بوسائل مختلفة، حملة ضد طروادة، ليسترجع هيلين المخطوفة. أو لعلها لم تكن مخطوفة قط، ولكن الأمير اليوناني أرادها لنفسه، فهنا شبه بين كرت ومنيلاوس. الشبه ليس قريباً، بحيث يخطر للبال، أن هناك نقلاً، للملحمة الواحدة، أو القصة الواحدة عن الأخرى. فذلك أمر لن نعثر عليه، مهما اقترب الاقتباس في القصة الواحدة عن الأخرى. لكنّ المهم هو الفكرة الرئيسية، والتي قد تكون موجودةً عند عدد من الشعوب، أو في كثير من الآداب. هذه الفكرة الرئيسية، تُحاك حولها مئات من القصص أو الحكايات المساعدة، على مدى أجيال أو قرون. فعندما نقرأها، نجد «شخصية» أدبية جديدة، وخصوصاً إذا كان ثمة فرق كبير في اللغة المستعملة. ولكن عندما نحاول الكشف عن الجذور، عندها نصل إلى هذا التشابك.

والمقصود من الإشارة الى الفرق في اللغة المستعملة في الحكاية، هو أن استعمال لغتين مختلفتين أصلاً، يجعل الفرق بين صيغة الحكاية الواحدة في ملحمتين، مختلفتي اللغة، كبيراً جداً. فبين ملحمة كرت السامية، المعبر عنها بالفينيقية، وملحمة الإلياذة، المروية باليونانية، فرق، بسبب الفرق بين اللغتين، وإن كان البطلان فيهما من صنف واحد. فإذا تغيرت شخصية البطل نفسه، وتبدلت معالمه، وتطورت سبل الوصول إلى أهدافه، وألصقت به حكايات جانبية كثيرة، وكان ذلك كله بلغتين متباينتين، اختلفت، تبعاً لذلك، الآراء والأفكار الرئيسية، التي تتّخذ الشكل، الذي يعطى لها في الحكاية.

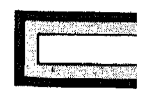
لكن هل يعني هذا أن فكرة البطل المغامر المحارب الرومانسي، التي نعثر عليها في الإلياذة، منتزعة من الأساطير الأقدم عهداً؟ أي هل ثمة شيء يدل على النقل؟

ليس هناك ما يدل على أن هذا قد حصل تماماً. ولعل رأي موسكاتي يوضح هذه القضية. يقول موسكاتي:

«فكرة القيام بحملة حربية للظفر بعروس جميلة أو استعادتها تذكرنا ولا ريب بالإلياذة. كما أن بعض الشخوص والمواقف والتعابير في هذا الادب [الشرقي] تنم عن صلات بالأساطير اليونانية القديمة. ومن الصعب ان نبتّ في مسألة العلاقة بين الأدبين بأن نجعل احدهما معتمداً على الآخر. والأرجح أن مجموعة من الافكار الأسطورية انتشرت في منطقة شرق البحر المتوسط كلها، واثرت في آداب الشرقيين واليونان».

ولعل ما يجب أن يذكر، أن الحضارة الأقدم عهداً كانت، ولا شك، الأصل في ذلك. فالفينيقيون ومن اليهم أقدم عهداً من اليونان.

ونضيف أمراً آخر هو أن وصف الموقد المكشوف في الإلياذة لا يلائم منطقة طروادة أو اليونان؛ ولكنه يتفق تماماً مع المواقد المكشوفة، الوارد ذكرها في الإلياذة، على أن الجنود كانوا يلجأون إليها لإعداد طعامهم، في الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، على الأقل، لمدة ثمانية أشهر في السنة.



٢ الأوزاعي

تقع ضاحية الأوزاعي على بعد نحو خمسة كيلومترات، إلى الجنوب من بيروت، وعلى شاطىء البحر. ويعود سبب تسميتها بهذا الاسم، إلى أن الإمام الأوزاعي مدفون هناك، ومنه أخذت اسمها، وقد كان اسمها من قبل، قرية حنتوس، على ما أخرجه الشيخ طه الولي في كتابه: «الإمام عبد الرحمن الأوزاعي».

والإمام الأوزاعي هو فقيه الشام، في القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، والذي يزور قبره، لا بد أن يقف أمامه، إجلالاً لهذا العالم الكبير، الذي كان على خلق عظيم.

وثمة ما يشبه الإجماع، على أن عبد الرحمن الأوزاعي متحدّر من عائلة هندية، من حوض السند، حملت أصلاً إلى اليمن، ثم استقرّت في احدى ضواحي دمشق. ويبدو أن هذه الأسرة انتقلت، بعد ذلك، إلى بعلبك. فالإمام عبد الرحمن مولود هناك، في سنة ٨٨ للهجرة/ ٧٠٧ للميلاد.

ولعلّ أسرةً، هذا شأنها، لم تكن من أصحاب اليسار. فتنقلها لم يكن بسبب تكسّب تجاري، أو تولي منصب إداري أو عسكري. ويدلنا على هذا، أن أم الإمام، كانت تضطر للعمل في سبيل تربية ابنها، الذي ولد بعد وفاة أبيه بقليل. ولعل عبد الرحمن كان الولد الوحيد لهذه الأسرة.

وقد نقل الشيخ طه الولي، عن الوليد بن مزيد، قوله:».

«سبحان الله يفعل ما يشاء. كان الأوزاعي يتيماً فقيراً في حجر امّه، فخرجت به أمه من بلد إلى بلد إلى أن بلّغته حيث رايته».

أي عالماً إماماً.

والواقع، أن الأوزاعي أصبح فقيهاً. ومثل هذا الأمر، كان يقتضي الرحلة في طلب العلم، والرحلة في طلب العلم، كانت متيسرة، لمن رغب فيها، لكن عبد الرحمن جاء في وقت مبكر، فلا شك عندنا في أنه كان صاحب همة قعساء، حتى تغلب على مشكلاته، ورحل في طلب العلم.

ويذكر الباحثون، في أخبار الأوزاعي، أنه طلب العلم في أماكن كثيرة. وكانت أوّل رحلة له، في صفوف القتال، إلى اليمامة. فلما انتهى من ذلك، أخذ يتنقل في الأمصار، حيث يلتقي العلماء، ويأخذ عنهم. وكانت الأماكن، التي رحل اليها، طلباً للعلم والمعرفة فيها: البصرة، وعسقلان بفلسطين، ودمشق، والحجاز، واليمن. واستقر في دمشق، حيث عمل في التدريس، شأن أصحاب المعرفة، وإن لم يذكر المؤرخون والمترجمون أماكن تدريسه في دمشق.

على أن الأوزاعي، على ما يبدو، استقر أخيراً في بيروت، وفيها توفي، ودفن في محلة الأوزاعي.

ومع أن تاريخ استقراره في بيروت فيه خلاف، فالمرجح أنه جاءها سنة ١٣٣ هـ. يقول الشيخ طه الولي:

«أقام الأوزاعي بالقرب من دمشق ما شاء الله أن يقيم، حتى إذا اكتهل... نزعت نفسه إلى التقرب من الله تعالى بالجهاد في سبيله. وكانت مدينة بيروت في أيامه تستقطب أولئك النفر من المسلمين الذين يرون المرابطة في هذه المدينة عملاً دينيًا يقرّبهم إلى الله زلفى. فشدّ الإمام رحاله اليها. وكان ذلك حوالي سنة ١٣٣ من الهجرة».

وظل الإمام الأوزاعي في بيروت، إلى حين وفاته في سنة ١٥٧ هـ/ ٧٧٣ م، على الأرجح.

وقد عاش الأوزاعي، نحو ثلثي حياته، في أيام الأمويين، وانتقل الى بيروت، حوالي الوقت، الذي آل فيه الأمر إلى العباسيين. ومن ذلك الوقت، أي منذ أن جاء بيروت، انقطع إلى العلم والتدريس والعبادة. وقد يكون في تصرّف الأوزاعي نوعٌ من الرغبة في الانقطاع عن الأمور العامة، بسبب التغيّر الذي طرأ على البلاد. فقد كان ولاة العباسيين شديدين، على من كان للأمويين عليهم يد أو فضل.

ويبدو أن الأوزاعي، كان أحد هؤلاء، الذين كان للعباسيين فيهم رأيٌ خاصٌ. فقد روى الأوزاعي، أنه دخل على عبد الله بن علي، عمّ الخليفة السفاح، بعد أن أجلى الأمويّين عن بلاد الشام، وكان عبد الله قد طلبه. فكان أن سأله عبد الله عن أمور ثلاثة:

أولها إن كان إجلاء الأمويين عن البلاد جهاداً، فقال الأوزاعي إن الأعمال بالنيّات، مستشهداً بالحديث الشريف.

وكان ثاني الأمور، التي سأله عنها عبد الله، هو عن دماء بني أمية، فكان جوابه، استشهاداً بحديث للنبي الكريم انه:

«لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيّب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

فكان أن سأله عبد الله بن علي السؤال الثالث عن أموال بني أمية، فقال مجيباً على ذلك:

«إن كانت في أيديهم حراماً فهي حرام عليك ايضاً، وإن كانت لهم حلالاً، فلا تحل لك إلا بطريق شرعي».

وهذه الرواية منقولة عن الأوزاعي نفسه.

ومع ذلك، فلم يقتل الوالي الأوزاعي. بل على العكس من ذلك، عرض عليه أن يوليه القضاء، فاعتذر. ولما انصرف من المجلس لحقه رسول ومعه مئتا دينار لينفقها على نفسه، فتصدّق الأوزاعي بها. ولعل العبرة، من هذه الرواية، هي أن عبد الله بن علي أكبر شجاعة الأوزاعي الشخصية، فأكرمه بعرضه ولاية القضاء عليه.

على أن القصة الاكثر شيوعاً على لسان القوم، هي تشفّعه بمواطنيه من نصارى جبل لبنان. ذلك أن معاوية بن أبي سفيان كان قد صالح في أيامه الروم:

«وارتهن منهم رهناء وضعهم ببعلبك. ولقد بقي من هؤلاء الرهناء خلفٌ تسبّبوا في عهد الدولة العباسية، باضطراب حبل الامن في البلاد. فقام الوالي العباسي صالح بن علي بقتل مقاتلتهم وإقرار من بقي منهم على دينه، وردهم إلى قراهم وأجلى منهم رؤوس الفتنة...».

ولما شكا هؤلاء، ما أصابهم من غضب الوالي العباسي، إلى الأوزاعي بادر بالكتابة الى الوالي. ورسالة الأوزاعي، الى الوالي، جميلة جداً. فهو يقول فيها:

«... وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان من لم يكن مما لنا لمن خرج على خروجه، ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم، ما قد علمت. فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يُخرجوا من ديارهم وأموالهم. وحكم الله تعالى أن ﴿لا تزر وازرة وزر اخرى﴾، (النجم: ٣٨). وهو احق ما وُقف عنده واقتدي به، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإنه قال: من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه».

فنزل الوالي العباسي عند رأي الأوزاعي. ويشار الى الأوزاعي، على أنه فقيه الشام أو إمام الشام. والذي نعرفه، هو أن مذهبه في الفقه انتشر في الشام، وسار أمره كذلك في الأندلس. وليس ذلك غريباً، لأن الكثيرين، من مقاتلة الأندلس، كانوا من الشام. ولكن أمر الأوزاعي انحسر عن البلدين. أما بالنسبة إلى الأندلس، فقد انتشر فقه الأوزاعي، إلى أن ارتحل علماء من الاندلس، إلى مالك بن أنس، فتتلمذوا عليه، وعادوا بعلمه، وأبانوا فضله. فأخذ أمير الاندلس، هشام، في أواخر القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، بالمذهب المالكي، وأمر الناس جميعاً بالتزامه.

ولكن الغريب، أن يزول مذهب الإمام الأوزاعي من بلاد الشام، كأنه لم يكن. ولا شك في أن الأحوال السياسية، التي سادت بعد ذلك، كان لها تأثير في ما حدث. فالإمام الأوزاعي شامي، وكان يعيش في كنف الأمويين. فلما دالت دولة هؤلاء، انزوى الإمام بنفسه في بيروت.

وكـان من الطبيعي أن يُقبل النـاس، حتى ولو أنهم لم يُلـزموا بـذلك، عـلى المذاهب، التي قـامت في عاصمة الدولة، أو في مركز من المراكز الاسلامية الأولى الكبرى، مثل المـدينة. ولعـل رأي محمد كـرد علي جدير بالانتباه اليه، في هذه المناسبة. فقد قال:

«اشتهر من أسباب المذاهب الدينية من عاضد الملوك دعوتهم، ومن هام العوام بها وهضمتها نفوسهم. وهناك مذاهب جماعية، لا تقل عن غيرها شأناً كمذهب الظاهري والأوزاعي والطبري، ضعفت شهـرتها، إذ لم تجـد لها من يعضدها من الملوك، ولا من يهيم بهـا من الخاصـة أو العامـة، كما وقـع لمذاهب الحنفيـة والشافعيـة والمالكية والحنابلة أوسع مذاهب أهل السنة انتشاراً».

وهناك من يرى، بأن مذهب الأوزاعي ضعف شأنه، لأن هذا الإمام لم يضع كتاباً يفصل فيه مذهبه، أو يحدد خصائصه.

لكن الشيخ طه الولي يقول، حول هذا الموضوع:

«إن مثل هذا القول فيه شيء كثير من المغامـرة العلمية التي لا نستطيـع الركـون إليها عـلى علاتهـا دون أن نتحفظ أو نحترز».

ولكن أَلَمْ يؤلف الأوزاعي قط؟ هل من المعقول أن يكون للرجل هذا النفوذ، وأن ينتشر مذهبه مثل هذا الانتشار، دون أن تكون له مؤلفات في الفقه؟

يـرى الباحثـون، أن الأوزاعي صنّف بنفسه كتبـاً، شأنـه في ذلك شـأن بقية الأئمـة. وقد روي، أن مؤلفاته، ضاعت في الزلزال، الذي أصـاب بيروت، أثنـاء إقامـة الأوزاعي فيها. ونحن، مـع أننا نميـل الى الأخذ بأن الأوزاعي ألّف كما ألّف غيره، فإننا نظن أن الناس صرفوا النظر عن مؤلفاتـه، لأنها لم تصـدر عن مركز السلطة والقوة. وعلى كلٍّ، فإننا نرجو، أن يُعثر على شيء من مؤلفـات الأوزاعي، لا مما نقـل عنه فقط، ذلـك لأن الأوزاعي كان يعيش في (الشـام)، وهو بلـد كان قـد عرف تجـارب قانـونية لهـا صفتهـا الخاصة، على ما نعرف من «كتاب القانون السوري ـ الروماني»، الذي كان معروفاً بالسريانية والعربية في الجزيرة ـ أي شمال شرق سوريا الحالية ـ والذي كان يمثل تجـربة قـرون من القانـون الرومـاني المطعم بالعرف المحلي والعادات القبليـة والنواحي الـدينية المسيحيـة. ولسنا نشـك في أن الأوزاعي، كان يعـرف شيئاً كثيراً عن هذه الأمور.

على أن الأوزاعي، على ما أخرج الشيخ طه الولي، لخّص لنا بكلمات قليلة مفهوم الدين لديه، بقوله:

«خمسة كان عليها الصحابة رضي الله عنهم والتابعون.
اولاً: لزوم الجماعة (أي موافقة الرأي العام الإسلامي في وحدة الكلمة وطاعة الإمام).
ثانياً: اتباع السنة أي موافقة النبي، صلى الله عليه وسلم في قوله وفعله وتقريره.
ثالثاً: عمارة المساجد (أي غشيان المساجد للصلاة).
رابعاً: التلاوة (قراءة القرآن).
خامساً: الجهاد، نشر الدعوة الاسلامية وحمايتها».

وهي، كما نرى، أصول إسلامية، مقررة أصلاً.

وقد عبّر الإمام الأوزاعي عن ذلك، بقوله:

«اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالـوا، وكف عما كفـوا عنه. واسلـك سبيل سلفـك الصالح، فإنه يسعك ما وسعـه، ولا يستقيم الإيمان إلا بـالقول، ولا يستقيم الإيمـان والقول إلا بـالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنيّةٍ موافقة للسنة...».

وقال:

«وكان من مضى من سلفنا لا يفرّقون بـين الإيمان والعمـل، فالعمـل من الايمان، والايمـان من العمل. وإنمـا

الإيمان اسم جامع، فمن آمن بلسانه وعرف بقلبه وصدق ذلك بعمله، فتلك العروة الوثقى لا انفصام لها. ومن قال بلسانه ولم يعرف بقلبه ولم يصدق بعمله لم يقبل منه، وكان في الآخرة من الخاسرين».

كان الإمام الأوزاعي العالم زاهداً ناسكاً مجاهداً متعبداً، وهذه كانت نواحي حياته تماماً. وشخصية الأوزاعي، هي لذلك، شخصية متكاملة، ومن هنا، كان التفات المؤرخين إلى هذه الشخصية؛ فوجدوا أقوى ما فيها، أي أكبر مظهر لتكاملها، هو الجرأة، التي:

«كان يبادر الى التزامها في المناسبات، عندما كانت تصطدم مصالح الناس وحقوقهم مع سيادة الدولة ونفوذها... وليس من شك في أن لجوء العامة من الناس إلى الأوزاعي، في ذلك الحين لدرء الحيف عنهم أو الشفاعة لهم لدى الحكام، من شأنه أن يعطينا فكرة واضحة عن مكانة هذا الرجل الروحية بين قومه. وهي مكانة نابعة، ولا شك، من طبيعة حياته الخاصة، التي كانت تتميز بما يتميّز به عادة أولئك النفر من المنصرفين الى عبادة الله في قيود شديدة من التبتل والخشوع والامعان في إذلال النفس والزهد بالملذات الدنيوية».

والكلام هنا للشيخ طه الولي.

ويستمر الشيخ طه بقوله:

«إن هذا الرجل قد بلغ حسن الظن بنفسه حد الاقتناع المطلق بأن الله عزّ وجل قد تقبّل منه عبادته، وشمله فعلاً بالرضوان والقبول، وخصّه بمنزلة سامية دونها منازل سائر الناس في زمانه».

وقد زار عبد الغني النابلسي، المتوفى سنة ١٧٢٠ للميلاد، قبر الإمام الأوزاعي في بيروت، فنظم في ذلك قصيدة، فضلاً عن أبيات أخرى نظمها. وقصيدة النابلسي هي قصيدة صوفي عالم في صوفيٍّ عالمٍ، على أن ألفاً من السنين تقريباً تفصل بينهما. فمن أبيات النابلسي قوله:

حضرة تملأ القلوب سروراً ... وابتهاجاً بأمر ربّ مطاعِ
شطّ بحر عليه للعلم بحرٌ ... طافحٌ بالكمال والانتفاعِ
زادك الله هيبة ووقاراً ... ورعى الله منك تربة راعِ
وعليك الرضى من الله يتلو ... رحمة لا تزال ذات اتساعِ

وحديثي، هذا، عن الأوزاعي، حريّ بأن يختم بما قاله فيليب حتي عنه. قال:

«إن النظرة اللبنانية الشاملة والروح اللبنانية السمحة تتجسدان في سماحة روح الأوزاعي وفي نبل أخلاقه. فإنه كان يشدّد على فكرة العدل والرفق واللطف عندما كان الامر يتعلق بالرعايا من غير المسلمين. وكان يحب البلاد التي يعيش فيها... وإننا لا نعرف فقهاء من فقهاء المسلمين [الذين عاصروه مثلاً] اظهر من نبل العاطفة، ما اظهره الأوزاعي في دعوته إلى الأخوّة الانسانية... فالأوزاعي، الفقيه الشامي، كان يمنع قطع النخيل وغيره عند مقاتلة المشركين... وفي رأي الاوزاعي انه إذا حارب ذمّي في صفوف المسلمين فإن حصته من المغانم يجب أن تكون كحصّة المسلم... وما كان الأوزاعي ليقرّ قتل الرهائن وهو ممن يقولون بأن نكث العهد يجب ألا يقابل بنكث العهد، بل بالمروءة والشهامة».

ويجدر بنا أن نذكر، أن الإمام الأوزاعي دخل في يوم قارس البرد من شتاء عام ١٥٧ هـ/ ٧٧٤ م غرفة الحمام حيث وضعت له زوجته كانوناً فيه جمر فحم ليتدفأ... فمات اختناقاً. وقد وجدته زوجته، ملقى على الأرض، ووجهه نحو القبلة. والأوزاعي، على ما نال من مال، وجد معه، لما مات، سبعة دنانير فقط.



٣ أرز الرب

نحن نقف على نشز من الأرض، على طريق أرز لبنان. اذا نظرنا إلى جهة الطريق، ونحن بعيدون عنها قليلاً، نحسب أننا على مرتفع من الأرض، فإذا أطللنا إلى الجهة الأخرى أدركنا أننا على رأس الجدار الصخري، الذي ينتهي إلى أسفل الوادي العميق! مثل هذا المكان يبعث الطمأنينة في النفس. فالوادي، وما يحيط به من صخور وتلالٍ وجبال مرتفعة، هو مدعاة للتأمل، والطريق يحفظ اتصالنا بالناس.

وقبل البدء بالتأمل، الذي يمكن أن يوحي به هذا الوادي، ننظر حولنا، فإذا على مسافة قصيرة من حيث نجلس، تتلألأ أنوار بلدة تشاركنا مثل هذا الموقع.

إنها بلدة (إهدن)، والوادي، الذي تتّكئ عليه هي، كما نتّكيء نحن على جانبه، هو وادي قاديشا. وإهدن اسم قديم لهذه البلدة، منذ أن كانت قرية صغيرة، قبل مئات ومئات من السنين. والكلمة آرامية الأصل، على ما يُرجّح، ومعناها المكان القوي المنيع الهادىء. واسمها ينطبق عليها تماماً. فهل ثمة أمنع وأقوى من مثل هذا الموقع؟ إنه يقع بين الوادي إلى الجنوب، والغابات الى الشمال، ويتم منه الانحدار الى الغرب، وهو الطريق الذي يتحتّم على القادم من طرابلس الساحلية أن يجتازه ليصل إلى هذه المنطقة. أما إلى الشرق، فثمة منطلق مرتفعات إهدن وجبالها ونقطة الدفاع عنها ولها.

وجدير بنا هنا، أن نتذكر بأن القسم الأكبر من أسماء المدن والقرى في لبنان، وفي فلسطين، وسوريا، قديم عهده، لأن هذه الأماكن أقيمت فيها القرى ـ العامر منها إلى الآن، والذي تهدّم، وعفا أثره ـ قبل فترة تتراوح بين خمسة وستة آلاف من السنين. وثمة أمر ثانٍ وهو أن أسماء العدد الأكبر من هذه الأماكن جاء في واحدة من اللغات السامية، التي عرفتها المنطقة ـ الكنعانية والفينيقية والآرامية والسريانية ـ (وهناك أسماء أقدم عهداً). وهذه اللغات اختلطت فيها التسميات، بحيث لم يعد من اليسير حلُّ ألغازها دوماً. والأمر الثالث، هو أن اللغة الآرامية هي التي أصبحت تعرف فيما بعد باللغة السريانية، بعد أن دخلت عليها، أو أُدخلت عليها تبديلات وتغييرات، هي من نوع التطور الطبيعي في تاريخ اللغات.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن، عندما نرى هذه الأماكن، هو: لماذا نجد أن أكثر هذه المدن القديمة قامت على مرتفعات، إلا حيث ينعدم المرتفع، كما هو الحال في السواحل وعلى الشواطىء؟

إن هذه المدن أُقيمت على مرتفعات، لأنّ الرجال الذين بنوها تعمّدوا اختيار المكان الذي يسهل الدفاع عنه، لأن العداوة بين الجيران ليست أمراً حديث العهد. وهذه المدن كانت كلٌ منها، في القسم الأطول من تاريخها، مستقلة عن الأخرى. ومن ثم، فقد تقع الحرب القائمة على المنافسة والطمع في أي وقت. فالمكان المرتفع، المبنيّ على قمة تلّ أو على جبل، يسهل الدفاع عنه.

وقد قامت قرى ومدن صغيرة أخرى أيضاً على رأس جبل، دون أن يكون الباعث على ذلك هو الدفاع ضد العدو، وهي القرى التي أنشئت، حول هياكل الأقدمين، في أعالي الجبال. فالذي يجب أن نعيه دائماً، هو أن الآلهة القديمة ـ وهنا نستعمل الجمع بالآلهة للدلالة على الأزمنة القديمة جداً ـ كانت تحبّ، حسب اعتقاد الناس في ذلك الوقت، أن تقيم في الأماكن المرتفعة، ليتسنى لها الإشراف على أتباعها. وقد أكرم هؤلاء الأتباع هذه الآلهة، بأن بنوا لها الهياكل لعبادتها في هذه الأماكن العالية. وفي حالات كثيرة، لم يزد ما بني هناك عن هيكل للعبادة. لكن بعض هذه الهياكل، كانت تجذب اليها عدداً من الزوار الدينيين، في المواسم وغيرها، فيقيم الناس هناك فترات تقصر أو تطول. فإذا طالت، قام إلى جانب الهيكل ما يحتاجه

القوم من حوانيت للبيع والشراء ـ المواد الغذائية والأقمشة والأدوات اللازمة؛ وقد تقوم في المكان سوق أسبوعية. وهكذا، كانت تتنوع هذه الأمور، بحيث تنهض مدينة أو قرية، إلى جانب الهيكل، وكانت تتنوع معها الأسماء أيضاً.

فالمكان المرتفع، إذا كان فيه نبع ماء اعتبر مباركاً، مثل قرية الباروك، أو حتى مقدساً مثل نبع قاديشا ووادية، ومعناه المقدس، وهكذا دواليك.

ولنذكر، قبل كل شيء، أن هذا الجبل، الذي نحن عليه، وامتداده جنوباً إلى جبل عامل، وشمالاً حتى جبال اللاذقية، كان مغطى بالغابات، في أقدم عصوره المعروفة مما قبل التاريخ. وكان الأرز هو الشجر الغالب عليه. لكن منذ الألف الثالث قبل الميلاد، أخذ السكان يقطعون هذه الأشجار؛ البعض قطعها ليصطلي بنارها، والبعض الآخر قطعها ليصنع منها باباً أو شباكاً أو طبليّة. وكلما زادت الحاجة إلى هذه الأشياء، ازداد قطع هذه الأشجار. لكن هذا كله، لم يكن شيئاً يذكر بالنسبة لقطع الأخشاب للإتجار بها.

والتجارة بالأخشاب قديمة بالنسبة لهذه المنطقة، وبالأخصّ للبنان. ولنتذكر، أنه في الألف الثالث قبل الميلاد، كانت حضارتان قد قامتا في المنطقة، هما: حضارة وادي النيل وحضارة دجلة والفرات. وقد كان من أثر التطور، الذي أصاب البلدين حضاريًّا، وتنظيم الأعمال فيهما، أن ازدادت الثروة هناك، بحيث أن السكان أصبحوا يتطلعون إلى الإتقان في أعمالهم. لذلك، كانت الهياكل بحاجة إلى أخشاب جيدة لسقوفها وأبوابها، والسفن التي تمخر عباب اليمِّ، أو حتى التي تسير في الأنهار، كانت بحاجة إلى الخشب القوي لصنعها. والبلدان، حوض النيل وأرض الرافدين، كانا فقيرين بالأخشاب، فاتجهت أنظارهما، حكومة وتجاراً، إلى خشب الأرز الجيد، فأخذا يبتاعانه من سفوح جبال لبنان، والناس هنا يقطعون الأشجار، لكنهم لا يزرعون بديلاً عنها. وهكذا مع الوقت، تعرّت الجبال في أغلبها، وبقيت مجمّعات صغيرة من هذا الأرز، لعلّ الذي حماها، أنها كانت تعتبر موئلاً للآلهة. فلم يجرؤ السكان على قطعها بأجمعها، ولعل أكبر مثلين على ذلك في لبنان، أرز الرب وأرز الباروك.

وكان الاسم الساميُّ القديم الأكثر شيوعاً على ألسنة الناس للإله هو (بعل)، ومعناه الرب أو السيد، ويليه اسم آخر هو (إيل). وقد توزع هذان الاسمان فيما بينهما الكثير من أسماء المدن والقرى، فبعلبك و (بعل شمي)، و (بيت إيل) انما هي نماذج بسيطة.

وكما كانت تنسب المدن للآلهة، كانت الأماكن غير المأهولة تنسب لها أيضاً، بسبب ما لها من ارتفاع في المكانة. ومن هذه الأماكن هذه البقعة التي تقوم فيها بضع مئات من شجر الأرز، الذي يعود إلى مئات ومئات السنين في التاريخ. وهذه الأشجار سميت، أو على الأقل عرفت، باسم أرز بعل. وكانت موضع تقديس وتكريم.

ولما جاءت المسيحية إلى هذه البلاد، وجد الناس، الذين كانوا وثنيّين، أنفسهم وقد اعتنقوا المسيحية، وكانت لهم، من قبل، طقوس واحتفالات دينية مرتبطة بأرز بعل، فلم يتخلّوا عن هذه الاحتفالات، التي كانت تقام، صيفاً، في المنطقة. لقد حافظوا على الاحتفالات والطقوس، لكنهم مع الوقت، وعلى سَيرٍ هيِّنٍ عبر الزمن، جعلوا هذه الطقوس مسيحية.

وهذا معناه، أن قراراً بهذا الأمر، لم يتخذ في سنة معينة، أو زمان معروف، أو على يد صاحب سلطة ما.

وفي العهد الجديد، في انجيلي متى ومرقس، يذكر أن المسيح تجلى لبعض تلاميذه، وكان معه النبيان موسى وايليا. وان التلاميذ هؤلاء، اقترحوا أن تقام ثلاث مظّلات، للمسيح وموسى وايليا، كي يستظلّوا بها. ولكن قبل أن ينتهي الاقتراح إلى شيء، أحاطت بالمسيح هالةٌ من نور، ورافق ذلك صوت سماوي يباركه. فخرّ التلاميذ أمام هذا، ولما عادوا إلى وعيهم، وجدوا المسيح وحده. وهذه الحادثة هي التي تحتفل بها الكنائس المسيحية، باسم عيد التجلّي.

ولا ندري تماماً متى تم تحديد هذا العيد. ولكن الذي نراه هو أن الناس كانوا يحتفلون بأعياد وثنية صيفية، في جميع الأماكن الجبلية. لذلك، لما اتّخذ هذا العيد بالذات صفة الاستمرار، وأحياه الناس عاماً بعد عام، فتّش كل قوم عن مكان يناسب هذا الاحتفال. والمهم، ان الرواية المسيحية، عن التجلّي، لم تحدد مكاناً للحادثة، على تحديدها لأماكن معينة لأحداث أخرى في حياة المسيح. وكل ما ذكر، انه - أي التجلّي - كان في جبل عال. ثم إن الرواية لم تشترط حدوث هذا الأمر، في نطاق البلاد، التي عاش فيها المسيح، أي فلسطين.

ولسنا ندري عدد الأمكنة المرتفعة، التي ادعت حدوث التجلي عليها. ولكن جبلين يدعيان هذا الفخر أو المجد: جبل طابور، الواقع شمال شرق مرج ابن عامر، في شمال فلسطين، حيث يحتفل المسيحيون على قمته بالتجلي، والثاني هو أرز الرب في شمال لبنان. وجبل طابور أعلى قمة هناك، ويرتفع من المرج مباشرة، وأرز الرب قريب من أعلى قمم جبال لبنان.

وعيد التجلي، في الروزنامة المسيحية، يقع في السادس من شهر آب. ويتم الاحتفال، في اليوم نفسه، في المكانين المذكورين.

ومن أقدم ما عثر عليه، عن الاحتفال بالنسبة لأرز الرب، يعود إلى القرن الثالث عشر للميلاد، وقد يكون هناك ما هو أقدم عهداً. أما الاحتفال به على جبل طابور، فيعود إلى القرن السادس للميلاد. ولكن ليس المهم، كما ذكرت سابقاً، التقرير ثم الاتباع، فقد يكون الأمر عكس ذلك. أي أنه في هذه الأعياد، وفي كثير من هذه الحالات، الذي يسبق هو الاحتفال والاستمرار في الاحتفال، وعندها تقبل به المؤسسة على أنه أمر واقعي، فتباركه أو تكرّسه، كما يقال في لغة التبريك.

وفي الصباح المبكر من يوم العيد، ينتقل، عادة، أهل المنطقة، لا من بشرّي وحصرون وبزعون وحدث الجبة وإهدن وزغرتا فحسب، ولكن من الأماكن النائية، للاحتفال بعيد الرب - أي عيد التجلّي - في أرز الرب. وعندها، نرى، كيف أن أرز بعل الوثني أصبح أرز الرب، وكيف أن الاحتفال بالإله الوثني أصبح احتفالاً بتجلّي المسيح.

٤ المدرسة في جبل عامل

غلب على التعليم الاسلامي، والسني بشكل خاص، نظام المدرسة، منذ أن أنشأ الوزير السلجوقي الكبير، نظام الملك، أول مدرسة نظامية، في أواسط القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد. وكانت هذه المدارس، في حقيقة أمرها، حلقات للدرس تُعنى بعلوم الدين، وفي مقدمتها الفقه. وكانت جميع نفقات هذه المؤسسات ملقاة على كاهل الدولة أو الوقف، والدولة هي التي تنتقي شيوخ هذه المدارس، التي كان الإشراف الرسمي عليها، وخاصة في العصر المملوكي، يعود إلى قاضي القضاة في مركز الولاية الرسمي. فضلاً عن ذلك، فإن هذه المؤسسات كانت سنية لتقوية فكرة الجماعة، فقد كان موظفو الدولة، في الشرق والغرب الاسلاميين، يختارون من خريجي هذه المدارس. وكان يدخل، في إطار الموظفين القضاة والكتّاب في الدواوين والمعلمون والوعاظ.

وكانت طرابلس مركز الحركة العلمية السنية في العصور الوسطى. فقد بنى فيها المماليك مدارس أربعاً، عرفنا منها المدرسة القرطائية، التي أنشئت عام ٧٢٨ هـ/ ١٣٢٧ م، في عصر قلاوون؛ والمدرسة السقرقية، التي يعود إنشاؤها إلى سنة ٧٥٧ هـ، ١٣٥٦ م؛ والمدرسة الخاتونية، وهي التي تمّ افتتاحها سنة ٧٧٥ هـ/ ١٣٧٣ م. ونلاحظ أن هذه المدارس جميعها، أنشئت في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، أي بعد أن استعاد المماليك طرابلس من أيدي الصليبيين واستقر لهم الأمر في البلاد، وبنوا المدينة الجديدة، بعد أن كانوا قد هدموا المدينة القديمة، إثر الاستيلاء عليها.

لست أشك في أن الطرق الصوفية، التي قوي شأنها في تلك الأثناء، كانت لها مراكز لتدريس تعاليمها. وينطبق هذا على غير طرابلس أيضاً. فقد روى القلقشندي، في كتابه «صبح الأعشى»، أن مدينة بعلبك غنية بالمساجد والمدارس وتكيات، أي خانقانات، الصوفية والبيمارستانات. أما طرابلس فقد كان فيها، على ما أخرج محمد كرد علي، ثماني دور للصوفية.

وقد ورد في أحد الكتب، أن المنهج الذي كانت تتبعه المدارس، في تلك الأيام، كان على طبقات ثلاث:
الأولى تشمل القراءة والخط والإملاء والقرآن الكريم والفقه؛
والطبقة الثانية كان فيها المصارعة ورمي السهام والقيافة؛
والطبقة الثالثة أساسها المسابقة وركوب الخيل.

ومثل هذا البرنامج، كان يتبع في مدارس طرابلس وغيرها. ولعل ظروف الدفاع عن البلد وجوارها، من احتمال هجوم عليها، من المملكة الصليبية في قبرص، كان العامل الأساسي في اختيار مثل هذا البرنامج.

ويبدو أن جزين، كانت أقدم مركز للتعليم، في جبل عامل، إذ أن اسمها، كمركز لذلك، يرجع إلى القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد. وكان الطلاب يؤمونها، لتلقي العلم على مشاهير علمائها. ومثل ذلك يقال عن جبع (جباع).

وقد كان من نتيجة احتلال المغول لبغداد، ان تقوّى التعليم الشيعي، في جبل عامل. فانه بعد استيلاء المغول على بغداد، في عام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م، اضطربت شؤون الدراسة العالية في النجف. وذلك وضع عبئاً ثقيلاً على معاهد العلم في جبل عامل. وقد نهضت هذه المدارس بالعبء، وكانت على قدر المسؤولية. ففي أواخر القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، نجد أن الشهيد الأول محمد بن مكي، بعد عودته من العراق، يجعل من جزين مركزاً لمدرسة عالية، للفقه الإمامي.

ومن المدارس الهامة، في لبنان، في العصور الوسطى، مدارس جبل عامل. ذلك أن جبل عامل كان،

منذ استقرار الشيعة فيه، على اتصال قوي بمراكز الفقه الإمامي، في العراق وايران. وهناك أسماء لامعة في تاريخ العلم في جبل عامل، منها جزين ومدرستها ومدرسة ميس الجبل ومدرسة جبع (جباع).

وهناك وصف لمدرسة جزين هذه، في كتاب محمد كاظم مكي، عن الحركة الفكرية والأدبية، في جبل عامل، جاء فيه قوله:

«ولقد طارت لهذه المدرسة [جزين] شهرة كبيرة في الجبل وخارجه وقد كانت جزين في ذلك العهد قصبة مهمة محشودة بالسكان وكان فيها جامع كبير ومنارة رفيعة وكان في جزين اثنا عشر شيخاً من العلماء الافاضل. ولذا كنت ترى جزين محطاً لرجال وطلبة العلم ومنتجعي الأدب. ونبغ في جزين عدد كبير من العلماء على التوالي، وكان بينهم الفاضلات والعارفات من النساء، منهن المجتهدة الفاضلة ست المشايخ فاطمة أم الحسن أخت الشهيد الأول، التي أولاها إخوتها العلماء الفتوى بكل ما يختص بالنساء من أمورهن الدينية».

وكانت مدرسة جبع (جباع)، التي عاصرت مدرسة جزين، قد احتضنت العلم والعلماء لما ضعف شأن مدرسة جزين. على أن المدرسة التي خلفت جزين، هي مدرسة ميس الجبل، وقد أسست سنة ٩٣٣ هـ/ ١٥٢٦ م.

«وكانت هذه المدرسة مثابة طلاب العلوم في عامة انحاء جبل عامل ورحلة فضلاء الشيعة من العراق وايران والشام، وقد بلغ عدد طلابها ٤٠٠ طالب، وقرأ فيها كثير من العلماء منهم العلامة الكبير الملقب بالشهيد الثاني، زين الدين الجبعي، توفي عام ٩٦٦ هـ/ ١٥٥٨ م. ويبدو أن هذه المدرسة بقيت بعد وفاة مؤسسها ردحاً من الزمن يشير إلى ذلك تراجم خريجيها. وينتسب اليها كثير من العلماء الذين تخرجوا بعد وفاة مؤسسها. وخرج من ميس الجبل نفسها علماء كثيرون ذكرهم وذكر فضلهم على المعرفة وأشار إلى مؤلفاتهم الحر العاملي. وقد كان منهم في القرن السابع للهجرة علماء كبار منهم احمد بن تاج الدين العاملي الميسي الذي استجازه العلامة محمود بن محمد الكيلاني سنة ٩٥٦ هـ».

وهذا القول هو أيضاً لمحمد كاظم مكي.

لما زرت، قبل سنوات، مدينة أصفهان، وقضيت وقتاً أتنقل بين معالمها المعمارية البالغة الغاية من الأناقة، لفت نظري، بشكل خاص، مبنًى يبهر الأنظار بجمال بنائه وروعة زخرفته وتناسق ألوانه، وهو المعروف باسم مدرسة لطف الله، التي تعود إلى أيام طهماسب الصفوي، الذي حكم بين عامي ٩٣٠ و ٩٨٤ للهجرة (أي بين ١٥٢٤ و ١٥٧٦ للميلاد). ولطف الله هذا عالم من علماء مدرسة ميس الجبل. وقد قال عنه صاحب كتاب الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل ما يلي:

«ومن العلماء القدماء الذين خرجوا من ميس [الجبل] الشيخ لطف الله الميسي، كان علامة كبيراً مات ودفن في اصفهان حيث بني له مقام ومسجد معروف ما زال في ايران حتى اليوم مشهوراً ببنائه البديع وقد كان هذا معاصراً للشاه طهماسْب الصفوي. ويسمى مؤسس المدرسة المنتظمة في ميس بالمحقق الميسي نسبة لتحقيقاته العلمية والأصولية».

ولعل مما يجب أن يذكر أن الشاه الصفوي بنى هذه المدرسة للشيخ لطف الله، ليغريه بالبقاء هناك، شيخاً مدرساً مستقلاً بمدرسة خاصة به، لا يشاركه فيها شيخ آخر، ولا يشترك هو مع شيوخ آخرين. وهذا مما يدلّ على مكانة علامتنا الكبير.

أما مؤسس المدرسة المنتظمة في ميس الجبل، والذي يرجع إليه الفضل في وضع أسس الدراسة فيها، فهو (المحقق الميسي)، وقد سمي بذلك، بسبب ما قام به، من تحقيقات علمية وأصولية.

وقد وصلتنا أخبار مفصّلة، عن مناهج التدريس، في المدارس العاملية. وقد أخرج السيد محسن الأمين، في كتابه «خطط جبل عامل»، الكثير عن ذلك. ومع أننا كنا نودّ أن ننقل كل الذي جاء به لأنه وافٍ، بيد أننا مضطرون إلى الاجتزاء بالاهم، مما ورد عنده.

والمنهاج هو كل متكامل الأجزاء، على ما يقول المؤلف. أما العلوم، التي كانت تعلّم في مدارس جبل

عامل، فهي النحو والصرف وعلوم البلاغة وعلم التوحيد وعلم الكلام بقسميه الجواهر والأعراض والإلهيات وعلم أصول الفقه وعلم التفسير والحساب وفن الأدب.

وعلم التوحيد هو أساس هذه العلوم، وله من العلوم المساعدة علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة. ويحيط الطالب، بعد ذلك، بعلم الكلام، وذلك لتتضح له أمور علم التوحيد من جهة، والإلهيات وأصول الفقه وعلم الفقه والتفسير من جهة أخرى. أما فن الحساب فقيمته عملية. ويُذكر الأدب على أنه أمر لازم للثقافة.

على أن السيد محسن الأمين، يفرق، في ما كتبه حول هذا الموضوع، بين العلوم وارتباط تعلمها بالأسلوب والطريقة، وحتى بالشيخ، أي المدرس.

وحريّ بنا أن نشير، قبل ذلك، إلى أن كل علم من العلوم كانت له كتبه المقررة، وكان من المألوف أن يبدأ الطالب، بإشراف المدرس وشرحه، بالأبسط من الكتب، متدرجاً نحو الأصعب منها. وأول ما كان يتعلمه الطالب، هو القرآن الكريم، فيحفظه، ويتعلم الكتابة، لأنها أساس كل ما سيمر به. وهذان أمران هامان يشرف المدرس عليهما إشرافاً تاماً.

ويرى السيد محسن الأمين أن هذه العلوم ومتفرعاتها، تقسم، أصلاً، إلى قسمين رئيسيين:

الأول، هو ما يتلقاه الطالب بإشراف المدرس أو الشيخ.

والثاني، هو ما يقرأه بنفسه، ولكنه يسترشد بآراء شيخه عند الحاجة.

والمجموعة الأولى أو القسم الأول، يدخل فيه النحو والصرف. ومن البلاغة المعاني والبيان، كما يشمل هذا القسم أصول الفقه ومعالم الأصول والقوانين والتوحيد والتفسير. أما ما يمكن أن يعتمد فيه الطالب على نفسه، فيدخل فيه البديع من علوم البلاغة والحساب والأدب والتاريخ.

وكان على الطالب أن يحفظ متن الأجروميّة غيباً، ويحفظ إعراب جملة من الأمثلة التي يمثل بها. فإذا أتقن ذلك، قرأ شرح أَلْفِيَّة ابن مالك. أما في الفقه، فيقرأ الطالب «معالم الأصول» و «اللمعة الدمشقية». وفي التوحيد، كان الاعتماد على العلّامة الحلّي. والتفسير كان مجال الإفادة فيه يعتمد على كنز العرفان. هذه أمثلة من الكتب التي كانت تستعمل في الموضوعات الأساسية. أما في علمي التاريخ والأدب، فللطالب الحرية. ويقول السيد الأمين عن الأدب ما يلي:

> «ويقتصرون في الأدب على حفظ الأشعار والمطارحة بها ويسمونها المنافسة ويكون ذلك ليلة الجمعة وقت الفراغ ترويحاً للنفس فينشد أحدهم بيتاً فينشد الآخر بيتاً أوله قافية البيت الاول وهكذا، ويأمر الشيخ التلاميذ بحفظ لامية العرب ويفسرها عملاً بالحديث: علموا اولادكم لامية العرب فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق».

وهناك أمر آخر، وهو اهتمام المدرسة بأن يفيد الطلاب من شهر رمضان المبارك. فهذا الشهر كان عطلة بالنسبة للطلاب. لذلك، نجد اشارة الى وجوب الإفادة من ذلك في أمور دراسية مختلفة، مثل قراءة كتب إضافية في التفسير وعلم الرجال والحساب.

وكانت الدراسة، على وجه العموم، تعيّن مراحلها بالكتب التي تدرّس، على أن نتذكر فكرة التدرج من الأبسط والأسهل إلى الأصعب والأكثر تعقيداً. ويمكن القول إجمالاً بأن الكتاب كان نقطة الانطلاق الأساسية، والأستاذ كان محور التعليم. فقد كان الطلاب يتحلقون حوله، ويتلقون منه معرفته، تفسيراً لآية كريمة أو إسناداً لحديث شريف أو شرحاً لمتن. وليس أدل على الاهتمام بالمعلم والطالب من أن الشهيد الثاني، زين الدين بن علي بن أحمد الجبعي (المتوفى سنة ٩٦٦ هـ/ ١٥٥٨ م)، قد وضع كتاباً في التعليم وآدابه، بالنسبة إلى المعلم والتلميذ، سمّاه: «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد».

وفضلاً عن ذلك، فانّ هذا النظام (أو هذه الفلسفة)، هو الذي كان متبعاً في المدارس المختلفة، في العصور الوسطى، والمدارس التي تجددت مع المحافظة على التقاليد.

وليس في هذا جديد. فهو نظام التعليم، الذي كان منتشراً في المدارس المختلفة، في الشرق جميعه. والاختلاف هو اختلاف في المحتوى، إذ أن ذلك كان يتوقف على الفئة التي تعلمه، أو العقيدة التي تتبعها تلك الفئة، أو المذهب الذي تتخيّره. وقد استمر هذا الأسلوب، في المدارس العاملية، إلى أواخر القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر للهجرة، (أي أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر للميلاد) في المدارس، التي قامت في تلك الفترة، مثل جبع (أو جباع) المجددة، وشقراء، التي أسسها السيد موسى الحسيني الأمين، والتي اتسعت لنحو أربعمئة طالب، وكانت تعتمد على أوقاف غنية. والكوثرية، التي أنشئت بإيعاز من علماء النجف الأشرف.

وما دمنا نتحدث عن التقاليد العلمية، التي استمرت في مدارس جبل عامل إلى القرن الثاني عشر للهجرة (أو الثامن عشر للميلاد)، يجدر بنا أن نشير إلى أن أبناء جبل عامل، أخذوا أنفسهم بتجديد المدارس القديمة وتقويتها، وإنشاء مدارس جديدة، منها، على سبيل المثال، لا الحصر: مدرسة حنوية (١٢٩٥ هـ/ ١٨٧٨ م) ومدرسة بنت جبيل (١٢٩٨ هـ/ ١٨٨١ م) ومدرسة النبطية الحديثة (١٢٩٩ هـ/ ١٨٨٢ م).

لقد مرّ بنا أن طلاب المدارس العاملية أو بعضها على الأقل، كان برنامجها الأدبي يفرض تعلم لامية العرب وحفظها. ولهذه القصيدة صفة خاصة، وهي، بحسب ما جاء في القول المنقول، تعلم مكارم الأخلاق. وهي قصيدة طويلة، جاهلية النفس، لكنها تجمل أخلاق العرب ومآثرهم. وسنكتفي ببضعة أبيات منها، لتوضيح أهميتها، وسبب اختيارها، نموذجاً للأدب الخلقي:

لعمرك ما بالارض ضيقٌ على امرىء	سرى راغباً أو راهباً وهو يعقلُ
وإن مدّت الايدي الى الزاد لم اكن	باعجلهم إذ اجشع القوم اعجَلُ
وإني كفاني فَقْدَ من ليس جازياً	بحسنى ولا في قربه متعلَّلُ
واسُفُّ ترب الأرض كيلا يرى له	عليّ من الطول امرؤ مُتَطَوِّلُ
وفي الارض منأى للكريم عن الاذى	وفيها لمن خاف القِلى متعزَّلُ

٥ من مطبعة زاخر الى مطبعة الأنسي

عرفت البشرية، في تاريخها الطويل، عدداً كبيراً من الاختراعات التي كان لها تأثير كبير في تطور المدنيات. هذه الاختراعات لا سبيل إلى حصرها، ولسنا نزمع ذلك الآن. ولكن إذا القينا نظرة عجلى، على بعض ما تم في العصور الحديثة، مما له ارتباط مباشر بالثقافة والفكر والأدب، وجدنا أن اختراع المطبعة يأتي في طليعة هذه الانجازات البشرية الهامة. فبعد أن كان كل كتاب، صغر أم كبر، لا بد أن ينسخ باليد كي ينتشر، وهذا أمر فيه جهد كبير ومضيعة للوقت الكثير، أصبحت المطبعة تيسّر من النسخ عدداً كبيراً، وجرد أن تصفّ الحروف. ولنذكر أن اختراع الطباعة مرتبط باسم يوحنا غوتنبرغ، وقد تم ذلك، في أواسط القرن الخامس عشر.

ويبدو أن اهتمام البابوية بمسيحيي الشرق، وخصوصاً الطوائف التي تتبع البابوية بالذات، حمل القوم، هناك، على تأسيس مطبعة في روما، لنشر الكتب العربية والسريانية. وكانت الكتب الدينية هي المطلوبة، والمعتنى بها أصلاً. ويتبين من الدراسات المختلفة، أن مطبعة لليسوعيين في روما، طبعت النص العربي من كتاب للتعليم المسيحي سنة ١٥٨٠، أما المطبعة البابوية بالذات، فقد بدأت عملها بعد ذلك بقليل.

وهذا ينقلنا، مع بعض رهبان الطائفة المارونية، الذين درسوا في الكلية أو المدرسة المارونية في روما، إلى دير قزحيا، في شمال لبنان. فقد حمل هؤلاء، في سنة ١٦١٠ م، مطبعة سريانية الحرف، طبع فيها سفر المزامير، من أسفار العهد القديم، من الكتاب المقدس، ثم انتهى أمرها.

وكانت ثمة محاولات، لنقل مطبعة من روما إلى لبنان، لكنها ذهبت أدراج الرياح. ولذلك، فقد كان على لبنان أن ينتظر ما يزيد على القرن، قبل أن تقوم فيه مطبعة، على يد الشماس عبد الله زاخر، وهو حلبي المولد (١٦٨٤ م)، وكان ماهراً في الصياغة. وقد اضطر إلى الخروج من بلده، صيانة لحياته، فلجأ إلى دير مار يوحنا الصابغ، في الشوير، حيث استقر هناك منذ سنة ١٧٢٨ م. وفي الدير، بدأ يعد العدة لإنشاء مطبعة، لطبع الكتب الدينية، ونشرها بين الناس. ويقول فؤاد أفرام البستاني:

> «إن كل ما في هذه المطبعة، التي تم تركيبها في سنة ١٧٣١، من آلات وحروف ومسابك ومصفّات ومحابر ومكبس ونقوش وزخارف هي من صنع الزاخر نفسه نقشاً وحفراً وسبكاً في الخشب والنحاس والرصاص».

وظل الزاخر في الدير إلى حين وفاته، في شهر آب/ أغسطس ١٧٤٨ م.

ومن ثم، فإن «ميزان الزمان»، الذي طبع في لبنان سنة ١٧٣٤ م هو من إنتاج عبد الله زاخر ومطبعته. وقد عملت المطبعة ببطء كلي، لكنها أنتجت عدداً من الكتب الدينية، وهذا ما كانت الحاجة تدعو إليه. ثم توقفت تدريجاً، بعد وفاة مؤسسها.

ويلاحظ أن المحاولتين الأوليين لإنشاء مطبعة في لبنان، كانتا في الجبل، وكل منهما، كانت في دير من الأديرة.

لكن أول مطبعة عرفتها بيروت، أسست سنة ١٧٥١م، وهي مطبعة القديس جورجيوس، وذلك في الدير المعروف بهذا الاسم، ولو أن الذي أسسها وأنفق عليها، لم يكن من رجال الدين، إذ أنه كان من وجهاء الطائفة الأرثوذكسية، وهو الشيخ يونس نقولا الجبيلي. ولما كان سِفر المزامير هو الكتاب المعتمد لتعليم القراءة عند أكثر الطوائف المسيحية، فقد كان من الطبيعي أن يكون هو أول إنتاج المطبعة الجديدة، وقد طبع مرة ثانية. لكن المطبعة كانت تعرج، من أول الأمر، فتوقفت عن العمل، مع ما بذله الشيخ يونس من جهد ومال.

وفي سنة ١٨٣٤ م، أي بعد توقف مطبعة القديس جورجيوس، بنحو ثلثي القرن، حصلت بيروت على مطبعة محترمة، من حيث الإنتاج والصنع، وهي المطبعة الاميركانية، كما كانت تسمى. وقد نقلت هذه من مالطة، ذلك أن المبشرين الأميركان البروتستانت، كانوا قد اتخذوا من جزيرة مالطة مركزاً لنشاطهم في المشرق. وقد أسس مجلس الارسالية في الولايات المتحدة مطبعة لتزويد المنطقة بالنشرات والكتب اللازمة. فكانت الكتب تطبع في هذه المطبعة، باللغات الانكليزية واليونانية والايطالية والأرمنية والتركية والعربية. ونشرت عدداً من الكتب المدرسية، للمدارس التي كانت تقوم بفتحها في بقاع مختلفة. وكان ممن عمل مصححاً في المطبعة أحمد فارس الشدياق. وفي سنة ١٨٣٤ م، نقل القسم العربي من المطبعة إلى بيروت.

وإذا صحّ ما ذكره أحد المرسلين الأميركيين، فإن مدينة بيروت، لم تكن، آنذاك، في وضع تحسد عليه، إذ قال عنها:

«إن بيروت المدينة مبنية من الطين والحجر الرملي، وهي مظلمة رطبة وأسواقها ضيّقة... وفي الشتاء قلما تجفّ أوحالها. والاسواق مبلطة منذ القديم وكل ذلك بدون ترتيب، والبلاط غير متناسب في الحجم، وبين الواحدة والاخرى فجوات».

وقد يستغرب المرء التطور، الذي مرّت به بيروت، خلال ثلاثين سنة، فالذين وصفوها، حول سنة ١٨٥٧ م، قالوا عنها أشياء أجمل. لكن ثلاثين سنة من عمر بيروت، كانت دوماً مدة تكفي للتبديل. والذين عاشوا في بيروت، خلال الثلاثين سنة الأخيرة، يعرفون ذلك، حق المعرفة. وعلى كل، فقد جاءت المطبعة الأميركانية إلى بيروت سنة ١٨٣٤ م. وبعد سنتين، بدِّلت حروفها، وصنعت لها حروف عربية جميلة. وكان من الطبيعي أن تبدأ بطبع الكتب اللازمة للتبشير والتعليم الديني في المدارس، وحتى مبادىء النحو للشيخ ناصيف اليازجي. وكانت انطلاقتها إيذاناً بطبع الكتب، بشكل يرضي العين. وقد كانت قمة جهدها، في العقود الأولى، طبع الكتاب المقدس، طبعاً أنيقاً صحيحاً مشكولاً، وذلك في سنة ١٨٦٥ م.

وإذا كان للمرسلين الاميركان البروتستانت مطبعة، فلا بد أن يكون للكاثوليك اليسوعيين مطبعة. فالنشاط الأول لا يناهض إلا بنشاط مثله. وهكذا كان. وبدأ العمل في مطبعة صغيرة سنة ١٨٤٨ م. لكن الكونت دوتريمون تبرّع، فيما بعد، بستة آلاف فرنك، للإرسالية اليسوعية، لشراء مطبعة تليق بها وبنشاطها. وفي سنة ١٨٥٤ م، طبع كتاب «الاقتداء بالمسيح»، في ألفي نسخة، وزّع أكثرها مجاناً. وأضيفت حروف لاتينية إلى المطبعة، لجمع نصوص الكتب الفرنسية. وأخذت المطبعة، بعدها، تطبع بالايطالية والتركية. وفي سنة ١٨٦٨ م، بدأت المطبعة الكاثوليكية باستعمال حروف من مسبك المطبعة الأميركانية. وكان رجال الحكم، من العثمانيين، على صلة طيبة بالمطبعة والقائمين عليها.

وفي النصف الثاني، من القرن التاسع عشر، قامت في بيروت مدارس كثيرة، الأجنبي منها والوطني، ولو أنها جميعها كانت طائفية النزعة.

وبالاضافة إلى المدارس، نشأت، في بيروت، حركة صحفية كبيرة. والمدرسة والصحيفة، كانتا بحاجة إلى المطبعة، لطبع الكتب والصحف. ومن هنا، نجد حركة إنشاء المطابع تنشط نشاطاً كبيراً في بيروت. والمطابع، التي قامت، كان كثير منها خاصاً بأفراد، لا بهيئات ومؤسسات، وإن كان ثمة شيء من هذا. ولعل المطبعة السورية، التي أسسها خليل الخوري، سنة ١٨٥٧ م، كانت أول مطبعة فردية، وكانت الغاية منها، طبع جريدته، «حديقة الأخبار». وفي السنة التالية، أُنشئت المطبعة الشرقية، لإبرهيم النجار.

وليس غريباً أن نتذكر سنة ١٨٦٥ م، فقد أسست فيها ثلاث مطابع، في بيروت بالذات. وهذه المطابع هي: المطبعة المخلصية، ومطبعة السريان الكاثوليك، والمطبعة الوطنية.

ولعل من أطرف ما عثرنا عليه، لمناسبة تأسيس المطابع في بيروت، نص الاتفاقية، التي وقّعها خليل سركيس وبطرس البستاني، للمشاركة في مطبعة المعارف. كان خليل سركيس قد أنشأ هذه المطبعة سنة ١٨٦٧ م، وفي السنة التالية، اشترك مع المعلم بطرس البستاني في استثمارها. والاتفاقية طويلة، ولا

مجال لنقلها بأكملها. لكن لا بأس من الإشارة إلى أهم ما جاء فيها. ففي المقدمة جاء قول الشريكين:

«هو اننا نحن الواضعين أسمينا أدناه المعلم بطرس البستاني من الفريق الأول وخليل أفندي سركيس من الفريق الثاني قد اتفقنا على انشاء مطبعة ومصبّ لصبّ الاحرف وطبع الكتب... مما يوافق الأدب وشرايع الطباعة المسنونة في الممالك العثمانية».

ورأس المال هو ثلاثون ألف غرش «شُرك»، يدفع كل فريق نصفه. وادارة المطبعة تناط بخليل سركيس. وشراء الورق والمواد الأخرى، يوافق عليه الفريقان. والموافقة النهائية على الطبع، يجب أن تقترن بتوقيع البستاني.

وفي الفترة، التي نتحدث عنها، ولمدة طويلة بعدها، كان الغرش جزءاً من مئة جزء من الليرة العثمانية، وقيمته أربعون بارة. لكن الغرش «الشُرك»، كان يساوي ثلاثة أرباع القرش الصاغ أي الرسمي، وقيمة القرش الشرك، كانت تختلف قليلاً بين مدينة وأخرى، من مدن بلاد الشام.

أما فيما يختص بالمكافأة عن الأعمال الخاصة، فإن خليل سركيس، كان يتقاضى ٤٥٠ غرشاً شُركاً، لقاء ادارته للمطبعة، والمعلم بطرس، كان يتقاضى، على تصحيح مسودات الكتب، التي تطبع، المبلغ نفسه، الذي كان يدفعه مدير مطبعة الأميركان، لمصححي مسودات كتبهم. ولم يذكر المبلغ. عدا ذلك، فالأرباح مناصفة. ومع أن الاتفاقية، كانت لخمس سنوات، فقد تجددت، واستمرت، حتى سنة ١٨٧٥ م، اذ انفصل خليل سركيس عن المعلم بطرس، وكان خليل قد أصهر الى البستاني. وأنشأ خليل سركيس المطبعة الأدبية، التي أصبحت مطبعة «لسان الحال»، لما أنشأها، سنة ١٨٧٧ م.

أشرنا إلى أن إنشاء الصحف، كان باعثاً على تأسيس المطابع. والمطبعة الأميركانية والمطبعة الكاثوليكية قامتا بذلك، خلال العقود الأولى من إنشائهما. لكن المهم، انه في العقود الأخيرة، من القرن التاسع عشر، قامت المطابع المرتبطة بصحف أنشأها أفراد. وقد ذكرنا أن خليل سركيس، أسس المطبعة الأدبية، ونشر «لسان الحال». بيد أن عبد القادر القباني، كان قد أنشأ، سنة ١٨٧٤ م، مطبعة، وطبع فيها صحيفة «ثمرات الفنون». كما أسس محمد رشيد الدنا مطبعة بيروت، سنة ١٨٨٥ م، وطبع فيها صحيفة «بيروت»، بدءًا من السنة التالية. وفي سنة ١٨٩٣ م، أسّس محمد سليم الأنسي مطبعة، سماها «المطبعة الأنسية»، وكان يطبع فيها صحيفته «روضة المعارف». وقد اشترى لها صاحبها حروفاً فرنسية من باريس. يقول عنها خليل صابات:

«ويمكن اعتبار تلك المؤسسة من بين المؤسسات المطبعية الكبيرة التي ظهرت في لبنان في أواخر القرن الماضي. وقد ساهمت مساهمة طيبة في نشر الكتاب العربي وجعله في متناول الجميع».

وإذا توقفنا، حول سنة ١٩٠٠، وألقينا نظرة على حركة الطباعة في لبنان، وجدنا:

أولاً، أن العمل المطبعي، كان من عمل مؤسسات في بادىء الأمر، ثم قام به الأفراد. وأول مطبعة رسمية عثمانية، عرفتها بيروت، أنشئت، سنة ١٨٨٥ م، ولم تنشىء الحكومة سواها في بيروت.

ثانياً، لو عددنا المطابع الكبيرة في بيروت، لوجدناها ست عشرة مطبعة،

«عدا بعض المطابع الثانوية التي تخصصت في طبع الأوراق التجارية المختلفة».

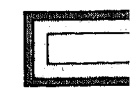
ثالثاً، أن الجبل عرف مطابع أخرى. فدير قزحيا، أسس مطبعة ثانية، وكانت ثمة مطبعة رسمية، في بيت الدين، ثم في دير القمر. هذا، فضلاً عن عدد من المطابع الموزعة في جهات مختلفة، مثل طرابلس.

رابعاً، أنه بفضل مسبك المطبعة الأدبية، ومسبكي المطبعة الأميركانية والمطبعة الكاثوليكية، لم تعد المطابع الوطنية بحاجة إلى استيراد الحروف العربية من الغرب أو من الآستانة. وكانت مطابع القاهرة والاسكندرية، تستورد حروفها من المسابك اللبنانية.

ومن الطبيعي أن تنشر المطابع المختلفة كتباً متنوعة، هذا، فضلاً عن الصحف والمجلات. ومن الكتب

التي نشرتها مطابع بيروت، في تلك الفترة، نذكر على سبيل المثال، دون تعيين المطبعة: «تاريخ سلاطين بني عثمان»، و «كليلة ودمنة» (هذا طبع في مطبعة بيت الدين الرسمية سنة ١٨٦٨ م)، و «ديوان المتنبي»، و «تاريخ سوريا» للمطران يوسف الدبس، و «محيط المحيط»، و «قطر المحيط» للبستاني، و «شرح المعلقات»، للزَوزني، و «القلب المستحق». وإلى هذا، يجب أن نضيف المجلات، التي صدرت في تلك الفترة. على أن مما يستحق الذكر، هو الاهتمام بالكتب المدرسية، وبكتب التراث، التي نشرت في بيروت. ونشرت المطابع عشرات الروايات الأدبية، المؤلفة والمترجمة.

وما ذكرناه، يكفي للإشارة إلى ما يمكن أن يتم في القرن العشرين، وهو كثير. ففي السنة الحالية (١٩٨٧ م)، تحتضن بيروت ما يزيد على مئتي دار نشر، أكثرها تملك مطابعها، سوى المطابع التجارية، التي تعدّ بالعشرات.



٦ من حديقة الأخبار الى ثمرات الفنون

«معرفَتْلُو خليل الخوري. المنهى اليك انه بموجب المضبطة المبنية على استدعائك الواقع مقدماً لجانب الحكومة، قد صار الأمر والاشعار بموجب مرنامه ساميه من مقام الصدارة العظمى بأنه شرف صدور وتعلق الارادة السنية باعطاء الرخصة لك بطبع وتمثيل غزته في بيروت باسم حديقة الاخبار».

هذا النص، هو مزيج من العربية والألفاظ التركية، وفيما يلي، توضيح للمعاني المقصودة فيه: (لو) التركية، التي تضاف إلى آخر الكلمة، يفهم منها (ذو)، أي صاحب. فدولتلو معناها ذو الدولة او صاحب الدولة، ورفعتلو ذو الرفعة أو صاحب الرفعة. ومعرفتلو ذو المعرفة أو صاحب المعرفة. وهذا تكريم لخليل الخوري، أن يشار إليه بأنه ذو المعرفة، أو صاحب المعرفة. ومرنامه معناها أمر، فمرنامه ساميه معناها الأمر السامي. وغزته، هي اللفظ الذي كان يطلق للدلالة على الجريدة.

وهكذا يصبح النص مفسراً على الشكل التالي:

«ذو المعرفة، خليل الخوري. الذي نريد أن نبلغك إياه هو انه بموجب طلبك المقدم إلى الحكومة صدر أمر سام من مقام رئاسة الوزراء بأن الارادة السنية ـ أي إرادة السلطان ـ أعطتك رخصة لانشاء وطبع جريدة باسم «حديقة الأخبار» ».

وهذا المرسوم، أرسله محمد خورشيد باشا، والي إيالة صيدا وملحقاتها، إلى خليل الخوري، في سنة ١٨٥٧ م. وكانت بيروت، يومئذ، تتبع إيالة صيدا، لأنها لم تصبح ولاية، إلا في سنة ١٨٨٨ م.

وبموجب هذا المرسوم، أصدر خليل الخوري العدد الأول من «حديقة الأخبار»، في اليوم الأول من عام ١٨٥٨ م. وهي أول جريدة شعبية، أي تصدر عن فرد، في بلاد الشام. وقد اعتبر صدور «حديقة الأخبار» حدثاً هاماً. فقد أشار إلى ذلك فارلي، في كتابه «سنتان في سوريا»، كما لفتت الجريدة الأنظار إليها، منذ صدورها. وقد كانت

«اسبوعية، سياسية، علمية، تجارية، تاريخية».

وثمة وثيقة، نقلها دي طرازي، في كتابه «تاريخ الصحافة العربية»، توضح الطريقة، التي أعلن بها خليل الخوري عن عزمه على اصدار «حديقة الأخبار». لكن قبل ذكر ما جاء في الوثيقة، نذكر أن خليل الخوري كان ينوي، على ما جاء في الوثيقة، تسمية الجريدة «الفجر المنير»، ثم بدّل رأيه. أما الوثيقة فتقول:

«إنه سيطبع في بيروت بمطبعة خصوصية مجموع حوادث عربي العبارة يحتوي على حوادث هذه البلاد وعلى الحوادث الخارجية مؤلفة ومترجمة من أحسن وأعظم جورنالات الأوربا. وعلى فوائد علمية وأحوال متجرية ليكون نافعاً سائر طبقات الناس. وذلك بهمة جمعية مؤلفة من أحذق وأنبه رجال البلاد المؤلفين والمترجمين والمصححين الذين ستشهر اسماؤهم فيما بعد لا سيما جناب عمر أفندي الانسي الحسيني وجناب الشيخ ناصيف اليازجي. وابتداء العمل يكون حين ورود الفرمان العالي بعد أخذ الأسماء اللازمة لهذه العملية. فنلتمس من كل مهذب يرغب نفع البلاد أن يشرفنا بوضع اسمه في هذه القائمة. وثمن هذا المجموع مئة وعشرون قرشاً بالعام تدفع عند استلام أول عدد. وهو يطبع كل اسبوع تحت إدارة كاتبه خليل الخوري واسمه الفجر المنير».

وقد تبدل الاسم، كما ذكرنا، إلى «حديقة الأخبار».

وفي مقال حديث، لجوزف نعمة، يذكر أنه جاء، في مقدمة العدد الأول، من «حديقة الأخبار»:

«نحمدك يا من أبدعت خليقتنا بحكمتك الإلهية وملأت من فضيلتك كل ما أنشأته عنايتك الأزلية. وملكت

الانسان على هذا الكون الخافق، فاتسع بأعماله المتجددة على مرّ الدقائق، وجعلت «أخبار» كل قوم لكل قوم حديثاً».

على أن الذي يلفت النظر، في هذا الأمر، هو أن خليل الخوري، لما نشر «حديقة الأخبار»، كان له من العمر ثمانية عشر عاماً فقط. وكان قد أصبح شاعراً معروفاً، إذ نشر أول ديوان له، وهو في سن الرابعة عشرة. وكان خليل الخوري، قد أنشأ المطبعة السورية، قبل البدء بنشر «حديقة الأخبار»، بسنة واحدة.

هذه بداية أول جريدة عربية، صدرت في بيروت، على يد رجل واحد. ولما حضر فؤاد باشا إلى سوريا سنة ١٨٦٠ م، خصص «حديقة الأخبار» لخدمة الحكومة، واتخذها بمثابة جريدة نصف رسمية. وقد عُيِّن لصاحبها، بإرادة سنية، راتب شهري قدره عشرون ليرة عثمانية، إعانة على نشرها، حتى ظهرت جريدة سوريا الرسمية. وفي شهر آب ١٨٦٨ م، أي بعد عشر سنوات ونيف، من صدور «حديقة الأخبار»، أصبحت تصدر باللغتين العربية والفرنسية، لأن فرنكو باشا، حاكم جبل لبنان، جعلها الصحيفة الرسمية لحكومته... وبمقابل ذلك، نال صاحبها ثلاثين ليرة عثمانية، راتباً شهرياً... وبعد أن قطعت حكومة جبل لبنان عن «حديقة الأخبار» راتبها الشهري، استمر خليل الخوري على نشرها لحسابه إلى آخر أيامه. وقد توفي خليل الخوري سنة ١٩٠٧ م، أي بسنة قبل الاحتفال بيوبيلها الذهبي، الذي تمّ، على كل حال، سنة ١٩٠٨ م، وتوقفت الجريدة، سنة ١٩١١ م.

وفي سنة ١٨٦٠، تعرض لبنان لحرب داخلية، آذته كثيراً. وقد نشر المعلم بطرس البستاني جريدة صغيرة، ذات صفحتين، سماها «نفير سوريا»، كانت تظهر على شكل رسائل وطنية، تتضمن نصائح مفيدة، لشدّ عُرى الإلفة بين السكان. ولما أخلد الناس إلى السكينة، أوقف نشرها. وقد ظهر منها ثلاثة عشر عدداً، سميت النفير الأول، والنفير الثاني... الخ.

ومن المعروف، أنه بدءًا من ستينات القرن التاسع عشر، أخذت الصحف والمجلات تظهر في بيروت بكثرة، وقد استمر بعض هذه الصحف حتى أوائل القرن العشرين. وليس مما يجوز أن نعدد هذه الصحف والمجلات، ونذكر أسماءها وأسماء أصحابها فقط، في موضوع، القصد منه التوقف عند نقاط انطلاق أساسية. لذلك، فإننا سنختار البعض منها، لأنها كانت تمثل اتجاهاً أو نقلة في الحياة. ونذكّر القراء، أننا سنتناول الصحف، إلى نهاية القرن التاسع عشر أو مطلع القرن العشرين، ولن نتابع تطورها بعد ذلك.

ولعل أول جريدة، تستحق أن نعنى بها، هي «ثمرات الفنون»، التي كان صاحب امتيازها السيد عبد القادر القباني. إلا أن عبد القادر القباني، كان عضواً في جمعية اسمها «جمعية الفنون»، وهي التي تبنّت الجريدة، التي هي أولى الجرائد الاسلامية في بيروت، وثانيتها في السلطنة العثمانية بعد «الجوائب»، التي أنشأها أحمد فارس الشدياق في استانبول. وكانت «ثمرات الفنون» في بداية عهدها شركة مساهمة، تتألف من اثني عشر سهماً، وقيمة كل سهم ألفان وخمسمئة غرش. فهي، من هذا القبيل، باكورة الصحف العربية المساهمة. لكن جمعية الفنون لم يطل عمرها، فانتقل اسم الجريدة ومطبعتها إلى الرجل الذي كان الامتياز باسمه، وهو عبد القادر القباني. وكان القباني يحافظ على شعار الجمعية الأصلي، وهو نشر المعرفة وخدمة الفقراء. أما الجريدة فقد مرّت، على ما يرى الدكتور هشام نشابة، بفترات ثلاث. ففي دورها الأول، كانت تدافع عن الأمة الاسلامية والدولة العثمانية، ثم مرّت بها فترة، أسهمت فيها في النزعات القومية العربية، ولكن بعد عودة الدستور (١٩٠٨ م)، عادت إلى خطها الأول.

هناك عبارة كتبها عبد القادر القباني، لمناسبة عودة الدستور، وقد وردت في كتاب طرّازي، «تاريخ الصحافة العربية»؛ قال القباني:

«إن مسؤولية أصحاب الجرائد في زمن الدستور أعظم منها في دور الاستبداد. ولذلك يلزم أن يقوم بتحرير كل جريدة نخبة من الكتّاب من جميع العناصر للمحافظة على تأليف وحدة عثمانية من عناصر الوطن، فتعتز

الجامعة العثمانية بهذه الوحدة. ولا اقدر من الجرائد لتحقيق هذه الأمنية، التي هي روح الدستور، إذا اتفق كتّابها على التفاهم والتحاب ونبذ كل ما يدعو إلى سوء التفاهم».

على أن الغريب في الأمر، أن عبد القادر القباني لم يلبث أن أغلق الجريدة، في السنة نفسها ومن جميل الروح، التي كانت منتشرة في بيروت يومها، أن تظهر الأسماء التالية، بين الكتّاب والمحررين، في «ثمرات الفنون» مثل: يوسف الأسير (الأزهري) والشيخ ابرهيم الأحدب واسماعيل ذهني وسامي قصيري وعوني اسحق وسليم الشلفون واسكندر طراد والشيخ أحمد حسن طبارة والحاج محمد الحبّال.

وفي سنة ١٨٨٦ م أصدر محمد رشيد الدنا جريدة علمية، سياسية، تجارية، أدبية، اسمها «بيروت». واستمرت في الصدور إلى سنة ١٩٠٨ م. بدأت ثلاث مرات في الأسبوع ثم صارت يومية، لكن كثرة الصحف، التي نشرت، بعد إعلان الدستور، أو إعادته على الأصح، ثبطت همة أصحاب الجريدة، وكان مؤسسها قد توفي، فتوقفت عن الصدور.

على أن الجريدة التي عمّرت أطول من أي جريدة أخرى في بيروت، هي «لسان الحال»، التي أصدرها خليل سركيس سنة ١٨٧٧ م، وقد وصفها طرازي بقوله:

«فجرت منذ أول نشأتها على خطة الاعتدال والمسالمة وعدم التشيع إلى عنصر دون آخر. فاشتهر أمرها بذلك ونالت ثقة القريب والبعيد واقبل الناس على مطالعتها من جميع الملل والنحل».

بدأت «لسان الحال» نصف اسبوعية، وتطورت، فزادت أعدادها في الأسبوع، وكبرت، ثم صارت يومية، سنة ١٨٩٥ م. ولعل «لسان الحال»، بحكم أنها عمّرت طويلاً، هي الجريدة التي أسهم في الكتابة فيها، بشكل أو بآخر، كل من حمل قلماً في هذه المنطقة، ومنهم كاتب هذه السطور، الذي زوّدها بمقال أسبوعي طوال سنة ١٩٦٢ م.

أُنشئت «لسان الحال»، في سنة ١٨٧٧ م. وفي سنة ١٩٠٤، جرى الاحتفال بيوبيلها الفضي، (وكانت قد بلغت الخامسة والعشرين من سنها قبل ذلك بعامين). وفي سنة ١٩٢٧ م، احتفل بيوبيلها الذهبي. وفي عامي ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ م، كنت أباحث صاحبها ومحررها يومئذ، الاستاذ جبران حايك، في أمر الإعداد للاحتفال بعيدها المئوي، الذي كان سيقع في سنة ١٩٧٧ م. وكان عندي برنامج ضخم لذلك. فهي الجريدة الوحيدة التي بلغت مثل هذا العمر. لكن الاستاذ حايك، كان يشك في إمكان القيام بفكرتي على النحو الذي أردته. وفيما نحن نتحدث أخذت الأحداث تعصف بلبنان، ونسفت «لسان الحال»، مبنًى وجريدة. وعلى هذا، فقد عمّرت أقل من قرن بقليل.

ولم تكن «لسان الحال» سجلاً لأخبار بيروت ولبنان والمنطقة، لهذه الفترة الطويلة فحسب، بل كانت سجلاً للأخبار العالمية والتطورات، التي مرّ بها العلم والبحث والعالم.

وكما نُشرت الصحف، ظهرت المجلات، في النصف الثاني، من القرن التاسع عشر. وقد كانت المجلات، على وجه العموم، على نوعين:

الأول، هو الذي نشرته المؤسسات الدينية، الأجنبية التبشيرية منها والوطنية، مثل «البشير»، الكاثوليكية، و «النشرة»، البروتستانتية، و «الهدية» الأرثوذكسية و «النحلة» السريانية، وهاتان الأخيرتان نماذج للمجلات الدينية الوطنية.

أما النوع الثاني فيدخل في عداده المجلات التي نشرت للعلم أو للأدب أو لكليهما ـ وهذه كانت الأشيع. فـ «الجنان» التي أصدرها المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٧٠ م، كانت من هذا النوع. وبسبب شهرة صاحبها العلمية، عبر مؤلفاته وكتاباته والمدرسة الوطنية، راجت المجلة. وكان سليم، ابن المعلم بطرس، هو الذي ينشىء أكثر مقالاتها السياسية والتاريخية والروائية. ويقول طرازي عن «الجنان»:

«ونالت الجنان عناية مدحت باشا في ولايته لسورية حتى انه كان يزور إدارتها في مجيئه لبيروت، ويبث أفكاره الاصلاحية بواسطتها».

وقد عمّرت «الجنان» سبعة عشر عاماً.

والمجلة التي أنشئت في بيروت، سنة ١٨٧٦ م، ثم نقلت الى القاهرة، سنة ١٨٨٥ م، أي «المقتطف»، كانت المجلة الأعظم شأناً بين ما ظهر من مجلات في العالم العربي، في تلك الحقبة. وصاحبا «المقتطف»، يعقوب صروف وفارس نمر، هما من بواكير تلاميذ الكلية السورية الانجيلية (وهي الجامعة الأميركية في بيروت اليوم). وقد عمل الإثنان، بعد تخرجهما، مدرسين في الكلية نفسها. وقد رأيا، أثناء الدراسة والتدريس، وبسبب سعة الأفق التي تمتعا بها، أن مجاراة الأمم الغربية، في العلوم والمعارف، مستحيلة إذا كانت الجماعة، التي يعيشان بينها ستكتفي بترجمة الكتب. وإذا كانت ثمة رغبة أو نية في التقدم، فلا بد، للبلد، من مجلة تقطف ثمار المعارف والمباحث، شهراً بعد شهر، وتذيعها في الأقطار العربية.

وقد كانت تتمة روايتهما، عن إنشاء «المقتطف»، طريفة، إذ قالا:

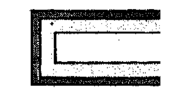
«فعقدنا النية على انشاء المقتطف لهذه الغاية ورسمنا خطته التي سار عليها منذ انشائه إلى الآن. ولم نختر له اسماً بل قمنا كلانا وذهبنا إلى استاذنا الدكتور فان ديك، وكان في المرصد الفلكي حيث كان يقضي أكثر أوقاته. فاستشرناه بما عزمنا عليه وسألناه ان يختار له اسماً. فابرقت أسرّته وجعل يشدّد عزائمنا ويسهل علينا الصعاب. وقال سمياه المقتطف واجعلاه كاسمه وحسبكما».

وكان خليل الخوري، صاحب جريدة «حديقة الأخبار»، قد أصبح مديراً للمطبوعات في سوريا، فكتب فان ديك اليه، أن يسعى في جلب الرخصة السطانية بسرعة. فجاءتهما في نحو الشهر. وصدر العدد الأول من «المقتطف»، في غرة تموز/ يوليو سنة ١٨٧٦ م. وهذه المجلة، كتب فيها أيضاً، كل من حمل قلماً، بين سنتي إنشائها وتوقفها.

وفي ختام هذا الحديث، يجدر بنا أن نشير إلى مجلة «الصفا»، التي أُنشئت سنة ١٨٨٦ م، ولم تطل أيامها سوى سنوات ثلاث، لكنها كانت نموذجاً لصفاء اللغة والفكر. وقد تحوّلت، فيما بعد، إلى جريدة، بدءًا من سنة ١٨٩٩ م، وذلك بعد احتجاب، دام نحو عشر سنوات. أمامي الآن المجلد الثالث منها، الذي يبدأ في شهر آذار/ مارس ١٨٨٨ م. واللطيف، أنها تضع على الصفحة الأولى، التاريخين الميلاديين الغربي والشرقي، وتضع، طبعاً، التاريخ الهجري. وينص الغلاف، على أن

«قيمة الاشتراك خمسة عشر فرنكاً في بيروت ولبنان، وعشرون في الخارج».

وفي مقدمة العدد، إشارة إلى الخبر عن إنشاء ولاية بيروت (١٨٨٨ م)، وعن وصول الوالي علي رضا باشا. ومن هنا، يبدأ تاريخ جديد لبيروت، اذ تصبح تابعة لها متصرفيات اللاذقية وطرابلس وعكا ونابلس، وهي رقعة واسعة وهامة.



٧ مجلة العرفان

عندما نستعرض ما مرّ على هذه المنطقة من أحداث في القرن الحالي، نجد أن إعادة الدستور سنة ١٩٠٨ م، بعد أن خنقه عبد الحميد نيفاً وثلاثين سنة، كانت من أبرز الأحداث، التي فرح لها الناس فرحاً كبيراً. فأيام عبد الحميد كانت أياماً سوداء. هكذا رآها الناس، وأخذ بعضهم يردد أبياتاً من قصيدة اسمها «الحرية تشكو»، نظمت في تلك الفترة، وهذه بعضها:

كيف اشكو من البرية ضيماً	ومن الروح في الجسوم بقية
اسروني فهان اسري لديكم	كيف يا قوم تؤسر الحرية؟
هدموا مجدي المؤثل حتى	بتُّ مرمى لاسهم العصبية
أقضت سنّة التمدن في ذا	ام قضت فيه بدعة الهمجية؟
عيل صبري وطال منكم صدود	اين انتم يا للوفا والحمية!
انسيتم زمان رغد تقضّى	في حماكم ودولة عربية؟

والجدير بالذكر، أن صاحب هذه القصيدة هو الشيخ أحمد عارف الزين، صاحب «العرفان». واللطيف، أن هذه القصيدة نظمت قبل إعلان الحرية، أي قبل إعادة الدستور، ببضعة أشهر. ومعنى هذا، أن أحمد عارف الزين، كان لا يزال في شرخ الشباب، لما نظم هذه القصيدة.

فالرجل مولود في شحور، من أعمال صور، سنة ١٨٨٣ م،

> «وقد تلقى علومه الدينية والمدنية في القرية وفي النبطية، ثم درس اللغات الأجنبية، ولا سيما الفرنسية على بعض الأساتذة، في صيدا.

وإذن، فأحمد عارف الزين، كان في منتصف العقد الثالث، لما تغنّى بأسر الحرية، وتذكر الدولة العربية. إلا أن هذا الرجل، كان قد مرّت به بضع سنوات وهو يكتب في الصحف البيروتية، التي كانت تظهر هناك، في نهاية القرن الماضي وأوائل القرن الحالي. فقد كتب في «حديقة الأخبار» و «ثمرات الفنون» و «الاتحاد العثماني». والشيخ يذكر ذلك، فيما بعد، فيقول:

> «أول كتابتنا كانت في ثمرات الفنون والاتحاد العثماني ثم في جريدة حديقة الأخبار إذ كنت وكيلها ومراسلها في صيدا».

وصيدا هي المدينة، التي استقر فيها، بدءاً من سنة ١٩٠٤ م.

وكان من الطبيعي، وقد جاءت الحرية إلى البلاد، وأحمد عارف الزين على هذه الدرجة من الوعي والرغبة في اللجوء إلى القلم وحمله، أن يتجه نحو انشاء عمل صحافي، يكون له ومنه. لذلك أصدر مجلة «العرفان»، التي صدر العدد الأول منها، في ٥ شباط/ فبراير سنة ١٩٠٩ م. ولأن صيدا لم يكن فيها مطبعة صالحة للقيام بمثل هذه المهمة، فقد طبعت «العرفان» في بيروت، لمدة سنتين، إلى أن أسس الشيخ أحمد عارف الزين نفسه مطبعة العرفان، فنقل العمل جميعه إلى صيدا.

اذكر، أنني كنت أقلب أعداداً قديمة من مجلة «العرفان»، فوجدت العدد الأول. وأعجبني تقديمان للعدد ـ أو على الأصح للمجلة ـ من الشيخ نفسه.

الأول، التقديم الغلافي جاء فيه:

> «العرفان مجلة علمية أدبية أخلاقية اجتماعية تصدر كل شهر عربي، لمنشئها احمد عارف الزين في صيدا. قيمة اشتراكها في صيدا ريال مجيدي واحد، وفي الخارج ربع ليرة فرنسية».

هذا التقديم الإعلامي.

أما التقديم الداخلي المنهجي، فيقول فيه صاحب «العرفان»:

«ومنشيء هذه المجلة منذ نعومة أظفاره وهو يتشوّق لانشاء صحيفة يتمكن بها من خدمة أمته ووطنه إذ «كل امرىء ميسّر لما خلق له». وقد قيّض الله لنا ما نتمناه (والامور مرهونة بأوقاتها)، فانشأنا هذه المجلة على اعتراف منا بالتقصير والعجز، ودعوناها «العرفان»، ولكل مسمّى من اسمه نصيب. وقد القي على عاتقها البحث في العلم والادب والأخلاق والاجتماع قدر ما يستطاع. على أنها ستزيد مباحثها إذا رأت إقبالاً، فهي تعمل على ناموس الارتقاء وسنة الكون ﴿سنّة الله في خلقه ولن تجد لسنّة الله تبديلا﴾. وتصدر في كل شهر عربي. وفقنا الله لإتمام هذه الخدمة والقيام بهذه المهمة».

وقبل متابعة الموضوع، لا بد من معرفة قيمة المجيدي، الذي كان اشتراك «العرفان» في صيدا.

كانت الليرة العثمانية الذهبية مقسومة إلى ثمانية أقسام، كل منها يسمى مجيدي، وهو من الفضة. ولا نحسب أن الاشتراك في الخارج، كان ضعفي الاشتراك في صيدا، فالليرة الفرنسية، كانت أقل من الليرة العثمانية. وإنما استعملها صاحب «العرفان» وحدة للاشتراك الخارجي، لأن النقد الفرنسي كان السبيل الأساسي للتعامل مع الخارج.

وفي سنة ١٩١٣ م، نشر أحمد عارف الزين كتابه، «تاريخ صيدا». وقد جاء فيه، بمناسبة الحديث عن الصحافة والطباعة في صيدا، ما يلي:

«... ولما رأى صاحب هذا الكتاب عدم وجود صحيفة ببلدة صيدا، أنشأ مجلة دعاها العرفان. وقد صدر العدد الأول منها في المحرم سنة ١٣٢٧ هـ الموافق ٥ شباط سنة ١٩٠٩. وقد طبعت في السنة الأولى والثانية في بيروت. ثم انشأنا مطبعة في صيدا وذلك في ذي الحجة سنة ١٣٢٨ الموافق ١١ كانون الأول سنة ١٩١٠، دعوناها أيضاً «مطبعة العرفان»، وطبعت المجلة بها في سنتها الثالثة والرابعة. وقد وقفت هذا العام نظراً لما لحقنا من الخسائر. غير أن توقيفها ساء بعض الغيورين فشجعونا بمساعدتهم المادية والأدبية على إعادتها في بدء السنة الهجرية إن شاء الله».

واستمرت «العرفان»، بعد ذلك. ومع أنها توقفت بعض الوقت، بسبب موقف الحكومة العثمانية من الحركات الوطنية، سنتي ١٩١٣ و ١٩١٥ م، إلا أن «العرفان» وقد تعهدها صاحبها نفسه نصف قرن من الزمان، لا تزال تصدر إلى اليوم، أي إلى حين وفاته سنة ١٩٦٠ م، وأشرفت على إصدارها أسرة الزين. وما دمنا عدنا إلى كتاب «تاريخ صيدا»، لا بد من ذكر فقرة قصيرة، تتعلق بنشاط الشيخ أحمد عارف الزين بقلمه هو. قال:

«وقد رأينا الحاجة ماسّة لإنشاء جريدة سيارة، فأنشأنا جريدة اسبوعية دعوناها جبل عامل، وذلك في المحرم سنة ١٣٣٠. وقد صدرت سنة كاملة، تعطلت بأثنائها شهراً ونصف شهر من قبل الديوان العرفي في بيروت، وحكم علينا أيضاً بالسجن... ونظراً لما اصابنا من الخسارة تركناها أيضاً لذلك ولامور أخرى».

كانت «العرفان» تمثل هذه الفرحة، التي عمّت المجتمع العربي، في بلاد الشام، وكانت استجابة لعودة الحرية. لكن الشيخ أحمد عارف الزين، وغيره من حملة الأقلام في بيروت وطرابلس، لم يلبثوا أن أدركوا أن الجماعة التركية ـ الاتحاد والترقي ـ لم تكن تنوي منح الحرية للعرب، فقامت أولاً سياسة التتريك، ثم، بعد دخول تركيا الحرب، جاءت سياسة قمع كل حركة سياسية، مهما كان نوعها. وعلى سبيل المثال، سنة ١٩١٥ م، سيق صاحب «العرفان» إلى الديوان العرفي، في عاليه، بتهمة تأليف «جمعية فتاة العروبة»، مع عبد الكريم الخليل ومحمد حيدر.

ولكن المهم، أن «العرفان» لم تظل مجلة فحسب، لقد أصبحت «مدرسة». فقد استقطبت كبار الكتّاب، في لبنان وبلاد الشام ومصر والعراق وغيرها. ولسنا نحسب أنه من الممكن أن يخطر بالبال اسم كاتب أو شاعر لم تنشر له «العرفان» شيئاً. لكن المهم، ليس أن «العرفان« كانت منبراً، بل المهم أنها كانت مدرسة.

فكم تدرب فيها الشباب على الصحافة! وكم تلقّى الشباب، عبرها، من دروس في الخلق الكريم والثبات على المبدأ والوطنية! ولم تكن القضية أن «العرفان» كانت تشارك في القضايا الوطنية العربية، عن طريق الاشارة، بل عن طريق إعطاء التفاصيل وتوضيح الأمور، بحيث أن الذي يقرأها، ويتخذ بعد ذلك موقفاً، كان يفهم تماماً، لماذا يتخذ مثل ذلك الموقف. وفضلاً عن تزويد القراء بالمعرفة، كان هناك المثال العملي الحي، الشيخ أحمد عارف الزين نفسه. فقد كان له من قوة شخصيته، وثباته على مبادئه، وانبرائه للدفاع عن الأمور، التي يقبل بها، وحماسته لدحض ما لا يؤمن به، ما يملأ القلوب والنفوس إيماناً وعزة.

وفضلاً عن ذلك كله، فـ «العرفان» سجل لتاريخ منطقة وجماعة وشعب وأمة وقضية. فإننا نستطيع أن نتابع تطور هذه، سياسياً وفكرياً وعاطفياً وقومياً، من خلال مجلدات «العرفان». وكان صاحب «العرفان» يجد الوقت الكافي لأمور اجتماعية كثيرة - اجتماعية بمعنى النقاش الفكري والعلمي - لا مجرد الحديث العادي. ففي سنة ١٩١٢ م، اشترك مع الشهيد الصيداوي، الضابط توفيق البساط، في تأسيس جمعية نشر العلم، وانتخب أحمد عارف الزين رئيساً لها. ويقول شفيق الأرناؤوط عن الشيخ أحمد عارف الزين:

«كان منزله في صيدا مضافة للزوار من الأدباء والعلماء والشعراء والشخصيات الوطنية والسياسية. وكانت الاحاديث والمناقشات الأدبية والعلمية والوطنية تطغى على سائر الأحاديث... وكانت صالة الشيخ الأدبية مفتوحة في كل يوم».

وكان لدى الشيخ أحمد عارف الزين صالونان أدبيان - الواحد في مكتبه، وهذا الذي يعرفه معظم زواره، والثاني في بيته، وهذا الذي يشير إليه شفيق الأرناؤوط.

وكان للشيخ أحمد عارف الزين رأي في التاريخ، جاء به، في مقدمة كتابه لتاريخ صيدا، إذ قال:

«إن الذين يكتبون التاريخ بدون عصبية وتحيّز قليلون جداً بين الفريقين، اي المؤرخين من شرقيين وغربيين، فلذلك اصبح تمييز صحيح التاريخ من فاسده من اشق الأعمال. ولا اظن ان مؤرخاً يسلم من الغلط، وينجو من الشطط، مهما بالغ في التمحيص، وبلغ الغاية من العناية في تتبع الصحيح. ولكن حنانيك، بعض الشر اهون من بعض، وشتّان بين من يبذل ما في وسعه للوصول إلى الحقيقة الثابتة فيخطئها احياناً، وبين من يراها بأم عينه فيدفعه عنها تعصب أعمى أو نفاق وتدليس».

بل إن الشيخ أحمد عارف الزين، كان يعرف رأي ابن خلدون في التاريخ. فهو ينقل عنه قوله:

«إعلم ان فن التاريخ فن غزير المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية. إذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم في اخلاقهم، والانبياء في سيرهم، والملوك في دولتهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء، ممن يرومه في احوال الدين والدنيا. فهو محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكّبان به عن المزلّات والمغالط. لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في المجتمع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق».

ولعلّ مما يدل على نظرة الشيخ أحمد عارف الزين المنصفة، بالنسبة للكتابة التاريخية، قوله في مقدمة كتابه «تاريخ صيدا»، إذ ورد فيها:

«يتعذر بل يستحيل على الباحث من امثالنا ان ياتي بتاريخ جامع للشرائط المطلوبة طبقاً لما يسير عليه مؤرخو الغرب حذو القذّة بالقذّة، لأنّا لم نزل بعيدين عنهم اشواطاً بعيدة في العلم والبحث والجد والكدّ. بيد أن ما لا يدرك كله لا يترك جلّه، على حد ما قيل. فلذلك سيكون ما نكتبه عن تاريخ صيدا معزوّا إلى التواريخ المعتبرة شرقية او غربية. ولا نألو جهداً في تمحيص الانباء التاريخية اتمّ تمحيص وننقدها ادق نقد كما ينقد الصيرفي الدرهم. فيكون عملنا هذا جهد المقل».

والهدف من ذكر هذه الفقرات، من مقدمة كتاب، وضعه الشيخ أحمد عارف الزين، في وقت مبكر من

حياته العلمية والفكرية والأدبية، والرجل لم يكن مؤرخاً بالمعنى المهني للموضوع، هو أن الذي ذكره هذا المفكر والكاتب والعالم والصحافي سنة ١٩١٣ م، أمر التزم به في حياته كلها. فهو لم يكتب فقط مقدمة لـ «تاريخ صيدا»، ولكنه وضع لنفسه خطة، سار عليها فيما كان يكتب من تمحيص ونقد وترجيح وأقيسة. لذلك كانت أبحاثه في «العرفان» تتبع هذا النهج؛ ومن هنا كانت أهمية «العرفان». فهو إذ يتحدث عن لجنة الاستفتاء الأميركية، كنغ ـ كراين، التي زارت البلاد سنة ١٩١٩ م، أو يشترك في اجتماع الساحل سنة ١٩٣٦ م، أو يتحدث عن امتياز «شركة التبغ والتنباك» سنة ١٩٣٢ م، أو عن سياسة الإرهاب سنة ١٩٣٦ م، أو عن القضية الفلسطينية، التي عني بها كثيراً، أو عن عبد الواحد هارون، من زعماء الكتلة الوطنية في سوريا لما توفي الزعيم ـ في كل هذا وغيره، كان يلتزم النهج نفسه ـ البحث عن الحقيقة، ممحّصاً، ناقداً، موازناً، مصدراً الحكم، بعد هذا الجد والجهد والكدّ.

وكان الرجل يكره الجمود والتحجّر، ويحب لنفسه ولقومه التقدم والتطور. ولكن لم يكن يندفع متحمساً، بل كان يبحث ويقرر وعندها يندفع. وإذا اندفع، لم يكن يحفل إلا بالمبادىء والأسس الخلقية.

وتعجبني قولة لشفيق الأرناؤوط، عن «العرفان» وصاحبها، وهي:

«لم يكن رصيد العرفان حساباً في مصرف، أو بنداً من بنود النفقات السرية للدعاية، أو مساعدة من دولة وطنية أو اجنبية، أو تشجيعاً من حزب أو جمعية، بل كان رصيدها الايمان والثبات والتضحية المتواصلة والعدد الكبير من القراء في البلاد العربية وايران والهند وبلاد الاغتراب. فأنفق صاحبها عليها بدل أن تنفق عليه، واذاب صحته في العمل لها، وباع ورهن ما تركه له أبوه وشريكة حياته، بدلاً من ان يثري ويبتني الدور الفخمة للنشر والسكن والاستثمار».



٨ المدرسة «الحديثة»

أنشئت، في القرن التاسع عشر، وخاصة في النصف الثاني منه، مدارس متعددة في لبنان. وكانت هذه المدارس، إما لسد حاجة معينة، أو استجابة لتحدٍّ، تعرضت له البلاد. وأول الحاجات، التي كان من اللازم أن تسدّ، هي تدريب رجال الدين المسيحيين، ليكونوا رعاة متعلمين لطوائفهم، وقد بدا أن الطائفة المارونية، كان يلزمها هذا النوع من الكهنة المتعلمين. لذلك، أنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر، سنة ١٥٨٤ م، مدرسة في روما، باسم «المدرسة المارونية في روما». وكان القصد من تأسيس هذه المدرسة، تعليم رجال الدين الموارنة، ليقوموا بواجباتهم نحو الرعية، بأسلوب أفضل من ذي قبل. أما تلاميذ هذه المدرسة، فكانوا يؤخذون من لبنان وشمالي سوريا وقبرص، ويقضون هناك حوالي عشر سنوات، يتلقون فيها اللغات السامية واليونانية واللاتينية والفلسفة والمنطق واللاهوت، ويدربون على الفرنسية والايطالية. ولما عاد هؤلاء إلى لبنان، عملوا على تأسيس مدارس أرقى من المدارس التي سبقتها. وقد انتشرت هذه المدارس في المناطق المارونية، وأصبح المعلمون فيها، وأكثرهم من خريجي المدرسة المارونية في روما، يضيفون مواد جديدة للمناهج، ويعلمون طلابهم لغة كلاسيكية في غالب الأحيان. ولما كانت آفاق أولئك المعلمين الجدد أرحب، ونظرتهم أوسع، وتجاربهم أغزر وأعمق، فقد انتقلت مدارس الكنيسة والدير و «تحت السنديانة» إلى دور جديد في حياتها.

وقد أنشئت مدرسة في لبنان، على غرار مدرسة روما، أو على الأقل قريبة منها، لأن متخرجي المدرسة المارونية في روما، لم يسدوا الفراغ. فكانت قمة ما بلغته جهود الذين نفخوا في التعليم روحاً جديدة، بتأثير المدرسة المارونية في روما، إنشاء مدرسة عين ورقة (عام ١٧٨٩ م)، التي عمل على تأسيسها المطران يوسف اسطفان (توفي عام ١٨٢٠ م). يقول فؤاد أفرام البستاني، عن عين ورقة:

> «فمن الطبيعي إذاً أن يفكر بعض العائدين منهم [من متخرجي المدرسة المارونية في روما]، أن يفكروا بانشاء مدرسة كبرى على غرار مدرسة رومه، ويكون ذلك في عين ورقة من مقاطعة كسروان سنة ١٧٨٩، سنة الثورة الفرنسية وسنة تولّي الأمير بشير حكم لبنان.
>
> قامت عين ورقة دينية الأسس ثانوية البرامج، ولكنها لم تلبث أن توّجت هذه الدروس بفروع من التعليم الجامعي كالمنطق والفلسفة واللاهوت النظري والادبي، على غرار جامعات ذلك العصر، مع تدريسها أربع لغات: العربية والسريانية واللاتينية والايطالية».

وشهد القرن التاسع عشر قدوم المبشرين لفتح المدارس. ولعلّ هذا، كان هو التحدّي، الذي أدّى إلى فتح مدارس وطنية.

ففي أوائل القرن التاسع عشر، جاءت لبنان فئتان من المبشرين، لم تلبثا أن أخذتا على عاتقيهما إنشاء المدارس في البلاد. والفئتان هما، البعثات التبشيرية الكاثوليكية والبعثات التبشيرية الانجيلية (البروتستانتية). وكانت الأولى فرنسية الأصل، أما الثانية فكانت في أغلبها أميركية؛ وإن كان ثمة مشاركة محدودة، للمؤسسات التبشيرية البريطانية. وتعددت المدارس في لبنان، وانتهى الأمر بإنشاء مدرستين ثانويتين، في عبيه (للاميركان)، وفي غزير (لليسوعيين). ثم توّجت كل من هاتين الفئتين جهودها في التعليم بإنشاء الكلية السورية الانجيلية، عام ١٨٦٦ م (وهي الجامعة الاميركية في بيروت اليوم)، وكلية القديس يوسف عام ١٨٧٥ م (وهي جامعة القديس يوسف اليوم).

وقد أقبل الطلاب على هذه المعاهد، يتلقون فيها العلوم الحديثة، من فيزياء وكيمياء ورياضيات وفلك (ودروس الطب في الجامعتين) واللغات القديمة والحديثة. ولسنا هنا في معرض التحدث عن هذه المدارس وآثارها في الحياة الفكرية في لبنان، ولكننا نودّ أن نلفت النظر إلى أمرين هامين:

أولهما أن ميزة الانفتاح التي عرفت عن اللبناني ورغبته في أن يأخذ الحكمة والمعرفة من أي جهة جاءت، بدت واضحة في إقباله على التعلّم.

والأمر الثاني، وهو الأهم، هو أن الفئات المختلفة، التي يتكون منها لبنان، أخذت هي نفسها انشاء المدارس اللبنانية، رغبة منها في الحفاظ على ذاتيتها وشخصيتها. ومن هنا، كان هذا الإقبال على فتح المدارس الخاصة بأبناء البلاد، سواء أكان الذين قاموا على تأسيسها أفراداً أم جمعيات أم مؤسسات دينية.

وإذا كان المقصود بكلمة وطنية هو مدرسة لجميع أصناف التلاميذ، فالمدرسة الوطنية، التي أنشأها المعلم بطرس البستاني، عام ١٨٦٣ م، في بيروت، هي النموذج لذلك. على أن لفظ وطنية، قد يعني أن جماعة من أبناء الوطن هم الذين أنشأوا المؤسسة المذكورة، ولكننا، وفي المقام نفسه، نلاحظ أن المدارس في لبنان كانت طائفية. وهنا نذكر المدرسة الوطنية البستانية أولاً، التي كانت:

«أفضل مؤسسات المعلم بطرس البستاني الوطنية، وأخلص مآتيه في سبيل اتحاد ابناء بلاده. شاهد ما أدت إليه المنازعات والمشاحنات بين الطوائف من مجازر سنة الستين، فابتدأ بنشر ندائه الحار في «نفير سورية». ثم أدرك أنه من الواجب الابتداء بزرع بذور المحبة والوئام في أفئدة صغيرة طاهرة، في أفئدة الأطفال، فتنمو بنمائها، ويجني المستقبل ثمارها اليانعة. فأسس سنة ١٨٦٣ مدرسته الوطنية، وهي في طليعة المدارس العالية في لبنان وسورية. وقُبل فيها الطلبة من جميع الطوائف والمذاهب، فتقاطروا اليها من كل الجهات. فكان يدرس فيها ابناء سورية ولبنان إلى جنب أبناء مصر، والآستانة، واليونان، والعراق، وايران. فيتعلمون اللغات العربية والانكليزية والافرنسية على مشاهير ذاك العصر. وكان المعلم بطرس يتولى رئاستها بحزم وبُعد نظر، ويعلّم فيها صفًّا باللغة الانكليزية، ويخطب في التلاميذ مرتين في الأسبوع يحثهم على التقوى والفضيلة ومكارم الأخلاق. وكان أيام الآحاد والأعياد يرسل كل فئة من التلاميذ النصارى مع معلم إلى كنيسة طائفتها فنالت المدرسة نجاحاً باهراً، واشتهر العدد الكبير من تلامذتها في الأدب العربي، وإحراز المناصب العالية في الإدارة والسياسة. وقد كافأته الدولة العثمانية بوسام على انشائها، وكان الولاة يزورونها مرات شاكرين مشجعين».

ولقد تغلبت النزعة الطائفية على المدرسة اللبنانية الحديثة. فقد أرادت كل فئة أن يكون لها معهد أو أكثر خاص بها، يربي النشء ويعلمه، فلا يلجأ إلى مدرسة تبشيرية أجنبية، ولو كانت المؤسسة القائمة عليها من أتباع تلك الطائفة. وهذا ينطبق بشكل خاص على المدارس التبشيرية الكاثوليكية.

ونعدّد، فيما يلي، المدارس الطائفية الحديثة، متّبعين بقدر الإمكان، ترتيبها التاريخي. وأول مدرسة طائفية، حديثة كانت المدرسة الداودية، في عبيه، التي فتحت أبوابها سنة ١٨٦٢».

«وهي المدرسة الأولى والوحيدة التي عرفت باسم الدروز. تأسست سنة ١٢٧٩ هـ/ ١٨٦٢ م في مدة متصرف لبنان الأول داود باشا. وقد سميت باسمه لأنه هو الذي اعتنى في انشائها، تقريباً للدروز إلى العلم، لأنهم كانوا خارجين من ميدان قتال وموسومين بالجهل.

وجمعت الأوقاف المعروفة باسم «حسنة الدروز» وباسم الشيخ أحمد أمين الدين التي كانت قبلاً بيد مشايخ العقل، يوزعون ريعها على الفقراء والعقال، فجعلت رأس مال المدرسة، وعيّن راتب التلميذ السنوي ثمانماية غرش».

ومع أن هذه المدرسة كانت خاصة، فقد كان في نظام إدارتها، أن يتولى رئاستها قائمقام المنطقة، وهو درزي.

«وعهدت ادارة المدرسة في أول الأمر إلى لجنة مؤلفة من القائمقام وشيخي العقل ووكيل الطائفة. وبقيت هكذا إلى سنة ١٢٩٦ هـ/ ١٨٧٨ م إذ صار تعديل في نظام المدرسة ووُضع لها نظام آخر في السنة المذكورة نفسها. ونقلت ادارتها إلى عمدة من وجوه الطائفة وأعيانها، عددها اثنا عشر ينتخبون على طريقة هي: أن يدعو القائمقام لا أقل من مئة وخمسين شخصاً من أعيان ووجوه الطائفة، فينتخبون اثني عشر شخصاً. والاثنا عشر (أي العمدة) ينتخبون رئيساً لهم منهم. وقد جرت العادة أن ينتخبوا القائمقام في جملة الاثني

عشر، فيتفقون على انتخابه رئيساً للعمدة، وذلك لغاية المحافظة على المدرسة وأوقافها بما يكون بيده من سلطة الحكومة، فيكون أقدر على المحافظة من غيره. وهذا كان صواباً لولا أن الاختبار أظهر خطأه، لأن تبدل القائمقام بتبدل السياسة أو تبدل السياسة بتبدل القائمقام قد أضر بالمدرسة فجعلها تتقلّب مع السياسة إدارة وتعليماً كما هو معروف. وقد تولّى رئاستها للمرة الأولى الأمير ملحم ارسلان فبقيت تحت رئاسته مدة قائمقاميته التي دامت ثلاث عشرة سنة. وتلاه الأمير مصطفى ارسلان فترأسها مدة تسع سنوات. ثم انتقلت القائمقامية إلى نسيب بك جنبلاط فانتقلت معها إليه رئاسة المدرسة مدة تسع سنوات من سنة ١٢٩٩ هـ/ ١٨٨١ م إلى سنة ١٣٠٨ هـ/ ١٨٩٠ م، ثم عاد الأمير مصطفى فترأسها عشر سنوات أيضاً إلى سنة ١٣١٨ هـ/ ١٩٠٠ م».

ومع أن المدرسة الداودية كانت درزية، فإن المعلمين فيها، جاءوا من طوائف أخرى. فقد:

«كان أول أساتذة المدرسة المعلم أسعد الشدودي، الذي كان يدرس فيها الرياضيات واللغتين العربية والانكليزية. ثم جاءها المعلم فضل الله الغرزوزي، فزاد على ما كان يعلّمه الأستاذ الشدودي علم الفرائض. وغير هذين سعد الله البستاني وغطاس البعبداتي وفاضل الخوري من بحمدون، وأحمد حسن سليم من جباع، وعلي بك ناصر الدين ونجله أمين بك في عهدها الأخير».

والمدرسة المارونية الكبرى أنشئت في بيروت، وهي مدرسة الحكمة، التي أنشأها المطران يوسف الدبس (توفي عام ١٩٠٧ م) الذي كان نابغة عصره، في العلوم العقلية والنقلية. وقد لقي الكثير من العراقيل والعقبات، لكنه ذلّل ذلك كله، بحكمته وأناته وصبره ومثابرته. وقد شرع ببناء المدرسة سنة ١٨٧٤ م، وفتحت المدرسة أبوابها، لقبول الطلاب، غرة تشرين الثاني، عام ١٨٧٥ م، وقبلت ٧٢ طالباً. وبلغ عدد طلابها عام ١٨٨٢ م مئتين وثمانين طالباً، كان يعنى بهم ثلاثون معلماً. وكانت تعلّم العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية والتركية والحساب ومسك الدفاتر والجغرافية والتاريخ والفلسفة وعلم الطبيعة والفقه. وفي سنة ١٩١٤ م، بلغ عدد طلاها ٣٨٤، بين داخلي وخارجي.

وقد أشرنا، من قبل، إلى عناية الشيعة بتجديد مدارسهم، في تلك الفترة، من القرن التاسع عشر، مثل: مدرسة حنويه (١٨٧٨ م) ومدرسة بنت جبيل (١٨٨١ م) ومدرسة النبطية الحديثة (١٨٨٢ م) والمدرسة الحميدية (١٨٩٢ م) ومدارس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في صيدا (١٨٩٧ م) والمدرسة النورية في النبطية الفوقا.

وكما كانت مدرسة البلمند المدرسة الرئيسية لطائفة الروم الأرثوذكس، فقد كانت مدرسة دير المخلص المدرسة الرئيسية لطائفة الروم الكاثوليك، وقد اهتمت هذه الطائفة بمدرستها الرئيسية، ذلك أن التعليم الديني العالي، كان مقتصراً، بادىء ذي بدء، على مدرسة عين تراز، التي أنشئت سنة ١٨١١ م، لكنها، لأسباب محلية وسياسية، لم تفتح أبوابها، إلا سنة ١٨٢١ م، وظلت على ذلك إلى سنة ١٨٦٠ م. ولما أُعيد فتحها، رؤي أنه من المناسب، إنشاء مدرسة يتلقى فيها الرهبان العلوم اللاهوتية العالية، اللازمة لرجال الدين. وقد افتتحت مدرسة دير المخلص سنة ١٨٦٧ م، ثم وسّعت، بعد ذلك، بحيث أصبحت مناهجها تنطبق على حاجة العصر ومناهجه.

كان الفوج يقيم في المدرسة نحو ست سنوات، وكان الطلاب يدرسون الصرف والنحو والشعر والبيان، في كتب الشيخ ناصيف اليازجي، وكذلك، كانوا يتعلمون الحساب، في كتاب «كشف الحجاب»، لبطرس البستاني، والمنطق والفلسفة واللاهوت النظري واللاهوت الأدبي، في كتب منقولة عن اللغات الأجنبية. وكانت اللغة الفرنسية واللغة اللاتينية واللغة اليونانية تعلّم فيها. وقد أُضيفت العلوم العصرية، في السنوات الأخيرة، من القرن الماضي.

وفي بيروت أُنشئت المدرسة البطريركية، سنة ١٨٦٥ م، على يد غبطة غريغوريوس يوسف البطريرك، الأنطاكي والأورشليمي وسائر المشرق. وقد كان فيها، في سنة ١٨٨٢ م، نحو مئتي طالب، وفيها ١٢

معلماً. وكانت تدرس فيها العربية بفنونها، والفرنسية والانكليزية والتركية والرياضيات وعلم الطبيعة، وغير ذلك.

كانت أول مدرسة حديثة للطائفة الإسلامية في بيروت، هي التي أنشأها حسن البنا سنة ١٨٦٣ م (على وجه التقريب)، وقد سمّاها صاحبها المدرسة الرشديّة، قبل أن تنشىء الدولة العثمانية مدارسها المعروفة بهذا الاسم. وكانت تعلّم اللغة العربية والخط والحساب والدروس الدينية. وكان من مدرسيها الشيخ ابراهيم الأحدب.

وفي سنة ١٨٩٥ م افتتح الشيخ أحمد عباس الأزهري مدرسته (الخاصة)، التي سمّاها «العثمانية» (والتي أصبحت، فيما بعد، تسمى «الكلية العلمية الاسلامية»)، والتي عمّرت زهاء عشرين عاماً. وقد:

> «اتسعت دائرتها وجمعت داخل محيطها اقسام التعليم الثلاثية الابتدائي والاستعدادي والعلمي ـ عدا روضة الأطفال. وبهذه صارت كلية وأخرجت لـلأمة من الشباب الناهض الذي انطلق يؤدي ما وجب عليه لأمته من خدمة المدنية في فروع العلم التي حصّلها في الكلية الاسلامية».

ولم يكن الشيخ أحمد عباس معلماً فحسب، لكنه كان يعنى بالقضايا الإصلاحية العامة. فمن:

> «الأماني الاصلاحية التي كانت تشغل قلب الرئيس التوفيق بين مقتضيات العلوم الحديثة ومقررات العلوم الدينية. كان يزعجه ما يرى من تباين في الرأي بين بعض تلامذة المدارس العصرية وبعض طلبة العلوم الدينية لجهل كل من الفئتين بعلم الفئة الأخرى، وخاف على الجهود المبذولة في سبيل نهضة الأمة أن يحيط بها هذا الخلاف او يحبطها إلى عكس المقصود منها. فهمّ بتلافي الأمر فوسّع قدر ما أمكن دروس العلوم الدينية من فقه وتوحيد وأضاف إليها درساً في علم الأصول، ثم حاول إنشاء دائرة خاصة بمريدي الاختصاص في العلوم الدينية شرط أن لا يقبل فيها إلا من اضطلع بالعلوم العصرية».

إلا أن أهم ما جرى في تاريخ التعليم، بالنسبة للطائفة الاسلامية السنية، في لبنان، في القرن التاسع عشر، هو تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية، سنة ١٨٧٨ م، في بيروت وصيدا، وامتداد عملها، بعد ذلك، إلى طرابلس، ثم إلى أماكن أخرى.

إن الدعوة إلى إنشاء مثل هذه الجمعية، للعناية بالتعليم، عرفتها أصلاً أوساط بيروت لمدة ليست بالقصيرة. وأخيراً، اجتمعت الأسباب، التي أدت إلى تأسيس الجمعية، فظهرت إلى الوجود سنة ١٨٧٨ م، وبدأت نشاطها حالاً. وكانت باكورة أعمالها افتتاح مدرسة للبنات، في السنة نفسها (١٨٧٨ م)، وافتتاح مدرسة ثانية للبنات، في السنة التالية. وقد كان في المدرستين نحو ٤٣٠ طالبة، وقت الافتتاح، فارتفع العدد إلى ٥٣٦ طالبة، في السنتين التاليتين. وجاء حالاً، دور افتتاح مدارس للصبيان، وبدىء العمل بتأسيس مدرستين. واتسع نطاق الأعمال التعليمية، التي قامت بها جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية، إلى خارج بيروت. ونحن، لسنا بمعرض التأريخ للجمعية أو لمدارسها، ولذلك، فإننا نكتفي بهذه الاشارة العامة. إلا أنه لا يسعنا إلا التذكير، بأن جمعية المقاصد لقيت بعض الصعوبات، في أيام السلطان عبد الحميد، وحيل بينها وبين النشاط، حتى سنة ١٩٠٨ م، حيث جدّدت وجودها وعملها.

على أنه يجب أن نشير إلى أمرين يتعلقان بالأسباب التي حملت مفكري المسلمين، وأهل الهمة فيهم، على افتتاح هذه المدارس.

الأمر الأول يتصل برغبة القوم في أن تكون للطائفة مدارس خاصة. ذلك بأن المدارس الرسمية، كانت تعتبر مدارس غير وطنية، ولذلك، فإن القوم لم يجدوا فيها الحل البديل للمدارس الأجنبية، التي افتتحت في البلاد. وفي سبيل توضيح هذه المسألة بالذات، نضع الفقرة التالية بين أيدي القراء:

> «وأخيراً لا بد من الاشارة إلى أنه حين قيام جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت بوضع نظامها

التربوي الذي ستسلكه في مدارسها كافة كان من الطبيعي أن تتأثر بمصدرين: المصدر الأول هو المدارس الرسمية التركية التي كانت سائدة آنذاك والتي تعتبر مدارس إسلامية، بالاضافة إلى كونها تركية رسمية. والمصدر الثاني هو المدارس التبشيرية الأجنبية والوطنية التي تعتبر مدارس مسيحية ولكنها متقدمة ومتطورة علمياً وتربوياً. ومن الصعب الحكم في اي من المصدرين كان له التأثير الأكبر على اتجاهاتها التربوية، ولكنه من المؤكد أن الجمعية بدأت منذ ذلك الحين محاولات تدريجية دؤوبة لتفلت من بعض جوانب المنهج التركي ولإضافة مواد وأساليب «عصرية» مقتبسة من المدارس التبشيرية».

أما الأمر الثاني، فمرتبط بهذا الاهتمام الذي أظهره القوم في العناية بتعليم البنات. وفي كلمة لحسين بيهم، نشرت في «ثمرات الفنون»، لعام ١٢٩٦ هـ/ ١٨٧٩ م، جاءت العبارة التالية:

«فإذا كانت أيها السادة هذه حالة الذكور الذين يوجد عندهم بعض وسائط تعليمية جزئية، فكيف حالة الإناث اللواتي وسائطهن اقل والجهل بالتالي وبالواقع عندهن أعمّ مع أن أمر تعليمهن ضروري لانهن المربيات الأول للاولاد وعليهن مناط التهذيب، فإنه لا أمة بلا رجال ولا رجال بلا عائلة ولا عائلة بلا مرب وهذا المربي هو الام التي إن لم تكن متعلمة وهي صبية لا يمكنها أن تربي اولادها وبالتالي لا تتهذّب الامةّ».

وقد لقيت جمعية المقاصد بعض الصعوبات، في أيام السلطان عبد الحميد، وحيل بينها وبين التوسع، حتى سنة ١٩٠٨ م حين جددت وجودها، ووسعت نشاطها.

وفي دراسة لشاهين مكاريوس، نشرت في المقتطف سنة ١٨٨٢ م، تناول صاحبها التعليم في سوريا، جاء فيها أنه كان في بيروت وحدها ٥٨ مدرسة للصبيان و٣٥ مدرسة للبنات. وكان يعمل في مدارس الصبيان ٢٩٠ معلماً، يُعنَون بنحو ٦٣٠٠ تلميذ، وكان عدد المعلمات مئتي معلمة، يدرّسن نحو ٥٤٨٠ تلميذة.

أما وقد ذكرنا أهم المدارس الوطنية، فجدير بنا أن نعود فنذكّر أنفسنا بأن كلا من الفئات، التي يتكوّن منها لبنان، رأت أنه لزاماً عليها أن يكون تثقيف نشئها، وتعليمه، والقيام على أمور تربيته، بأيدي أبناء الفئة نفسها. وبذلك تتمكن من الحفاظ على ذاتيتها ومقوّمات شخصيتها، وتعمل ذلك في حرية تامة.

ولأن هذه المدارس أُنشئت في القرن التاسع عشر، أي بعد أن كان لبنان قد تعرّف إلى المدرسة الحديثة، فإنه توجّب عليها - على كل مدرسة (وكل فئة) - أن تكون مدرسة حديثة. فلم يكن من الممكن أن تفتح مدرسة تقتصر في برامجها وأساليبها على التقليدي من الموضوعات. بل كان عليها أن تحتوي مناهجها على العلوم الحديثة - الكيمياء والفيزياء والرياضيات والجغرافية، وعلى التاريخ القومي أو الوطني. وكان عليها أن يكون في نطاق تدريسها اللغات الحيّة الحديثة. ومن هنا، كانت اللغات الانكليزية والفرنسية والايطالية تعلّم في كثير من هذه المدارس. وتعليم التركية يرجع إلى أنها كانت لغة الدولة.

ولما كانت ثمة مدارس تجمع، في التعليم، بين الثقافة الدينية والثقافة العصرية، فقد توجّب على هذه المدارس أن تُعنى باللغات اللازمة للدراسات الدينية. ومن هنا، نجد أن بعض هذه المؤسسات ظلت تُعنى بالسريانية، وبعضها أضافت اليونانية أو اللاتينية إلى اللغات التي تعلمها.

ونحن إذا نظرنا إلى هذه المدارس، من حيث ارتباطها بالشخصية اللبنانية، وجدنا أنها كانت منفتحة على العالم الحديث، وتمثل الرغبة في حرية العمل. وكان التعاون قائماً في العمل التعليمي. فالشيخ عباس الأزهري درّس في المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني، ودرّس في المدرسة الداودية الدرزية، والعلاّمة يوسف الأسير كان يدرّس في مدرسة الحكمة المارونية.

وهكذا كانت المدرسة دوماً عنواناً على الشخصية اللبنانية. والمدرسة، في عصر النهضة الحديثة، كانت أشد التصاقاً بهذه الشخصية.

٩ الشيخ أحمد عباس الأزهري

قام الأزهر، خلال القرون الطويلة، بدور هام في سبيل الحفاظ على العلوم الإسلامية والعلوم المساعدة لها، مثل اللغة والأدب. فتاريخه طويل حافل، وتلاميذه كانوا يأتون إليه من جميع أنحاء العالم الاسلامي، وخصوصاً من البلاد والجماعات الاسلامية، التي تقوم إلى الشرق من مصر.

وقصة الأزهر ودوره العلمي معروفان واضحان، فضلاً عن أن الأزهر، كانت له وقفات وطنية وقومية هامة في تاريخه. لهذا، ومع أن الأزهر، يستقطب طلاباً يفدون إليه من كل حدب وصوب، فإن على المرء أن يتذكر، أن الحاجة قد أدت إلى قيام جامعين معاصرين له، من حيث الإنشاء، وموازيين له، من حيث الوظيفة، وهما: الزيتونة بتونس والقرويين بفاس.

لكن الذي يعنينا مباشرة، هو الأزهر بحد ذاته. فقد كان الطلاب من لبنان يذهبون إليه لتلقي العلم الشريف. وكان هؤلاء، مع الطلاب القادمين إلى الأزهر من فلسطين وسوريا، يسمون الشوام، نسبة إلى بلاد الشام. ولما كان الأزهر، من حيث طلابه وحتى شيوخه وأساتذته، مقسماً إلى أروقة وحارات، فقد كان الطلاب «الشاميون»، يُسجّلون في رواق الشام، وكان الكثيرون منهم، يقيمون في رواقهم. وقد أخرج الدكتور مصطفى رمضان أن عدد الطلاب الشاميين، أي الذين كانوا في رواق الشام، سنة ١٨٨٦ ـ ١٨٨٧ م بلغ مئة وواحداً وثلاثين طالباً، وأن هذا العدد ارتفع في سنة ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤ م إلى مئتين واثنين وعشرين طالباً، كان منهم سبعة وثلاثون من لبنان.

لكن اللبنانيين كانوا، ولا شك، يذهبون إلى الأزهر قبل سنة ١٨٨٦ م، إلا أنني أحسب أن ضبط الأمور، نظاماً وتسجيلاً، لم يكن مألوفاً، قبل ذلك. وقد عنيت، قبل مدة، بتتبع أخبار اللبنانيين، الذين تعلموا، ثم تخرجوا من الأزهر، في القرن التاسع عشر، فوجدت ما يزيد على عشرين منهم. ولست أدّعي أنني وقعت على جميع الأسماء. وقد مرّ بي اسم رجل واحد فقط، هو الشيخ يوسف الذوق الطرابلسي، الذي كان من طلاب الأزهر ومتخرجيه، في القرن الثامن عشر.

والذي نعرفه، أن خريجي الأزهر، كانوا مُعدين لتولي مناصب قضائية شرعية، على اختلاف درجاتها، أو للقيام بالتدريس في المدارس القائمة في بلادهم، أو في بلاد أخرى، إذا شاؤوا ذلك. فماذا كان نصيب خريجي الأزهر من اللبنانيين؟

إذا عدنا بالذاكرة إلى الوضع في لبنان، في القرن التاسع عشر، والنصف الثاني منه بشكل خاص، وما اتسم به من تطورات كبيرة ومجالات للعمل واسعة، أدركنا أن الأزهريين واكبوا هذا الركب، وعملوا حتى خارج المدارس. ولكن قلة منهم بقيت في مصر، وآثرت أن تعمل في الأزهر نفسه. ومن هؤلاء الشيخ عبد القادر (الثاني) الرافعي، الذي ظلّ يعمل هناك مدرساً ثم أستاذاً، ثم تولى مشيخة رواق الشام؛ وأخيراً، لما توفي الشيخ محمد عبده، وكان مفتياً للديار المصرية، عيّن الشيخ عبد القادر خلفاً له. لكن المنية عاجلته، فلم يلبث بالمنصب سوى ثلاثة أيام، من رمضان سنة ١٣٢٣ للهجرة أي في شهر تشرين الثاني من سنة ١٩٠٥ م. وقد ظل الشيخ حسين منقارة، الطرابلسي أيضاً، في الأزهر، إلى نهاية حياته أستاذاً وشيخاً لرواق الشام.

وقد التحق بعض هؤلاء الخريجين بوظائف الدولة العثمانية، بحسب اختصاصاتهم، وخارج لبنان. فكان لا بد أن يلفت كثيرون منهم، أو بعضهم على الأقل، نظر رجال الدولة، بسبب نبوغهم أو تفوقهم، فحاولت الحكومة أن تفيد من علمهم ومعرفتهم.

وقد رفض البعض الآخر عروضاً للعمل في خدمة الدولة، وآثر هؤلاء العودة إلى بلادهم للعمل فيها.

فمن الذين قبلوا، مثلاً، الشيخ عبد الحميد الرافعي، الذي انتقل إلى العاصمة العثمانية، ودخل مكتب القضاة، وحاز على الشهادة الممتازة من المكتب المذكور. وعيّن في نيابات القضاء في حماة فاللاذقية فالقدس فالبصرة فالمدينة المنوّرة فحلب فإزمير. وقد توفي في هذه المدينة الأخيرة. ومنهم الشيخ يوسف الذوق والشيخ مصطفى الرافعي والشيخ محمد الجسر أبو الأحوال والشيخ يوسف الأسير والشيخ عبد الله الصوفي. لكن إقامتهم في الخارج كانت على العموم قصيرة، إلا الشيخ الصوفي، الذي تولى مناصب قضائية في نابلس وعكا وصنعاء وحلب ودمشق.

لكن من الملاحظ، على الأقل بين الأسماء، التي حصلت أنا عليها، أن بيروت لم ترسل إلى الأزهر العدد الذي يتناسب مع عدد سكانها، وان طرابلس، كان الذاهبون منها، إلى الأزهر، كثيرين. ويخيّل إليّ أن الأعمال المنوّعة في التجارة وفي وظائف الدولة في بيروت، خصوصاً بعد أن أصبحت هذه عاصمة لولاية (سنة ١٨٨٨ م)، كانت تفتح أمام الشباب مجالات واسعة للعمل. ثم لعلّ المدارس والكليات، التي قامت في المدينة، في تلك الفترة، كانت تغري الكثيرين بالالتحاق بها.

وكان، في بيروت، مجالان هامان لهؤلاء المتخرجين.

الأول هو هذه المدارس الحديثة، التي قامت في المدينة، في النصف الثاني، من القرن التاسع عشر. فمدارس جمعية المقاصد الإسلامية كانت بحاجة إلى مدرسين. وحتى مدرسة الحكمة والكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأميركية اليوم) كان فيهما مجال للعمل. وهذا الشيخ يوسف الأسير، مثلاً، يدرّس في هاتين المؤسستين. ثم قامت الكلية العلمية الاسلامية.

والمجال الثاني هو الصحافة. فقد ظهرت، على التوالي، بين سنتي ١٨٥٨ و ١٨٧٦ م، الصحف التالية: «حديقة الأخبار» و «نفير سوريا» و «البشير» و «ثمرات الفنون» و «لسان الحال». كما انشئت، في الفترة نفسها تقريباً، المجلات التالية: «العلوم» و «الجنان» و «المقتطف» و «الصفاء» و «المشرق». وهذه الصحف والمجلات، كانت بحاجة إلى كتّاب ومحررين ومصححين. وهذا كان مجالاً كبيراً للعمل. فالشيخ يوسف الأسير، مثلاً، لم يقتصر عمله الصحافي على لبنان، بل إنه كان يعمل في جريدة «الجوائب»، التي أنشأها أحمد فارس الشدياق، في استانبول.

وهذه المقدمة، التي تبدو طويلة، كانت ضرورية، لفهم الدور الذي قام به الشيخ أحمد عباس الأزهري. إن هذا يعطينا صورة عن البيئة التي عمل فيها الرجل. فالشيخ أحمد عباس بيروتي المولد (سنة ١٨٥٣ م)؛ وقد تلقى علومه الابتدائية في بيروت، وانتقل إلى الأزهر، وعاد وقد أضاف «الأزهري» لقباً له. وبعد عودته، عمل في التعليم. والذي نعرفه، هو أن الرجل كان يعمل في المدرسة «السلطانية» في بيروت، سنة ١٨٨٥ م. في ذلك الوقت، كان الشيخ محمد عبده في هذه المدينة. ذلك بأنه لما حكم عليه بالنفي من مصر، بسبب علاقته بثورة أحمد عرابي باشا (١٨٨٢ م)، اختار بيروت مكاناً لإقامته. وذهب، بعض الوقت، إلى باريس، ليشترك، مع الأفغاني، في إصدار «العروة الوثقى». فلما توقفت هذه عن الصدور، عاد الشيخ محمد عبده إلى بيروت. ودُعي لإلقاء الدروس في المدرسة السلطانية، فنفخ في المدرسين والطلاب روحاً جديدة، بحيث أصبحت المدرسة وكأن حياة جديدة قد دبّت فيها. فبعد أن كان الطلاب يعتبرونها:

> «حبساً يقضون عامهم في توقع الانفراج وتمني الانطلاق... صارت المدرسة وكأنها غير المدرسة، واصبح علمها كأنه غير علمها في مدة من الزمن لم يألف التصور حصول ذلك في مثلها».

يقول عبد الباسط فتح الله:

> «غير أن إرادة الله الانتقامية لم تشأ أن ينعقد لعمل الشيخ محمد عبده الثمرة المرجوة، إذ أن ازدهار المدرسة وفلاحها أشعل نار الحسد في قلوب جماعة من رجال «العسكرية» على مديرها، الذي صار له بفضل

الأستاذ وحكمة تدبيره من النبالة ولسان الصدق في الناس، ما لم يرضه له أولئك الأوغاد، فسعوا بالمدير فبدلوه بآخر... فجاء خلفه وغيّر وبدّل واضطرب نظام المدرسة فضلّت نهجها القويم وغايتها المثلى... وفارقها معناها المرسوم فيما تقدم، فاستقال الأستاذ الشيخ محمد عبده».

وقد كان الشيخ أحمد عباس الأزهري مدير المدرسة، الذي تعاون الشيخ محمد عبده معه.

ولسنا ندري تماماً، كم ظلّ الأزهري مديراً للمدرسة، ولكن الذي نعرفه أن المدرسة، لما انضمّ محمد عبده اليها، كانت في بدء سنتها الثالثة. والذي نعرفه، أن شخصية الأزهري القوية، انتهت به إلى إنشاء مدرسة خاصة به. وكان ذلك سنة ١٨٩٥ م، أي بعد نحو عشر سنوات من التخلي عن السلطانية، أو إقصائه عنها. وقد سمّى مدرسته «المدرسة العثمانية»، ثم غيّر الاسم، وأطلق عليها «الكلية العلمية الإسلامية». وقد عمّرت هذه المدرسة زهاء عشرين سنة.

وكان للأزهري، في هذه المدرسة، في ذلك الوقت المتأخر من القرن التاسع عشر، منهاج حديث، بمعنى أنه كان يعلّم فيها مبادىء العلوم واللغات الأجنبية، شأن المدارس العديدة، التي أسست في بيروت في ذلك الوقت.

فالمدرسة اهتمت بالعلوم الدينية واللغة العربية، لكنها أضافت ما ذكر. فقد كانت اللغتان التركية والفرنسية تعلّمان فيها. وفي السنوات الأخيرة، أضيفت اللغة الانكليزية. وكانت فيها روضة للأطفال، وثلاثة أقسام، الابتدائي والاستعدادي والعلمي.

وقد قال عبد الباسط فتح الله، عن مدرسة الأزهري، ما يلي:

«وبهذا صارت [هذه المؤسسة] كلية وأخرجت للأمة من الشباب الناهض الذي انطلق يؤدي ما وجب عليه لأمته في خدمة المدنية في فروع العلم التي حصّلها في الكلية الإسلامية».

وليس في قوله هذا مبالغة. فالمدرسة أو الكلية استمرت حتى الحرب العالمية الأولى، ولا يزال في بيروت جماعة من أهل العلم والأعمال ممن تخرجوا من تلك المؤسسة. ولعلّ عناية الشيخ أحمد عباس الأزهري بالتربية الخلقية، بالنسبة للطلاب كانت، أهم من المعرفة، التي كان الطلاب يحصلون عليها. إذ كان يُعنى بهم، ويتابع تصرفاتهم، خصوصاً الطلاب الداخليين منهم. وقد توفي أحمد عباس الأزهري سنة ١٩٢٧ م.

ولا بد من التذكير، بأن الشيخ أحمد عباس الأزهري، الذي كان عالماً عاملاً قوي الشخصية، ما كان اهتمامه ليقتصر على إدارة مدرسة خاصة، وتخريج طلاب صالحين منها. فهو الذي كان يعيش في بيروت، مدينة النشاط والحركة والمحاولات الاصلاحية، قد عُني بالقضايا العامة أيضاً.

لقد كان يربط بين المدرسة والمجتمع، فيرى مشكلات الثاني، فيحاول وضع الحلول لها، عن طريق الأولى. ويقول عنه عبد الباسط فتح الله:

«فمن الأماني الاصلاحية التي كانت تشغل قلب الرئيس [الشيخ أحمد عباس] التوفيق بين مقتضيات العلوم الحديثة ومقررات العلوم الدينية. كان يزعجه ما يرى من تباين في الرأي بين بعض تلامذة المدارس العصرية وبعض طلبة العلوم الدينية، لجهل كل من الفئتين بعلم الفئة الاخرى. وخاف على الجهود المبذولة في سبيل نهضة الامة أن يحيط بها هذا الخلاف او يحبطها إلى عكس المقصود منها. فهمّ بتلافي الامر، فوسّع قدر ما أمكن دروس العلوم الدينية من فقه وتوحيد، وأضاف إليها درساً في علم الاصول، ثم حاول انشاء دائرة خاصة بمريدي الاختصاص في العلوم الدينية فقط شرط أن لا يقبل فيها إلا من اضطلع بالعلوم العصرية».

ومثل هذا الرجل الذي علّم، ودرّس، وبَرْمج، وحافظ على الأخلاق، وأثّر في الناس، وخلّف جيلاً من المتعلمين، كان له حظ في تقدّم بيروت، ولكن ليس له، في بيروت، أثر يبيّن فضله ويخلده. ويذكّر الناس بهذه الأمثولة الطيبة سوى شارع صغير، تقابله وأنت تنحدر من تلة الخياط شرقاً، في اتجاه شارع مار الياس. وقد كتب اسمه «شارع الشيخ عباس». وأحسب أن هذا العالم العامل المربي الكبير، يجب أن يخلّد اسمه بأكثر من هذا، وأن يعطى اسمه كاملاً ـ لعل الناس، عندها يعرفون أن المقصود هو الشيخ أحمد عباس الأزهري.



١٠ الطريق بين بيروت ودمشق

عُرفت بيروت، في منتصف القرن التاسع عشر، بأنها أنسب وأصلح ميناء على الساحل الممتد من غزة إلى الاسكندرونة. وكان يقطنها بين ٤٠ و٥٠ ألفاً من السكان. لكنها كانت تعاني المشاق في اتصالها بالداخل. إذ لم يكن ثمة سوى دواب النقل ـ الحمار والبغل والجمل ـ لتنقل الركاب والمتاجر إلى دمشق مثلاً، حيث كان يقيم نحو من مئة ألف من السكان.

وأذكر أن جدي، كان يشير إلى فلان أو علان على أنه كان «مكاراً» أو «مكارياً»، أي أنه كان يقوم بنقل البضائع من مكان إلى مكان. ولا شك، أن انتقال الناس بهذه الطريقة، كان صعباً، وما أحسب أن نقل البضائع كان أسهل!

فانتقال الناس على الدواب كانت فيه مشقة ـ ولكن يمكن للمسافر أن يستريح ـ إلا أن نقل البضائع كانت فيه صعوبة إضافية. ذلك أن الصناديق الكبيرة، والرزم التجارية البالغة الضخامة، كانت تفكك في بيروت، كي تنقل محتوياتها على ظهور الدواب. وكم كانت تتعرض البضائع للضياع أو للكسر (بسبب تعثر البغل مثلاً).

يضاف إلى هذا، أن الطريق الجبلي، بين بيروت ودمشق، كان الثلج يكسو النقاط المرتفعة فيه، أياماً عديدة من الشتاء. (وعندها، كانت الدواب توضع في الاسطبل، ويأوي المكارة أو المكارية إلى البيوت، يصطلون قرب النار).

وفي الأحوال العادية، كانت السفرة، من بيروت إلى دمشق، تحتاج إلى أربعة أيام ذهاباً، وإلى أربعة أخرى إياباً. ولكن السوّاح، الذين كانوا ينتقلون من بيروت إلى دمشق، كانوا يحتاجون إلى ثلاثة أيام، ذلك بأنهم، كانوا يعطون خيولاً قوية، ويدفعون أجراً يتناسب مع ذلك. وكان الطريق المتبع، غالباً، هو من بيروت إلى دير القمر في اليوم الأول، وفي اليوم الثاني، كان السواح ينتقلون منها إلى جب جنين، في البقاع الغربي. ويصرفون اليوم الثالث في طريقهم من هذه الأخيرة إلى دمشق. وكان السوّاح غالباً ما يعودون عن طريق بعلبك، ولذلك، كانوا يحتاجون إلى أربعة أيام في الطريق. والمحطات هي: الزبداني، بعلبك، زحلة.

ولا تتوفر لدينا أية معلومات عن أجرة الدابة ـ بغلاً أو جملاً ـ في قيامها بنقل حمل من المتاع أو المتاجر، من بيروت إلى دمشق. لكن لدينا نسخة عن اتفاقية، هي رسالة موجهة من شخص اسمه ميشيل مرجان إلى كل سائح، يبيّن فيها ما يتوجّب على هذا السائح دفعه، مقابل نقله من بيروت إلى دمشق، وإعادته منها، بطريق بعلبك، وذلك المبلغ يساوي خمسة وعشرين فرنكاً، أي ما يعادل جنيهاً استرلينياً، لليوم الواحد.

وفيما يلي نص الرسالة مترجمة إلى العربية:

> «أنا ـ ميشيل مرجان ـ أتعهد بأن أنقل السيد (ــــــ) من بيروت إلى دمشق في ايام ثلاثة، وان أعيده اليها في أربعة أيام مع التوقف في بعلبك بطريق العودة، وذلك مقابل خمسة وعشرين فرنكاً [أي جنيه واحد] لليوم الواحد. وأتعهد بتقديم خير الخيول التي يمكن الحصول عليها للسيد (ــــــ)، وان ازوده بحاجاته من المواد الغذائية والفراش والخيمة والسكاكين والشوك والملاعق والأواني اللازمة والكراسي. وأتعهد للسيد (ـــ) بأن أنزله في أفضل فندق في دمشق وأن أدفع عنه جميع نفقاته هناك، وفي أي مكان اخر في الطريق، ولا يترتب على السيد (ـــ) أن يدفع أي نفقات اضافية قط».

ومع ذلك، فإن الكثيرين، كانوا يرون، أن دفع سبعة جنيهات أو مئة وخمسة وسبعين من الفرنكات للرحلة، هو أمر قد لا يستطيعه الكثيرون. ولسنا نعلم من يقترح على المسافرين أسلوباً يكلف من النفقات أقل من ذلك.

لكن الأسلوب الآخر لا يتهيأ إلا للذين يقيمون مدة طويلة في البلاد، ويكون لهم خيول يملكونهـا. وقد خلف فارلي، الذي كان كبير محاسبي البنك العثماني في بيروت، سنتي ١٨٥٦ و١٨٦٧ م، تقديراً دقيقاً لما كان ينفقه شخصان، يملكان الخيل، لمثل هذه الرحلة. فنفقات الطريق مع المواد الغذائية، للشخصين، تساوي ٤٢٠ قرشاً، بمعدل ستين قرشاً، في اليوم الواحد. والاقامة، في دمشق، في الفندق، لثلاث ليال، تكلف ٣٠٠ قرش، ونفقات الترجمان، وأجرة حصانه وثمن أكل الخيول ٥٤٠ قرشاً. فتكون نفقة الشخصين، لمثل هذه الرحلة، هي عشرة جنيهات ونصف الجنيه (مقابل أربعة عشر جنيهاً)، أي بتوفير جنيه وثلاثة أرباع الجنيه للشخص الواحد. (فأجرة الفندق، للشخص الواحد، في دمشق، كانت خمسين قرشاً، لليوم الواحد).

على أن انتقال الأشخاص، ونقل البضائع، على ظهور الدواب، كان لا بد من أن يتبدلا. فإذا لم تقم الحكومة بذلك، وإذا كان أهل البلاد لا يملكون المؤهلات ولا المال، فهناك من كان يتطلع إلى تغيير الحال، على أساس الكسب من مشروع كهذا. وقد نشرت جريدة «ديلي نيوز» اللندنية، في ٣ آذار/ مارس سنة ١٨٥٨ م رسالة من بيروت، مؤرخة في ١٦ شباط/ فبراير، أي بعد كتابتها باسبوعين، أعلنت فيها، أن بيروت، الميناء الرئيسي في شرق المتوسط، ستتصل قريباً بدمشق بطريق عربات، وذلك بهمة ونشاط «برتوي»، وحذقه المالي، واهتمامه التجاري.

وهذا الرجل هو الكونت أدمون دو برتوي (Perthui)، أحد ضباط الأسطول الفرنسي المتقاعدين. كان برتوي يقيم في بيروت، وهو صاحب فكرة إنشاء طريق عربات، بين دمشق وبيروت. (وبهذه المناسبة، فاسم هذا الرجل أطلق على شارع صغير في بيروت، يبدأ أمام مدخل الجامعة الاميركية قبالة المستشفى، ويدور مع خط الترام القديم، متجهاً نحو المدينة. ويصل الى شارع الداعوق. ولعل طوله لا يزيد على مئتي متر).

لقد طلب برتوي امتيازاً من الدولة العثمانية، ولاحق الطلب في استانبول، وأخيراً حصل عليه، في صيف ١٨٥٧ م. والامتياز يقضي بمنح شركة برتوي حق استثمار الطريق، بين بيروت ودمشق، لمدة خمسين سنة، على أن تتقاضى الدولة من العربات، على اختلاف أنواعها، رسوماً، لأنها ستفيد من الطريق. أما المكارة أو المكارية، فقد حوفظ على حقهم في استعمال الطريق، دون أن يدفعوا أية رسوم. وباشرت الشركة، بعد تأمين ثلاثة ملايين ونصف المليون من الفرنكات، من رؤوس أموال من القطاع الخاص، العمل في الطريق، في اليوم الثالث من كانون الثاني/ يناير سنة ١٨٥٩ م، إذ ضرب المعول الأول. وبعد أربع سنوات تماماً، وصلت الشحنة الأولى من البضائع المنقولة على عربات إلى دمشق، وكان ذلك، في الثالث من كانون الثاني/ يناير سنة ١٨٦٣ م.

وقامت، بعد ذلك، خدمات بعربات الدلجانس، التي كانت تجرها ستة خيول أو بغال، وهذه كانت لنقل الركاب، كما وضعت الكارّات المختلفة لنقل البضائع. وكانت الشركة تستورد جميع حاجاتها، لإصلاح العربات وغيرها، من فرنسا. لكنها لم تلبث أن أنشأت، في بيروت، مصنعاً لصنع المسامير والبراغي وما إليها.

وأصبحت الرحلة، وطول الطريق من بيروت إلى دمشق ١١١ كيلومتراً، تستغرق ثلاث عشرة ساعة. ولما انتظمت خدمات الدلجانس اليومية، كانت تلتقي في شتورا العربات الآتية من دمشق وتلك الآتية من بيروت.

على أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان عصر البخار والسفن البخارية والسكك الحديدية. فلم تعد حتى العربات والكارات والدلجانس تكفي. فضلاً عن ذلك، فإن المنطقة، التي تشمل العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن أصبحت، تدريجاً، موضع تنافس بين الدول الكبرى لتوطيد نفوذها فيها. (فالمدرسة والصحيفة وشركات استثمار الموانىء وبناء الطرق كانت وسائل للتسرب أولاً، ثم للتوطيد). والسكك الحديدية، كانت موضع اهتمام الحكومات والشركات شبه الرسمية أو الرسمية بين

سنتي ١٨٩٠ و ١٩١٤ م. (ويكفي أن يتذكر الواحد منا المحاولات، التي تمّت للحصول على امتيازات لبناء السكك الحديدية. وفي هذه الفترة أضيفت سكة الحديد إلى العربات، واسطة للانتقال).

ولم يكن الأمر يتعلق بفشل طريق العربات أو تقصيره. فالطريق كان جيداً، وكانت العناية به تامة ومستمرة. وقد شهدت بذلك السائحة الانكليزية، اللادي برتن (Lady Burton)، التي أطرته كثيراً. وكان أيضاً مربحاً، بالنسبة للشركة. ولكن الزمن تغيّر. فالسكة الحديدية كانت قادمة!

وقد منح امتياز، لتوسيع ميناء بيروت سنة ١٨٨٨ م، لجوزيف مطران من بعلبك، وهو الامتياز الذي كان أساساً لشركة ميناء وأحواض بيروت. (فالأمور كانت تتغيّر وتتبدّل). وكان هناك حاجة ماسة، في الواقع، لزيادة وسائل النقل بسبب ازدياد كميات البضائع، التي أصبحت ترد عن طريق ميناء بيروت برسم الداخل. (ولم يكن في وسع شركة طريق العربات أن تزيد عدد دواب النقل التي لديها، وكان عددها ألفاً، كما انها لم تكن تستطيع استعمال عربات وكارات أكثر عدداً).

وكانت شركة بريطانية قد منحت امتيازاً لبناء سكة حديدية، تصل دمشق بحيفا، وكان العمل قد بدأ، وبنيت عشرة كيلومترات أو ما يقارب ذلك. ومثل هذا العمل، كان سيزاحم طريق دمشق بيروت، ويتغلب عليها، وقد يؤدي ذلك إلى نقل مركز الثقل التجاري إلى حيفا. لذلك، كان لا بد من العمل السريع لبناء سكة حديدية بين بيروت ودمشق. ومن ثم، فإن شركة طريق العربات نفسها أصبحت حريصة على إنشاء سكة حديدية، لتحافظ على أرباحها وامتيازاتها.

فقامت الشركة بتكليف جماعة بدرس مشروع إنشاء طريق حديدي، وهي التي أصبحت، في مطلع سنة ١٨٩١ م، تحمل اسم «الشركة العثمانية لسكة حديد بيروت ـ دمشق». ويبدو أن الخبراء، كانت لهم وجهات نظر مختلفة، في سير الطريق، وعرض السكة، وما إلى ذلك. ولكن الذي دفع بالمشروع بزخم، في النهاية، هو الرغبة في تحقيق بناء السكة الحديدية، قبل إتمام مشروع دمشق ـ حيفا، إذ أن هذا المشروع يخطف تجارة بيروت. وتقرر أن يكون رأس مال المشروع أربعة عشر مليوناً من الفرنكات.

وقد حصل حسن بيهم، أحد وجهاء بيروت، على هذا الامتياز، في ٧ حزيران/ يونيو سنة ١٨٩١ م، وبُدىء العمل، في صيف السنة التالية، واستمر ثلاث سنين، بحيث أمكن البدء باستغلال الخط في ٣ آب/ أغسطس سنة ١٨٩٥ م.

وكان طول السكة الحديدية ١٤٧ كيلومتراً، وكان القطار يقطعها في تسع ساعات.

لقد اختصر وقت السفر، بفضل التطور الجديد، من أربعة أيام، على الدواب، إلى ثلاث عشرة ساعة، في العربة، إلى تسع ساعات، في القطار. وكان هذا هو أثر التكنولوجيا بين سنتي ١٨٦٣ و ١٨٩٥ م بالنسبة إلى التنقل بين بيروت ودمشق.

وكان طريق سكة الحديد أطول بسبب متابعة عدوات الأودية وسفوح التلال والجبال. وقد استعمل الخط المسنن، في المناطق الشديدة الانحدار، وذلك، محافظة على الركاب وغيرهم. ومن المعروف أن سكة الحديد هذه، ارتفعت إلى ١٤٨٧ متراً، عند ظهر البيدر، وان الانحدار، إلى جانبي سلسلة جبال لبنان الغربية، نحو الساحل غرباً، ونحو البقاع شرقاً، هو شديد. والجزء المسنن من الخط، وهو على جانبي ظهر البيدر، يبلغ طوله ٣٢ كيلومتراً. وتجتاز السكة أربعة أنفاق، أطولها يبلغ ٣٥٠ متراً.

وقد أريد من السكة الحديدية أن يفيد منها البقاع، ومن هنا، كان لها محطتان رئيسيتان فيه، هما: المعلقة ورياق. وقد أفاد البقاع، من هذه السكة الحديدية، أكثر مما أفاد من طريق العربات. فقد أصبحت زراعة الكرمة، التي كانت قد بدأت قبل ذلك، صناعة رئيسية، كما أصبح صنع الخمور مورد رزق كبير. ومن جهة ثانية، أصبح من اليسير نقل الأشياء، التي يحتاجها البقاعيون، من دمشق، بشيء من اليسر.

وقد مدّت من رياق، فيما بعد، سكة حديد، هي الثانية في لبنان، إلى بعلبك، ووصلت هذه، تدريجاً، إلى حمص وحماه وحلب، كما أن حمص وُصِلَت بطرابلس بسكة حديدية أيضاً.

وجدير بالذكر، أن سكة حديدية، بنيت في التسعينات من القرن الماضي، بين يافا والقدس. وكانت ثمة امتيازات متعددة، لربط أجزاء لبنان وفلسطين وسوريا ببعضها البعض، لما نشبت الحرب العالمية الأولى. وكان من جراء ذلك، تبدل آني في بعض المخططات، وإسراع في تنفيذ الأخرى. هذه هي قصتنا؛ ففيها ربطنا بيروت بدمشق، بطريق عربات وسكة حديدية، ويسّرنا على الناس التنقل والنقل.

١١ أول مصرف في بيروت

لعلّ ما يلفت النظر في بيروت، وخصوصاً نظر الزائر لها لأول مرة، المصارف الكثيرة المنتشرة فيها، ولأكثرها أكثر من فرع واحد. وهذا الأمر ينطبق، وبدرجة أقل طبعاً، على طرابلس وصيدا وزحلة، وحتى على المدن الأصغر من ذلك. فالمصارف المسجلة في لبنان، الوطنية منها والعربية والأجنبية، تتجاوز المئتين عدّاً. ولكن السؤال، الذي يخطر على البال، هو متى أنشىء أول مصرف في بيروت؟

حريّ بنا أن نعود إلى كتاب وضعه ج. لويس فارلي، بعنوان «سنتان في سورية»، ونشر في لندن سنة ١٨٥٩ م، لكي نتعرّف إلى وضع بيروت التجاري، في أواسط القرن الماضي، لأننا نجد فيه ما يهيىء لنا السبيل لمعرفة ظروف تأسيس المصرف الأول، في هذا البلد. أما السنتان، اللتان قضاهما فارلي في البلاد، فهما: ١٨٥٦ و ١٨٥٧ م. وأول ما يجب أن نذكره، مما قاله هذا الرجل، هو أن أسواق بيروت، تتوفر فيها أنواع اللحوم والطيور والأسماك والخضار والفواكه، على اختلاف أنواعها. ويشير إلى أن الفستق الحلبي يأتيها من حلب، وأن البطيخ يحمل اليها من ميناء يافا. وقد يبدو هذا القول غريباً بالنسبة لسكان بيروت اليوم، لكن نحن نتكلم عن أواسط القرن الماضي. على أن الذي يشدّد عليه فارلي، هو أن الأوروبي يجد في بيروت جميع ما يحتاج إليه.

وقد شغل فارلي منصب أمين صندوق البنك العثماني في بيروت؛ لذلك، فإننا عندما نقرأ كتاب فارلي بعناية، نستطيع أن نرسم صورة لتجارة بيروت، في ذلك الوقت، وهي صورة، ولا شك، يحب البيروتي في الدرجة الأولى، واللبناني على العموم، أن يتعرف اليها. فحوانيت المدينة، كانت تحوي كل ما يخطر على البال من حاجات. ومن المفيد أيضاً، أن نعرف أن دهاقنة التجارة الأجنبية في بيروت، كانوا من الفرنسيين. وكان التجار البريطانيون يلونهم في الرتبة. وقد كان لوكلاء الشركة التجارية الهندية الشرقية، وهي شركة بريطانية كبيرة جداً، معتمدون في هذه المدينة، هم «ميسون وشركاؤهم».

ومع أنه حول سنة ١٨٤١، أي بعد خروج ابرهيم باشا وجيشه من بلاد الشام، لم يكن يُرى في ميناء بيروت أكثر من سفينة واحدة، فإنه في سنة ١٨٥٦، وفي السنة التي تلتها، كانت تجتمع ست أو سبع من السفن معاً في الميناء.

كان البريد يخرج في يوم الجمعة، من كل أسبوع، من لندن إلى بيروت، ويمر عبر مرسيليا. كما انه كان ثمة خط بحريّ تجاريّ منتظم، بين بيروت وليفربول في بريطانيا.

وإذا كنا اليوم نتناول الجريدة يوميًّا لنقرأ فيها، فضلاً عن الأخبار المحليّة والسياسيّة، أسعار العملات الأجنبية، فلا بد من القول بأن الصحافة لم تكن موجودة في مدينة بيروت قبل أول كانون الثاني سنة ١٨٥٦ م. لذلك، فإن أسعار العملات الأجنبيّة، كانت أمراً يعرفه التجار من اتصالاتهم، وعبر أعمالهم. وفضلاً عن ذلك، فإن أنواع العملات الأجنبية كانت أقل بكثير مما هي عليه اليوم. والواقع أن سوق بيروت كانت تتعامل بنوعين من النقد الأجنبي، هما: الجنيه الاسترليني والفرنك الفرنسي. وكان الجنيه يحسب بـ ١٢٠ قرشاً (تركياً). إلا أن هذا السعر كان يتقلب قليلاً، ومدى التقلب كان بين ١١٧ و ١٢١ قرشاً. أما الفرنك الفرنسي، فقد كان يساوي أقل من خمسة قروش بقليل.

كانت العملةُ الرسميّة، في البلاد، هي نقدُ الدولة العثمانية، وأساسه الليرة العثماينة، والليرة العثمانية الذهبية طبعاً. وهذه الليرة كانت تقسم إلى مئة قرش او غرش. وكان القرش يقسم إلى أربعين بارة. وعندما نقول ان الجنيه الانكليزي كان يساوي ١٢٠ قرشاً، فمعنى هذا، أن الجنيه الانكليزي، كان فيه، من الذهب، أكثر من الليرة العثمانية.

ومما يلفت النظر، في أقوال فارلي، تأكيده على أنّ المدينة كانت تتمتع بدرجة كبيرة من الأمن يومها. فالحياة والمال لا خطر عليهما. ويضيف، أن القتل والسرقة وغيرهما من الجرائم، التي تكثر في بعض المدن الأوروبية، نادرة في بيروت. والمرء يمكنه أن يتنقل في المدينة وضواحيها متنزهاً، مشياً أو على صهوة حصان، دون الإحساس بالخطر قط.

ونودّ التذكير بفندق بسّول القديم في بيروت، الفندق الذي كان يقوم على مقربة من السان جورج اليوم، ويشرف على الخليج، وتطلّ عليه الجبال اللبنانية القريبة من بيروت، قبل أن تقوم حوله الأبنية الكثيرة. ففندق بسّول، الذي كان يملكه يومها نقولا بسّول، كان قائماً في بيروت سنة ١٨٥٦ م. وإذ أنه كان معروفاً ومشهوراً يومها، فلا بد أنه كان قد مرّ عليه بعض الوقت. وفندق بسّول هذا، كان يقصده السواح من الانكليز والاميركيين والفرنسيين.

وبهذه المناسبة، فقد عرفت نفراً من الانكليز الذين نزلوا في فندق بسّول سنة ١٩٥٨ م، أي بعد مائة سنة من أيام فارلي. لقد اعتادوا أن ينزلوا فيه من قبل، وحافظوا على صلة الصداقة مع المكان وعائلة بسّول. وكان نقولا بسّول، مؤسس هذا الفندق، يعمل أصلاً دليلاً للسواح. وكان الدليل يسمى «ترجمان»، ولكن الأجانب درجوا على لفظها دراغُمان (dragoman)؛ ولذلك، فإن الكلمة ترد في أكثر الكتابات، التي وصلت من القرن الماضي، بهذا الشكل. ثم ترك نقولا بسول عمله، كدليل أو ترجمان، وفتح هذا الفندق. لكنه لم يترك أمر الاهتمام بالسواح، ذلك بأنه كان ينظّم لهم رحلاتهم إلى دمشق والقدس، بالاتفاق مع شركة طوماس كوك، التي كانت تُعنى بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، والأماكن الأثرية في مصر بشكل خاص.

والذي يطّلع على أسعار الفنادق في بيروت اليوم، إذ تصل أجرة الغرفة الواحدة عشرات الدولارات للنوم فقط، يرى في أسعار فندق بسّول، في أواسط القرن الماضي، شيئاً رخيصاً جداً. إذ يقول فارلي، ان الفرنكات العشرة، التي كان يدفعها الشخص الواحد، في فندق بسّول، كانت تغطّي نفقات غرفة للنوم مع الطعام للوجبات الثلاث والخدمة. والشيء الوحيد الذي لا يدخل حسابه في هذا المبلغ الزهيد، هو الخمور. فهذه كان المقيم يدفع ثمنها منفردة. ويضيف الكاتب، انه من الممكن الحصول على أسعار أقل للإقامة الطويلة.

إن الفرق في أسعار الفنادق كبير جداً، لكنه فرق الزمن والقوة الشرائية للنقود. وفضلاً عن ذلك، فإن أشياء كثيرة، نعرفها في الفنادق اليوم، لم تكن معروفة، حتى ولا مخترعة يومها، ولعل ايجار المنازل يثير الدهشة أكثر من أسعار الغرف في الفنادق. فإن منزلاً متسعاً صالحاً لأسرة معتدلة العدد، كان يمكن الحصول عليه لقاء مبلغ يتراوح بين ثلاثة آلاف وستة آلاف قرش سنوياً. وهذا المبلغ، كان يساوي، يومها، ما بين خمسة وعشرين وخمسين جنيهاً انكليزياً. وكانت أجرة الخادم الماهر أو الخادمة الماهرة، لا تتجاوز مئة وخمسين قرشاً في الشهر.

ويتضمن كتاب فارلي إحصاءات عن تجارة بيروت للسنوات ١٨٥٣ و ١٨٥٦ و ١٨٥٧ م. ولا ننوي نقل جميع أرقامه وإحصاءاته هنا، ولكن نود أن نشير إلى أن بيروت استوردت سنة ١٨٥٣ م ما قيمته ٧٢٥,٠٠٠ جنيه استرليني، ولكن المبلغ ارتفع إلى مليون وثلثمئة وخمسين ألفاً سنة ١٨٥٧ م، أي بعد اربع سنوات فقط. يقابل هذا، أنّ ما صُدِّر من بيروت، كان يساوي ٦٢٥,٠٠٠ جنيه في سنة ١٨٥٣ م، فارتفع إلى نحو المليون بعد أربع سنوات.

ويبدو، لأول وهلة، أن هذه الأرقام كبيرة، إن بالنسبة للاستيراد أو للتصدير، ولكن بيروت كانت تعيد تصدير الكثير من هذه الواردات، أي انها كانت ميناء استيراد، لا لحاجات سكانها وضواحيها فحسب، بل وللداخل أيضاً.

كانت بيروت تسير دوماً على هذا السبيل، تستورد من البحر، الذي يصلها بالخارج، وتبعث بما يأتيها

إلى الداخل الشامي. ولم تكن بيروت وحيدة في هذا الوضع، بلبنان؛ فطرابلس وصيدا وصور كانت تقوم بمثل هذا الشيء أيضاً، لكن بيروت، كانت الأهم والأكبر. ومثل ذلك يقال في صادراتها. فمن بيروت، كانت ترسل أشياء كثيرة، مصنوعةً وخاماً، بعد أن تكون هذه قد وصلتها من الداخل ـ من المدن اللبنانية ومن دمشق وحتى من الأردن.

وكانت بيروت تستورد الأقمشة القطنية والحريرية والصوفية والحبوب والأرز والخمور، والسكر، والبنّ، والمصنوعات المعدنيّة، والنحاس، والرصاص، والفحم الحجري، والأدوية. ولنأخذ، مثلاً، الأقمشة، على اختلاف أنواعها، فقد قدِّر ما دفعته بيروت، ثمناً لها، سنة ١٨٥٧ م، بما يزيد على ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات الاسترلينية. ومن الطبيعي أن قسماً كبيراً، أو القسم الأكبر على الأصحّ، كان ينقل إلى الداخل ـ القريب أو البعيد ـ ليُباع في أسواقه.

أما ما كانت تصدره بيروت، عن طريق مينائها، فيدخل في عداده الحرير والشرانق والمنسوجات القطنية والحريرية والتبغ والصوف الخام. وواضح أن التبغ، الذي كان يصدّر من ميناء بيروت كان ينقل إليها من مزارع التبغ في المناطق اللبنانية وغيرها من الجوار. وكانت قيمة الحرير والشرانق الصادرة من بيروت تقرب من ثلث مليون جنيه استرليني.

ومع أن المتاجر كانت ترد إلى بيروت من تركيا وبلاد أوروبية متعددة، فقد تبدل مركز الدول المستوردة منها بين سنتي ١٨٥٣ و ١٨٥٧ م. ففي السنة الأولى، استوردت بيروت من البلاد الأوروبية الرئيسية: بريطانيا فالنمسا ففرنسا، على هذا الترتيب. أما في سنة ١٨٥٧ م، فقد جاءت فرنسا في المرتبة الأولى، وتلتها النمسا ثم بريطانيا.

لكن التصدير حافظ على ترتيبه خلال تلك السنوات، فقد كانت الدول المستوردة، هي التالية، على الترتيب: النمسا ففرنسا فتركيا فبريطانيا.

ويبدو أنه لم تكن ثمة صعوبة في التفاهم بين تجار بيروت والتجار الأجانب. يقول فارلي، إن أكثر التجار المعتبرين في بيروت، يتكلمون إما الفرنسية أو الايطالية. وهناك من يستطيع التكلم حتى بالانكليزية. وهذا يذكرني بما أوردناه سابقاً من أن الكثير من المدارس، التي أُنشئت في لبنان، بعد تأسيس مدرسة عين ورقة، سنة ١٧٨٩ م، كانت تعلّم لغات أجنبية. وقد أفاد الذين تعلموا هذه اللغات، لما احتاجوا إلى استعمالها في السوق والمصرف.

وهنا، نعود إلى موضوع إنشاء أوّل مصرف في بيروت، بعد أن تتبعنا مراحل تطور أسواق بيروت ومتاجر بيروت وميناء بيروت وفنادق بيروت، ومن ثم ازدهار تجارة بيروت.

فالمصرف يصبح أمراً ضرورياً، عندما تنمو التجارة، وتزداد العلاقات التجارية، بين مكان ما وأمكنة أخرى في العالم. ولما كانت الحركة التجارية في بيروت مزدهرة، في أواسط القرن الماضي، فقد كان من الضروري، أن يؤسس مصرف يقوم بالأعمال المالية المرتبطة بالتجارة الخارجية خاصة. وقد كان أول مصرف، فتح في بيروت، هو البنك العثماني. وكان ذلك في ١٦ تشرين الأول/ اكتوبر سنة ١٨٥٦ م. والبنك العثماني، بهذه المناسبة، هو مصرف بريطاني. ومن هنا كان موظفوه بريطانيين.

وكان فارلي، مؤلف كتاب «سنتان في سورية» هو رئيس قسم المحاسبة في البنك. ويحدثنا، أن السيد (م)، كان قد وصل إلى بيروت، في أواسط شهر آب/ اغسطس سنة ١٨٥٦ م، وأعدّ أماكن لسكنه ولسكن بقيّة الموظفين، واستأجر البناء الذي سيعمل المصرف فيه. فلما وصل الموظفان الآخران، السيد (ب) وفارلي، فتح المصرف أبوابه، في ١٦ تشرين الأول/ اكتوبر، كما ذكرنا.

وقد بدأ المصرف أعماله بثلاثة موظفين بريطانيين وهم السيد (م) الموظف الرئيسي ويحمل لقب «مدير» المصرف، والسيد (ب) المسؤول عن الحسابات الجارية. أما الثالث فهو فارلي، الذي كان كبير المحاسبين. وكان موظف محلي يساعد السيد (ب). أما فارلي، فكان عنده مساعدان محليان، كانا يحسنان

التعاون معه. ويصف فارلي المساعد الأول، ويعطي اسمه بشاره آدم، بقوله:

«ومساعدي الأول، بشاره آدم... هو شعلة ذكاءٍ ونشيط جداً في عمله».

وفي رسالة، مؤرخة في ٢٧ تشرين الأول/ اكتوبر ١٨٥٦ م، بعث بها فارلي، من بيروت، يتحدث عن الموظفين البريطانيين، اللذين كانا معه، فيقول إن السيد (م)، بقدر ما يستطيع أن يحكم عليه، هو مناسب جداً لعمله. إلا أن السيد (ب) «لم يكن الشخص المناسب للمكان المناسب». ويرى أنه ليس لديه أية معرفة بالشؤون التجارية. ويضيف:

«إنه يجهل كل شيء من المنتظر أن يعرفه صبي لندني ابن خمس عشرة سنة؛ وقد نالني منه من المتاعب أكثر مما نالني من مساعديَّ العربيين».

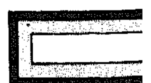
وينتقل، بعد ذلك، إلى القول بأن مؤسسة مثل المؤسسة التي يعمل فيها، أي البنك العثماني، يتوجّب أن يسير العمل فيها، وفي كلٍّ دائرة منها، بنظام واستمرار، بحيث لا تتأخر الدائرة الواحدة بسبب أخطاءٍ تُرتكب في دائرة أخرى. ولكن فارلي يشهد للسيد (ب) بأنه ذكي، وأنه قد يكون قابلاً للتعلم. لكنه يستشهد، في الرسالة نفسها، بمثل عربي معناه

«علّم حماراً يتبعك، فإذا علمت إنساناً فإنه ينقلب عليك».

ويأمل أن ينتهي الأمر على خير. ويستغرب فارلي اختيار مجلس الإدارة في لندن، مثل هذا الشخص، ليشغل منصباً مهمًّا لا يستحقه.

وفارلي، الذي أدرك أهمية السوق البيروتيّة، كان يرى أنه من الممكن أن يؤسَّس مصرف ثان وثالث، لأن السوق تحتاج إلى ذلك. لكن فارلي البريطاني، كان يأمل في أن تكون المصارف، التي تفتح، بريطانية.

وعلى كل، فإنه يبدو أن فارلي لم يستطع الصمت، أمام بعض تصرفات، أساءت إلى المصرف، فأظهر سخطه، فكانت النتيجة أن اضطر إلى الاستقالة، بعد سنة واحدة تماماً من إنشاء المصرف في بيروت. وعاد بعدها إلى لندن، ليدافع عن نفسه، لكنه لم يجد أذناً صاغية. ولسنا ندري ما إذا كان فارلي، لو بقي في عمله في بيروت، أو حتى لو ترقّى، بحيث أصبح المدير في الفرع، سيجلس ليكتب هذا الكتاب النافع لنا، والذي نعرف منه أن البنك العثماني كان أوّل مصرف يفتح في بلاد الشام. لكن الواقع هو أن البنك العثماني في بيروت، كان أول مصرف تجاري افتُتح في المشرق العربي.



١٢ دور الكتب في لبنان

لسنا ندري متى وجدت أول دار للكتب أو مكتبة في لبنان أو أين وجدت. وأغلب الظن، أن ما وجد منها، في العصور الخوالي، كان مجموعات من الوثائق الملكية القانونية والسياسية والتجارية، أكثر منه مجموعات من كتب الأدب والدرس. نقول هذا، ونحن نقارن بين ما عثر عليه المنقبون، في أنقاض المدن السومرية الأكّدية، مثل أور، أو في المدن الكنعانية الشمالية مثل أوغاريت، أو مدن الفرات مثل ماري، وأخيراً في شمال سوريا في أبلا أو تل مرديخ.

ولا شك، بأن الهياكل كانت تحفظ فيها الأدعية والصلوات والأناشيد الدينية، إن وُجِدت. إذ لا يعقل، أن يدرّب الشباب، من رجال الدين للمستقبل، من دون نوع من وسائل التعليم.

لكن عندما نتحدث عن دور الكتب، فإننا نقصد المكتبة المرتبطة بمعهد للدراسة أو مركز ملكي أو أميري للقراءة والمتعة. ولنا أن نحسب، أن مثل هذه الأمور، طرأت على العالم، بعد أن انتشرت فيه القراءة، ولو انتشاراً محدوداً، وبعد أن خرج التعليم من ايدي الكهنة المحتكرين له، بحيث صار للناس الحق في أن يتعلموا.

وإذا كان الأمر كذلك، فالمرجح عندي، أن صيرورة التعليم مدنياً أو علمانياً، هي التي أدت إلى إنشاء مكتبات أو دور كتب، ولنسمّها عامة. ولم يصبح التعليم مدنياً، في وقت واحد، في دنيانا، وما جاورها، وما ابتعد عنها. ولذلك، فإننا إذا أخذنا لبنان، مثلاً، فإننا سنجد، أن قيام مدرسة الحقوق أو القانون في بيروت، يمكن أن يكون أحد المعالم لقيام مكتبة لمصلحة الأساتذة والطلاب.

ومن المعروف، أن مدرسة الحقوق، بدأ عملها في القرن الثاني أو أوائل الثالث للميلاد، واستمرت حتى أواسط القرن السادس، لما تهدمت مع المدينة، إذ ضربها زلزال قوي جداً، وطاف البحر عليها، فأصابها الدمار، من البر والبحر. ونحن، عندنا أشياء كثيرة تتعلق بالمدرسة، عن أساتذتها، وطلابها، وسنوات الدراسة فيها، ومعيشة الطلاب، لكن لا تتوفر، لدينا، معلومات، عن مكتبتها.

فلو كان في مدرسة الحقوق مكتبة ضخمة، لوصلتنا أخبارها. لكن يجب أن نذكر، أن المدوّنات كانت، إلى ذلك الوقت، تتم على رق أو بردي، وكلاهما ثمين. وكانت حاجة الطلاب كتاباً واحداً أساسياً، لكل موضوع. لذلك، فالمكتبة، التي كانت موجودة، لم تكن بضخامة مكتبة الاسكندرية، في العصر الهلينستي. ولكن الاسكندرية، مثل انطاكية وجنديسابور فيما بعد، كانت مركزاً لدراسات منوّعة، ومن ثم فالمكتبات، في هذه المدن، كانت أكثر تنوعاً، وأكبر عدداً، فيما أظن.

وليس من شك في أن عدداً كبيراً من الأديرة، في لبنان والجوار، كان فيها مكتبات، لاستعمال الذين ينضمون اليها، للتعلم والدرس. على أن انتشار المكتبات، بشكل واسع، كان مرتبطاً بوصول الورق، أو الكاغد، من الصين إلى هذه الديار. وهذا تمّ، بعد الفتح العربي لأواسط آسية، في سمرقند وبخارى وما إليهما. فمن هناك، بدأ انتشار استعمال الورق. لكن أهم من استعماله كان صنعه. ومن هنا نلاحظ، أنه لم يكد القرنان التاسع والعاشر يحلّان بأراضي الامبراطورية العربية الواسعة، حتى كان استعمال الورق قد شاع في المشرق العربي والمغرب العربي والأندلس. ومن هذه، انتشر، فيما بعد، إلى أوروبا.

ولا شك أن هذا الأمر يفسر لنا غنى المكتبات أو دور الكتب، التي نشأت في المدن العربية والاسلامية، منذ انتشار استعمال الورق. إذ أن الورق أرخص ثمناً وأسهل معالجة، والكتابة عليه أيسر، وحفظ المخطوطات يحتاج إلى مكان أصغر.

وهذا الأمر يوضّح لنا كيف أنشئت المكتبات الضخمة، التي عرفت فيما بعد. ولا بد لنا من الأخذ

بعين الاعتبار أن بعض الدول كانت حريصة على نشر أفكار معينة أو مذاهب خاصة، ولذلك، كان حكامها والسائرون على طريق ملوكها، يعنون عناية خاصة بتوسيع المكتبات. أضف إلى ذلك، الرغبة الخاصة، التي يرافقها ثراء في الدولة أو الدويلة أو المدينة.

ومن هنا، ننطلق إلى الكلام عن مكتبة آل عمار، في طرابلس.

فبنو عمّار، الذين حكموا طرابلس، قرابة نصف قرن، في القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر، حريّون بأن يذكروا بالخير، إذا ما ذكر الخير، في تاريخ لبنان. وهم مغاربة أصلاً، رافقت قبيلتهم الفاطميين، لما انتقلوا من المهدية، في تونس، إلى مصر، واتخذوا من القاهرة، وهم بُناتها، عاصمة لهم. وكان للفاطميين دور كبير في بلاد الشام، فأرسلوا من قبيلة كتامة، وبنو عمّار منهم، من يحكم في شؤون دمشق وطرابلس وغيرهما.

لكن بني عمّار، الذين كانوا يحكمون البلد، قبل مجيء الصليبيين، لمدة تقرب من نصف القرن، ظهروا على المسرح، بعد مجيء الفئة الأولى. فقد أخرج الدكتور عمر عبد السلام التدمري، أن الحسن بن عمّار كان قاضياً في طرابلس، سنة ١٠٦٥ م، وكان يلقب بأمين الدولة. والذي نراه، أن تلقيب أو تلقُّب القاضي بأمين الدولة، يعني أنه كان يقوم بدور أكبر من دور القاضي، بقطع النظر عما إذا كان منتدباً للقيام بهذا الدور أم أنه انتدب هو نفسه لذلك. ويرى التدمري، أن أمين الدولة ظل على ولائه للدولة الفاطمية، حتى سنة ١٠٧٠ م. ونحن نحب أن نفسر هذا بقولنا، أنه كان موالياً للدولة الفاطمية الشيعية الاسماعيلية. لكنه لما رأى تغلّب السلجوقيين على الأمر، في العراق وما إليه، فضّل أن يقف على الحياد، فأعلن أن طرابلس هي دولة محايدة، مع أن الحكام كانوا شيعة.

وتلا أمين الملك، في الحكم، جلال الملك، ثم فخر الملك. وفي زمن جلال الملك، وُسّعت الدولة الطرابلسية، بحيث شملت جبلة وعرقة وطرطوس (أو انطرطوس كما كانت تسمّى) وجبيل، هذا، فضلاً عن جرود جبيل. أما أيام فخر الملك، فقد كانت أيام فخرٍ وصمود للمدينة. فقد حاصرها الصليبيون، عشر سنوات، قبل أن يحتلوها، وذلك سنة ١١٠٩ م.

وكانت طرابلس في تلك الفترة غنية. فقد نقل يوسف العش، في دراسته الهامة، عن دور الكتب العربية، في العصور الوسطى، أن المدينة، كان فيها أربعة آلاف، يعملون في نسج الحرير والصوف والقطن. وقد وصف ناصري خسرو، الرحالة، المدينة، في أواسط القرن الحادي عشر، بالثراء. وكانت طرابلس مشهورة بصنع الورق، وكانت توزعه على كثير من الأماكن الداخلية. فضلاً عن أن طرابلس، كانت، دوماً، مفتاح التجارة البحرية، مع أواسط سوريا.

لكن الثراء وحده، لا يؤدي إلى قيام مكتبة، كالتي عرفناها، أيام بني عمّار. فلا بدّ أن يكون ثمة تقليد، أقدم من ذلك.

لكننا لا نعرف إلى أي زمن يعود هذا التقليد، ولكن الذي نعرفه، هو أنه، في أيام أبي العلاء المعري، المتوفى قبل بدء حكم بني عمّار، كانت، في طرابلس، مكتبات، يقصدها الدارسون، للإفادة منها. وكانت هذه المكتبات مما وقفه الأثرياء على طلبة العلم. ويبدو أن أبا العلاء نفسه، كان أحد أولئك الذين أفادوا من هذه المكتبات؛ وهذا كان قبل إنشاء دار العلم العمّارية. وهذه المكتبة، أنشئت في الفترة التي سمّاها يوسف العشّ: «عصر دور العلم»، ويذكر قيام دور علم في القاهرة وبغداد (سابور) وطرابلس والقدس. وهو يربط دور العلم بالدعوة الشيعية. والواقع، أن أمين الملك نفسه، كان فقيهاً شيعياً كبيراً.

فمن الطبيعي، أن تقوم في طرابلس، في أيام بني عمّار، مكتبة ضخمة، فيها أقسام للفقه والفلسفة والشعر والتاريخ. وإن عدد مجلدات هذه المكتبة، كانت لا تقل عن مئة ألف. لقد أنشأها أمين الملك، ووسعها جلال الملك، بعده، وحافظ عليها فخر الملك جهده.

ومعنى هذا، أن طرابلس كانت مركزاً كبيراً للتعلّم، ولسنا نشك في أن الطلاب، الذين كانوا يقصدون

المدينة للدرس، كانوا يحصلون على الكثير من العون المعنوي والمادي؛ وفي استخدامهم للمكتبة، كانوا يعطون الورق والحبر.

وقد وصلت إلينا أسماء ثلاثة، ممن تولوا النظر على دار العلم في طرابلس، ونقل التدمري أخبارهم، وهم: الحسين بن بشر وابن أبي روح وأبو عبد الله الطليطلي النحوي. وكان أولهم من قضاة طرابلس وعلمائها، كما كان أديباً وخطيباً، وكان الثاني أيضاً قاضياً، بل كان «من أكابر قضاة طرابلس وعلمائها، وكان رأساً للشيعة في الشام»، وله تصانيف كثيرة.

أما الثالث، أبو عبد الله النحوي، فهو أندلسي الأصل، ويدل اسمه «الطليطلي» على أنه من طليطلة الأندلسية. ومن المعروف، أنه لما اشتد ضغط الاسبان على العرب في اسبانيا، وكانت طليطلة في الخط الأول، أخذ البعض، من رجال العلم والصناعة، يهجرون المدن الاسبانية، إلى شمال أفريقيا ومصر والمشرق. والذين وصلوا إلى مصر والمشرق، كانوا قلة، وبينهم أبو عبد الله هذا. وكانت له، في دار العلم الطرابلسية، «حلقة عامرة بالطلبة يلقي عليهم فيها دروساً في العربية والأدب».

وقبل متابعة أخبار النحوي الطليطلي، لا بد من العودة إلى بني عمّار ودار علمهم. فقد ضمّ الدكتور التدمري ما وجده عنهم في المظان بقوله:

> «كذلك فإن أمين الدولة اتخذ له دار علم جمع فيها ما يزيد على مائة الف كتاب وقفاً. وكان يرسل المراسلات إلى أقطار البلاد ويبذل الأثمان الباهظة ويجلب الكتب النادرة لهذه المكتبة، ويهتم بالعلم ويحنو على العلماء ويستميل طلاب العلم إلى عاصمته. واقتفى كل من جلال الملك وفخر الملك آثاره. فقام جلال الملك بتجديد دار العلم... وكان مقصد الشعراء من أنحاء الشام. وأوقف على طلبة العلم جرايات من الذهب، كان المتولي على دار العلم يقوم بتوزيعها على طلبة الدار. وكان فخر الملك أيضاً مقصد الشعراء والأدباء، ومحباً للمجالس العلمية والمناظرات الادبية، فيعقد في قصره المناظرات والمباريات الفقهية والشعرية. وكان بنو عمّار من الممدّحين من شعراء عصرهم. ومن الشعراء الذين مدحوهم ابن الخياط الدمشقي وابن النقار الطرابلسي وأبو المواهيب المعري وابن حيوس».

وكان طلاب العلم يأتون إلى طرابلس من أصقاع بعيدة ـ من مصر ومن الحجاز ومن العراق ومن آسيا الصغرى ومن فارس. وقد أورد الدكتور التدمري أسماء عدد كبير من هؤلاء العلماء، في كتابه الحياة الثقافية في طرابلس الشام، في العصور الوسطى، وهو مرجع هام، لمن أراد التعرف إليهم. أما بشأن النحوي الطليطلي، الذي كان صاحب دار العلم ومكتبتها، والذي كانت له صلة بوالد أسامة بن منقذ وعمّه، لما كان له من المعرفة والعلم، فهو لما أسره الصليبيون، عند احتلالهم المدينة، بعثا بمال اليهم، افتدياه به، واستخلصاه لأنفسهم، وصار أستاذاً لأسامة نفسه. وقد قال عنه أسامة، في «كتاب الاعتبار»:

> «الشيخ العالم أبو عبد الله الطليطلي النحوي... وكان في النحو سيبويه زمانه. قرأت عليه النحو نحواً من عشر سنين وكان متولي دار العلم بطرابلس... وشاهدت من الشيخ أبي عبد الله عجباً. دخلت عليه يوماً لأقرأ عليه فوجدت بين يديه كتب النحو ـ كتاب سيبويه وكتاب الخصائص لابن جني وكتاب الايضاح لأبي علي الفارسي وكتاب اللمع وكتاب الجمل. فقلت يا شيخ أبا عبد الله، قرأت هذه الكتب كلها؟ قال قراتها! لا والله كتبتها في اللوح وحفظتها. تريد أن تدري؟ خذ جزءًا وافتحه واقرأ من أول الصفحة سطراً واحداً. فأخذت جزءًا وفتحته وقرأت منه سطراً، فقرأ الصفحة بأجمعها حفظاً حتى أتى على تلك الأجزاء جميعها. فرأيت منه أمراً عظيماً ما هو في طاقة البشر».

والغريب في أمر طرابلس، أنها بالرغم من إحراق الصليبيين لمكتبتها، حينما احتلوها، فقد عادت إليها أهميتها كمركز للعلم. ويبدو أن المسيحيين، اليعاقبة العرب، الذين كانوا فيها، جعلوا منها مركزاً لدراسة الطب وتعليمه. وفيها اشتهر الأسقف اليعقوبي، ميشيل الحلبي. وكان هناك عدد من الأطباء المسلمين أيضاً. وقد برز، في القرن الثالث عشر، عالم افرنجي كبير هو وليم الطرابلسي، كما اشتهر ابن العبري، الطبيب الفيلسوف المؤرخ، وكان من أهل القرن نفسه. وغير هذين كثيرون.

وإذا كانت دار العلم بطرابلس، أشهر وأكبر مكتبة عرفها لبنان، في تاريخه الوسيط، فقد عرف، في تاريخه الحديث، عدداً من دور الكتب، ولو أنها لم تصل إلى ما وصلت إليه دار العلم. والمكتبات، التي اقصدها، كانت على نوعين، الواحد منهما: المكتبات الخاصة، التي نجدها في بيوت العلماء. وطرابلس بالذات، كان فيها عدد كبير من العلماء في القرن التاسع عشر، الذين كانوا يحتفظون في بيوتهم بمكتبات لهم. كما كان لعلماء جبل عامل وبيروت ولرجال الدين المسيحيين المتعلمين مكتباتهم.

أما النوع الثاني، فهو دور الكتب العامة، وأقصد بذلك تلك التي ارتبطت إما بمؤسسات دينية أو علمية، وطنية وأجنبية على السواء. وفي مقدمة هذه المكتبات الكبيرة في لبنان مكتبة بكركي، وفيها من المخطوطات السريانية والعربية الشيء الكثير، ومكتبة دير المخلص في جهات صيدا، ومكتبة دير الشرفة. أما المكتبات التي قامت إلى جانب المؤسسات العلمية، ففي مقدمتها، في لبنان، مكتبة الجامعة الاميركية ومكتبة جامعة القديس يوسف. ومن المكتبات الخاصة، في بيروت، في القرن التاسع عشر، تلك التي كان يملكها الحاج حسين بيهم.

ومن المكتبات الخاصة الكبيرة، التي أعرفها، مكتبة المرحوم الشيخ أحمد عارف الزين، مؤسس «العرفان»، ومكتبة السيد كميل أبو صوان، التي جمع فيها صاحبها، تقريباً، جميع كتب الرحلات الافرنجية، عن بلاد الشام. ولكن من الضروري أن يقوم الباحثون بمسح شامل، لمكتبات خاصة كثيرة، لعلنا لا نعرف عنها شيئاً. فبلد له في العلم والمعرفة تاريخ طويل، لا بد أن يكون عند المشتغلين بالعلم، من أهله، مجموعات حَرِية بالعناية والاهتمام.



١٣ صلات لبنان مع المغرب العربي

أحسب أن كل لبناني وكل تونسي يعرف أن قرطاجة أنشأتها جماعة أصلها من صور. والكثيرون هم الذين يروون القصة؛ وقد يزيد فيها البعض أو ينقص؛ ولكن تظل قرطاجة بنت صور. وفي هذا المقال، لن نعود إلى الحكاية فنرويها، ولا إلى القصة فنزخرفها. بل إننا سنتطرق إلى أمور أحدث عهداً بكثير، وهي تعود إلى القرن التاسع عشر، وإلى نصفه الثاني على وجه التحديد.

لقد كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر عصر إصلاح وتطوير في حياة تونس. وكان من الممكن أن تسير تونس قدماً في ذلك، لولا أن فرنسا احتلت البلاد سنة ١٨٨١ م، وفرضت عليها حمايتها. ففي عهد محمد باي، الذي حكم تونس من ١٨٥٥ إلى ١٨٥٩ م، وهي أول فترة للإصلاح، أدخلت مطبعة حجرية إلى تونس، ثم توسّع المشروع، فسعى الباي لجلب أحرف معدنية مع الأجهزة اللازمة لها من باريس. إلا أن الأجل وافاه قبل أن يتم مشروعه، وخلفه أخوه محمد الصادق باي، الذي حكم تونس من ١٨٥٩ إلى ١٨٨٣ م، فجاء بالمطبعة، ثم أنشأ جريدة «الرائد التونسي»، التي أصبحت الجريدة الرسمية، وأناط رئاسة تحريرها بالأستاذ الشيخ محمود قابادو.

على أن المطبعة، كان في عملها فتور، كما كان صدور «الرائد» غير منتظم. ولذلك، لما ولي خير الدين باشا الوزارة سنة ١٨٧٣ م، أظهر اعتناءً بـ «الرائد التونسي». فأسند ادارة الجريدة الى فرنسي مستعرب، كان قد نشأ في بيروت، وتعلّم في كلية القديس يوسف، هو منصور كرليتي. وهذه الصلة هي من الصلات الأولى، بين لبنان وتونس، في الأزمنة الحديثة.

على أن الصلة الأولى الأهم، كانت تدور حول فارس الشدياق. ذلك بأنه كان قد استقر في مالطة، حيث كان يعمل مصححاً، في مطبعة الأميركان هناك. وظل في الجزيرة فيما بعد، ويبدو أنه كان يعلّم العربية، في مدرستها الكلية. وكانت له علاقة بالوزير التونسي، مصطفى خزندار، الذي كان يغدق عليه الهبات. فقد رُوي أن الوزير منحه عشرة آلاف فرنك، ليطبع كتابه «سر الليال». كما أن ابنه سليماً، الذي كان يقيم في باريس، كان وكيلاً تجارياً للوزير مصطفى.

ويبدو أن فارس الشدياق تردّد على تونس زائراً، لكنه لم يقم فيها طويلاً. وليس من المؤكد أنه عمل محرراً في جريدة «الرائد التونسي». لكنه، في هذه الفترة، اعتنق الاسلام، وأصبح يكتب اسمه أحمد فارس الشدياق. والمعروف، أن هذا الكاتب الكبير، طبع له كتابان، في مطبعة «الرائد التونسي»، هما: «الواسطة في أخبار مالطة» و «كشف المخبّا عن فنون أوروبا».

ولما انتهى الأمر بالشدياق في الذهاب إلى استانبول، حيث أنشأ «الجوائب»، كان يكتب الكثير عن تونس وغيرها، في جريدته. والواقع أن منتخبات «الجوائب» (كنز الرغائب)، التي نشرها ابنه سليم فيما بعد، فيها فصول اضافية عن تونس والحركة الإصلاحية فيها.

كان من كبار علماء تونس، في النصف الثاني، من القرن التاسع عشر، محمد بيرم الخامس. وكان هذا مصلحاً، ومن مؤيدي خير الدين باشا. فلما اعتزل هذا الوزارة، سنة ١٨٧٧ م، وخلفه مصطفى بن اسماعيل، كان محمد بيرم في صفوف معارضيه. ولم يكن مجال للتوفيق بينهما، فقرر العالم الكبير الرحيل عن تونس نهائياً. فغادرها سنة ١٨٧٩ م، وذهب لأداء فريضة الحج، ماراً بمالطة والاسكندرية والقاهرة. وقد زار بيروت، حيث استقبله مدحت باشا. واجتمع، في المدينة اللبنانية، بعدد من رجال الفكر، كان بينهم سليم البستاني والشيخ ابرهيم اليازجي والشيخ عبد القادر القباني صاحب جريدة «ثمرات الفنون». وقد نظم الشاعر ابرهيم الأحدب قصيدة في مديح محمد بيرم في هذه المناسبة.

وكانت مدارس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية حديثة عهد في البلاد فزارهـا محمد بـيرم، وأطرى العمل، وشجّع القائمين عليه. وكان ينوي التوجه إلى دمشق، لزيـارة الأمير عبـد القادر الجـزائري، لكنـه عدل عن ذلك، وتوجّه من بيروت إلى استانبول.

والعالم التونسي الآخر، الذي كانت له ببيروت علاقة، هو محمد السنوسي، المولود سنة ١٨٥١ م. وقد تولى محمد السنوسي تحرير «الرائد التونسي». ولـما احتل الفـرنسيون تـونس سنة ١٨٨١ م، أراد محمـد السنوسي أن يتغيّب عن تونس، ولو لبعض الوقت، فغادر البلاد سنة ١٨٨٢ م، بحجة أداء فريضة الحج. فزار ايطاليا، وكان فيمن التقى بهم هناك، الكاتب المصري ابرهيم المويلحي. ثم ذهب إلى استـانبول، حيث لقي محمد بيرم الخامس، الذي مرّ ذكره. وأخيراً اتجه إلى الديار المقدسة، لأداء الفريضة الكريمة. وبعـد فترة قضاها هناك، عاد مع الحاج الشامي برًّا. وقد فرض الحجر الصحي عـلى الحاج في وادي الـزرقاء، وكان بين الحجاج حاج من مصر. وفي ليلة الخميس ـ الجمعة، في التاسع عشر من صفر، سنة ١٣٠٠ هـ، الـموافق للحادي والعشرين ـ الثـاني والعشرين من كانـون الأول/ ديسمبر، لسنـة ١٨٨٢ م، قرأ محمـد السنوسي خبر وفاة الصادق باي، حاكم تونس، وتولي أخيه، علي باي، مكانه. وكان السنوسي مؤدِّباً للبـاي الجديد. والذي يهمنا هنا، ليس الخبر بحد ذاته، بل ان هذا الخبر قد قرأه السنوسي في جـريدة «ثمـرات الفنون»، التي كانت تصدر في بيروت، لصاحب امتيازها عبد القادر القباني، وكان يحمل الجـريدة الحـاج المصري المشار اليه قبلاً.

ولا شك أن هذا الخبر حمل محمد السنوسي على الاستعمال في العودة إلى تونس. وأقام فترة وجيـزة في دمشق، حيث لقي الأمير عبد القـادر الجزائـري. ثم انتقل إلى بـيروت. وكان ممن لقيهم في بـيروت، من أهل العلم والمعرفة، المعلم بطرس البستاني، الذي طلب إليـه أن يكتب فصلاً عن تـاريخ تـونس، لدائـرة معارفه. فلبّى محمد السنوسي الطلب. وهذا نموذج حيّ للتعاون العلمي والفكري، الذي كان يتمّ بين علماء البلدان العربية يومها.

ولمحمد السنوسي آثار علمية هامة، ليس هنـا مجال ذكـرها، فنحن هنـا لا نؤرخ للحركـة الفكريـة أو الأدبية في تونس. ولكننا نودّ أن نشـير إلى واحد من أعمـاله الهـامة. كـان بين كبـار أهل العلم، في اللغـة والأدب، في تونس، الشيخ محمود قبادو، الذي كان يدرّس العربية والدين والأخلاق، في المدرسة الحربية، التي أُنشئت في باردو، بتونس (١٨٤٠ م).

ولما أغلقت المدرسة، أصبح قبادو أحد شيوخ جامع الزيتونة الكبار. وقد كان هذا الرجل شـاعراً، في طليعة شعراء القرن التاسع عشر. وكانت وفاته سنة ١٨٧١ م. ولما كان محمد السنوسي من تلاميذه، وكان يتولاه برعايته، فقد رأى لزاماً عليه أن يجمع شعره؛ ففعل ذلك، ونشر الديوان في جزءين، وطبع في مطبعة «الرائد التونسي»، في ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ م.

وقد أهدى محمد السنوسي ديوان قبادو إلى أدباء لبنانيـين، كان قـد اجتمع بهم في بـيروت. وقد كتب اليه اثنان من الأدباء يشكرانه على ذلـك. ونشر محمد السنـوسي الرسـالتين، في آخـر الجزء الثـاني، من الديوان. ونقدم، فيما يلي، نماذج من الرسالتين، مع العلم أن هذين الأديبين، المُهدى إليهما الديوان، كانا الشاعر ابرهيم الأحدب والحاج حسين بيهم.

وكان أولهما، الشـاعر ابـرهيم الأحدب، يـومها، رئيس كتّـاب المحكمة الشرعيـة ومحرراً في «ثمـرات الفنون». وقد صدّر ابرهيم الأحدب رسالته بأبيات من الشعر، فيها:

ثنـائـي عـلى آثـار فضلـك نشـرهُ ... يطيـب بـه عـرف النـديـم سرى نـدي
وحمـدي لـما اسـديـتَ يلحـم نسجُـه ... محـامـد يضفـو بـردُهـا بمحمّـدِ
فـانـك قـد اتحفتنـي بـرسـالـة ... تحـدّث بمـا ابـدتـه دعـوى مـوحّـدِ
بـهـا نـال ابـرهيـم ودّ محمـد ... فتـى الفضـل والـعليـا عـلى رغـم حسّـدِ

وهذا التضمين، في البيت الأخير، لاسم ابرهيم الأحدب، الذي تلقى الهدية، واسم محمد السنوسي، مرسلها، جميل للغاية، إذ كان ابرهيم الأحدب يشعر، بأن ثمة من يحسده على هذا الاعتناء الخاص.

والرسالة كلها مسجوعة، ويختمها ابرهيم الأحدب بقوله:

«ورأيت أن اصفيك خلتي وإن قلّ في هذا الزمان صفيّ، وأفي لك ببعض الواجب وإن عدم في أيامنا وفيّ. فحررت هذه الحروف الرقيقة من جموع القلة، وثنّيت شكرك وثناءك بجملة كلامي الفصيح بغير علة. راجياً اتصال رسائلك الحسان لهذا الخليل، ودوام توجهاتك القلبية بما يحافظ على سروره الجليل».

أما الأديب الثاني، الحاج حسين بَيْهُم، رئيس الجمعية العلمية السورية، وأحد مؤسسي مجلة مجموع العلوم، فقد ولد في بيروت، سنة ١٨٣٣ م، وكان فيمن قرأ عليهم الشيخ محمد الحوت. وقد زاول التجارة حيناً، ثم نزع إلى العلم، «فبرع بفنون الانشاء على اختلافها»؛ ونظم الشعر. وكانت له مكتبة عظيمة، فيها الكتب النادرة. وفي سنة ١٨٦٩ م، تولى رئاسة الجمعية العلمية السورية. وفي سنة ١٨٧٨ م انتدبه سكان وطنه، ليمثلهم في مجلس النواب العثماني. وكان من مؤسسي جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت.

وفي الجزء الثاني، من ديوان قبادو، رسالة الحاج حسين بيهم، وهي كذلك سجع، وفيها مديح وتقريظ لقبادو وديوانه، واعتذار عن التأخر في الكتابة بسبب مرض ألمّ به، وشكر على الهدية الجميلة.

ويقول الحاج حسين في رسالته:

«ثم إن النسختين اللتين برسم سيدي الأمير الجليل عبد القادر الجزائري الحسني، ونجله الكريم ذي الخلق الباهر السني، وصّلتهما اليهما مع الكتابين، فوصلني علم وصولهما بلا مَيْن. وهما يشكران لطفكم على تلك التحفة، التي هي أعظم طرفة».

وقد كان السجع هو الغالب على أساليب الكتابة يومها، ومن هنا، نجد أن هذا الأسلوب يكثر فيه التصنّع.

ولقبادو نفسه كتابة مسجوعة، صعبة المتابعة، إذ يُكثر فيها من الألفاظ الصعبة.

وهناك خبر عن صلات لبنان بالمغرب الأقصى، لكنه مكتوب بلغة سلسة وأسلوب فصيح. وهذا الخبر منتزع من كتاب للعلاّمة عبد الله كَنُّون اسمه «أحاديث عن الأدب المغربي الحديث». والمغرب، الذي يتحدث عنه علاّمتنا الكبير، هو المملكة المغربية حالياً. فبعد أن يذكر خبراً عن دخول أول مطبعة حجرية إلى المغرب، يقول:

«على أن مطابع أخرى من ذوات الحروف المركّبة ما لبثت أن عزّزت المطابع الحجرية في فاس وغيرها. وأهم ما يلفت الأنظار في نتاجها هو ظهور أول جريدة عربية تحمل اسم المغرب. وكان ذلك في طنجة سنة ١٨٨٩. وهي جريدة اسبوعية حرة أصدرها بعض اللبنانيين، ولم تعمّر طويلاً. ثم صدرت بعدها في طنجة أيضاً جريدة المغرب الاقصى سنة ١٩٠٠، فجريدة السعادة سنة ١٩٠٥ فمجلة الصباح سنة ١٩٠٦ فجريدة لسان المغرب سنة ١٩٠٧. وكلها لصحفيين لبنانيين نزحوا إلى المغرب في هذا العهد. ولم يبقَ منها الا السعادة، التي أصبحت فيما بعد لسان حكومة الحماية».

ويضيف الأستاذ كنّون:

«على أن الصحف التي كانت تصدر بطنجة، وإن يكن أصحابها لبنانيين، لم تكن تخلو من إسهام المغاربة فيها».

ونحن نرى أن هذا كان أمراً طبيعياً، لأن تلك الصحف، كتبت عن قضايا الإصلاح. وفيما يلي، فقرة منقولة عن جريدة «لسان المغرب»، لعلها تعود إلى سنة ١٩٠٨ م، جاء فيها:

«بما أن الوقت قد دعا إلى الإصلاح... فنحن لا نالو جهداً بطلبه على صفحات الجرائد من جلالته. وهو [أي

السلطان عبد الحفيظ] يعلم أننا ما قلدناه بيعتنا واخترناه لأمتنا... إلا أملاً في أن ينقذنا من هوة السقوط التي أوصلنا إليها الجهل والاستبداد... وعليه فلا مناص ولا محيد لجلالته أن يمنح أمته نعمة الدستور ومجلس النواب، وأن يعطيها حرية العمل والفكر لتقوم باصلاح بلادها اقتداء بدول الدنيا المسلمة والمسيحية».

وقد جاء في الجريدة ذكر قيام الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ م، الذي أعيد بموجبه الدستور، وتمت الانتخابات النيابية لمجلس المبعوثان.

ونحن نؤيد ما ذهب إليه الأستاذ كنّون، من أن مثل هذه المقالة، لا بد أن كاتبها هو مغربي، وليس لبنانياً. ولكن الذي قصدنا إليه، في ختام هذا الحديث عن الصلات بين لبنان والمغرب، هو الصحافة، التي كانت عملاً لبنانياً.

كانت هذه صفحات من الصلات التي قامت بين لبنان والأشقاء، على البعد، في القرن التاسع عشر. ولا أشك في أنه من الممكن أن نعثر على صلات أخرى تستحق أن تدوّن.

القِسمُ الثالِث

مُذكّرات لبنانيّين

١

أدب السيرة والمذكرات

الأدب العربي غني في المجالات المختلفة، والأدب التاريخي فيـه يمتاز بكثـرة ما وضـع فيه من كتب التراجم، حتى ليمكن تقدير هذا اللـون أنه نصف مـا كتب في التاريـخ إجمالاً. ولكن، لماذا تميّز العـرب وأدبهم التاريخي بكتب السير والتراجم؟

ليس من اليسير تفسير هذه الظاهرة، ولكن قد يعـود ذلك إلى اهتمـام العرب الأوائـل بالـرواة ـ رواة الحديث ورواة الأحكام ورواة الشعـر. ومن ثم فقد أرادوا أن يتـأكدوا من هؤلاء الأشخـاص الذين يمكن أن تُعتمد روايتهم. وقد كان الصحابة أول من أخضع لهذا ثم جاءت طبقـات الفقهاء والعلمـاء والشعراء والأطباء ومن إليهم. فكان، من هذا، هذه المجلـدات الضخمة في السـير والتراجم. وكثيـراً ما كـانت كتب السير والتراجم تسمى طبقات مثل طبقات الفقهاء أو العلماء.

وهذا التقسيم هو تقسيم زمني، وليس تقسيماً طبقياً اجتماعياً. وفي حقيقة الأمر، فـإن الطبقة الأولى هي الأقرب عهداً بالأصل الذي يهتم أولئك المترجَمُ لهم به. بـدأت الفكرة عنـد التأريـخ للصحابـة. فقد قُصد بالطبقة الأولى، أولئك الذين كانوا أكثر اتصالاً بالنبي (ص)، وأكبر سناً، ثم جـاءت الطبقة الثـانية وهكذا. وبعد أن ألف الكتّاب هذا التقسيم، طبّقوه على بقية رجال الحياة العامة والفكريـة والشعراء ومن اليهم.

عـلى ما نشـاهده من كثـرة الكتب، التي تتناول السـير والتراجم، فـإن السيرة الـذاتية، أي تـدوين الشخص تاريخ حياته بنفسه، هي قليلة في الأدب العربي. فإننـا عندمـا نقلب الطرف في الأدب العـربي، باحثين عن سيرة ذاتية أو مذكرات، لا نعثر إلا على القليل جداً.

وهذه الظاهرة تستحق من العناية الشيء الكثير. ولعل الأمر يتعلق بالمجتمع العربي إجمالاً. فـالمجتمع الذي أنتج أدب السيرة هذا، كان مثل المجتمعات الشرقية، التي سبقته، والتي عاصرته، محافظاً محتشماً والمقصود هنا الناس، وليس الأدب المكشوف، الذي عرفناه. فالنـاس كانـوا محتشمين، وأهـل العلم، على تباين اهتماماتهم، ما كانوا يحبون أن يرووا الكثير عن أنفسهم.

والناس كانوا متواضعين أيضاً. فعندما يشـير العالم، إلى نفسـه، باسم «العبـد الفقير»، لا يمكن أن يخطر بباله، أن يجلس فيكتب أو يملي تاريخ حياته مشيـراً إلى مآتيـه وإنجازاتـه. وإن هو كتب أو أمـلى، فإنه قلما يتحدث عن أمورٍ خاصة. إنه كان يعتبر الشؤون العـائلية، مثـلاً، شيئاً خـاصاً، لا يُتحـدث عنه للآخرين.

ويذكرنـا هذا الأمـر بما أمـلاه ابن سينا (٩٨٠ م ـ ١٠٣٧ م) من سـيرته، عـلى تلميذ لـه اصطفاه صديقاً. أشار ابن سينا إلى أن أباه تزوج أمه في قرية قرب بخارى، كان يعمل فيها. وذكر أنه كـان له أخ

وهذا كل ما هناك من شؤون الأسرة وأمور العائلة. ولم يرد ذكر الأخ، إلا لمناسبة حديث ابن سينا عن أبيه الذي استجاب إلى دعوة الفاطميين وكأن ثمة داعية يهبط دارهم، وكان يتحدث إلى الأب والأخ حول هذه الشؤون، وأنه هو لم يهتم بحديثهم أو بآرائهم. وأظن، أنه لولا هذه المناسبة لما ذكر ابن سينا أخاه، ولما عرفنا منه أن له أخاً.

ويحضرنا، بهذه المناسبة، كتاب كبير، وضعه ابن خلدون في الترجمة لنفسه. ولا يشير ابن خلدون إلا إلى نسبه، فالنسب، عند العرب، أمر مهم. وثمة إشارة واحدة إلى شأن من شؤون حياته الخاصة، ثم تختفي هذه جميعها، ويطل ابن خلدون المؤرخ القاضي العالم السياسي المفاوض بحجمه وشخصيته.

وهناك شبه كبير، بين هذا الشيء المقتضب، الذي أملاه ابن سينا عن نفسه، وهذا الكتاب الضخم، الذي كتبه ابن خلدون عن حياته. وابن سينا، بهذه المناسبة، قد أملى تاريخ نصف حياته فقط، والباقي أتمه تلميذه وصديقه. أما وجه الشبه فهو إظهار طريقة التعلم والانجازات. فابن سينا، حريص على أن يظهر لنا، أنه لما بلغ الثامنة عشرة من عمره، كان قد تعلّم كل شيء، وراجعه، وأنه لم يكتسب، بعد ذلك، علماً جديداً في حياته. وابن خلدون يفعل ذلك. والاثنان يوضحان، نسبياً، علاقاتهما بكبار القوم، سياسيين وعلماء وملوكاً وسلاطين، كما يوضحان لنا ما يصيب المرء بسبب العمل في رحاب القصور والبلاطات الملكية.

وقد اشتهر الغزالي، المتوفى سنة ٥٠٥ للهجرة و ١١١١ للميلاد، بكتابه «إحياء علوم الدين»، وهو خلاصة العلم السني، إلى أيامه ـ عقيدة وعبادة ومعاملات ـ على شكل لم يترك زيادة لمستزيد. لكن الكتاب الآخر، الذي وضعه الغزالي بعنوان «المنقذ من الضلال»، هو كتاب فريد في نوعه، في الأدب العربي.

وهذا الكتاب، على قصره، يوضح حالة مرّ بها الغزالي. فالكتاب يؤرّخ لا لحياة الرجل بكاملها، بل يتناول أزمة أصابت هذا المفكّر الكبير، ورسم هو صورة دقيقة لما كان يعتلج في نفسه، ويضطرب به قلبه وكيف أتيح له أخيراً، أن يعود إلى سيرته الطبيعية. وقد وضع الغزالي هذا الكتاب تلبيةً لطلب أخ رغب اليه أن يكتب له عن غاية العلوم وأسرارها والمذاهب وأغوارها. ثم ألحّ عليه أن يحكي له ما قاساه في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق. وهكذا، فقد وضع الرجل هذا الكتاب، وربط بين أزمته النفسية وغاية العلوم وأسرارها. فـ «المنقذ من الضلال» هو سيرة ذاتية عقلية روحية لعقل نفاذ.

وقبل الانتقال إلى المحدثين من كتّاب السير الذاتية وواضعي المذكرات من رجال العرب، يجدر بنا أن نشير إلى كتاب قديم هو كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ، من أهل القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد. وهو كتاب يمكن اعتباره لوناً من أدب المذكرات الشخصية، التي تتجاوز، أحياناً، إطار الشخص لتدخل في تفاصيل تخص العصر. فقد دوّن أسامة بن منقذ تجاربه واختباراته وأخبار علاقاته بالناس، الذين تعرّف اليهم، من أهله وبني قومه والأجانب، والأجانب هنا تعني الفرنجة. ذلك أن ابن منقذ شامي من شيزر، وكان يخالط الفرنجة في مناسبات عدة، وله فيهم آراء تتراوح بين الاعجاب والاستهجان. والرجل كان يدوّن الأمور التي تعرض له، ويبدي رأيه فيها. ولغة الكتاب مقبولة لكن لا زخرفة صناعة فيها، بل صدق الرواية ودقة الملاحظة يعوضان عن الصنعة في الكتابة.

وقد دأب الكثيرون، من رجال السياسة أولاً، ثم غيرهم من أهل الأعمال والفكر، على تأليف السير الذاتية أو تدوين المذكرات. وقد كان الغربيون هم الذين بدأوا ذلك. والسؤال الذي يدور في خلد كل قارىء، هو مدى صحة ما يقوله هؤلاء الناس، أي مدى انطباقه على الواقع. ألا يكتب رجل السياسة، أولاً، مذكراته، أو سيرته الذاتية، وينشرها إما ليَمُنّ بنجاح أو ليغطي فشلاً؟ ألا تحمله الحالة الواحدة أو الأخرى على الزيادة والنقصان، ليظهر الأول وليطمس الثاني؟ لذلك، فإن المرء يشعر بكثير من الريبة والشك، عندما يقرأ ترجمة ذاتية أو مذكرات، مع أنه يستمتع بها. ولكن المتعة شيء والحقيقة شيء آخر.

وإذا كانت هذه الملاحظة تنطبق على رجال السياسة، فلعل أهل الفكر وأصحاب الأقلام، يكونون أقرب إلى الصدق وألصق بالحقيقة، من الجماعات العاملة في المجالات السياسية.

وقد دوّن الكثيرون، من العامة، في العالم العربي مذكراتهم، ووضعوا سيراً ذاتية لأنفسهم، على غرار ما نقرأ لأهل الغرب. لكن العدد لا يزال ضئيلاً. ويا ليت الرعيل الذي عمل في مختلف الحقول الفكرية والسياسية والفنية والعلمية، خلال المائة سنة الماضية، ترك أخباره مدوّنة وأوراقه واضحة. ذلك أنه، مع التحفظ الذي أشرنا إليه قبلاً، فإن التاريخ ـ تاريخ الجماعة والأمة ـ إنما هو جماع تاريخ أفرادها. والذين خلفوا لنا إرثاً، من هذا النوع، قلّة.

وهنا يمكن التساؤل عن عدد الذين دوّنوا مذكراتهم عن العمل السياسي، في دنيا العرب، منذ الحرب العالمية الأولى إلى الآن، وعن عدد الذين أخبرونا مباشرة عن الحركات العربية، التي عرفتها دنيا العرب، في أواخر القرن الماضي، ومطلع القرن الحالي. قليل عديدهم، ولا شك، وهم يستحقون العناية.

والواقع أنه عندما يبدأ المرء بتقصي الحقائق، يجد أن العدد هو أكبر من توقعاته، وإن كان دون ما كان يأمله. فهناك من كتب مذكرات بناءً على تكليف شبه رسمي. كنقولا الترك، الذي كان من رجال الأمير بشير، كلّف بالذهاب إلى مصر، أثناء حملة نابليون هناك، ليشرف على الأمور عن كثب، ويخبر سيده بالأمر. وكانت النتيجة أن دوّن مذكراته، التي هي تاريخ للحملة الفرنسية على مصر. والألطف من ذلك، أن ديوان نقولا الترك فيه الكثير مما يمكن أن يعتبر مذكرات، لأن الرجل كان نظّاماً، ولم يكن شاعراً.

ونحن، هنا، نعنى بالنواحي غير السياسية من المذكرات. فمع أن نقولا الترك كان من رجال الأمير، فإن الذي يعنينا منه، هو نظرته إلى الثورة الفرنسية، وتفسيره إياها. وهناك شخص آخر، كان معاصراً للأمير بشير، ورافقه مدة، لكنه عاش، بعده، مدة طويلة، هو رستم باز. ومذكرات رستم باز ذات أهمية اقتصادية واجتماعية كبيرة.

والواقع هو أن أكثر الذين سنتناولهم، هم من أهل الفكر، حتى ولو كان بعضهم، قد عمل في وظيفة إدارية أو قضائية. فهذا الرجل، لو لم يكن لديه نزعة للتحالف مع القلم، ولو بشكل من الأشكال، لما جلس يدوّن مذكراته. من هؤلاء، مثلاً، قاض كبير، ومدير بوليس، ومحام وشاعر وأديب. ومن خلال هذه المحاولة، نستطيع أن نرسم صورة، ولو مجتزأة، لحياة هذا البلد، خلال بضعة عقود من السنين.

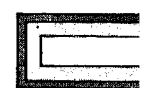
وحتى الصورة المجتزأة، كما نسميها، تحتاج إلى عدد أكبر بكثير من هؤلاء الذين سنتناولهم. فالصورة، التي قد ننجح في رسمها، هي مجرد أجزاء صغيرة من صورة كبيرة. وقد لا تتلاءم أجزاؤها تماماً، فلا تظهر تامة، ولكن الأمل هو أن يتكرر هذا العمل، وعندها تلتحم الأجزاء، وتتلاءم، وتخرج منها أوصاف للحياة اللبنانية متكاملة.

وقد وقع اختيارنا على جماعة منوّعة الاتجاهات، متعددة النظرات، بين أفرادها الشاعر والكاتب والموظف والمحامي والعامل في الحقول العامة. ومذكرات هؤلاء الناس، التي تصوّر الجو والبيئة والمجتمع، أكثر مما تمثل الأفراد انفسهم، تبرز التفاعل الذي قام بينهم كأفراد وبين مجتمعهم.

وهنا مجال للتنويه بكتاب، نشر قبل سنوات، وكان فيه أصوات لرجال متعددين، روى كل منهم ذكرياته، وكانوا رجالاً من جنوب لبنان.

ويعود الفضل، في إصدار هذا الكتاب، إلى المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، الذي دعا مجموعة من أدباء الجنوب، وطلب إلى كل منهم، أن يتحدث عن نفسه متذكراً شارحاً مفسراً بمنتهى الحرية.

ولبى الدعوة، آنذاك، ستة، هم: السيد حسن الأمين والشيخ علي الزين والسيد علي ابرهيم والشاعر موسى الزين شرارة والصحافي الفرد أبو سمرة والصحافي سليمان أبو زيد. وقد نشر المجلس الثقافي للبنان الجنوبي الكتاب، في مطلع سنة ١٩٨١ م، باسم «من دفتر الذكريات الجنوبية».



٢ مذكرات نقولا الترك

ولد نقولا الترك في دير القمر، سنة ١٧٦٣ م. وقد عمل، منذ شبابه، في قصر الأمير بشير الشهابي (١٧٨٩ ـ ١٨٤٠ م). ويبدو أن الأمير، لما بلغته أخبار الحملة الفرنسية (نابليون ١٧٩٨ م) على مصر، أرسل نقولا الترك إلى القاهرة، ليشاهد، عن كثب، مجرى الأحوال، وليرسل تقريراً عن تلك الحملة وما رافقها.

وقد ظل نقولا الترك في مصر حتى سنة ١٨٠٤ م، عاد بعدها إلى دير القمر، حيث بقي في خدمة الأمير حتى وفاته سنة ١٨٣٨ م.

ونقولا الترك شاعر، وله ديوان نشر في بيروت سنة ١٩٤٩ م، ولعله إلى النّظّام أقرب منه إلى الشاعر. لكن الرجل، بحكم صلته برجال الحكم، واتصاله بالزعماء ـ أصدقاء الأمير وخصومه ـ وتعاطيه دور مشاور لصاحب القصر، في بيت الدين، كان وثيق الصلة بمن كان يأتي بيت الدين، ودير القمر التي كانت مركزاً تجارياً مهماً يومها، لذلك، فقد تعرف إلى الأمور من منابعها، بقدر الإمكان.

ومما يجب أن يذكر، هو أن نقولا الترك، كان يؤرخ، في شعره، للأحداث، كبيرها وصغيرها، فنابليون يحييه إذ يدخل القاهرة، ويرثي كليبر لما قتله سليمان الحلبي، وعودة العثمانيين إلى مصر مؤرخة في قصيدة. هذه من الأمور الجلّى، لكن هناك تواريخ لزواج ابن المعلم ملطي، ولحفل يربط بين الشوام، ولتعيين أحدهم قنصلاً فخرياً في مصر.

ترك المعلم نقولا الترك القاهرة، سنة ١٨٠٤ م، وعاد إلى دير القمر. وابتنى لنفسه داراً لائقة به، كما اشتهى. ولم يكن لنقولا الترك مرتب خاص، إنما كان يعيش على «كيس الأجاويد»، والأجاويد كانوا يومها كثراً. فإذا احتاج إلى شيء، مأكولاً كان ذلك أو مركوباً أو مشروباً أو ملبوساً، نظم قصيدة، وجهها إلى من يعرف كرمه، فتأتي الطلبة حالاً. فكان القمح والعدس والحمص والأرز والجبن والزيت والسمن والدخان والعطوس، يبعث بها إليه الأمراء والمشايخ.

أما الأمير بشير، فكان يخص نقولا بخلع الفراء، في الشتاء، والسراويل والقباء والعمائم وما يترتب، في المواسم والأعياد. ومن الأمير، كان يأتي المركوب ـ برذوناً أو بغلاً أو حماراً.

وقد أصيب نقولا الترك في عينيه، فعجز عن القراءة والكتابة، فكانت ابنته وردة تقوم له بذلك. ومن المرجح، أنه توفي سنة ١٨٢٨ م. هذا هو نقولا الترك.

أراد الترك، على حد تعبيره، أن يؤلف كتاباً فيه

«تاريخ ذِكر ما يمر من الحوادث الكونية والحركات الكلية كقيام دولة على دولة واشتهار الحروب المهولة وما يتعلق بذلك من المواقع المريعة والأمور الفظيعة».

وكان ان قامت الثورة الفرنسية وما تبعها من أحداث، والتي صادف أن عايشها المعلم نقولا الترك هناك ووصفها بالقول:

«انه في هذه السنة هاجت شعوب مملكة فرانسا الهيجان الكلي وقامت على ساق وقدم ضد الملك والأمراء والأشراف متطلبين ترتيباً جديداً ونظاماً حديثاً ضد الترتيب الموجود الكائن في مدة الملك، بادعاء اثبتوه أن وجود الملك بصوت منفرد أحدث خراباً عظيماً في هذه المملكة، وان الأمرا والأشراف متنعمين في خير هذه المملكة، وباقي شعوبها في غاية الذل والهوان. فلذلك نهضوا كلهم بصوت واحد قايلين لاراحة لنا إلا في نزول الملك وقيام المشيخة».

طريف هذا الوصف للثورة الفرنسية. ويبدو كأن كل شيء، قد تم في يوم واحد، أو ما يقرب من ذلك. ويضيف الترك قوله:

«وكان يوماً عظيماً في مدينة باريس، وارتج الملك وباقي أرباب دولته من الأمرا والأشراف، ودخلوا على الملك وأفهموه غايتهم. وهو ان الملك لا يستطيع أن يبت حكماً أو يقدم رأياً من تلقاء نفسه. بل يكون بت الأحكام وباقي ترتيب نظام المملكة برأي مشايخ الشعب. وذلك بموجب ديوان عظيم وجمعية، ويكون الملك له الصوت الأول ومن بعده مشايخ الشعب، وانه بهذه الواسطة يصلح حال المملكة».

فماذا كان من الملك أمام هذا الموقف القوي؟ يقول نقولا الترك:

«هذا ما ارتآته شعوب فرانسا وقدموه إلى الملك. فحين نظر الملك قيامهم هذا العظيم وهيجانهم واحمرار أعينهم، خاف خوفاً عظيماً، وقال لهم أنا مطيع بكامل ما تروه مناسب لأنني انا أيضاً أحب عماد المملكة ونظامها وخيرها. فقالوا له ان كنت حقاً كما تزعم فاختم اذاً على هذه الشروط. وكانت الشروط متضمنة قيام المشيخة وابطال صوت الملك وحده. فختم حالا الملك على الشروط التي قدموها له، وفرح الشعب فرحاً عظيماً بنفوذ كلامهم».

بمثل هذه السهولة، روى نقولا الترك ما تصوره عن قيام الثورة الفرنسية. أما الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، والغليان وإحراق الوثائق، والهجوم على الباستيل، فهي أمور لا يذكرها قط.

يتابع نقولا الترك قوله، في وضعه لهذا التاريخ:

«وبعد أيام قليلة جداً جهز الملك نفسه وفي ذات ليلة خرج من مدينة باريس مع باقي أصحابه ورجاله هارباً من بين أيدي الشعب قاصداً بلاد النمسا عند الانبراطور أخو امراته. فبلغ مشايخ الشعب ذلك فحالا جدوا في طلبه والتقوا به ومسكوه واحضروه رغماً وأدخلوه إلى مدينة باريس بكل ذل وهوان وقام شعب فرانسا قياماً تاماً».

ثم نادى الشعب، بصوت واحد، صارخين:

«فليقتل الملك على موجب شريعة المشيخة كون أنه خان عهده مع مشايخ شعبنا، ولا هرب منا إلا لكي يلتجى الى الانبراطور اخو امراته ويستعين به علينا. فإذا يقتل شرعاً مع امراته التي بسببها حصل عليه وعلينا الخراب حالا واحضروه جهاراً أمام الشعب مع امراته وأولاده وقتلوهم جهراً وكان يوماً عظيم في مدينة باريس».

ومن المناسب، أن نتذكر هنا، أن نقولا الترك يستعمل الكلمات المألوفة في منطقته وحدود معرفته، للتعبير عن الأحداث والمواقف الفرنسية. فهو يقول المشيخة والمشايخ ومشايخ الشعب، وهو يستعمل الديوان، ويذكر كلمة جمعية. وهذه هي التعابير التي حسب أنها توضح ما قام به الفرنسيون. لكن أهم ما يجب أن لا يغيب عن بالنا، أن «الزمن» لم يكن له عند نقولا الترك أي حساب. ولماذا يكون له، وهو يتحدث عن بلاد قاصية، وعن حركة كل ما يربطه بها الآن، إن «الفرنساوية» جاءوا مصر. وأنهم غُلبوا على أمرهم، وخرجوا من البلاد، وأنهم لم يستطيعوا أن يستولوا على مدينة عكا، التي كان الجزار يحكمها.

يدوّن نقولا الترك حادثة اغتيال كليبر، الساري عسكر، أي القائد العام، الذي خلف نابليون، لما عاد هذا إلى فرنسا، بعد رجوعه من عكا منهزماً. يصف الحادثة بشيء من التفصيل، كما سمعها، أو تحقق منها، حسب زعمه. حدث القتل في ٢١ من شهر محرم الحرام سنة ١٢١٥ للهجرة وكان الوقت قبيل العصر. طعن سليمان الحلبي الجنرال ثلاث طعنات، وهرب إلى الجنينة المجاورة لحديقة منزل الجنرال. وكان هناك نجارون يعملون فوقعت الشبهة عليهم.

يقول نقولا الترك، واصفاً القبض على سليمان:

«ورجع سليمان وضرب الساري عسكر الضربة الثالثة وهرب. فحين حضر داماس ورأى ما حدث مسكوا النجارين، فصاحت عليهم امرأة من أحد الشبابيك التي كانت تطل على الجنينة وقالت لهم ان النجارين بريين والقاتل دخل الجنينة متخبي كون الامرأة نظرته... فلحق به العسكر الفرنساوية ووقع في أيديهم. ولولا ذلك لكانت الفرنساوية دورت ضرب السيف في المدينة لانه هكذا اعتمدوا».

وأخذ المحققون يستجوبون سليمان، ويسألونه عن السبب، وعن أصل ذلك. فقال لهم:

«أنا حلبي واسمي سليمان وأنا الذي قتلت الساري عسكر. لا تتهموا غيري. وهذه السكين تشهد عليّ بأني انا الذي قتلته. فقالوا له لماذا فعلت ذلك، وما مقصودك ومن الذي أغراك على هذا الفعل؟».

فكان جواب سليمان كما يلي:

«نحن كنا في حلب جملة شباب فقال لنا الآغا من منكم يا شباب يقدر يروح يقتل سلطان الفرنساوية في مصر. فقلت لـه انا وحيـاة سيدي اقـدر اروح اقتله. واجي. فقـال لي ان كنت تقدر تقتلـه وتخلص الأمـة من شره، يحصل لك انعام كبير من الوزير. ثم أعطوني كم غرش خرجية. وجبت اشتريت هذه السكين ولي كم يوم وأنـا انتهز فرصة. ولما كان في الجيزة رحت لعنده، وما وقع لي فرصة، وما زلت أترصّد حتى وقعت لي هذه الفرصـة وقتلته وخلصت الأمة من شره. وكان يكلمهم بكل جراة».

وعندها، أتم المحققون استجواب الحلبي على النحو التالي، كما يقول نقولا الترك:

«هل لك شريك في ذلك، فقال لهم ما أحد عنده خبر سوى ثـلاثة مجـاورين في الأزهر غـزازوة (اي أصلهم من غـزة). واعطا اسـاميهم فبالحـال احضروهم. وحين اثبتـوا عليه من اقـراره واثبتوا ذلـك على المجـاورين من شهادته عليهم، فاثبتوا عليهم القتل. وكتبوا في شان ذلك كتاب وطبعوه في مطبعتهم نسختين عربية وتركية».

وقد نقلها نقولا الترك في كتابه.

ويروي نقولا الترك، كيف شاعت الأخبـار، بأن الجـزّار وُلّي أمر مصر، ومـدى ما أصـاب الناس من جزع لذلك. يقول:

«وفي نهار الخميس المبارك ثاني يوم من شهر المحرّم سنـة ١٢١٩ هلالية الموافقـة الى سنة ١٨٠٤ ميـلادية، حضرت الاخبار من مدينة دمياط إلى مدينة مصر بأن أحمد باشا الجزار المتولّي عـلى الاقطار الشـامية حضرت له الاوامر من الدولة العلية بولاية مصر. وأنه صنـع زينة عظيمـة في جميع حكمـه ثلثة ايـام، وضرب المدافـع الكثيرة. وصار خوفاً عظيماً عند غالب الناس في مصر».

ويفسر المؤلف سبب الخوف بقوله:

«وذلك خوفاً من صرامة حكمه وشدة ظلمه لان هذا الوزير المومى اليه كان له تسعة وعشرين سنة وزيراً مقيماً في مدينة عكا، ومتمكناً فيها وفي جميع ضواحيها. وفي سنة تاريخه تمكن من الشام وجهاتها، وامتـد حكمه من عريش مصر إلى حدود حلب الشهبا؛ وأظهر الغرايب والعجايب بأحكامه الصارمة. وكان جبـاراً قهاراً مـرعشاً فرايص الخليقة بسطوته وعلو همته ونفوذ كلمته وطول مدته وحسن خبرته».

ولكن الله سلم مصر والمصريين من شر الجزار وزبانيته، ففي

«عاشر يوم من صفر من السنة ١٢١٩ شاعت الاخبار في مصر عن أَلْسُن السفّـار بموت احمـد باشـا الجزار. وصار هرجاً عظيماً في مدينة مصر بموت هذا الوزير القهـار. وكانت النـاس في ذلك مـا بين الشـك واليقين، إذ كانت تشاع عنه مثل هذه الأخبار في غالب السنين».

ولكن هذه المرة كان الخبر صحيحاً.

ومن المناسب، أن نقدم مثـلاً من شعر نقـولا الترك، لا لتصـوير شـاعريـة الرجـل، فهو، بـاستثناء مقطوعات قليلة، كان نظّاماً. كان مؤرخاً وكانت مذكرات شعرية مع مـديح أو طلب، الأول تمهيـداً للثاني. وقد لا يذكر الطلب بالذات، لكن الأمر معروف. فمن ذلك، أن جمهوراً:

«من التجار الشوام في القاهرة اجمع رايهم على ان يقيموا على طايفة الـروم الكاثـوليك ثـلاثة اشخـاص وُكلا عنهم في مقابلة الحكام».

ويضيف الترك، قائلاً:

«ومع مقابلة الحكام يباشر هؤلاء الثلاثة ما يرد عليهم من حوادث جزئية وكلية. فانتخبوا يوسف فرحات ويوسف الكحيل ويوسف القريصاتي».

وقد اقترح الثلاثة، على نقولا الترك، نظم قصيدة للمناسبة، فقال:

السعدُ ناصره وفى — والنحس ولّى وانتفى
فاستبشري يا فيئة — قد ساءها فرط الجفا
فاليوسفان تثلّثت — أسماؤهم ذات الصفا
فرحاتهم مقدامهم — باليوسفين تولّفا
طبع الكحيل مهذب — نطق القريصاتي شفا
قد أنعم المولى بهم — والدهر جاد واسعفا
أوصافُهم محمودة — فيها سماعي شنّفا
محمودة آراؤهم — تبدي الصواب اذا اختفى

والقصيدة طويلة، وهي على هذا المنوال. هذه نماذج مما دوّنه نقولا الترك في مذكراته وديوانه. وقد قال، ناشر الديوان، البستاني عن نقولا الترك اجمالاً:

«فهو لا يسمو فوق آثار التقليد النظمي... فظل شاهد عصر دقيق النظر مرهف الشعور صائب القياس بصير الحكم لكنه كان سيّيء التعبير».

٣ مذكرات رستم باز

ولد رستم باز في دير القمر، سنة ١٨١٩ م، وقد التحق بخدمة الأمير بشير، لفترة وجيزة نسبياً من حياته. ولما انتهت ولاية الأمير سنة ١٨٤٠ م، ونفي إلى مالطة، رافقه رستم باز، وانتقل معه الى استانبول، وخدمه حتى وفاته، سنة ١٨٥٠ م. وفي نيسان/ ابريل سنة ١٨٥١»، عاد رستم باز إلى بيروت بصحبة الست حِسن جهان، زوجة الأمير. وقد مات رستم باز في جبيل، سنة ١٩٠٢ م، لكن ماذا حدث له، بين عودته مع حِسن جهان ووفاته؟

تعرف رستم باز، أثناء اقامته في استانبول، على المدينة وأسواقها وحاجاتها. لذلك، فكّر بالعودة إلى استانبول، ليعمل هناك في التجارة. وكان ترتيبه، أن يقوم أخوه، القاطن في بيروت، بشراء البضائع وشحنها إلى رستم، الذي سيقيم في استانبول. لذلك، هيّأ الأمور على الشكل الذي نقرأه في مذكراته.

كتب رستم باز مذكراته في أواخر عمره، بعد أن انتقل إلى جبيل، حيث توفي سنة ١٩٠٢ م. والمذكرات مكتوبة بلغة عامية، لكنها طريفة، من حيث بساطتها وصحتها ودقتها وصدقها.

لقد ذهب رستم، مع ابن عمه داود، لزيارة أمين أفندي الإزمِرْلي، لأن هذا، كما يقول رستم:

«كان مراده يسافر الى إزمير ومنها الى اسطنبول».

وقال له ابن عمه داود:

«هذا الانسان محب لنا... وقادر ياخذك معه بلا ناولون، يعني بدون أجرة سفر على المركب. والبضايع الذي تاخذها معك يخلّصها من الكمرك».

وذهب رستم مع داود، وتمّ الترتيب للسفر.

ويقول رستم:

«ثم اشتريت صندوقين فراغ ووضعتهم في الدار في بيتنا براس النبع. وتوجهت انا والمرحوم اخونا لدير القمر لشترى قماش».

ولكن لماذا الذهاب إلى دير القمر؟

كانت دير القمر، يومئذ، مركزاً صناعياً تجارياً هاماً. يقول رستم باز

«صار فيها من النّوّال عدد ٣٠٠ تشتغل قماش، وستة نوال قماش منطّر وأربعين نوال عبي. وصياغ وعقادين اكثر من ٦٠ معلم ومحلاتهم معروفة... وأما قيسارية الكبيرة للتجار وبها ميزان الحرير. ومن الصنايع الفتالين والصباغين والدباغين والصابون».

طريفة مذكرات باز هذه ومفيدة. يقول:

«أكثر حرير لبنان يورد لقيسارية التجار ويسلّم للسماسرة... فتشتريه التجار وترسله للشام وحلب وحمص وحماه، ويصرف منه جانب بالدير للنوال والشراريب وعقايص النسا. وكله يزان بميزان الحرير. وكان اكثر من خمسماية حرمة تعتاش من كسب الحرير».

ومن قوله:

«وقيسارية محشوكة في البضايع من كل جنس تجلبها التجار من كل جهة. وبيروت قلة ما كانت معروفة عندهم. كانت صيدا وحلب والشام».

لهذا السبب، ذهب رستم وأخوه للاستبضاع من دير القمر، وهناك، اشترى أخوه له

«ماية وعشرين طاقة قماش صورية (صُرِّتي) ٦٠ وبُرسُلّي ٦٠ والثمن بضهر بعضهم قوّم ٦٢. ودفع قدر ثلثين الثمن وما بقي إلى ثلاثة اشهر».

وحمل رستم باز وأخوه البضاعة إلى دارهم في بيروت، وأخذا ينقلانها إلى دار أمين أفندي. ومن بيروت اشترى رستم وأخوه، على حد قوله،

«زنار طرابلسي ثلاثون أقة والزنار كان ثلاثة فجّات دوده وأصفر وأبيض. ووزن الزنار لا يقل عن ماية وعشرين درهم إلى المايتين درهم».

وتفسير معنى هذا القول: اشترى الاخوان باز زنانير طرابلسية وزنها، مجموعاً، ثلاثون أقة. والأقة تساوي ٦٠٠ غرام. فمعنى ذلك، أنهما اشتريا عدداً من الزنانير الطرابلسية وزنها ما يعادل ١٨ كيلوغراماً، وعددها نحو ثلاثين زناراً. وكانت بثلاثة ألوان. ولنتابع الآن أقوال رستم باز:

«وهذا أي الزنانير مطلوب السياس والعربجية في اسطنبول وغيرها».

لكن رستم كان معه بضاعة من أنواع أخرى، يذكرها بقوله:

«شراريب حرير للعساكر شغل بيروت، الأقة ٢٥٠ وشرابه شغل صيدا عال الأقة ٣٠٠، ودكك حرير منهم شراريبهم بقصب ومرجان، ومنهم بلا ذلك الأقة ٣٠٠ إلى ٤٠٠. وكنادر وأكياس خديديّات شغل الزوق. وزنار اسود حرير لرجال الدين الروم والأرمن».

ويقول رستم

«لما تم شغلنا وعبينا صندوقين ومَسْمَرْتهم وخَيَّشْتهم وحزمتهم بالمَرص (بالمرس) احضرنا صندوق ثاني. ويوم سفرنا حضرت إلى دار أمين افندي فارسل أواعيه والصناديق مع خدامه الى البابور أي المركب».

ويقول رستم، عن ساعة السفر، ما يلي:

«وقبل الغروب بساعتين خرج الافندي من داره وحمّلني الشنتة. وتبعناه أنا وخدمه الثلاثة الى البحر. وجدت أولاد عمنا وأخونا. فودعتهم وكنت ودعت والدنا ووالدتنا. وسافرنا من بيروت بعد غروب الشمس في أول أيلول سنة ١٨٥١، فوصلنا ازمير بكل راحة».

لم يخبرنا رستم كيف صرف وقته في البابور، في الطريق من بيروت إلى أزمير. وهو كان ينوي الذهاب الى اسطنبول. لكن أمين أفندي اقترح عليه غير ذلك أي أن يبقى في أزمير. يقول رستم، ان الناس تواردت للسلام على أمين أفندي في داره. وكان رستم هناك.
يقول:

«كنت اساعد الخدم بتقديم التطلي أي المربّى والقهوي وأراكيل وشربات».

وبعد ثمانية أيام، اقترح أمين أفندي على رستم أن يبيع بضاعته في أزمير، عن يد همشري، أي صاحب، من بلده اسمه حنا. وأضاف الأفندي:

«ان حنا الصوصا رجل زريف مولّع بالكيف ودق الكمنجا وبضاعتك في ازمير نافقة اكثر من اسطنبول... خذ صندوق لعند حنا الصوصا، وهو يدبّر المشترية».

وهكذا كان. فقد ذهب رستم إلى مكان اقامة حنا، في خان قزلر، وحمل معه أحد الصندوقين. ولما رأى حنا الصندوق، وفتحه، عتب على رستم، لأنه معه مثل هذه البضاعة وهو مخبئها في أزمير. يقول رستم:

«قال حنا افتحوا الصندوق وغاب مقدار ورجع وراه جمهور. فنظروا أولاً القماش ستين طاقة. وتم البزار (أي البيع) كل طاقة بماية قرش. والزنار وخلافه. وحضروا ميزان ووزن حنا وصديق لي. ودفعوا الثمن، وقسموا الرزق بينهم».

ويتابع رستم روايته:

«وثاني يوم حضر لعندي حنا وقال يا أخ بعد عندك شي مثل الذي بعناها؟ قلت باقي صندوق والبضاعة مقسومة بهذا وذاك. فاتى بحمال وحمل الصندوق وتبعه الصديق وفتحناه. واتى بالمشترية فاشتروه بثمن الأول وقبضنا الثمن. وبعت صناديق الفارغة والخيش والمرص ٣٥ غرش».

وهكذا، فإن رستم لم يُضِعْ شيئاً.

واهتمّ رستم بأن يبعث النقود إلى أخيه، كي يبتاع له بضاعة جديدة، ويرسلها إليه. يقول في وصف عملية ارسال النقود:

«اشتريت دراهم خام وخيّطت كيس ووضعت ثمن البضاعة وهي ليرات سبعة وسبعون الف [قرش] الرسمال ستين الف [قرش]. وربطت الكيس وختمته ووضعته ضمن صُرَّة وختمتها. وكتبت إلى اخي وأخبرته أنه بعد ثمانية أيام نسافر الى اسطنبول. واخذت ورقة شحن من بيت البابور (أي المكتب) وسلمته الصرة. ولم ابقي معي بارة من ثمن البضاعة. لان معي الف قرش لم أصرف منها بارة».

وذهب رستم باز الى استانبول. وهناك، حصل على غرفة، في خان زنبلي. وكان بطرس كرامه، وهو أحد شعراء الأمير بشير، يقيم في غرفة مجاورة. يصف رستم الغرفة، التي استأجرها، وصفاً دقيقاً، لكن ليس في نقل هذا الوصف أية لذة أو فائدة. إلا أن الطريف، هو أنه بعد أن غسل الغرفة، أو الأوضة كما يسميها، وطرشها وأثثها. يذكر الأثاث، الذي وضعه فيها، بالتفصيل مع ذكر أسعار الأشياء التي اشتراها. وقد جمع ثمن هذه الأشياء، فكان ٧٣٦ قرشاً.

وقد قرأت لائحة الحاجيات، التي اشتراها، فكان بينها:

«فرشة ومقاعد ومخدّة وسجادة حصير وطناجر نحاس ومقالي نحاس، وطقم قهوي وطاحون للبن وصحون وكبايات وملاعق وسياخ ومنقل وطباخين حديد».

أما الأشياء، اللازمة للأكل، فهي:

«سمن عال مسكوبية رطل ٣، زيت رطل ٢، بن يمني رطل ١، سكر انكليزي قالب رطل ٢، قنطار فحم، شمع شحم رطل ١».

ولم ينس رستم أن يبتاع «أراكيل وصينية كبّة».

يقول رستم:

«ثم عرفت أن البابور النمساوي حضر من بيروت فذهبت إلى غلطة، وهو الحي التجاري يومها. وجدت مكتوب من أخي يطمني عن الصرة، وأنا طالع للدير لمشترى القماش وان شاء الله بأقرب وقت نرسل المطلوب. وكذا مشي حالنا».

وفي سنة ١٨٥٤ م، وصل الأمير أمين ارسلان إلى استانبول، وكان أخو رستم، قد أرسل له مكتوباً، يقول له، فيه:

«أفندينا الامير امين ارسلان توجه في البابور النمساوي إلى اسطنبول لاقوه إلى البابور واعزموه إلى عندكم يرتاح. وتقيدوا بخدمته. ومهما تيسر معكم من الدراهم ولزمته ادفعوها له. وهي أربح لكم من ارسال البضايع. لأن الحال هنا واقف (أي في بيروت)».

وقد ذهب رستم باز الى البابور، واستقبل الأمير، ورافقه إلى غرفته، حيث ارتاح الأمير، وأكل قبل أن يذهب إلى بيت شكيب باشا، مضيفه. ويقول رستم:

«وكان الامير يحضر عندنا كل صباح يأكل لقمة ويتوجّه».

وكان الأمير ارسلان، يومها، قائمقام الدروز، أيام القائمقاميتين.

وأخذ الأمير أمين يتأهب للرجوع. وقبل سفره بيوم، جاء إلى بيت رستم. يقول صاحب المذكرات:

«وقبل سفره بيوم حضر الى عندي وقال لي: أنا اليوم ضيفك. قلت: أهلاً وسهلاً. ثم قال: اذهب الساعة إلى بيت (أي مكتب) بابور النمسا واقطع ورقة في سبعة أنفار على الضهر وأنا بالسكونده (أي الدرجة الثانية). وكانت عادة في بيت البابور إذا كانوا ثلاثة ركاب يخفضوا الأجرة. فاتفقت معهم على سعر مخفض. ولما رجعت قال لي ماذا لك عندنا... وعندها جمع كل ما كان لرستم باز عند الأمير أمين مع الناولون (أي تذكرة المركب)، فكان المبلغ جميعه ٣٢ ألف قرش. فأخذ الأمير ورقة وكتب يطلب منا إلى محبنا رستم آغا باز ستة وثلاثين ألف. هذه أربعة آلاف نظير أتعابه قدامنا. وختم الورقة بعد أن شرح انه بعد وصولنا إلى بيروت في ٢١ تدفع المبلغ الى محبنا الخواجا ابرهيم باز».

وابرهيم هو أخو رستم. ويضيف رستم:

«ولما وصل لبيروت أرسل لي الصرة كما وعد».

والصرة هذه، كانت نفقات اضافية، جاءت بعد تقييد الحساب السابق.

ثم عاد رستم إلى بيروت، سنة ١٨٥٧ م. يقول في ذلك:

«ولما تم شغلنا سافرنا إلى بيروت. وكان أخونا مستأجر دار... واستأجرنا دكانين واحدة وضعنا فيها منصور والثانية قعدت أنا وأخي. والنَّول منصوب في البيت دايماً واحد يشتغل فيه، لأن شغلنا مرغوب في اسطنبول».

إلا أن رستم لم يعد إلى بيروت بسهولة. وها هو يروي ذلك، إذ يقول:

«وحضر الى عندي في اسطنبول المرحوم ابن عمنا داود. وقال لي يا رستم انا كتبت الى ولدنا سعيد ليحضر ويجيب معه ابن أختي عبود لأجل خدمته ونضعه مكانك. وانت وأنا نرجع إلى البلاد: كفاك غربة، وننهي قضية ابنة فارس لحود، لأنها موقوفة لحضورك. وانا أوعدتهم بأن آخذك معي».

فماذا كان وقع هذا الكلام في نفس رستم؟ يقول، واصفاً حاله:

«فوقع هذا الكلام في أذني موقع يقال لرجل ماخدينك للشنق. لأني في عز شبابي وفي راحة وفي عز وحرية، معزوز عند معارفي. وكان توفي المرحوم والدي. واقنعني ابن عمي بأن اسطنبول تبقى مكانها بأي وقت ترجع إليها. وكيف نرضى بأن يقال طلبوا بنت فارس ولم يعطوهم إياها؟ وخلافه حتى هوّن علي الأمر: فحضر ولدنا سعيد وعبود وأقمنا معهم شهرين ندربهم على الاشغال. وقد سلمت لولدنا سعيد بقية بضاعة كانت قد كسدت بسبب الحرب (يقصد حرب القرم)».

ورغب رستم في الزواج. يقول، بمنتهى البساطة:

«وتوجهنا أنا وابن عمي داود الى عمشيت، ونظرنا ونظرونا. وقد تم الاتفاق بوضع الخطبة... وكانت افكاري متجهة نحو السترة، لأن من نظر بنات الروم ونسا اسطنبول لا يعجبه بنت. ولما رجعنا أرسلنا أخونا وضع الخطبة... وفي ٦ أيلول عيد مار ميخائيل سنة ١٨٥٧ تزوجت. وفي ٤ حزيران خميس الجسد سنة ١٨٥٨ خلق ولدنا سليم».

ثم يقول رستم:

«واتت سنة ١٨٦٠ وخراب الجبل. فتركنا بيروت الى جبيل».

وقد دوّن رستم مذكراته، سنة ١٨٩٧ م في جبيل، وذلك قبل وفاته بخمس سنوات، إذ أنه توفي سنة ١٩٠٢ م، كما ذكرنا.

ويقول رستم، في نهاية مذكراته:

«والآن اقول كلما كتبته إلى هنا معلوم. اما من ايام الجزار (وقد ذكرها في مكان من مذكراته)، وكل الحوادث

التي لم اكن موجود في الدنيا ولكن بالسمع من المرحوم والدي ووالدتي ومن الرجال القدم الذين كانوا يحضرون للسهرية والصبحية. ودايماً كان حديثهم عن حروب وحوادث قديمة. ومن كوني كنت أرغب اسمع واحفظ كلما يقع في اذني».

ويقول، فيما يتعلق بالأمور الحديثة، ما يلي:

«ولأمور الحديثة هذه في نظر عيني. ولم أعرف انني نسيت حادثة جرت وشاهدتها، وعندما أتذكرها كانت تتصور لي كأنها جرت أمس. وقد تركت اشيا كثيرة لم أذكرها...».

ويضيف موضحاً أحواله:

«ثم اقول انه لا بد يوجد فيما كتبته تقديم وتأخير في التاريخ، لانني لم أكتب عن كتاب موجود، بل عن حفظ وتفكر مطبوع في دماغي. وكيف بدّك حوادث جرت من عهد خمسة وستون سنة؟».

ويضيف رستم:

«كل ما كتبته هو هو بلا زيادة ولا نقصان».

وفي آخر مذكراته، يضع رستم باز خمسة ملاحق، أولها يصف فيه دير القمر، في أواسط القرن التاسع عشر، وثانيها يذكّر فيه نسب أولاد باز، أي أسرته. ويحدثنا، في الثالث، عن أصحاب الوظائف، في بتدّين (بيت الدين)، أي قصر الأمير بشير ومراتبهم. ويصف عمامة الأمير، في ملحق رابع؛ وأخيراً، يخص الملحق الخامس والأخير بوصف الملبوس الدارج، زمن المؤلف.

٤ ذكريات رضا التامر

في سنة ١٩٠٦ م، وُلِدَ، لمحمد التامر، صبي، سماه رضا. وكان ذلك في قرية كفر دجّال، بقضاء النبطية. ثم انتقلت الأسرة الى قرية تولين، في قضاء مرجعيون، وكان رضا قد بلغ الرابعة من عمره. وحكم على الوالد، سنة ١٩١١ م، حكماً غيابياً، بالسجن خمس عشرة سنة. لذلك، ظل الوالد متوارياً عن الأنظار، تجنباً لتنفيذ الحكم فيه، ولم يُعفَ عنه، إلا قبيل الحرب العالمية الأولى. وفي سنة ١٩٥٥ م، نشر القاضي الكبير، رضا التامر، ذكرياته، في كتاب، أقل ما يقال عنه، أنه كان صادقاً لكاتب صادق.

وإن كانت هذه الشهادة بحاجة إلى تزكية، فنجدها، في المقدمة، التي كتبها حبيب أبي شهلا، لهذه الذكريات. قال، فيما قال:

«... وما بدأت اقلّب الصفحات الأولى حتى تحوّلت إلى قارىء بدقة إذ تذوّقت هذه الصفحات وما انطوت عليه من ذكريات طريفة ومن آراء قيّمة وعبر متنوعة كتبت بأسلوب سهل شيق يملك عليك شواعرك ولا يتركك إلا وقد انتهيت من قراءة الذكريات، وأنت غير شاعر إلا بلذة عميقة وبإعجاب وتقدير».

ولحبيب أبي شهلا كلمة، في صاحب المذكرات، جاءت أيضاً في المقدمة، إذ قال عنه:

«رضا التامر رجل علم وتجرد ونزاهة وجرأة واستقلال. ومن كانت هذه صفاته لا يمكن إلا أن يفوز في جميع الامتحانات والميادين».

فقد قضى رضا التامر حياة تشرد مع أسرته، إذ نشبت ثورة في جبل عامل، بعيد الاحتلال الفرنسي. وهو لم يدخل مدرسة، لكن أباه هيأ له معلمين، ليعلموه قراءة الحرف. يقول رضا، في هؤلاء المعلمين:

«ما كان هؤلاء بمعلمين حقاً، ولكنهم كانوا من اشباه الأميين ممن يطوفون بأهل اليسار في القرى يستضيفونهم أو يستجدونهم ما يسد بعض جوعهم».

لكن رضا تعلم، يوم صرخ به والده، اذ هوجم:

«منزلهم ذات صباح باكر وهم ما زالوا نياما، بالمدافع تقصفه. فيخرج رضا صارخاً مولولاً، فإذا بوالده يصرخ في وجهه، وُلك لا تبكي. ابن محمد التامر ما لازم يبكي».

كان هذا درساً في الشجاعة.

وعلمته الحياة درساً ثانياً، يصفه رضا، بكثير من العاطفة والاحساس. كان والده قد زوجه، وعمره اثنتا عشرة سنة، سيدة أرملة، تكبره بسنها أضعافاً. وكان القصد، من هذا الزواج، وزواجات أخرى عُقِدت معه، الحفاظ على ثروة كبيرة.

«ولم أشعر قط، يقول رضا، أنني زوج وما أحسست نحو زوجتي لحظة واحدة بما يحس به الأزواج الرجال نحو زوجاتهم».

لكن محمد التامر، يولّي ولده رضا سفارة، من المنصورة إلى «رب ثلاثين»، حيث كانت العائلة، ليرحل بالنساء الى المنصورة. وهذا المشهد، يصفه رضا، بكل بساطة وعفوية، يقول:

«ها انا أدخل البيت فجأة في «رب ثلاثين» في جبل عامل، وها هي والدتي ـ يرحمها الله ـ تنكفىء إلي توسعني شماً وتقبيلاً وضماً، بينما تنحدر الدموع من عينيها بصمت وغبطة وخشوع. وها هي شقيقتي الكبرى زينب تعانقني وتقبلني. ثم ها هي زوجتي تتقدم إلي كذلك... وها هي تقبلني فأحس احساساً جديداً في قبلتها. احس أنني زوج اشعر بعاطفة الزوجية تتيقظ فجأة في قرارة نفسي. وكان الحدث الجديد ساعتئذٍ، وكان الحدث الأول في حياتي الزوجية. واستكملت رجولتي المبكرة يقظتها وتفتحها».

وإذا كـان محمد التـامر، قـد حُكِم عليه بـالسجن، أيام الأتـراك، فقد حكم عليـه بـالإعـدام، أيـام الفرنسيين. وهنا استفحل التشرد. وكـان لجوء إلى فلسطـين، حيث أقامت الأسرة في الجـاعونـة. وأخيراً، صدر عفو فرنسي عن المحكومين، وعاد الجميع إلى «تُولين». وهنا، بدأ عهد الـدراسة، بـالنسبة إلى رضـا: الفـرير في صيـدا، والمطران في صيـدا، ومدرسـة الحكمة في بـيروت واليسوعيـة. ثم خطر لـه، أن يدرس الحقوق في باريس. فاعترض الوالد، ثم رضي، على أن يتزوج رضـا، قبل سفـره. وكان ذلـك، فتزوج ابنـة خاله.

وذهب إلى باريس. ركب الباخرة في بيروت. قال، يصف شعوره ساعة أقلعت الباخرة:

«ما ازال اذكر ـ وقد اقلعت الباخرة من الشاطىء وتفـرق المودعـون وذهب أخي واقربـائي عن مرمى عيني ـ كيف عـرتني الرجفـة، وكيف انهمرت دمـوعي دون ان استطيع لهـا رداً، وكيف وددت لو انني لم اقـدم على سفـري. وما كنت احسب، قبـل تلك الـرجفة، ان للـوداع هذا الأثـر في النفس، وأن الإنسان عـلى مثل هـذا الضعف في مـوقف الوداع. ولقـد شعرت أن كبـريائي تتحطم وان نفسي تصغـر وتتضاءل. وخطـر لي حقاً ان اغادر الباخرة واعود إلى اهلي وانقض عزمي كله!».

لكن رضا يستمر في لعبة السفر؛ وخيال باريس يعود إلى حياته، ورحلة الباخرة، مـع جماعـة مصرية، انضمت إليها في الاسكندرية، أصبحت متعة. وتمر به تجربة، قلما تحدث في الأسفار. بوق البـاخرة يـزار يوماً عالياً، فيخرج الركاب ليجدوا البحارة مصطفين بلبـاسهم الرسمي. إن عـاملين من المغـاربة اقتتـلا، وطعن احدهما الآخر بمدية، فقتله. فكان لا بد من تطبيق قانون البحر

«يوضع الجثمان في تابوت ويوثق بسلسـلة حديـدية تنتهي بقطعـة ثقيلة من الحـديد، وتؤدّى التحيـة، ويلقى بالتابوت بالبحر».

ويقول رضا التامر:

«ثم ساد الباخرة صمت رهيب، هو صمت الموت ورهبته. هـو شيء من الحزن والـوحشة يقبض عـلى صدري. نظرت إلى من حولي في البهو الكبير فإذا الجميع كانهم سكون سحيق. يومئذ عرفت قدر الحياة وروعة الموت».

ويصل رضا إلى باريس، وينغمس في الحياة فيها، تلميذاً، ومشتغلاً بالسياسة، في الجمعيـة العربيـة السورية، ومتنقلاً بين أندية المدينة، ومقاتلاً للصهيونيين، حيث يمكن، وعشيقاً ومحباً. وأخيراً، يقع في أسر الحب الباريسي الجدي. وتنشأ المشاكل مع البيت ـ مع الوالـد. وكان لا بـد من أن يكتب رضا إلى والـده رسالة صريحة واضحة. ولا شك أن القارىء يمكنه أن يحزر موقف الوالـد من مثل هـذه القضية. رضـا يريد أن يتزوج فرنسية، وهذا ما كان يخشاه الأب أصلاً.

وجاء الجواب من الوالد رفضاً باتاً؛ قال عنه رضا:

«واخيراً جاء الجواب فإذا هو يحسم الامر كله بخمسة اسطر لا تزيد... إنه يعُدُّ ولده قد أُصيب بكارثـة، وان امره وامر ولده إلى الله... وان العلاقة بيني وبينه يجب ان اعدهـا مقطوعـة منذ الآن. ولم يكن الجـواب على هذا النحو مفاجأة لي... فلم يداخلني اليأس، ولكن كيف السبيل الى ارضاء الوالد؟».

وحار رضا، في أن يوسط الأصدقاء، بينه وبين الوالد، أو ان يقبل الانذار، على علاته. يقول:

«ولكن ابت نفسي «التوسيط» وعزمت على ان اقطع الـرسائـل عن جميع اهـلي واصدقـائي ومعارفي في لبنـان. وانقضى شهـران واضطررت أن ابيـع كل مـا لدي من كتب واشيـاء ذات قيمة لأنفق عـلى نفسي. وكـرهت أن استدين من أحد قليلاً او كثيراً فقد اعتدت ان اكون دائناً لرفاقي لا مديناً، إذ كنت انفق بتـدبير وتنظيم دون تقتير».

كان رضا يعترف لأصدقائه بخدماتهم له وعونهم عند الحاجة. في هذا الوضـع، الذي كان فيـه، جاءه العون من واحد من هؤلاء الأصدقاء الخلّص، أسعد هارون. قال له أسعد:

«رضا أنت محتاج للمال دون ريب، فلم أنكر عليه ذلك، فاغرورقت عينا اسعد بالدموع؛ ودسّ يده في جيبه ثم اخرجها بستمئة فرنك كانت كل ما يملك يومئذٍ، ودفعها إليّ فأبيت أن أقبلها فأصر، ولما اقترحت أن نتقاسمها رفض أيضاً».

ويعود رضا، في الصيف، إلى الوطن، وفي نيته أن يسوّي الأمور مع والده، بخصوص بوليت وزواجه منها. عاد بحراً، إذ أن هذا هو سبيل الأسفار يومها. وفي وصفه لسفرة البحر، من مرسيليا إلى الاسكندرية فبيروت، يحلّق رضا، بحيث تحس كأنك كنت مسافراً معه. وبعد شهر في الوطن، قضاه رضا في حيرة، سُوِّيت الأوضاع مع الأب، بوساطة أحد أصدقائه. وقال الأب:

«الله يهنيك يا ابني» ويضيف رضا «فتقدمت ولثمت يده ساكباً كل ما جال في خاطري في تلك اللحظة من معاني الغبطة والفرح والامتنان والشكر والعاطفة البنوية».

ثم عاد رضا الى فرنسا؛ وأخذ يعد العدة لإنجاز معاملات الزواج. وقضى الطالب السنة الأخيرة هناك، وكانت زوجته أيضاً طالبة. وقال رضا عن ذلك:

«فأخذت أستعد للسفر إلى الوطن مع زوجتي بعد أن أنهيت معها الامتحانات النهائية بنجاح لا بأس به!».

كان رضا التامر، الذي جاء لبنان، هذه المرة يحس بواجبه نحو قومه وأهله وعشيرته وأسرته، وخاصة بعد وفاة والده. كان يعرف مؤازرة السلطة الفرنسية لخصوم جماعته. وهو يعرض، هنا، القضية والعلاقات، بينه وبين الخصوم من جهة، وبينه وبين ممثلي السلطة الفرنسيين، اللذين كانا في الجنوب اللبناني. والواقع، أن هذه الصفحات، إن هي إلا تاريخ اجتماعي صادق، ووصف صحيح لما كان يدور، يومها، هناك.

بل انك إذا غيرت أسماء الأشخاص والأماكن، كانت هذه الصفحات تاريخاً اجتماعياً، لمناطق مختلفة من لبنان، بل وللأقطار المجاورة. ففيها وصف للتكتلات النفعية، والتجمعات الوطنية، والتحالفات الصادقة، والترابطات المصلحية. وكم كان واحدنا يحب لو أن كثيرين فعلوا ما فعله رضا التامر، فكتبوا عن هذه الأمور. وكان لرضا، يومها، مكتب محاماة. وقد اتهم بأنه صديق لأهل السلطان، ومما آذاه، يومها، ان قام خلاف بينه وبين زوجته، فعادت إلى فرنسا. ومع أن الأمر سوّي، وعادت معه، فقد انتهى الأمر إلى خلاف وهجر، ثم إلى زواج ثان.

وقد عني رضا، يومها، بالانتخابات النيابية، آملاً أن يدخل مجلس النواب، فيكون لديه وسيلة لإصلاح الأمور. ولكن رضا عُوِّض عن دخول الانتخابات بوظيفة. فقد عُيِّن قاضياً في المحكمة المختلطة. وكان ذلك بدء حياته القضائية، التي برز فيها، بشكل خاص، على ما نقلنا من حديث أبي شهلا عنه، وكما نعرف من مذكراته.

ولما نشر رضا التامر مذكراته أو ذكرياته، سنة ١٩٥٥ م كان قد مر عليه ربع قرن في القضاء. لذلك، سمى هذا القسم ربع قرن في خدمة القضاء. وهو، كما يقول عنه، جزء من قسم أكبر، فضَّل أن يؤجل نشره، لأنه كان، يومها، لا يزال يعمل في القضاء. والذي دوّنه، في هذا الكتاب، يقول عنه:

«اكتفيت بهذا الكتاب بما يمكن تدوينه في الوقت الحاضر من تسلية للقارىء وتفكهة له على أن يكون موعدي فيما بعد قريباً انشر فيه الباقي الكثير من المذكرات».

من الأمور العادية، في الطبيعة البشرية، أن يكتب المرء عن انجازاته. ولذلك، عندما نقرأ عن هذه الأمور، لا يكون فيها شيء يثير النفس البشرية، فهي، عادة، مجرد أخبار، تدل على ذكاء الشخص الذي يقوم بها. وأعمال رضا التامر، التي تحدث عنها وهو في القضاء، لا تخرج عن ذلك كثيراً؛ إلا أنها تمتاز بالصدق، فالرجل رحمه الله، لم يمنح نفسه أكثر مما تستحق.

فكم من الذين وقعنا على مذكراتهم، كانوا صريحين، فيما يتعلق بالأمور العادية، التي تجري يومياً، بينما نجد رضا التامر يتحدث عن إخفاقه في الامتحان مثلاً. ولكن أكثر الذين كتبوا أو تحدثوا عن أيام الطلب، في الغرب، كانوا يهتمون بالتبجح بالنجاح الكبير والفوز على الأقران وما إلى ذلك.

وأول ما يجب أن يقال، عن القصص القضائية، هو أن رضا التامر القاضي، كان يسمع صوت الضمير، إذ يصغي اليه بكل جوارحه. ولم يكن يخشى، في محاكماته وأحكامه، لومة لائم ولا سلطة غاشم. وفي رأيي، أن الفصول التالية، في الكتاب: «البرغوث ووسخه» و «الاخوان» و «حرق الابن»، حرية بالقراءة. وهذه قضية في غاية من الحمق الأبوي، لإيقاع قصاص على ابن صغير. وهناك قصة الكينا المغشوشة، وكيف اكتشف القاضي رضا التامر سر هذا الغش.

على أن الذي تجدر الاشارة إليه، هو أن المؤلف وضع فصلاً، في آخر «ربع قرن في خدمة القضاء»، حول الجريمة في لبنان. وحتى هذه الملاحظات، إنما قصد منها رضا التامر، أن تكون مقدمة لبحوث طويلة، حول الموضوع. يقول في هذه الملاحظات:

«فنحن إذا راقبنا الشكاوى الحافل بها مجتمعنا، وقفنا على الشكوى من كثرة الجرائم وتزايدها يوماً بعد يوم».

ولعل من أصح ما قاله هو:

«لقد قضيت شخصياً خمسة وعشرين عاماً في القضاء الجزائي. وما كنت أصدر مذكرة توقيف بحق مجرم مبتدىء إلا ارتجفت يدي، لعلمي أنني اقود المجرم المبتدىء، فيما اقوده إلى السجن، إلى مدرسة عريقة في تلقين الإجرام وتدريس فنونه. والواقع أن المجرم الذي كان يدخل السجن في لبنان من جراء اقترافه ذنباً صغيراً، يغادره، واذا هو خبير في الإجرام واتباع مسلك المجرمين».

إنه كان يرى

«أن تثقيف الشخص هو الأساس في إصلاح المجتمع وتخفيف الإجرام. وثقافة المواطن، مقترفاً كان أم غير مقترف، هي حق له على الدولة، التي يجب أن تؤمن حياة أناس هي القيّمة على شؤونهم ومقدراتهم».

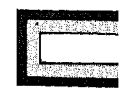
وهناك أمور، يذكرها صاحب المذكرات، تتعلق بعمل القاضي نفسه. منها أن الإلهام له أثر كبير في نجاح قاضي التحقيق، خاصة عندما تكون الجريمة يسودها جو من الغموض، الذي يكاد يكون تاماً. وينصح القاضي رضا المحقق بقوله:

«أول ما يجب على المحقق أن لا يأخذ فكرة مسبقة يكوّنها عن الجريمة في مخيلته تكويناً راسخاً، بحيث يستنتج، قبل ورود أي دليل أن الجريمة ارتكبها فلان وانها حصلت على الصورة الفلانية».

ويشدّد على ذلك، بقوله:

«إن المحقق الذي يسبق سير التحقيق بتكهناته واستنتاجاته هو بِعُرفي أخطر رجال القضاء على المجتمع».

إننا، في ذكريات رضا التامر، أمام لوحات من حياته الخاصة والعامة، رسمها بقلم طيّع وأسلوب رشيق، وأهم من ذلك، أنه رسمها بصدق وإخلاص وعفوية. وكم نودّ لو أن عدد هؤلاء الكتّاب يزداد.



٥ سامي الصلح يحتكم الى التاريخ

يصعب على الكاتب أن يحدّد شخصية سامي الصلح. فقد كان الرجل مفكراً وسياسياً ووطنياً وزعيماً وقاضياً، صلباً في الحق، متواضعاً في تصرفه، هادىء الطبع. أتيح لي أن أراه مرات عن بعد، في مقهى الغلاييني، في بيروت، حيث كان يقصده، من أجل أركيلته المفضلة، في ركنه الخاص. كنت أرى الرجل المحبب إلى الموجودين، وكنت أشعر بارتياح، مع أن كل ما دار بيننا من الكلام تحية ليس إلا.

والواقع، أننا سعداء، اليوم، لأن سامي الصلح، كان قد عاد فقبل أن يملي أحداث حياته على سليم واكيم، الذي سجلها وجمعها. وأنا أعرف كم بذل من الجهد، للحصول على هذه الوقائع. وقد نشرت هذه سنة ١٩٧٠ م وتنتهي الأحداث، الواردة فيها، إلى سنة ١٩٦٨ م.

ولنقدم سامي الصلح، بكلماته. يقول:

«وُلدت في مدينة عكا في ٧ ايار ١٨٨٧. كانت عكا إذ ذاك تابعة لولاية بيروت، المنفصلة عن لبنان ادارياً وسياسياً منذ سنة ١٨٦١. وكان والدي عبد الرحيم الصلح قد عيّن فيها متصرفاً بالوكالة، ذلك بأنه كان موظفاً كبيراً في السلطنة العثمانية. ويبدو أن والدتي كانت من المعجبين بسيرة الإمام علي (رض)، إذ رأته ذات مرة في الحلم، فصممت على تسميتي علياً تيمناً به. إلا ان المرادف سامي فاز في النهاية».

كان سامي الصلح يسمع، من أبيه، كثيراً من ذكرياته الطريفة، عن فلسطين، ومنها موقف السلطان عبد الحميد الثاني، من الأطماع الصهيونية فيها، ودأبه على إحباط مساعيهم، وإيقاف هجرة اليهود.

يقول سامي، عن أبيه:

«كان أبي عبد الرحيم الصلح تقياً ورعاً ومتحرراً بمعنى أنه كان يعي التقوى، بمنأى عن التعصب. ولا عجب إذا التفّ حوله المسيحيون وشاعت شعبيته في جميع الأوساط. ولعلّ ذلك من العوامل التي أثرت في نشأتي. وقد هاجر أبي مع من هاجروا إلى بيروت منذ قرن ونيّف، واطلع بحكم مركزه على التطورات الاجتماعية والسياسية التي عانتها المدينة. لكن والدي كان يتنقل بوصفه موظفاً».

ويقول سامي الصلح، عن أيام شبابه:

«نشأتُ بين أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في ظروف برزت فيها فكرة القومية العربية وأخذت تتضح في أذهان بعض المفكرين اللبنانيين. فالقومية العربية التي نادى بها هؤلاء تحدّت في الوقت نفسه، العصبية الدينية السائدة بين المسلمين بما فيها فكرة القومية العثمانية التي نادى بها زعماء الاصلاح في الآستانة. وحاول دعاة المركزية فرضها على جميع البلاد الخاضعة للسلطنة دون التعرض لجبل لبنان. وفكرة القومية العربية في نشوئها واصطراعها مع فكرة القومية التركية شرعت تزعزع عرش السلطان عبد الحميد، الذي كان لاسمه وقتذاك وقع رهيب يجعل أقوى الاقوياء يرتجفون».

وكان سامي الصلح يضطر الى تغيير مدارسه ومعلميه، بقدر ما كان والده يغير أماكن عمله. ولكن بعض التنقلات كانت خيراً عليه، فإن انتقال والده، إلى مدن يونانية، أتاح له أن يتعلم اللغة اليونانية، فضلاً عن التركية والفرنسية. وكان والده يحضر له المعلمين، لإعطائه الدروس الخصوصية، لأنه، كما يقول:

«لم اكن تلميذاً مجتهداً بالقدر الذي يظنه القارىء العادي».

وفي استانبول، عاصمة الخلافة، أكمل سامي الصلح دروسه الجامعية. يقول، في ذلك:

«وكان الحوار يتكرر بيني وبين رفاقي كل يوم في صدد التيارات والأفكار التي كانت رائجة آنذاك تتجاذب طليعة ذلك الجيل، إذ لم تعجز فكرة القومية العربية عن ايجاد من يعبر عنها ومن يعتنقها، برغم ولاء السواد

الأعظم من المسلمين للسلطة العثمانية، وذلك بسبب تحسسهم حتى أوائل القرن العشرين بالوحدة الدينية والسياسية مع المسلمين الاتراك».

ويصور سامي الصلح شعوره، يوم توفي والده، سنة ١٩٠٥ م، وكان شديد التعلق به، فيقول:

«وقد عبرت عن هذا الشعور الفياض ببادرة قلّ أن تخطر على بال فتى فقد والده. كان الطقس رديئاً في ذلك اليوم والأمطار تهطل مدراراً والجو يرزح تحت قصف الرعد ووميض البرق. فغادرت حفل المعزين فجأة ورحت أعدو في الشارع المقفر وحيداً أجهش بالبكاء، وقد أغرق المطر دموعي، وأصرخ من قوة اللوعة والصدمة وقد خنق الرعد صوتي».

كانت والدة سامي تريده طبيباً، لكنه كان يحلم في أن يصبح رئيساً لمحكمة التمييز، وهو أعلى منصب قضائي في الدولة، أو محامياً عاماً، أو في أسوأ الحالات، مجرد محام. واذن، فالمكان الصالح له كلية الحقوق.

ويشير سامي الصلح إلى الانقلاب الذي أطاح بعبد الحميد (١٩٠٩ م)، واستخلاف أخيه، محمد رشاد، وتولي حزب الاتحاد والترقي الحكم. ويضيف:

«وتبنّى هؤلاء فكرة القومية التركية واعتبروا العنصر التركي العنصر المتفوق في عالم الاسلام وتخلّوا نهائياً عن فكرة القومية العثمانية. وكان من شأن هذه الدعوة أنها ساهمت في التباعد بين العرب والأتراك وحتى بينهم وبين الدولة العثمانية التي كانوا يسيطرون عليها».

وفي تلك الفترة، نشطت الجمعيات السرية، في مدن سوريا ولبنان، وبدأت الاتصالات بالدول الأجنبية. ذهب سامي، بعد حصوله على إجازة الحقوق، إلى باريس، لإعداد شهادة الدكتوراه. وقد أصبح لولباً في هذه الحركات. وفي باريس، كان يدعو إلى وجوب:

«تطوير البلدان العربية وإزالة البدائية والتقهقر من سكانها».

وفي باريس، أصبح سامي الصلح عضواً في لجنة حقوق الإنسان؛ ويبدو أنه كان العضو الشرقي الوحيد، الذي انضم إلى هيئة غربية، كانت الطليعة في البلاد العربية تخشى أن تجهر بالانضمام إليها. وبسبب الجو الاتحادي التركي، الذي سيطر على استانبول، وخشية أن يتعرض الشباب العرب للمطاردة والقلاقل، قرر سامي وابن عمه رياض الصلح العودة إلى الوطن.

وقد تجلى طموح سامي السياسي، في أنه رشّح نفسه للانتخابات، في بيروت، سنة ١٩١٤ م، أي قبل الحرب العالمية الأولى. ولكن تواطؤ السلطة التركية، مع المتنفذين، في بيروت فشّله. يقول:

«فشلت بسبب هذا التواطؤ، فما كان مني إلا أن انخرطت، كما يفعل كل مرشح خاسر، في صف المعارضة».

وبدأت الحرب، بالنسبة للأقطار الشامية، في خريف ١٩١٤ م، لما دخلتها تركيا، إلى جانب المانيا. ولم تكد تمر سنة على الحرب، حتى فتكت المجاعة بلبنان، وأودت بنحو مئة ألف نسمة، يقول سامي الصلح:

«واللبنانيون لا يزالون يعانون من عقدة الجوع. فتراهم في كل تهديد بأزمة يتراكضون إلى التموّن».

وأقام سامي الصلح معسكراً للثوار، في منطقة حلب. وقد تبين له، أن هؤلاء الذين ادعوا أنهم ثوار، إنما كانوا جماعة تنوي السلب والنهب. وتعرض سامي الصلح للاعتقال على يد جماعة جمال باشا، لكنه تحسّب للأمر، واختفى في حلب أولاً.

لكن الخطر اشتد عليه، إذ أعلن جمال باشا مكافأة مالية لمن يأتيه به. لذلك، كما يقول، اختار طريق الصحراء.

«ارتديت اللباس البدوي وابتعت حصاناً وأطلقت على نفسي اسم «الشيخ علي البغدادي»، واتجهت برفقة

بدوي ناحية الصحراء... ووصلت الجزيرة الفراتية حيث قضيت بضعة أشهر بين البدو أنتقل من قبيلة إلى أخرى. فنزلت ضيفاً عليهم ومالحتهم واقمت بينهم دون أن يطرحوا علي سؤالاً حتى أصبحت بدوياً أستطيع أن أتبين دربي دون دليل».

واقترح المرافق، على سامي الصلح، أن يقوم بعمل ما. ورفض اقتراح صاحبه، أن يتاجر بالخراف بين ايران والموصل. وفضل اقتراحاً آخر، يقتضي بالمتاجرة بالأقمشة المزركشة، التي ترتديها البدويات. وقد وصف الكاتب حانوته وتجارته الجديدتين، بقوله:

«وكان محل النوفوتيه عبارة عن خيمة في جوار القبيلة. فما إن ذاع الخبر حتى تهافتت نساء الجوار واخذت ما في الخيمة من بضائع، كما يجري في المحلات الكبيرة، ففرغ المحل بعد قليل من افتتاحه. أما ثمن البضائع فوعدت النساء أن يدفعنه عندما يحين موسم الحصاد».

ولكن سامي الصلح لم يقبض شيئاً.

وعاد سامي الصلح، إلى حلب، متنكراً في زي امرأة. وأخيراً، سلم سامي الصلح نفسه، إلى جمال باشا، في فندق بارون، بحلب، بناءً على وعد قطع له، بالواسطة، أنه لن يعدم. وانتهى الأمر بنفيه إلى استانبول.

يصف سامي الصلح الوضع في استانبول، بعد هدنة مودروس، في ٣٠ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩١٨ م، بين الأتراك والحلفاء، والتي بموجبها انتهى القتال بين هذين الفريقين. يقول:

«وإثر هدنة مودروس رست الأساطيل الانكليزية والفرنسية والايطالية واليونانية في البوسفور الذي شهد للمرة الأولى مجموعة من الأعلام الأجنبية العسكرية لم يشهد مثلها في تاريخ السلطنة. وكنت من مشاهديها - أنا الحائر بين الحنين إلى الوطن لبنان وبين انتهاز الفرصة لتحقيق طموحي وأهدافي».

ويلقي سامي الصلح بناظره نحو العالم العربي، ويقول:

«كنت في ذلك الوقت ككل مسلم، يصبو إلى التحرر ويتطلع إلى ثورة الشريف حسين وابنه فيصل، وكان قد سبق لي أن اجتمعت إليه قبل نفيي إلى استانبول. فأحلام الشباب تقاس بأحلام القادة. عبد العزيز في نجد، والشريف حسين في الحجاز، وفيصل في دمشق، والتحرر من ربقة العثمانيين ومجد العروبة. كل هذه الأسماء الكبيرة والأحلام كانت تجذبني كالسراب، لكنها لم تكن لتقنعني. فسرعان ما عدت إلى حلب... ثم توجهت إلى دمشق حيث قابلت الأمير فيصل وأعجبت بذكائه الحاد، وبمشروعاته الضخمة التي كانت حتى ذلك الحين تبدو معقولة».

وذهب سامي الصلح إلى القاهرة، حيث قضى ثلاثة أشهر، اشترك، خلالها، بالنقاش مع زعماء الأحزاب والمناضلين. وكان لكل رأيه. ورجع، بعد ذلك، إلى دمشق.

وأخيراً، استقر سامي الصلح في بيروت، وبعد قيام الانتداب، دخل السلك القضائي، الذي ظل فيه اثنين وعشرين عاماً، دون انقطاع.

يقول سامي الصلح، وقد عين في الوظيفة التي يحب:

«ولم أكن بطبيعتي لأسكت عن هفوات السلطات المنتدبة، لا بل لم أكن لأرضى بالانتداب ليس على لبنان فقط، بل على جميع الأقطار الأخرى. واتخذت لنفسي عقيدة الانسانية والوطنية اللبنانية المنفتحة على بقية الأقطار، وآليت على نفسي ايضاً ان اخدم الفقير والضعيف وأن اساند المظلوم. وكنت أرى أن تكون السجون مدرسة تهذب النفس البشرية لا مرتعاً للفساد والإفساد. وكذلك يجب أن يكون للأحداث المنحرفين اصلاحية تصلح النفس الفتية، فسعيت إلى استحداثها».

أما من حيث تصرفه في أعماله القضائية، فإنه كتب، عن ذلك، ما يصح أن يكون دستوراً أخلاقياً، لرجال القضاء. يقول:

«ظللت في سلك القضاء اثنين وعشرين عاماً... وتدرجت... من محام عام إلى مستشار إلى نائب عام لدى

محكمة التمييز وأخيراً أصبحت رئيساً أول لمحكمتي الاستئناف والتمييز... وكان من عاداتي أن أباشر العمل باكراً، ومن طبعي العَجُول أن أصرف أشغالي بسرعة وبلا تأجيل. إذ كنت أحس أن لا شيء أكثر من التباطؤ في الدعاوى يلقي اليأس، سواء في نفوس المحامين أو نفوس طالبي العدل».

«ولم أكن أترك الأمور تنتظر وتنام في أدراج محكمة الجنايات يوم كنت رئيساً لها. كنت أستجوب المتهمين وأستمع الى الشهود والنيابة العامة ومحامي الدفاع. وبعد المذاكرة كنت أصدر الحكم في اليوم ذاته. إذ عندما يفهم القضاة المخلصون المسائل الموكولة إليهم لا يحتاجون إلى أسابيع وشهور ليلفظوا قرارهم».

ومن أطرف ما وراه سامي الصلح، حادثة جرت له مع مفتش فرنسي. يقول:

«كان المفتش الفرنسي زمن الانتداب، يحضر أحياناً جلسات المحاكمات ويجلس إلى جانب القاضي الأول ليشرف عن كثب على سير العدل... واتفق ذات يوم أن دخل المفتش عليّ أثناء انعقاد الجلسات في قاعة الجنايات. فما كان مني إلا أن وقفت وقدمت كرسي باحترام ظاهر للمفتش. وبدل أن أجلس على كرسي آخر قدِّم لي على الفور نزعت ثوب القضاة ورميته على كتفي المفتش اللامبالي الذي لم يكن يتصور ما سيحصل، وقلت له بالفرنسية تفضل واحكم مكاني؛ كانت هذه الحادثة كافية لتحيلني على المجلس التأديبي، وبالتالي لإقلاع السلطة المنتدبة عن السماح لمفتشها دخول قاعة المحاكمات أثناء التئام المحكمة».

وفي ٢٧ تموز ١٩٤٢، ألف سامي الصلح وزارته الأولى، وقد أطلق عليها الشعب «وزارة الرغيف»، اذ أن الواجب الأول، لهذه الوزارة، كان معالجة الأزمة الغذائية. وقد نجح سامي الصلح في حل المشكلات التموينية، وأخرج الحبوب والطحين من مخازن المحتكرين. وظل سامي الصلح يعرف باسم أبو الفقير.

وقد أصبح سامي الصلح، القاضي العادل القوي الجريء، رئيساً للحكومة أكثر من مرة. ولن نتمكن في هذه السطور من مجاراة أعمال رئيس الوزارة، لمدة تقرب من العشرين عاماً. ولعلنا لن نسيء إلى الرجل ـ رحمه الله ـ إذا نحن تحدثنا، عنه كسياسي، في مناسبة أخرى.

لكن لا بد من القول، بأن سامي الصلح، الذي اتُّهم بأمور كثيرة، في حياته الطويلة والحافلة بجلائل الأعمال، أحسن صنعاً حين دوّن مذكراته. ولعلنا لم نذكر، أن اسم المذكرات «أحتكمُ إلى التاريخ». وليس ثمة من شك، في أن التاريخ سينصف سامي الصلح بعد أكثر، عندما يتصدى كاتب بحاثة إلى وضع ترجمة، لهذا الرجل الكبير.

وبعد؛ فهناك ثلاث ملاحظات، دونها سامي الصلح، يمكن اعتبارها شعارات، في أدب القضاء. فهو يقول في أولاها:

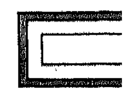
«كانت النزعة الانسانية عندي تتغلب على مفهوم القانون. وكنت أعتبر أن القانون الذي لا يوطد العدل ليس قانوناً، وإنما هو تدبير فرضته السلطة. وهذه النزعة جعلت مني أباً أكثر مني قاضياً».

والملاحظة الثانية، هي قول القاضي سامي الصلح:

«وبعد الاثنين والعشرين عاماً التي قضيتها في السلك القضائي، أود أن أوصي القضاة الوصية الآتية: خرجت مقتنعاً بأن الاستقلال يؤخذ ولا يعطى، حتى في ميدان القضاء. ومهما تكن الضمانات التي تقدمها الدولة، فإذا كان القاضي ضعيف الشخصية فسيبقى ضعيفاً. وهذا ما ينطبق على الحاكم ايضاً».

ويختم ملاحظاته، بقوله:

«ولا يستطيع المواطن أن يقدر القيمة الحقيقية للحرية الفردية إلا إذا تفهم وظائف القاضي، وأهمية المحاكمة العادلة، والفلسفة الكامنة وراء الوظيفة القضائية ـ وهي عدم التحيز والاستقلال».



٦ الأمير شكيب ارسلان في سيرته الذاتية

إذا عُدَّ العرب ورواد الإصلاح، في دنيا العرب، خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي والعقود الأولى من القرن الحالي، برز اسم الأمير شكيب ارسلان، على أنه في طليعتهم. والواقع، أن قلة من هؤلاء العاملين، في سبيل القضايا العربية، من كان مُتشعِّب الاهتمامات مختلف الاتجاهات متباعد الاتصالات، الذي لا يخلو مجالٌ نشاط من أثر له كالأمير شكيب ارسلان.

فقد قلّبت وجوه نشاطه، فوجدته يعمل في السياسة، ويساهم في الأدب، ويشارك في البحوث التاريخية، ويتابع الاتجاهات الإصلاحية الإسلامية، ويراقب تطور الأمور الداخلية والخارجية، ويكتب في الصحف، ويحرر مجلة الأمة العربية (la Nation Arabe) التي كان يصدرها في سويسرا بالفرنسية.

والمهم، هو أن ما كان يدبّجه، كان يتسم بالعمق والدقة. فلم يكن إطلاق اسم «أمير البيان» عليه، أمراً بعيداً عن الحقيقة. ولْنشر إلى بعض ما وضعه من كتب، وبعضها كان مقالات، جمعت فيما بعد، واهمها، في رأيي، تعليقاته الضافية الوافية، على كتاب «حاضر العالم الإسلامي». فقد كانت التعليقات اضعاف الكتاب الأصلي، حجماً. وهناك «الحلل السندسية»، وهناك شعره، الذي صدرت باكورته، والرجل لم يبلغ العشرين من عمره.

ومن الطف ما كتب الأمير شكيب «الارتسامات اللطاف»، وهي ذكريات حجه وانطباعاته، التي خلفتها، في نفسه، زيارة الأماكن المقدسة. وله كتابان، في كل من أحمد شوقي والسيد رشيد رضا. هذان الكتابان، فضلاً عن الثروة الأدبية التي يحتويانها، فإنهما مثال على الوفاء، الذي كان يحمله الأمير شكيب لأصدقائه ومعارفه.

أما في مجال السياسة، فيصعب البحث عن نقطة أو بقعة، في العالم العربي والدول الاسلامية، لم يزرها، إما باحثاً أو مندوباً أو زائراً أو مصلحاً بين خصوم. والواقع، أن السنين الستين، التي قضاها في الاهتمام بالأمور العامة ودرسها والكتابة عنها، تدل على شيء واحد ـ هو الحركة الدائمة. فهل كان هناك زعيم مسلم لم يقابله الأمير؟

تنتهي سيرة الأمير شكيب الذاتية، التي أملاها، بنفسه، ووافق على نسختها، بخطه، حوالي ربيع ١٩٣١ م، أما الموافقة على شكلها، فقد جاء في صيف السنة التالية. والأمير شكيب، تردّد كثيراً، قبل أن أقدم على تحرير ترجمته لنفسه. يقول، في ذلك:

> «لقد ترددت كثيراً قبل أن حررت هذه الترجمة، وقدمت رجلاً واخّرت اخرى في اثناء عزيمتي أن اصف نفسي بقلمي».

وبعد أن يشير إلى أن مثل هذه السير الذاتية، إنما هي مما يختص به العظماء، يعود فيثبّت سبب إقدامه على القيام بهذا العمل.

فبعد أن قلّب الأمير شكيب الأمر على وجوهه، قرّر أن يحرر ترجمته. ويوضّح ذلك، بقوله:

> «رايت بعد التروّي اني مهما اجتهدت في محو نفسي، وحاولت الغاء ستار الإهمال على تاريخ حياتي، فلن يعدم الميدان اناساً يجولون في هذا الموضوع من بعدي، فيخبطون فيه خبط عشواء، ويزيدون وينقصون بغير علم».

كما أن الكاتب، كان يعرف أنه ثمة بين الذين قد يحاولون ذلك المحب المغالي، الذي قد يبالغ، والمبغض القالي، الذي قد يسترسل في القيل والقال.

ومن الطبيعي، أن رجلاً مثل الأمير شكيب، الذي شرّق وغرّب، في سبيل القضايا العربية السياسية، وكتب المجلدات في الأدب والتاريخ، لا يمكن إلا أن يكون بين الذين سيتحدث عنهم فيما بعد: المحب

والمبغض. فأراد الرجل أن يضع حدًّا لمحاولات هؤلاء وأولئك، فحرّر سيرته الذاتية. لكن أود أن أسرع إلى القول، بأن هذا، الذي بين أيدينا، لا يعدو كونه «خلاصة» لحياة الرجل وأعماله. فلو كتب كل شيء، لاحتاج إلى مجلدات. فضلاً عن ذلك، ان السيرة تقف عند سنة ١٩٣١ م، أي قبل وفاة كاتبها بخمس عشرة سنة، وهي فترة، كان فيها الأمير، كما كان قبلًا، ملء السمع والبصر، عملاً وحركة ونشاطاً.

يقول الأمير، في مجال التقديم لسيرته الشخصية أو الذاتية:

«وقد يقال ان شهادتي لنفسي لا تعتبر شرعاً ولا عرفاً ولا تنفي عني السيئة ولا تثبت الحسنة، ولا يُنتظر من الإنسان إلا ان يزكي نفسه وإلا أن يخفي عيبه وان يتنصّل مما يُرمى به».

لكنه يدفع هذا، بقوله:

«فأجاوب عن ذلك بأن الحوادث التي ارويها معروفة... وإنما انا انقل منها تفاصيل وأروي دقائق يجوز أن لا تكون معروفة عند الكثيرين».

ولد الأمير شكيب ارسلان في الشويفات، من جبل لبنان، سنة ١٢٨٦ هجرية (١٨٦٩ ميلادية). وقد بدأ تعلمه في المنزل، مع أخيه نسيب، وكان في الخامسة من عمره، على يد الشيخ مرعي شاهين سلمان، ثم درس القرآن، على يد أسعد نادر. ومع أنه، كانت ثمة مدارس للحكومة اللبنانية، فإنها، على ما يقول الكاتب، الغيث، لذلك، لم تطل مدة تعلّمهما هناك. فأرسل الأخوان:

«إلى مدرسة في الشويفات من المدارس الامريكانية يعلمون فيها القراءة بالانجيل والمزامير ويقراون شيئاً من الحساب والجغرافيا».

وفي سنة ١٨٧٩، أي لما كان الأمير شكيب في سن العاشرة، أدخله والده، مع عدد من الأولاد الارسلانيين، مدرسة الحكمة المارونية، في بيروت، حيث قضى سبع سنوات، انتقل، بعدها، إلى المدرسة السلطانية، في بيروت أيضاً. وكان الشيخ محمد عبده منفياً في بيروت يومها، وكان يدرّس مجلة الأحكام العدلية، في المدرسة السلطانية. وانعقدت صلات قوية بين الشيخ وأسرة الأمير.

يقول الأمير شكيب، عن المدرسة السلطانية:

«ودخلنا المدرسة السلطانية التي كانت يومئذٍ في بيروت، وكان قد اسسها المسلمون لأجل تهذيب شبانهم كسائر شبان الطوائف المختلفة التي كانت لها مدارس عالية في بيروت. ثم ان الحكومة العثمانية وضعت يدها على المدرسة السلطانية المذكورة والحقتها بالمدارس الأميرية. فدخلنا إلى المدرسة المذكورة لنتعلم اللغة التركية والفقه».

ويصف الكاتب الشيخ محمد عبده، بقوله:

«رأينا فيه عالماً لا كالعلماء الذين نعهدهم بل عالماً جمع بين العلوم العقلية والنقلية إلى الأمد الاقصى، ونظر إلى جميع الأشياء نظر الفيلسوف الذي نظره يعلو على الانظار المعتادة... وبالاختصار رأينا فيه لا عالماً فقط بل عالَماً (بفتح اللام) لم نعهد رؤية مثله من قبل».

وفي سنة واحدة (١٨٨٧ م)، نشر الأمير شكيب الجزء الأول من ديوانه، بعنوان «الباكورة»، وعيّن مديراً لناحية الشويفات، خلفاً لوالده، الذي توفي تلك السنة. وبذلك، يبدأ حياته العامة على جبهتين، العمل الإداري ـ ومنه إلى العمل السياسي ـ والجبهة الأدبية.

وقد وجد الشاب، الأمير شكيب، أن الجبل ضيق المجال، بالنسبة له. فلم يلبث أن ترك الوظيفة. وبدأ رحلة طويلة، حملته إلى مصر، ومنها إلى الآستانة، طلبته أصلاً، وبعد سنتين زار باريس ولندن. وفي كل مكان، كان ينشىء صداقات، ويوطد علاقات، كان يحافظ عليها إلى آخر الحياة.

وفي سنة ١٩٠٢ م، كان الأمير شكيب في مهمة، في جبل الدروز، وهو جبل العرب اليوم، ندبه لها والي

الشـام، ناظم بـاشا، تمكن فيهـا من جمع الـدروز، هناك، عـلى طاعـة الدولـة، فعيّنه متصرف لبنـان على قائمقـامية الشوف. ويمكن القـول انه، منـذ هذه السنـة، تبدأ حيـاة الأمير شكيب السيـاسية الـواسعة المدى. فهي في إطار الدولة العثمانية، محافظة عـلى كيانهـا، إذ كان يـدرك أن انهيارهـا أو التخلي عنهـا، يؤدي بالولايات العربية إلى الوقوع في أحضان الدول الأجنبية.

أما في الإطار الأوسع، الذي كان يشمل العالم الاسلامي واتصالاته بـأوروبا، فمـوقف الأمير شكيب يمكن أن يلخص في أمرين ـ التوفيق بين الجماعات العربية والاسلامية أولاً؛ وثانيـاً، الدفـاع عن قضايـا العرب والمسلمين، بكل ما أوتي من مقدرة وجهد. ويدخل في النـوع الأول، زيارتـه للمدينـة المنورة؛ سنـة ١٩١٣ م، وحضوره مؤتمرين، الواحد عربي، سنة ١٩٢١ م، في جنيف، والثـاني مؤتمر إسـلامي في مكة. أما في مجال التوفيق، فقد كانت له اليد الطولى، مـع رفاق لـه كبار، في وقف القتـال بين المملكـة العربيـة السعودية واليمن، سنة ١٩٣٦ م.

وأما أمر الدفاع عن القضايا العربية والإسلامية، فهناك دوره في ليبيا، لما اعتدت عليها ايطاليـا، سنة ١٩١١ م؛ ومراقبة بعثات الهلال الأحمر، في حرب البلقـان سنة ١٩١٢ م؛ ومـواقفه من جميـع القضايـا، التي نشـأت عن الحرب العـالمية الأولى؛ وقيـام الانتداب في لبنـان وسوريـا وفلسطين؛ وحضـوره مؤتمـر جنوا، في ايطاليا، عام ١٩٢٢ م، وإذاعته بيانه عن «الحلف العربي»، سنـة ١٩٢٣ م. وأخيراً، إصداره مجلة الأمة العربية (la Nation Arabe)، التي كان يحررها، بالفرنسية، ويصدرها من سويسرا، بين سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣٩ م.

ومع أن السيرة الذاتية للأمير شكيب تقف كتـابتها عنـد سنة ١٩٣١ م، فـإن الأحداث فيهـا، تنتهي بالحرب العالمية الأولى. ونحن معنيون بما دوّنه هو نفسه عن نفسه، فـإن نشاطـاته المتنـوعة، والـواسعة النطـاق جغرافيـاً، لا يمكن أن تُستوعب بمجمـوعها. لـذلك، فنحن مضطـرون إلى اختيار محطـات، نقف عندها.

ومما يعرفه، التاريخ، أن جمعية الاتحاد والترقي (العثمانية)، تـولّت شؤون الامبراطورية، بعـد خلع عبد الحميد، وتولية أخيه، محمد رشاد، مكانه. وكانت سياستها «التتريكية»، أحـد الأسباب الـرئيسة، في تنفير العرب من الأتراك. والفترة، التي تلت ١٩٠٨ م، وهي المعروفة بعهـد الحريـة، لم تكن فيها حـرية. والزعماء العرب، الذين عاصروا تلك الفترة، وعملوا في القضايا العـربية، دونـوا تجاربهم، بـالنسبة لهذه الفترة. ومن هؤلاء الأمير شكيب ارسلان.

يقول الأمير شكيب، عن هذه الجمعية:

> «ولكن جمعية الاتحاد والترقي مع حسن نية رجالها كان ينقصها كثير من الخبرة، وكان أكثر زعمائهـا شبانـاً لم يتمرسوا بالأمور، ولم تنجزهم الحادثات. وقد جاء فوزهم بالقبض على ناصية السلطنـة غير منتظـر ـ حتى من انفسهم. فسكروا بخمرة العـز، واستخفوا بمن سـواهم، وظنوا أنهم قـادرون على كـل شيء. والحال أنهم كانوا يواجهون صعاباً ويقابلون عقاباً لا قبل لهم بها».

وهو، كما نرى، نوع من الاعتذار عن تصرف هؤلاء القوم، ولكنه سبب واحد صحيح.

وجاء الهجوم الايطالي على ليبيا، سنة ١٩١١ م، وهنا، برز اسم الأمير شكيب، منذ بدء الحملة. فقام، أول الأمر، بإرســال البرقيـات، إلى أصحاب النفـوذ، في استانبـول ومصر، طالبـاً إرسال الإمـداد للسادة السنوسية، كي يتمكنوا من التصدي للطليان. ووجهة نظره، في معنى هذه الحادثة، أوضحها، بقوله:

> «ان كل حركة اليوم ضد الدولة العثمانية تُلحق بها ضعفاً وتزلزل أركانها وتفيد الافـرنج وتضر العـرب والترك معاً... وان تسليم طرابلس الغرب أو التساهل بها... يكون بداية لانهيار السلطنة العثمانية بأجمعها».

وإذا قارنا بين الأمير شكيب ومعاصريه، وجدنا أنه كان يتميز عن الكثيرين منهم، بـاطلاعـه الواسـع

على السياسة العالمية. لذلك، فإن مقالاته وآراءه كانت واسعة الأفق، كأنه يطل على الأمـور من عل . فهـو إذ يعالج الكائنة الطرابلسية، كان يراها من خلال مواقف الدول الأوروبية من الدولة العثمانية وأقطارهـا، ومن خلال مواقف العناصر البشرية المختلفة، التي كانت تتكون منها هذه الدولة الواسعة. وكان يريد، كما أشرنا قبلاً، أن تظل الدولة العثمانيـة قائمـة، لأنها ستكـون الترس الـذي يدفـع عن العرب والأتـراك شر الأخطار الأوروبية. وجهاد الأمير في ليبيا، ومشاركته ميدانياً وعملياً، وفي إبداء الرأي، كـان يتحدث عنهـا الليبيون حتى أواسط القرن الحالي؛ فقد سمعنا عنها الكثير، من الليبيين، في زياراتنا المتكررة، لتلك الديار.

وقد عقد، سنة ١٩١٣ م، مؤتمر في الآستانة، بطلب من الدولة، «للكلام في المسألة العربية وفي مطالب السوريين». وكان الأمير شكيب بين من دعي إليه. وفي أثنـاء هذا المؤتمـر، اجتمع جمـاعة من العـرب، في باريس، لعقد ما عرف باسم المؤتمر العربي الأول (١٩١٣ م). وفي استانبول، تكلم الأمير شكيب، قائلاً:

> «إن الذين ذهبوا إلى باريز هم اخواننا... ولكننا خالفناهم في ذهابهم إلى باريس وعقدهم مؤتمراً كهذا في أثناء الحرب البلقانية».

والدولة منهكة تعبة. وأشار بشكل عام، إلى المطالب الإصلاحية. بقوله:

> «إننا التمسنا بعض أمور تتعلق بالأمة العربية كتوسيع صلاحيـة الولايـات وكالاعتنـاء باللغـة العربيـة. ومن جملة ذلك تأسيس جامعة عربية مثل جامعة الآستانة المسماة عند الأتراك بدار الفنون».

وقد انصرف رجال الوفد إلى سوريا صفر اليدين.

وتابع الأمير شكيب:

> «أبقتني الدولة في العـاصمة لانهـا كانت صممت عـلى تأسيس دار الفنـون في المدينـة المنورة. وانتـدبتني أنا والمرحوم الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش [تقرأ شـاويش] للذهاب إلى المدينة وتـدشين البنـاء... وذهبنا إلى المدينة المنورة بعد أن انضم الينا الاستاذ الشيخ عبد القادر المغربي. (وهناك) انتخبنا المكان المناسب لتشييد المدرسة الجامعة واقمنـا حفلة التـدشين والقيت فيهـا الخطب. [وعاد رفيقـاي] وأقمت أنا في المـدينة المنـورة شهرين ونصف الشهر، أسست فيها فرعاً للجمعية الخيرية الاسلامية، التي كنا قد اسسناها في الآستانة».

ودخل الأمير شكيب مجلس المبعوثان، (البرلمان) العثماني، مندوباً، عن حوران. وهناك، خدم القضايا العربية والاسلامية والعثمانية، خدمة الرجل المخلص لمبادئه، العارف بخفايـا السياسـة العالميـة. وجاءت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨ م)، وكان للأمير شكيب فيها أدوار كبيرة؛ من محـاولة لإبقاء تركيـا على الحياد؛ إلى الاتصال بالألمان، اثناء الحرب؛ إلى نصح جمال باشـا، بوجـوب أخذ الحيطـة، في الهجوم على ترعة السويس.

ويتحـدث الامير شكيب، عن أنـور وجمال وطلعت، وغـيرهم من رجـال الحـرب العـالميـة الأولى، من الأتراك، حديث العارف بهم، فرداً فرداً، المدرك لحسناتهم، والمطّلع عـلى زلّاتهم. ونود أن نلفت النظـر، في الختام، إلى أمرين: الأول أننا أردنا الحديث هنا لا عن الأمير شكيب، بل عما كتبه عن نفسه. والثاني هـو أن هذه السيرة الذاتية هي مثال للصراحة والصدق والإنصاف ـ كـان الرجـل صريحاً وصـادقاً ومنصفـاً للناس ومع الناس، ولنفسه ومع نفسه.

٧ موسى الزين شرارة ودفتر الذكريات الجنوبية

يقول أمين عام المجلس الثقافي للبنان الجنوبي:

«في سياق نشاطه الثقافي المكرّس لجنوب الوطن خصص المجلس الثقافي للبنان الجنوبي فصلاً بكامله للشهادات الحية عن الجنوب تاريخاً وثقافة وقضية. وقد حمل هذا الفصل المتميز من برنامج المجلس عنوان «من دفتر الذكريات الجنوبية»، على رجاء أن يكون سجلاً ينبض بالحياة وهو يؤرخ لتلك الحقبة من عمر الجنوب بأصوات شهود أحداثها أنفسهم».

وكان غرض المجلس الثقافي، من ذلك، كشف الغطاء عن جوانب خفية من التاريخ المعاصر، وأن يتولى الكشف أولئك الذين قاموا بالعمل بأنفسهم. وكان اختيار المجلس الثقافي لجماعة من أهل العلم والتاريخ والصحافة. وجئنا نحن نقف عند موسى الزين شرارة، لنتخذ منه نموذجاً للعاملين، في سبيل توضيح هذا التاريخ الثقافي.

يقول موسى الزين شرارة، في مفتتح حديثه:

«اسمحوا لي بأن أعود بكم سبعين عاماً إلى الوراء لأحدثكم عن جبل عامل... وسأحاول في هذه الذكريات أن أعرض عليكم لوحتين من جبل عامل ـ الأولى تتعلق بالحياة الاجتماعية خلال الحرب العالمية الأولى، والثانية حول الحياة الثقافة في نهاية العهد العثماني وبداية الانتداب الفرنسي».

وتعود اللوحة الأولى، التي يرسمها موسى الزين شرارة، إلى مطلع القرن الحالي. يقول:

«ولدت سنة ١٩٠٢ في بلدة بنت جبيل. وفي سنة ١٩٠٨ توفي المرحوم والدي، وهو في ريعان شبابه. وبقيت مع الوالدة، التي كنت أغفو وأستيقظ على نواحها وبكائها، الأمر الذي أرهف حسي وجعلني أحس مع كل مصاب، وأتألم مع كل منكوب، وأهب لمساعدة كل مظلوم، وأحارب الجور والطغيان وكل أنواع الاستبداد ضمن الإمكان».

لكن موسى الزين شرارة يظل، بشهادته نفسه، مرحاً متفائلاً، وينشد، دوماً، قوله:

ولما ان رايت الدهر بَغياً	إلى حربي بلا سبب تطوع
لبست له متين الصبر درعاً	وقلت له الا ما شئت فاصنع

وعندما يتحدث المرء عن ذكرياته، لا يمكنه أن يلمّ بالتفاصيل، التي تكوّن لوحة كاملة، ولكنه يرسم لوحات صغيرة، كل واحدة منها تامة بنفسها. يذكر موسى الزين شرارة، من العهد التركي، أنه في سنة ١٩١٤ م، توفي الشيخ عبد الكريم شرارة؛ وبهذه المناسبة، جاءت وفود كثيرة، إلى بنت جبيل، من شتى القرى والمدن العاملية، وكذلك الفلسطينية المجاورة، للمشاركة بتشييع الجنازة، وتقديم التعزية.

وهنا، تأتي قصة الضابط التركي. يقول موسى الزين:

«وقد حضر بهذه المناسبة أيضاً ضابط تركي مع ثلة من الجنود للمحافظة على الأمن. هذا الضابط كان يدعى «عارف بك». وبعد تشييع الجنازة استدعى جميع مخاتير القرى التي كانت موجودة وأمرهم بفض الرسائل المغلقة التي كانوا تلقوها من الحكومة، وطلبت أن لا تفض إلا بأمر منها. وقد تبين أن مضمونها دعوة «لسَفَربَرْلك» أي التجنيد العام. وأنه يجب على جميع الذكور من سن ١٨ ـ ٤٠ أن يذهبوا للفحص الطبي».

ويتابع موسى الزين كلامه، بقوله:

«وقد لبى الجميع الدعوة وبعد المعاينة الطبية جنّدوا منهم القدامى أي المدربين، ويسمونهم الاشكيَّة، وساقوهم فوراً، وسمحوا للباقين بالعودة إلى قراهم وان يكونوا تحت الطلب».

يذكر محدثنا سوق الخميس، في بلدته، بنت جبيل. كانت تعرض فيها جميع السلع والغلال واللحوم والفاكهة والأقمشة والألبسة وغيرها، ويجتمع فيها حشد كبير من القرى المجاورة من الجليل لابتياع ما يلزمهم. يحدثنا موسى الزين عن أمر وقع سنة ١٩١٦ م. لكن قبل نقل حديثه، لا بد من الإشارة إلى أن هذه السوق كانت قديماً، واستمرت بعد الحرب العالمية الأولى. وقد شهدتها أنا، سنة ١٩٢٥ م.

يقول المحدث:

«كانت الساعة التاسعة صباحاً وإذ بي أسمع صوتاً متهدجاً يصيح الله أكبر، سبحان من تعزز بالقدرة والبقاء. وإذا بي أرى رجلاً مكبّلاً بالحديد وعلى رأسه عمامة خضراء، وقد أحيط بالجنود. لحقت به مع من لحق فإذا على البيدر سيبه (سلّم) معدّة هناك. وتقدم منه الجلاد والبسه رداء أبيض مكتوب عليه الأسباب التي استحق بموجبها الاعدام وهي فراره من الجندية».

ولكن الغرابة في الطريقة، التي كانت توقع أو تقرر عقوبة الإعدام. لم يكن هناك محاكمة، ولا استنطاق، ولا شهود. يقول موسى:

«كان ذلك يقرر بالقرعة. وهي وضع تسعين ورقة بيضاء وعشرا سوداء في كيس. وكل من يسحب ورقة سوداء يعدم بدون محاكمة!».

ويروي محدثنا بقية القصة، فيقول:

«تقدم الجلاد وأزاح الكرسي من تحت قدمي «السيد»، فانقطع الحبل، ووقع المسكين على الأرض والدماء تسيل من وجهه، وصرخت الجماهير الله أكبر وطلبت له العفو. لكن العتاة احضروا حبلاً ثانياً وشمعوه، واعادوا الكرة فانقطع الحبل ثانية... واخيراً أحضروا حبلة ثالثة متينة وعلقوه بها حتى قضى رحمه الله!».

ويحدثنا موسى الزين عن المصائب الكثيرة، التي عمت البلاد، أيام الحرب العالمية الأولى، مثل الكوليرا، التي أهلكت الآلاف، والجوع، الذي مات الناس بسببه على قارعة الطريق، وجحافل الجراد، التي قضت على الأخضر واليابس. وقد شهد كاتب هذه السطور الكوليرا، التي قضت على ثلاثة من أفراد أسرته، والجراد، الذي كان فعلاً يحجب نور الشمس.

وبسبب اضطراب الادارة في البلاد، أيام الحرب، كان كثيرون، ممن يفرون من الجندية، يقعون في أيدي سماسرة المخافر وزبانيتها، الذين كانوا يلقون القبض عليهم، ويشغلونهم سخرة في مصالحهم، أو يفرضون عليهم ضريبة شهرية. وإذا أبى هؤلاء أو عجزوا، أطلق الجندرمة عليهم النار، بحجة أنهم كانوا يحاولون الهرب. هذه صورة أخرى يرسمها موسى الزين.

يقول موسى الزين، لسامعيه، في تلك الأمسية، سنة ١٩٨١ م:

«انتم اليوم خريجو جامعات وحملة شهادات واختصاصات شتى، تتحدثون بأكثر من لغة وتتعلمون على يد أكثر من أستاذ، وتدخلون عصر التعليم بالصورة والصوت. ولكن دعوني اذكركم أنه قبل سبعين عاماً لم يكن العلم يعني شيئاً آخر غير «فك الحرف». والمتعلم لم يكن سوى ذلك القادر على قراءة الرسالة، والأديب هو القادر على تحريرها، والعلم الديني كان محصوراً بعائلات معينة».

ولا يهتم موسى الزين بالتحدث عن المدارس عامة، ولا عن المناهج وما إلى ذلك. انه يحدث مستمعيه عن طريقة تعلمه هو. فيقول:

«وضعتني والدتي عند الشيخ «المحلّي» سنة ١٩٠٨، وكنت في السادسة من عمري. فقرأت عليه الأحرف الهجائية وبعدها القرآن الكريم. وبعدها جاءت الكتابة على اللوح. واللوح هذا من تنك حيث كان السمكري يجعل من تنكة الكاز أربع ألواح يبتاعها منه الطلبة ويكتبون عليها بقلم غزار اي مقطوع من البوص. أما المداد فكان من حجر كلسي كنا نذيبه في الماء كالكلس ونكتب به».

وكان الأستاذ يكتب لنا سطراً بأعلى اللوح يسميه «القاعدة» ونحن نكتب مثلها. فبعد أن نملأ اللوح نحمله

للأستاذ الذي يعاينه. فإذا كان الخط جيداً والنقل صحيحاً يقول «عفارم» (أي عافاك بالتركية)، وإلا فعلى كل غلطة ضربة قضيب على يده الصغيرة. أما القاعدة التي ننسخ على شاكلتها، فكانت غالباً بيت شعر أذكر منها:

تعلّم يا فتى فالجهل عار ولا يرضى به إلا الحمار

ومنها أيضاً:

تعلّم العلم وكن اميرا ولا تكن جاهلاً ترعى الحميرا».

وكأن موسى الزين شرارة، قد أنهى المرحلة الأولى من التعليم، عند الشيخ المحلّي، لا، لأن المنهاج أو البرنامج، قد انتهى، مرحلة، ولكن، لأن هذا المعلم قد انتهى ما عنده. وإذا ظل التلميذ هناك، فإنه لن يحصل إلا على اعادة لهذه المادة. وهي مادة أصلها محدود، فكيف بإعادتها!

فانتقل، بعدها، صاحبنا إلى مدرسة أخرى. يقول في ذلك:

«بعدها انتقلت لمدرسة شيخ ايراني لأتعلم الخط الذي يسمونه ديواني، وأكتبه بالخط الصغير وبالحبر. لكن القلم كان لا يزال غزاراً، لأن الريشة لم تكن موجودة. وهذا الشيخ - سامحه الله - كان قاسياً جداً يضرب التلميذ بدون شفقة. وغالباً ما كان يعمل بتوصية أولياء التلامذة الذين يقولون له عندما يسلمونه الطفل - «يا شيخنا إلّك اللحم وإلّنا العظم»، فإذا «تشيطن» أو أخطأ أو أهمل واجباته كان يلقى العقاب الشديد. بل كانت عنده خزانة في البيت كالزنزانة يسميها «حبس الفار» يسجن بها الطفل بعد الفلقة وشمط الأذن».

ومن المهم أن نعرف الكتب، التي كان التلاميذ يقرأونها، بعد أن تعلموا القرآن الكريم، وصاروا يجيدون القراءة، نوعاً ما. يعدّد موسى الزين هذه الكتب، وهي قصص بني هلال والزناتي خليفة وعنترة والزير وسالم المهلهل. ويقول:

«ولما تقدمنا بعض الشيء صرنا نطالع نهج البلاغة والكشكول والف ليلة وليلة ومجموعة اشعار تسمى بدائع الزهور وما يقع بأيدينا. وهذه الكتب كانت غالباً عند «المشايخ» لانه لم يكن هناك مكتبات أو صحف أو مجلات».

ويستثني موسى الزين مجلة العرفان، ويقول انها كانت تسمى الكزيطة.

«وكان الرجال والنساء اذا سمعوا أي خبر يقولون قالت العرفان، مع أن العرفان ليست جريدة اخبارية. ولكنهم كانوا يعتبرون جميع العالم العرفان لأنها كانت النافذة الوحيدة على التراث والعلم الحديث».

ويؤكد على الدور، الذي قامت به العرفان، بالنسبة لجيله بقوله:

«وإذا كان جيلنا قد أتيح له أن يطلع على ما يحدث خارج جبل عامل، فالفضل يعود لمجلة العرفان، فهي التي أخذت بيد أوائل مثقفي جبل عامل وشجعتهم على الكتابة وحببت اليهم الثقافة».

ويضيف صاحب الحديث قوله:

«يضاف إلى ذلك أنها كانت مدرسة وطنية واصلاحية. فمؤسسها المرحوم الشيخ أحمد عارف الزين رحمه الله، كما عرف الجميع، كان وطنياً صادقاً جريئاً صريحاً. وكان انتسابه لرجال الدين ولعائلة عاملية نافذة يعطيه القدرة على نشر أفكار لم يكن غيره بقادر على نشرها».

ثم جاء دور المدرسة التركية، التي يسميها موسى الزين شرارة المدرسة الأجنبية: وهي التي يقول عنها إن الأتراك تكرموا بفتحها سنة ١٩١٣ م، والتي كان التعليم فيها بالدرجة الأولى باللغة التركية. ويؤكد محدثنا على أن الأتراك كانوا يريدون فرض اللغة التركية على البلاد العربية. ويقول في وصف هذه المدرسة:

«لأن هذه المدرسة كانت تمنع تلامذتها التكلم بغير اللغة التركية. وكانت تعلمنا التاريخ التركي والحضارة التركية وعظمة البادشاه أي السلطان والتدريب العسكري والنشيد التركي والأغنيات. ولم يكن سوى هذه

المدرسة بكل منطقة بنت جبيل، والذي أذكر أن عدد الطلاب فيها لم يتجاوز المئة طالب. أما عدد الأساتذة فهو واحد أحد لا شريك له».

وكان المعلم عازباً. ويضيف صاحب الحديث:

«وفي ذلك الوقت لم يكن يوجد مطعم في البلدة، فكان المعلم يفرض كل يوم على عدد معين من التلامذة تأمين طعامه اليومي. وبالطبع لم يكن هذا الطعام من نوع واحد. فكان عنده طنجرة صغيرة يضع فيها كل ما يأتيه من طبيخ ويضعه على النار ويأكله بعد أن يخلطه. وعندما ذهب الأتراك ذهبت المدرسة معهم وخرجنا بدون شهادة رسمية، وأخذنا الشهادة التي كان يعطيها للتلاميذ الكبار الذين يجيدون قراءة المكتوب. فكانوا يمتحنون الولد بالقراءة والكتابة، فإذا أجادهما قبلوه وقالوا اذهب مبارك، ختمتَ وجمعتَ الحرف!».

بعد هذا، بدأ موسى الزين شرارة يثقف نفسه، شأنه، في ذلك، شأن معاصريه ومواطنيه. كان يقصد مجالس رجال الدين، حيث كان هؤلاء يتندرون بالشعر، ويحفظونه، ويروونه، ويعنون بالأخبار، ويمتحن بعضهم البعض الآخر، في قواعد اللغة، ويترسلون بالأشعار. يقول:

«وقد جذبتني هذه المجالس إليها خصوصاً مجلس المرحوم الشيخ علي شرارة العالم والأديب والشاعر الذي كان يرعى نشاتي الأدبية، وألقى لديه كل تشجيع».

وكان نظم الشعر هو أول ما يعنى به المتأدبون، ونشر قصيدة لشاب، كان مفتاح حياته الأدبية. وهذا ما أصاب صاحبنا موسى. فقد انصرف، بعض الوقت، إلى العتابا والدلعونا والزجل. ثم جاءت سنة ١٩٢٨ م، وكانت سنه السادسة والعشرين، فنشرت له مجلة العرفان قصيدة عنوانها «العلم».

كان مطلع القصيدة:

العلمُ نورٌ يُهتدى بسنائه	لولاه تاه الكون في ظلمائه

وقد وصف فيها حال الجهالة، في الجنوب، كما رآها، فقال:

عجبا أراه وقد تلألا نوره	وهدى الانامَ الى الهدى بضيائه
واهاب فيهم داعيا فتجندوا	ومشوا لحرب الجهل تحت لوائه
إلا بنو وطني إذا أغشاهُم	في نوره وثبوا الى اطفائه
قد أوصدوا باب العلوم بوجهه	ليظل يخبط في ظلام غبائه
ارايت أسوا حالة من موطن	كبراؤه والدهر من اعدائه
والعلم فيه مُكافحٌ ومطارَدٌ	كالفقر او كالداء من زعمائه

وقد أصبح موسى الزين شرارة واحداً من كبار الشعراء، لا في الجنوب فحسب، بل في لبنان. ونقدم، فيما يلي، مقطوعة قصيرة، من شعره. قال:

ليس في قولك معنى	إن مضى من غير ضجة
إن صوت الحق يبقى	في فم الاجيال حجة
ورخيص القول يبقى	مثل ماء فوق ثلجة
كن على الظالم ذئبا	ومع المظلوم نعجة
واجعل الصدق سفينا	إن رايت الكذب لجّة

ولموسى الزين شرارة شعر سياسي وطني. وأي شاعر، في دنيا العرب، ظهر في العقود الأخيرة، وبرز دون أن يكون له شعر سياسي وطني؟ أليس الشاعر هو المعبّر عن ضمير المجتمع وهو صوته؟ فإذا كان كذلك، فلا بد من أن يكون شعره سياسياً وطنياً. ولكن لا مجال، هنا، لنماذج من هذا الشعر، ومن الأنسب، أن يُرجع إليها في مكانها.

وفي «دفتر الذكريات الجنوبية»، الذي جمع أحاديث حميمة، لستة من أصحاب القلم، في الجنوب ـ

السيد حسن الأمين والشيخ علي الزين والسيد علي ابرهيم والشاعر موسى الزين شرارة والصحافي الفرد أبو سمره والصحافي سليمان أبو زيد ـ في هذا الدفتر، ثروة كبيرة من الالتفاتات الشخصية، والصراحة النادرة، والأدب الرفيع، والعلم الغزير. أورد، في هذا الدفتر، كل ما أراد إيراده، حراً غير مقيد. فهذا الدفتر ثروة، بكل ما في الكلمة من معنى.

إنها قصة العصامية، من أولها إلى آخرها. معلم، موزع بريد في منطقة دير القمر، ثم في صور، فمعلم ثانية، فصحافي، ثم يخرج من أسرته أربعة يعملون في الصحافة. بورك للجنوب في أبنائه وبورك لهم فيه.

٨ محمد رشيد رضا في رحلاته

ولد السيد رشيد رضا في القلمون، سنة ١٨٦٥ م. والقلمون بلدة تبعد ساعة ونصف الساعة عن طرابلس، مشياً على الأقدام. وبعد أن تلقّى العلم على شيوخ بلده وعلماء طرابلس، وعمل بالتعليم والإرشاد في تلك المنطقة، رحل إلى مصر، وكان في الثالثة والثلاثين من عمره، أي في سنة ١٣١٥ للهجرة الموافقة سنة ١٨٩٥ م.

وقد كتب السيد رشيد رضا، عن رحيله إلى مصر، ما يلي:

«هاجر... إلى الديار المصريةُ لأجل القيام بعمل إصلاحي للإسلام والشرق، لا مجال لـه في بلد إسـلامي عربي غير مصر، والاستعانة عليه بصحبة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والاقتباس من علمه وحكمته، والوقوف على نتائج اختباره وسياحته».

صاغ الكاتب، عن نفسه، هذه العبارة مع ضمير الغائب، وأضاف إلى ذلك، قوله:

«وانشاتُ المنار في اواخر تلك السنـة، ولم اكن انوي أن أشتغل بالسياسة بل بالإصـلاح الفكري والنفسي والاجتماعي».

ولكن رشيد رضا، اشتغل بالسياسة، وكثيراً أيضاً.

و «المنار»، المجلة التي أنشأها السيد رشيد رضا، أصبحت تحمل:

«هموم العالم العربي والإسلامي في القضايا المصيرية كالتساؤل حول سر تقدم الغرب وتأخر الشرق وكالثورة على الاحتلال الأجنبي وكايجاد أجوبة من متطلبات الحياة العصرية».

على ما يقول الدكتور يوسف إيبش. وقد صادرت حكومة سوريا العدد الثاني من «المنار» بعد توزيعه، ثم صدرت إرادة السلطان عبد الحميد بمنع «المنار» من دخول المملكة العثمانية، في الشهر السادس من عمر المجلة. وبذلك، حرم صاحب «المنار» من زيارة وطنه، إلى أن أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ م، فجاء بلاد الشام لأول مرة.

زار السيد رشيد رضا بلاد الشام مرتين. الأولى بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ م، وقضى نحو ستة شهور، زار، خلالها، بلدته القلمون، ومدينته طرابلس، وبيروت ودمشق وحمص. وزار بلاد الشام، ثانية، بعد الحرب العالمية الأولى. فقد انتقل من القاهرة إلى دمشق، بالقطار عبر فلسطين، مستعملاً الخط الحديدي الجديد، بين قناة السويس وحيفا، والسكة الحديدية الحجازية، من حيفا إلى دمشق؛ وكان ذلك، في أيلول ١٩١٩ م. ومع أن الكاتب تنقّل في أنحاء البلاد، فقد أقام في دمشق مدة أطول من غيرها، اذ اشترك في المؤتمر السوري العام، الذي عقد في دمشق، سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ م، والذي قرر استقلال سوريا، ونادى بفيصل ملكاً عليها، في آذار/ مارس سنة ١٩٢٠ م. وقد انتخب السيد رشيد رضا رئيساً للمؤتمر.

ولم تكن زيارة بلاد الشام الرحلات الوحيدة، التي قام بها صاحب «المنار». ذلك أنه، زار الهند وعاصمة الدولة العثمانية وأوروبا والأقطار العربية المختلفة. وكان رشيد رضا يدوّن أخبار رحلاته في «المنار». ومن هنا، عرفنا تفاصيلها. ومع رغبتنا في التحدث عن هذه الرحلات بأجمعها، فإنه لا يسعنا، هنا، إلا الاكتفاء، حتى بالقليل، مما ذكره عن بلاد الشام.

ومن حق الرجل علينا، أن نشير إلى بعض ما قاله عن القلمون وطرابلس أولاً. ففي زيارته الأولى لطرابلس (١٩٠٨ م)، قال عنها:

«رأيت داخل طرابلس على ما تركتها عليه منذ احدى عشرة سنة كأنه لم يتبدّل ولم يتحوّل فيها شيء، حتى خيّل لي أن ما رأيته من الدكاكين ومخازن التجار هو ما تركته فيها بعينه».

ويشير إلى التجدّد والاتساع، في ضواحي المدينة.

أما في زيارته الثانية (١٩١٩ ـ ١٩٢٠ م)، فقد امتلأ قلبه حزناً على طرابلس والقلمون. فقد خلت طرابلس من الحلقات العلمية، ومن المحافل والسمّار، من أهل الهيبة والوقار من العلماء والوجهاء. ويقول:

«أصيبت طرابلس بالعقم من العلماء والفضلاء... واما القلمون فلم يبقَ فيها أولو بقية يستفيد الناس منهم الا عمّي، فهو يقرأ درساً في مسجدنا في بعض الأحيان لمن عساه يوجد فيه...».

ومع كل هذا، فقد ذكر أنه في طرابلس، فضلاً عن فرع جمعية الاتحاد والترقي، وهو يشير إلى سنة ١٩٠٨ م، ثلاث جمعيات. الأولى جمعية الجامعة العثمانية، والثانية الجمعية العلمية، وهذه لها مدرسة كبيرة، تدرّس فيها العربية والدروس الدينية، لتهيئة المدرسين والقضاة الشرعيين والمحامين. أما الجمعية الثالثة، فقد أسمت نفسها الجمعية الخيرية، ويبدو أنها لم ترُق للسيد رشيد رضا، بدليل أنه سعى، مع مفتي طرابلس، يومها، العلامة رشيد كرامي، وحاكم المدينة، لإنشاء جمعية خيرية إسلامية، في المدينة. وقد عقد اجتماع لذلك، في شهر شوال سنة ١٣٢٦ هـ/ ١٩٠٨ م، في طرابلس، جُمعت فيه الدفعة الأولى من التبرعات لهذه الجمعية، وكانت ٣٣٦ ليرة عثمانية، مع وعود من الموجودين، بدفعات أخرى، وبجمع مبالغ، ممن لم يحضروا.

وقد تحدث السيد رشيد رضا، عن بيروت، كثيراً. ففي زيارته الأولى (١٩٠٨ م)، قال:

«رأيت مسلمي بيروت مستعدين لقبول كل اصلاح ديني ومدني... وأذكياء النابتة الذين يودّون الإصلاح لم يتربوا تربية أوروبية تبعدهم من الدين وتشوّه مدنية سلفهم في أعينهم، وتزيّن لهم الافتتان بكل جديد، كما فُتِن كثير من المتفرنجين في الآستانة ومصر وتونس. كما أنهم لم يتوسعوا في علم الكلام والفقه فيجعلوهما مع فنون العربية كل المطلوب للارتقاء، ولم يحرموا منهما».

ويعود فيؤكد ذلك، بقوله:

«ونتيجة هذا، أن قلة اشتغال مسلمي بيروت بالكتب الاسلامية المتداولة وعدم افتتانهم بالتفرنج، قد جعل نفوسهم مستعدة للاصلاح الذي لا يُرتقى بدونه وهو الجمع بين هداية الكتاب والسنة وبين العلوم والمعارف العصرية بغير معارضة قوية».

جاءت زيارة السيد رشيد رضا الثانية، لبيروت، في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وكانت المدينة بالذات وبقية لبنان، قد أصابها الأمرّان، من ويلات الحرب، خاصة المجاعة الكبرى، وقد سمع من أهوال الحرب الكثير. لكن لفتته أمور أخرى في بيروت، منها أن النساء كنّ أشد محافظة على التقاليد القومية، من أمثالهن في مدن أخرى. وقد أُنشئت في المدينة مدارس إسلامية، تُعنى بتربية البنات. وكانت جمعية المقاصد، هي أولى المؤسسات عناية بمثل هذا النوع من المدارس.

وكان هناك، فضلاً عن المدارس، نادٍ أنشىء سنة ١٩١٧ م، تقوم عليه:

«جمعية من كرائم المتعلمات، قمن بتأسيس مدرسة لتعليم البنات. وكان النادي يعقد اجتماعات نسائية تلقى فيها المحاضرات وتجري فيها الأحاديث حول المسائل الادبية والاجتماعية والاقتصادية والصحية وتدبير المنزل والتربية».

وقد ألقى السيد رشيد محاضرة في النادي، ورحّبت به رئيسته. وكان ذلك في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٣٨ هـ (٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٩ م).

وكان، مما عني به الكاتب، في زيارته هذه لبيروت، العمل على إنشاء كلية إسلامية، للدروس العالية، وحث جمهور البيروتيين على مجاراة المدارس الأجنبية، مثل المدرسة الإنجيلية الأميركية والكلية اليسوعية

(وهما الآن الجامعة الأميركية وجامعة القديس يوسف). وقد ألقى، بهذه المناسبة، خطاباً جامعاً، في فضائل العلم.

لكن دعوته الأهم، في هذه الناحية، جاءت في صرخته، إذ قال:

«هلموا ننشىء مدرسة وطنية جامعة ونجعل في جانب منها مسجداً وفي جانب آخر كنيسة. فإن التربية لا تكمل بغير فضيلة، والفضيلة لا تكمل بغير دين!».

واهتم رشيد رضا بالأحوال السياسية في بلاد الشام، ساحلاً وداخلاً. وقد قابل المندوب السامي الفرنسي جورج بيكو، في ١٧ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩١٩ م، وبحث معه في الأوضاع التي كانت قائمة في المنطقة. كما اجتمع في ٥ آذار/ مارس ١٩٢٠ م مع سكرتير الجنرال غورو. وقد كانت النصيحة، التي وجهها للفرنسيس، هي ضرورة تغيير سياستهم في سوريا.

ويمكن القول، ان السيد رشيد رضا كان خصماً للاتحاديين، وكان لا يني يُظهر ما قاموا به، بعد الانقلاب في بلاد الشام وغيرها. لكنه كان، والدولة العثمانية لا زالت قائمة، حريصاً على التفاف العرب والأتراك حول تلك الدولة، خشية أن تقع البلاد العربية تحت نير الاستعمار الغربي. لقد كان، شأنه في ذلك شأن عدد من الحريصين على إصلاح البلاد، حريصاً على الدولة، كي يتم الإصلاح في ظلها.

ولا يمكن التحدث عن السيد رشيد رضا وزيارته الثانية لبلاد الشام، دون التحدث عن المؤتمر السوري العام. وأعضاء هذا المؤتمر، انتخبوا على أساس قانون الانتخاب الذي تم بموجبه انتخاب أعضاء المبعوثان، أي البرلمان العثماني. وتمت الانتخابات، في صيف ١٩١٩ م، واجتمع المؤتمر، أول ما اجتمع، ممثلاً لجميع الأقطار الشامية، لمناسبة زيارة لجنة كنغ - كراين للبلاد، للاطلاع على رغبات أهل البلاد. ولما بدا أن تقرير اللجنة المذكورة، لن يعنى به، لأن حكومتي بريطانيا وفرنسا لم تقبلا باللجنة أصلاً، أصبح من الضروري أن يوكل الأمر للمؤتمر السوري العام، الذي أعلن، في آذار/ مارس، سوريا، بجميع أجزائها، بلداً مستقلاً، ونادى، في اليوم التالي، بفيصل ملكاً عليها. لقد أوضح السيد رشيد، في المؤتمر، عمله بقوله:

«ولما صرتُ رئيساً للمؤتمر وجب علي أن اساوي بين الحزبين - حزب التقدم وحزب الاعتدال - في كل شيء يتعلق به، وفي احترام أفرادهما حتى في خارجه، واعطاء كل ذي حق حقه، وايتاء كل ذي فضل فضله. بل تركت رئاسة حزب التقدم... وقد اتهمني بعض من صاحبت وواددت من أعضاء المؤتمر وغيرهم بالمحاباة في تنفيذ وظيفة الرئاسة فيهم. وكانت هذه التهمة باطلة. فوايم الحق انني كنت دائماً محافظاً على تحري الحق والعدل».

وانتهى أمر المؤتمر والحكومة الفيصلية في تموز/ يوليو ١٩٢٠ م، لما دخلت الجيوش الفرنسية دمشق، وقضت على الحكومة العربية.

كانت عصبة الأمم على وشك أن تعقد جلساتها في جنيف، لذلك، قرر حزب الاتحاد السوري، الذي كانت لجنته المركزية في مصر، أن يدعو إلى مؤتمر سوري، في جنيف، لعرض القضية على عصبة الأمم. ووُجّهت الدعوة، باسم لجنة حزب الاتحاد السوري المركزية، فوقعه من قبل الرئيس (الأمير) ميشيل لطف الله، ونائب الرئيس (السيد) رشيد رضا. واتُّعد العاشر من حزيران/ يونيو ١٩٢٢ موعداً للاجتماع. وجاء، في الدعوة:

«فلجنة حزب الاتحاد السوري تدعوكم وتدعو سائر الجمعيات السورية للاشتراك في هذا المؤتمر، وترجو منكم اشعارها بأسماء مندوبيكم وبميعاد سفرهم وبما ترغبون الاشتراك فيه من نفقات المؤتمر العامة».

وقد تأخر موعد انعقاد الجمعية العامة لعصبة الأمم الى شهر آب/ أغسطس، لذلك سافر السيد رشيد رضا، في الثاني عشر، من ذلك الشهر. وقد ترك في بيته

«الأسرة تستقبل عيد الأضحى في حزن ونفاس وتمريض... فشق عليّ وعلى الأهل والعيال ولكن سفري لم يكن منه بد باتفاق الاخوان أعضاء الحزب وغيرهم... وقد وجدت أن مصلحة خدمة الوطن ينبغي ترجيحها على الأهل والولد. فعزمت وتوكلت».

ويصف الكاتب سفرته البحرية، من الاسكندرية الى تريستـه، ومن هذه بالقطار الى لوزان، حيث قضت الجماعة الصغيرة ـ ثلاثة فقط ـ ليلة، قبل السفر إلى جنيف. والواقع، أن الكاتب، تجلّت مقدرته على الوصف، هنا، كما تجلّت في سفر البحر. فمن قوله:

«كان الجو في ذلك اليوم الذي قطعنا به أرض ايطاليا يوم صيف معتدل، وان كانت أرضها أرض ربيع مدبر أو مقبل. ولولا غمام رقيق كان يكفكف بعض أشعة الشمس، لعُدّ هنالك من أيام الحر. وقد تغير علينا الجو في سويسرة بعد نصف الليل، فهب الهواء البليل، ولما أصبحنا رأينا السحاب يتكاثف في الافق، ثم طفق يجود برذاذ لطيف، ثم تكاثف السحاب قبل الظهر، واشتد المطر بعد العصر».

وفي جنيف، بدأت الاتصالات. فزار الوفد رئيس لجنة الوصايات لعصبة الأمم. ثم دارت المفاوضات بين الوفود، وانتهى الأمر بأن عقد المؤتمر باسم المؤتمر السوري الفلسطيني. وكان ممن عمل في سبيل التوفيق، الامير شكيب ارسلان، الذي كان هناك. وعقدت الجلسة الرسمية الأولى في ٢٧ آب/ أغسطس (١٩٢٢ م)، فانتخب الأمير ميشيل لطف الله رئيساً، والسيد رشيد رضا والحاج توفيق حماد (من نابلس) نائبين للرئيس، والأمير شكيب ارسلان الكاتب العام (أي السكرتير).

وقد تقدم المؤتمر بعريضة طويلة، تناول فيها تاريخ المواقف السياسية، التي مرت بها البلاد الشامية، منذ ١٩٠٨ م، مع إشارة إلى ما قبل ذلك، ثم فصل أعمال فرنسا وبريطانيا في البلاد، والمعاهدات والوعود. وانتهى المؤتمر إلى طلب الأمور التالية من عصبة الأمم:

الاعتراف بالاستقلال والسلطان القومي لسوريا ولبنان وفلسطين، والاعتراف بحق هذه البلاد، في أن تتحد معاً، بحكومة مدنية، مسؤولة أمام مجلس نيابي، ينتخبه الشعب؛ وإعلان إلغاء الانتداب حالاً؛ وجلاء الجنود الفرنسية والانكليزية عن سوريا ولبنان وفلسطين؛ وإلغاء تصريح بلفور، المتعلق بوطن قومي لليهود في فلسطين. وقد وقع هذه العريضة الرئيس، ونائباه، والسكرتير العام، وأحد عشر شخصاً آخرون حضروا المؤتمر، وهم من سوريا ولبنان وفلسطين.

وقبل أن يعود المؤتمرون إلى بلادهم، وزعوا أنفسهم على أعضاء عصبة الأمم ولجانها، وبسطوا لهم أموراً كثيرة. ومن الأشخاص، الذين تم الاتصال بهم، اللورد سيسيل، والمندوب البريطاني فيشر ومندوب الصين، ورئيس العصبة.

يقول السيد رشيد رضا:

«كان مما أقصد إليه في رحلتي هذه ـ إلى أوروبة ـ أن التقي ببعض أحرار أوروبة المستقلي الرأي، فأستفيد من آرائهم وأفيدهم ما أحب أن يعرفوه عن بلاد الشرق عامة وبلادنا العربية خاصة، وان اقترح عليهم السعي لإصلاح ذات البين بين الشرق والغرب بالعدل والانصاف ومبادلة المنافع وعدول الدول المستعمرة عن مطامعها... لقيت أفراداً من هؤلاء الأحرار في جنيف وغيرها، وتحدثت معهم في هذا المقصد».

وكتب السيد رشيد رضا مقالاً، نشره في المنار (ج ٢٣ سنة ١٩٢٢ م)، وكان يجب أن يترجم إلى لغة أجنبية لينشر في الغرب. وهذا المقال أشبه بنداء شرقي الى أحرار الغرب. وبعد مقدمة، يدعو فيها هؤلاء الأحرار الى تفهم مشكلات الشرق وأوضاعه، يريد منهم أن ينصفوه، وبذلك، ينصفون أنفسهم وبلادهم. والأمور التي لخصها الكاتب، في آخر المقال، وكأنها شرْعة حقوق وفهم للمصالح، يمكن أن نذكر منها، هنا، خلاصات لها:

«أن زعماء شعوب الشرق... قد اجمعوا على أن يكونوا أحراراً في بلادهم، مستقلين بأمر حكوماتهم».

وهؤلاء الزعماء يرون:

«ان التعاون الانساني بين الشرق والغرب يجب أن ينحصر في استعانة الشرقيين بأهل الفنون الغربية على عمران بلادهم».

وأول ما يجب أن يعمله أحرار الغرب، في سبيل مساعدة زعماء الشرق، على الإصلاح، هو:

«ان يقنعوا دولتي انكلترة وفرنسة بتعديل معاهدات الصلح المتعلقة بالشرق ـ على أساس الحق والعدل».
«وان تكف الحكومة البريطانية عن الدسائس التي تبثها في اليمن وسائر جزيرة العرب لايقاع الشقاق والفتن بين حكامها».

وينهي عريضته، بقوله:

«إذا أعرض احرار أوروبة عن هذه الدعوة، أو عجزوا عن اصلاح ذات البين بين الشرق والغرب، ورأى زعماء الشعوب الشرقية أن عصبة الامم رضيت لنفسها بأن تكون شرَّ آلة وجدت في الأرض، لهدم قواعد الحق والعدل، بكفالتها للقوي بالمال والسلاح ـ فستكون عاقبة ذلك خراب أوروبة بحرب أخرى».

هذا ما قاله السيد رشيد رضا سنة ١٩٢٢ م، وكان، ولا شك، يعبر عن رأي كل شرقي محب للعدل والانصاف والاصلاح. وهكذا، كان السيد رشيد رضا رسول علم ومعرفة، ودفاع عن الحق، والتوفيق بين الجهات المتباينة. وقد مكنه من ذلك، علم غزير واطلاع واسع على السياسة العالمية واتصالات لا مثيل لها مع زعماء الشرق قاطبة، عبر مجلة المنار، وعن طريق الرحلات.



٩ كمال جنبلاط

كمال جنبلاط:

«رجل يدهشك منه تعدّد نزعاته واتجـاهاتـه ونشاطـاته. فهـو في صميم السياسـة اللبنانيـة والعربيـة... وهو مؤسس الحزب التقدمي الاشتـراكي، وهو فـوق ذلك الـرجل المتصـوف الذي يتعشق الحكمـة ويستقيها من مصادرها».

هذه كلمات مما كتبه ميخائيل نعيمة، عن الرجل الذي ننوي التحدث عنه الآن. وهي كلمات لا تعـدو أن تكون مدخلاً إلى ما يمكن أن يكتب عن رجل، يعتبره الكثيرون في مقدمة أهل الفكـر العربي، في القـرن العشرين. والمقدمة هنا تعني الطليعة.

ولعله من المفيد أن ندل على محطات رئيسية، في حياة كمال جنبلاط، قبل أن ننتقـل إلى آثارهِ، فننقـل منها ما يفيد القراء، ولو أنه لن يعطي الصورة الوافية عن الرجـل. فحديث من هـذا النوع، هـو مقدمـة متواضعة لتفكير رجل سياسي، هو مفكّر وفيلسوف وأديب وشاعر؛ وكتب باللغة العربية، كما كتب بغيرها.

ولد كمال جنبلاط في المختارة، في ٦ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩١٧ م، وقـد قضى السنوات العشر الأولى من حياته فيها، حيث حفّ به، من أهل العلم والمعرفة، عدد كبـير، أفاد منهم مـا مكّنه منـه ذكاؤه. وفي سنة ١٩٢٧ م، وقد بلغ العاشرة من سنّه، أُدخل مـدرسة عينطـورة، حيث قضى عشراً أخـرى، يتابـع دراسته المنتظمة، بحيث انتهى إلى آخر السلّم الثانوي في التعليم.

وكانت باريس محطته العلمية التالية؛ فالتحق بالسوربون سنتين، درس خلالهما العلوم الاجتمـاعية. والتحق بكلية الحقوق في جامعة القديس يوسف، المشهـورة عند أكثر الناس باسم اليسوعية، ونال إجـازة الحقوق. وعمل في المحاماة متدرجاً، وانتخب سنة ١٩٤٣ م نائباً عن جبل لبنان.

ولا يدورَنَّ بخلد احـد، أن كمال جنبـلاط كان يكتفي بقـراءة ما تقـره المدرسـة من كتب، تؤدي إلى الامتحان، أو ما تتطلبـه الشهـادة المتعلقـة بالعلـوم الاجتماعيـة، أو ما تكلفـه دراسة القـانون. إن كمـال جنبلاط، كان يعنى بالقراءة الدقيقة العميقة، في السياسة والفلسفة والتصـوف والفيدا الهـندية واليـوغا، ومما يدور حول هذه كلها. ومن هنا، كانت له هذه الثروة الفكرية المتميّزة.

بدأ كمال جنبلاط اهتمامه بالسياسة، المحلية والاقليمية والعالمية، مبكراً؛ وفي سنة ١٩٤٠ م، كـان قد اقتعد منها مكاناً حرياً بمثله. وفي سنة ١٩٤٣ م، وَجّه، من البرلمان، نداءه إلى الأمـة. وحري بـالذكـر أنه نظم أولى قصائده «أفيقي» سنة ١٩٤٥ م. فهو قد امتلأت يداه بالعمل والحصاد والقطـاف في وقت مبكر، وفي آن واحد.

ولعلّ من نافل القول، التأكيد على أن لبنان، كان يحتل المكـانة الأولى، في تفكـير كمال جنبـلاط. وهذا بعض ما قاله فيه:

«على هذا الشاطىء الذهبي الجميل، الذي شاهد منـذ ألوف السنـين نشوء أول دولـة مدنيـة، ونمو وانتشـار الفكرة القومية الأولى، وقيام أول امبراطورية بحرية، وظهور أول شكل نظام تمثيـلي ديمقراطي تحقق في نظـام الملكية الانتخابية والسافطين ومجلس المئة والاربعة أعضاء في قرطاجة... على مقربة من هذا البحر الذي كان لبنانياً حقبة طويلة من الزمن... وعـلى مرأى ومسمـع الأمواج التي رأت شعـوب الدنيـا تقوم وتنـزح وتقطع الصحـارى فتتلاقى وتتهـاضم وتتصهر... في هـذا الوطن ذي الحضـارة الانسانيـة المتفتح لجميـع التيارات الفكرية العالمية».

ويستمر الكاتب قائلاً:

«في هذا البلد القديم الجديد أبداً... يصح أن نتفاءل وأن يطيب فألنا، وأن نأمل ونوطّد الامل، وأن نؤمن، وأن يعمر ايماننا بقيام صرح ديمقراطية صحيحة بنّاءة خلّاقة».

والديمقراطية الصحيحة، التي تمناها كمال جنبلاط للبنان، هي ما يؤدي إلى أمرين - أو ينتج عن أمرين - الأول السيادة المطلقة للقانون المعتاد، الذي يتعارض مع السلطة الاستبدادية؛ والثاني المساواة أمام القانون. ويضيف الكاتب قوله:

«ويتضح لكم تغلغل روح الديمقراطية في بريطانيا وسيطرتها الروحية على النفوس من المثل الأعلى في التمرس بالنظام وبالحرية وبالقومية الصحيحة الذي ضربته بريطانيا للأمم في تاريخها وخاصة إبان الحرب الأخيرة (كتب هذا الكلام سنة ١٩٤٧). وتظهر لنا أيضاً هذه الروح في عدم وجود دستور مسطور في انكلترا وعدم شعور أحد من البريطانيين بضرورة تسطير مثل هذا الدستور أو تسطير إعلان أو اثبات ما للحريات العامة».

ويربط كمال جنبلاط بين الروح الواعية ومفاهيم الواقع الاجتماعي، فيقول:

«هذه الروح الواعية المقدّرة وهذا العقل النيِّر المدرك لمفاهيم الواقع الاجتماعي الأساسية، والمتفهّم.. قيمة الشخصية البشرية وقيم المدنية المنبثقة عنها - هذا الادراك الاجماعي الواعي، وهذا الوعي الشامل المدرك لأساليب التصرف والحياة، وهذه الثقة المبدعة طوراً حتى حدود التعديل والتبديل والتجديد والخلق، والمحافظة تارة حتى حدود الاسراف في المحافظة وفي التقليد... هذه هي وجهة الروح الديمقراطية السياسية الصحيحة كما تتجلى في بريطانيا».

ويعود الكاتب إلى الحرية، فينقل عن باحث أميركي قوله:

«ما هي هذه الحرية اذن التي يجب أن تعمر قلوب الرجال والنساء؟ انها ليست الارادة الجامحة التي لا رحمة فيها. وليست الحرية أن يعمل المرء ما يشاء؛ فان هذا نقض للحرية يفضي مباشرة للقضاء عليها. وكل جماعة لا يشعر اعضاؤها بكابح لحريتهم، سرعان ما تصبح جماعة لا ينعم بالحرية فيها سوى قلّة متوحشة».

وقد سئل كمال جنبلاط، مرة، عن موقفنا، فأجاب:

«علينا أن نقبل بالآلة ومستلزماتها العملية، وأن نتفهم اهداف تطور الآلة وتطور العنصر البشري، وأن ندخل بحرية في سياق هذا التطور، مزودين بالمعرفة وبالإرادة فنهدم ما نتردد اليوم بهدمه ونبني بيت الجماعة، أي البيت الذي تسكنه السعادة البشرية».

ولمناسبة انعقاد مؤتمر كتّاب آسيا وأفريقيا، سنة ١٩٦٧ م، قال كمال جنبلاط، في حفلة الافتتاح:

«قضية الحرية التي نجتمع لمناقشتها وتقدير انعكاسها في ادب أسيا وافريقيا هي قضية الانسان منذ أن وُجد. تستقطبه ثم لا يلبث أن يستولي عليها، ثم يرهقها ويقيدها أو يعبث بها أو لا يقدرها حق قدرها، أو يمارسها على غير هدى، ودون إطار من النظام المادي والحرمة المعنوية والمسؤولية الاجتماعية، فترتد لتنتقم منه. ثم يعود فيندرج في مسالكها وأسبابها».

ويتساءل المحدث، عن الذي يصيب الحرية أو الانسان، من هذا التجاذب؛ ويجيب عن ذلك بقوله:

«ثم يؤوب الانسان الى استئثاره وعبثه، ثم ترجع هي لتثأر باسم القيم الانسانية الدائمة. وهكذا دواليك، كأن التاريخ بأسره تناقض جدلي قد صُنِعَ من هذا الصراع بين الإنسان وواقعه وبين الحرية...».

ويؤكد كمال جنبلاط على أن الحرية، نمت، وتعاقبت ألواناً ونظماً سياسية واقتصادية واجتماعية، في هذا المنتدى القديم الجديد، أي لبنان. ويقول:

«لو كان لنا حظ في التنقيب وفي التعمق وفي دراسة التحققات الفكرية والتأسيسية والاجتماعية الغابرة... لواجهنا الحرية بالروح التي تجمع بين الحق الشخصي والمسؤولية».

ويتأمل المفكر كمال جنبلاط في أزمة الأنظمة والديمقراطية، فيقول:

«ان تفهمنا لمجاري الأحداث وعللها ومسبباتها واستيعابنا لقواعد نمو المجتمع ولشرع تطور الجماعة والحضارة والذهن البشري يمكننا من التأثير المباشر في تحريك المعطيات ودفع الطاقات، وتصويب الاتجاهات وتوجيه التيارات».

ويؤكد على أن عقلنا هو جزء وانبعاث وخاتمة وتتويج لطاقة الكون نفسه. وهذه فلسفة ما أكثر ما نجدها عند جنبلاط، الذي كان يرى في وحدة الوجود سبب الوجود نفسه. ويقول:

«ولسنا نحن الذين نخلق للكون شرائعه. ولو أننا مُنِحنا عطيّة الفكر ونعمة حرية الاختيار الظاهر والمبادرة المسؤولة. وانما عقلنا جزء وانبعاث وتتويج لطاقة الكون ذاته، ونتيجة ونتاج لتطور الحياة في شمولها وانطلاقها».

ويضيف:

«بل وعقلنا مرحلة في مسلك تحقق تطور هذه الطاقة الكونية، ومنها الحياة، إلى ما يتعدى ما نحن فيه وعليه».

ومن حيث النظرة السياسية الاجتماعية الاقتصادية، فإن كمال جنبلاط، كان في مقدمة المفكرين الاشتراكيين، بمعنى أنه أضاف إلى جماع الفكر الاشتراكي أشياء من عندياته، جاءت، في غالب الظن، من نظرته الفلسفية الواسعة، التي لم تقبل أي حد أو انغلاق، مهما كان نوعه.

ومن هنا، جاء قوله:

«وهذه الديمقراطية العضوية لا تتحقق إلا إذا ساد النظام الاقتصادي في مرحلته المتطورة النامية، والقادمة من خلال الاختبارات الجديدة، والتعديلات الرئيسية للاختبارات القائمة الحيّة».

وكمال جنبلاط، الأديب والشاعر، يقول، في الأدب:

«الأدب الحقيقي هو الذي يرتقي بالنفس، يَرفع ولا يُنزل، يصون ولا يهدم، يبعث السعادة لانه يبعث الجمال الأصيل في النفوس حياً. وإذا لم يكن الجميل فينا وجهاً لطبيعتنا الحقيقية، فكيف نستطيع أن نتذوق الجمال؟ والجمال بحد ذاته معراج، لا هوّة تحوّل أو توقّف أو انزلاق!».

والمعروف، أن أول قصيدة نظمها كمال جنبلاط، كانت «أفيقي» (سنة ١٩٤٥ م)، أثناء نزهة إلى عين مرشد، في الشوف!

وهي:

افيقي فما الكونُ إلا غرامٌ — وحب يهيمُ بلون السَّحر
وقلب يدق وروح تشقُّ — غبارَ المروج وصمَّ الحجر
حياة تدبُّ وريح تهبّ — بريش الطيور وغصن الشجر
تبلورُ كونٍ وتفتيق زرٍّ — كدر السحاب ولمح البصر
كان البرايا بحلم ذهول — يمرّ عليها بشتّى الصور
هدير النهور وسجع الطيور — ونفح العبير وضوء القمر
على الخدِّ وردٌ وفي القد رعش — وفي اللحظ لغز عليّ ائتمر
وفي القلب حب طويل الاناة — فسيح الجهات يحيط البشر

ولحـن تـذوبُ بـه الكـائنـات كنظـم النجـوم بسمط القَـدَر
كـان الثـوانـي اقـداح عـرس تفـوَّر منـهـا ألـوفُ السـيَر
اسـائـل نفسي: ابـعـث هنـيء عـلى الكـون فيـه النـذيـر نفَـر؟
افيقـي، افيقـي، فمـا الـعيش الا هنيـهـةُ سـعـدٍ وعُمـرٌ ضجَـر

ولكمال جنبلاط ديوان شعر، نشر باسم «فرح». وهو، كما وصفه، هو بنفسه:

«لمحات من توجهات تعبدي وتطهيري في مسارح العـروج، جاءت كمـا هي دون رغبة أو طلب... لست بشـاعر ولكنه الشعور، احياناً، هو الذي يشعر».

ويضيف:

«وبعد فإنها فرصة لتثبيت اقدامي أكثر فأكثـر على الشـاطىء الأمين. بعضهم يستجـدي الألم ويمتع نفسـه بالشقاء، لكي يصل. ولكن طريق الفرح هي أكمل وأجدى. كل شيء هو فرح هو «فرح» ذاتي الجوهرية المشعة في الوجود الظاهر».

و «فرح» مزيج من الشعر الموزون والشعر المنثور. وقد قدّم للديوان ميخائيل نعيمة، الـذي قال فيمـا قال:

«أما لماذا اختار (كمال) جنبلاط أن يعبر عن وجده وعن رؤاه بالشعر الموزون والمنثور، على مـا في ذلك التعبـير من مشقة بالغة، فعلم ذلك عنده. ولعلّه رأى، مثلما رأى بعض المتصوفة العرب وغير العرب أن الشعر، بما فيه من عذوبة الايقاع وشفافية الصورة، هو الأليق بالنفس عندما تتحدّث عن معاناتها في التـدرج من المحدود إلى المطلق، أو عندما تخاطب ذلك المطلق».

ومن الصعب تخـير مقطوعـة من كتاب «فـرح»، ولكن لا بد من ذلـك، فلنأخـذ أبيـاتـاً من «مـرقص الضياء».

هـا نحـن قـد جئنـاك مـن شـاطـىء للفنـاء
نطـوي الـوجـود فـداك ونـرتـوي مـن ضيـاء

* * *

يـا فـرحـةً في الجمـال يـا قمـةً في الجبـل
يـا مـوطنـاً للحنـين تبـلى بـه الجفـون
يـا مسبحـاً للـعيـون يـا وفـرة في الامـل

هـذي بـلاد الحبيـب والحـب فيـهـا لـهيـب
والـداء فيـهـا طبيـب والمشتـري زحـل
قـل لـلامـانـي الـعـذاب في قـربـهـا مـن هـواك
لا تـرتضي بسـواك فـانـت خمـر الـعنـب

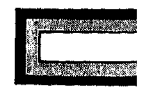
وفي آخر كتاب «فرح»، فصل سماه كمال جنبلاط أفضل الشعر، جاء فيه قوله:

«وفي معنى آخر فإن الشعراء على أصناف أو مراتب ثـلاث: منهم من يصف الأغراض ـ أي الصـور الحسية والعـواطف والأفكار ـ التي يقـع عليهـا النـور. وهـذا في الحقيقـة ليس بشعـر. ومنهم من يصف الأغـراض وانعكاسات النور عليها، دون أن يتلفّت ـ في خدعة جهله وانجذاب عقله ـ إلى مصدر الأشيـاء وينبوع النـور. وهذا شعر المتفوقين».

«ومنهم من غاصت عيناه في لجة النور فغاب في النور وأضحت مـوسيقى النور سعـادة ذاته، فـان صدف لـه وخرج من ذاك النطاق السحري المسحور قال ما قـال، لا لكي يسمعه النـاس ـ وهم ليسوا في سكـرة الدنيـا

بموجودين ـ بل لكي يراقب حقيقة ما يشاهد. وهو أعظم الشعراء وأعظم البشر. فما همه ان صاغ شعراً أو كتب نثراً، أو سكت جيلاً، فالشعر ملء برديه وطفح جنانه. والشعر واللحن وروعة الشكل الجميل نغم من أنغام وجوده الممتلىء الفائض».

«ومن البديهي أن مثل هذا الشعر ما ضرّه أن يكتب بقوالب الايقاع أو النثر... فهو في المتى والأين... والزمان والمكان وتر الوجود وريشته يلعب عليها الواحد أنغام وجود الواحد؛ كأن مياه البحار تتدفق على قلبه فيعيش في ساعة واحدة ألف ألف ربيع».



١٠ مذكرات جريح

أما الجريح فهو بولس سلامة، الأديب المبرّز والقانوني البارع. وهي مذكرات كتبها نتيجة قضائه أكثر من أربع عشرة سنة، يتقلب على فراش المرض، ومبضع الجرّاح يلاحقه، دون أن يعرف الجرّاح، لماذا يشقّ الجرح تلو الجرح، موسعاً فيه المرة بعد المرة، كاشطاً عن العظم ومنه، مفرغاً كميات من الصديد، مع بقاء الجرح مفتوحاً مكشوفاً، كي يسمح للصديد بأن يخرج.

وأخيراً اكتشف الطبيب جورج بدر مكمن الداء وسبب العلّة، لكن الكشف جاء متأخراً، وكانت عمليات الدكتور بدر مفيدة للتخفيف قليلاً، لكنها لم تنقذ الرجل من آلامه، وظلّ بولس سلامة يتألم.

لقد دخل بولس سلامة خمسة مستشفيات، وأجريت له تسع عشرة عملية جراحية كبيرة، ولحقتها، فيما بعد، خمس. وكان بولس سلامة قد عقد العزم على التأليف سنة ١٩٣٦ م، وهي السنة التي نكبه المرض فيها. ويقول، عن عزمه على الكتابة:

«وقد تراءت لي الخطوط الكبرى فصممت على التوليد سواء أكان الجنين سقطاً أم بشراً سوياً. ولكن المرض أطاح بهذه التصاميم، وتهاوت براعم الدوحة في مهبّ العاصفة قبل أن تنعقد ثمراً. وغلّ العذاب قلمي عشر سنين، وقد ملأت الآلام ليلي ونهاري».

وفي سنة ١٩٤٥ م، كان بين عواده، في المستشفى، شارل قُرم، فاقترح عليه أن يكتب. قال بولس سلامة:

«فقاومت الاقتراح إذ رأيتني غريباً عن اليراع بعد ذلك الهجر الطويل. ولكن صاحبي ألحّ، وكان تأثيره بي تأثير المنوّم بالوسيط. فراودتني الفكرة وكان الألم المكبوت من زمن بعيد يغلغل في جوارحي. واستشعرت أنه حان لهذا الأسير أن يطلّ على العالم الخارجي ولو من نافذة... وفي هذه الغمرة من الدمع نبتت قصيدتي «ألم» ومقالتي «بين أيوب وبيني» ».

وهنا، لن نتابع بولس سلامة الجريح، في خطوات مرضه ومحطات عملياته؛ ولكننا ننوي أن نشير إلى بعض تجاربه المؤلمة، مستعينين على توضيحها، بنقل عبارته الأدبية المحكمة السبك، الوثيقة الحبك.

يقول بولس سلامة، عن الجرّاح الأجنبي، الذي كان يرأس قسم الجراحة، في مستشفى الصنائع:

«كان يرئس قسم الجراحة، في المستشفى يومئذٍ جراح اجنبي نابه الصيت بعيد الشهرة... فحصني الرجل فحصاً دقيقاً ودفعت اجرة العملية على أنها بحث عن جسم غريب. وخدّرت هذه المرة بالحقن في العمود الفقاري، وشقني الجراح وادخل المقحطة حتى تجاوز المنطقة المخدرة البالغ عمقها اثنين وعشرين سنتمتراً. فصرخت صرخة ألم ونبهته إلى أنه تجاوز طرف السرداب. وشهد لي بالذكاء وشهدت له بالمهارة».

وقد أخذ الطبيب شيئاً من الصديد، لاختباره

«وجاء بعد أيام يقول بوجوب شق الفخذ. وهوّن عليّ الأمر بأن أجري هذه العملية في سريري... وغاب عني وبعد خمس دقائق ـ وكنت لم أزل أتأوه ـ بعث إلي ببيان يعين فيه أجرة هذا الشق المرتجل... وقضيت في المستشفى خمسين يوماً، وخرجت ببشرى أن العلة في اللحم وأنها من النوع الذي يشفى باستعمال مشتقات اليود. فاستعملته على انواعه وعلى اوسع نطاق، وعلى غير جدوى».

«وارشدني بعض اخواني إلى طبيب حامل شهادة يضاف إليها معرفته بالطب العربي القديم الذي تلقاه عن والده. وكنا يومئذٍ في مطلع صيف ١٩٤٠. وأشار عليّ الطبب أن نصطاف معاً لأكون على مقربة منه... واخترنا دير القنزوح مقابل غزير لأن المكان يناسب الطبيب».

لكن لم يفد بولس من الطبيب سوى أن وسّع هذا الجرح، ولقي صاحبه العذاب الشديد، من العملية المتواصلة.

لكن بولس سلامة استمتع بصحبة القرويين. وقد كتب، عن هؤلاء الناس، ما يلي:

«كان القرويون يملأون فراغ وقتي بزياراتهم، فأسايرهم في الحديث، وأدرس نفسية الفلاحين والرعاة وأسألهم عن أسماء أبقارهم ومعيزهم غير مستغرب شيئاً، لأني قروي يعرف الأرياف وشؤونها».

وقول بولس، عن نفسه، انه قروي، صحيح، فهو من بتدين اللقش (من أعمال جزين).

وكان من الضروري، أن تفحص الكاتب لجنة طبية، بعد أن تغيب، عن عمله، نحو السنة، لتقرير أمره، من حيث استمراره فيه. وكان في اللجنة مستشار الصحة، يومئذٍ، وهو طبيب جرّاح، فرنسي، وهو جراح عسكري برتبة عقيد:

«فحصني الرجل وهز رأسه قائلاً: تباً لهؤلاء القوم الذين تولوا علاجك حتى اليوم... إن سبب الصديد هو دمل في الكلى، وكان عليهم ان يشقوك من الوراء لا من الامام... وتطوع لاجراء العملية في مستشفى الصنائع التابع لوزارة الصحة، فأكبرت مروءته ودخلت المستشفى في اليوم نفسه».

وكان هذا المستشفى رقم ٤، وكان دخوله في أواسط آب/ أغسطس ١٩٤٠ م.

ويصف بولس سلامة ممرضة الليل في مستشفى الصنائع:

«وسألت عن ممرضة الليل لأني مقعد ولي مطالب شتى فقيل لي انتظر فانتظرت... وجاءت ممرضة الليل وهي ارمنية عجماء، صفيقة الوجه ثقيلة الأرداف واللسان، وفي يدها طعام العشاء وهو أشبه شي بطعام النساك الحُبَساء فلم امد إليه يداً. ومن واجب ممرضة الليل ان تظل ساهرة تتفقد المرضى. ولكن هذه كانت تمر بهم في أول الليل وآخره. وتنام في الرواق على كرسي بحري مستطيل فيسمع لها أطيط وغطيط، وشخير ونخير، فتقضّ على المرضى المساكين مضاجعهم».

لكن الأمر سويّ لبولس سلامة؛ بأن هيئت له غرفة خاصة، ووضع تحت رعاية الراهبات، القائمات بأمر المستشفى. أما الطبيب، الذي قال بدمّل في الكلية، فقد أصر على إجراء العملية، مع أن التصوير جاء معاكساً لرأيه. وكانت عملية مرهقة مؤلمة، وقف بولس سلامة، في نهايتها، على شفير الهاوية، لكثرة ما نزف من دمه، فهبطت دقات قلبه، واضطرب قلبه وابيض وجهه. ولما جاء أهله، تبين، حتى وهو في هذه الحالة، الذعر في وجوههم. وبعد شهرين، أجبره الجراح على الحركة، وكانت الراحة به أوْلى. وقضى في مستشفى الصنائع تسعة أشهر.

عاد إلى العمل، ولكنه كان يجلس على قوس المحاكمة وحرارته فوق الثمانية والثلاثين أحياناً. وأرشده (سنة ١٩٤٢) صديق له طبيب، لقيه في ساحة قصر العدل إلى الدكتور جورج بدر. وطلب هذا صورة جديدة، وبعد فحصها مع المصور الدكتور قدورة، حكم الطبيبان بأن عظم الحرقفة هو المصاب، وهو أصل البلوى. وقد حاول الدكتور معالجة الداء بالطرق السلمية، قبل أن يعمد إلى المبضع. وأخيراً، كان لا بد من العملية. فما الذي اكتشف؟

يقول بولس، في مذكراته:

«واستفقت من المخدر بعد أن استغرقت العملية ساعتين، وقد وجد الطبيب انه كان قد مر على اصابة العظم بضع سنين صرفناها بالحدس والتخمين... أجل بقي الحيوان المدمّر ست سنين يرتع في عظامي هانئاً هادئاً بالمطاردين، ولو أبصروه منذ ذلك لقضت عليه ضربة خفيفة، ولكنه سمن وبطر فصار هناك سبعاً ضارياً رهيف المخالب حديدي الأنياب، يحتل الحنايا فيشقها كهوفاً».

وأُجريت لبولس سلامة جراحتان أخريان، ولكن المهم هو الحصول على دواء يقتل الميكروب الذي يغذي المرض. وهنا، قرأ بولس سلامة عن البنسلين، وعرف أن البنسلين وصل القاهرة، وأن الذي بلغها خمسة ملايين وحدة. وحسبها بولس سلامة خمسة ملايين قنينة، إلى أن أوضح له الدكتور بدر أن هذه الكمية كلها، قد تكفي لمعالجة مريض واحد.

يقول بولس سلامة:

«وقطع البنسلين الطريق من مصر إلى لبنان، ولكنه بقي في حوزة الجيش، وضرب حوله نطاق من البنادق والمدافع... وبدأت مفاوضة مستشفى الجامعة الاميركية، وبعد جهود عدة... نقلت الى مستشفى الجامعة غب انتظار شهر ريثما تأتي نوبتي، لأن الكمية كانت جد محدودة.. وجيء بي الى المستشفى حيث مكثت شهراً استعمل لي خلالها ما يقارب المليونين من الوحدات، وصُوِّرت وفُحِصت... وخف الصديد... ولكن لم يَزل السبب. وعدت الى مستشفى الروم!».

وهكذا قضى بولس سلامة هذه السنوات الطويلة في معاناة المرض والألم. وكم نحن مدينون لشارل قرم، الذي حمل الكاتب على أن يتناول القلم، ويعطينا هذه الصور الحية الرفيعة المستوى لما أصابه، وانتابه.

وفيما يلي نماذج عنها:

قال بولس سلامة:

«إن المريض المتقلب على أحر من الجمر وأحدّ من الشوك، يشعر بانعدام الحركة فلا يكون ليله في الزمن بل في الأبدية. وحالة المريض المتقلب على النار، أيسر من حالة المقعد المشلول عن الحركة، إلا أن تقلِبّه يد رفيقة... ولقد مرت على ثلاثة آلاف من هذه الليالي الدهم، وكل واحدة منها ابدٌ كاملٌ، بعضها جحيم وبعضها مطهر. أما ليالي النعيم بينها فتلك التي يكون الألم فيها خفيفاً».

ومن الأمور المسلمة أن الألم في الليل أشد منه في النهار... والعتمة تعزل المريض عن العالم الخارجي، فينطوي على نفسه، وتتوقف العلاقة بينه وبين أحاسيسه حتى ليسمع دقات قلبه ويقترب وريده من أذنه... وتتيه مشاعره في سُدُف الظلمة فتلون بلونها... في هذه الليالي الراعبة، ليالي المرض الذي تتقطع به أسباب الأمل، ومن خلال هذه الظلمات الرهيبة، يشع في بصيرته نور الله فلا يرى مفزعاً إلا إليه! وإلى من تراه يلجأ؟».

كانت قصيدة ألم أول ما نضح به قلم بولس سلامة، بعد أن حمله شارل قرم على الكتابة. وهنا ننقل بضعة أبيات من هذه القصيدة الطويلة:

يا موت يا ملك الجنان ظلمتني	وادرت سمعك عن جريح ندائي
أتُرى يروقك ان اعيش معذَّباً	جسدي تمزقه نيوب عيائي
داء تخلّل في العظام فردّها	فلذا واشلاء على اشلاء
سالت على حد المباضع مهجتي	فشفارها مصبوغة بدمائي
وتشابهت مني الجراح فاصبحت	حُفرا تضل بها عيون الرائي
وتشيع لي حُمّى تهدّ مفاصلي	وتدبّ مثل الحية الرقطاء
فاغيب في الكابوس غيبة سابح	في النار بين الحسّ والاغماء
صبحي أمر من المساء فعيشتي	موصولة الظلماء بالظلماء

وتبدو للشاعر أيام شبابه ماضياً سحيقاً، فيقول، في ذلك:

واهاً لأيام الشباب وبهجه	والزّهو حين جررت فضل ردائي
تختال في عزم الفؤاد فتوتي	ويطلّ من وضح الجبين روائي
يهفو إلى الامل المحلّق خاطري	ويموج في صفحاته البيضاء
لم يبق من نغم الصبا وفتونه	إلا حنين مبهم الاصداء
ذكرى من الماضي السحيق سللتها	فتخضبت بالدمعة الحمراء

ويقابل الكاتب، في القطعة التي سماها «بين أيوب وبيني»، بين أيوب الذي كان غنياً، ثم أصيب بقروح. يقول، في ذلك:

«أما أنا فعلى هامش الحياة جئت... وإذا كنت أنت قد أصابك قرح من باطن قدمك الى قمة راسك، فأنا قد

تغلغل دائي في العظام، وأذابها فعجنها بالصديد. وتناوشتني المباضع فسالت روحي عليها تسع عشرة مرة. وترصّدني الموت عشر مرات فلقيته وجهاً لوجه».

ويضيف قوله:

«ولقد سمرني الألم مستلقياً على ظهري تسع سنين أصلاً لكنها ارتفعت إلى أربع عشرة سنة، لا أتحرك إلا بقدر ما تتحرك الخشبة على الماء الراسب. وانطفأت زهرة صباي في المستشفيات حيث قضيت من الأعوام سبعة. وهذا هو العام الرابع عشر لمرضي الوبيل واستشهادي الطويل».

ويتحدث بولس سلامة عن زوجته في هذا المقال بالذات، فيقول:

«أما زوجتي يا أيوب فهي أصبر من زوجتك. أما تلك فقالت لك جدف على الله ومت. وأما هذه فقالت لي سبح الله تحيَ. وكنت إذا أدمعت عيني خنقتها العبرات، أو حز المبضع في أوصالي مرة حز في قلبها مرات».

وبعد مقارنات ومفارقات بينه وبين أيوب، يقول بولس سلامة:

«أشكرك اللهم لأنك طهرتني بالألم، وصهرت روحي في مصهر العذاب لتأخذني نقياً اليك، فغسلتني بنداك السماوي... اللهم ليس عذابي بجانب نارك شيئاً مذكوراً، ولقد كانت حياتي كلها ذنباً كبيراً... لقد جرعتني كأساً مرّة ولكنها دون ما استحق فإذا زدتني بعد استزدت».

وفي مذكرات جريح، قصيدة ثانية، بعنوان «وَحْدَه»، منها:

سوط العذاب اطال سهده ... فرثت لأنّته المخدة
انّاته الحمراء جارية ... مع الانفاس وقده
يا ساجياً اكل الفراش ... ضلوعه وامتص جلده
ثار الزمان من الورى ... وعليك وحدك صب حقده

وقد كتب بولس سلامة، في مذكراته، فصلاً عن المال والنفقات. وكل من مَرِضَ في بيروت، حتى ولو كان المرض عادياً، يعرف ما يكلفه ذلك. فكيف بهذا الذي أجريت له هذه العملياتَ الجراحية، والذي أقام في المستشفيات ما مجموعه سنوات.

يقول الكاتب في ذلك:

«والحق أقول لك ان هذا الزئبق الفرار أجهدني. فأنفقت بين ١٩٣٦ و ١٩٥٠ ما يربو على المئة والعشرين الف ليرة، في جملتها ثمن غابة الصنوبر التي تلقيتها عن أبي رحمه الله».

وبهذه المناسبة، فقد استمر الإنفاق بعد ١٩٥٠، لأن بولس سلامة لم يشف من علله!

ونورد، فيما يلي، ما قاله الكاتب عن غابة الصنوبر هذه:

«ولقد كانت تلك الغابة، التي حصدتها الفؤوس، ثروة في أعين الترابيّين. وكانت في أعين الشعراء أعمدة للجمال الاخضر، منطلقة من جبال الرمل الذهبي الاصفر، زمرّد على عقيق وعطر ونسيم واظلال ونعيم. وكانت في نظر اصدقاء الشجرة ملتقى ملكات حسان كشفن عن سوقهن كما فعلت من قبلهن ملكة سبأ».

ويتألم بولس سلامة من أن كتبه، التي لقيت من الاستحسان، ما شاء للأقلام أن تغدق عليها، تقبلها الناس هدية ولم يخطر في البال شراء نسخ منها تعين المريض!

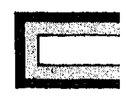
ويتحدث بولس سلامة عن أصحابه ـ بعض أصحابه طبعاً ـ بمرارة، اذ يقول:

«أصحابي! وكانوا يباهون بصداقتي، وكان يطيب لي أن افتديهم بمالي وولدي. وأنا أتحدى أياً كان أن يتهمني في وفائي. فأنا على كثرة عيوبي أستطيع المباهاة بفضيلتين: نزاهتي قاضياً ووفائي صديقاً. أولئك [الاصدقاء] لما يئسوا من شفائي وتقطعت بي أسباب الرجاء، تولوا كأنهم لا يعرفونني. وأصبحت في نظرهم ميتاً. ولم يبق

في صف الاوفياء إلا قلة تكاد تجاوز أصابع اليدين، وكذلك هي عتاق الخيل تكون قلة ولا يثبت في الميدان سواها».

ويضيف الكاتب:

«ومما يجدر بالذكر أن الذين آسوني في محنتي لم أعرفهم ابان العافية، ولم أمدُّ اليهم يداً بفضل، ولا أذكر انني انجدتهم بقلم أو لسان. فبهؤلاء النبلاء وأمثالهم صحّ عندي أن المروءة لم تنقطع عن وجه الأرض».



١١ جرجي زيدان يتحدث عن بيروت والكلية

لعلّ جرجي زيدان أول من دوّن مذكرات شخصية، أو ذاتية بين أهل الفكر المحدثين من العرب. وقد توفي الرجل، قبل نحو سبعين سنة، والأمور التي يتحدث عنها، تشمل الفترة السابقة لسنة ١٨٨٣ م، وهي السنة التي ترك فيها بيروت الى مصر. ومذكرات جرجي زيدان لها صفات مهمة. فهي صريحة، صادقة، بسيطة، لا زخرف أدبياً فيها، ولا محاولة للتستر. هي حكاية رجل كان عاملاً بسيطاً، وطباخاً صغيراً في مطعم شعبي، في ساحة البرج، وصانع أحذية أصبح، بجده، وصبره، ورغبته في المعرفة، أحد كبار العلماء في مشرقنا.

وكلنا يعرف أن جرجي زيدان خدم التاريخ العربي الاسلامي خدمات جلّى، في كتابيه «تاريخ التمدن الاسلامي» و «تاريخ آداب اللغة العربية» وروايات تاريخ الاسلام، فضلاً عن الكثير مما نشره في «الهلال». وهو، كما يقول الدكتور صلاح الدين المنجد، كتب الآلاف من الصفحات، ودوّن العشرات من المؤلفات، وأسهم:

«في نهضة مصر العلمية» فكان «موجهاً لها واستاذاً كبيراً فيها».

ولد جرجي زيدان في ١٤ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٨٦١ م، في بيروت، في بيت الياس الشويري. كان والده يعمل في اللوكندة، أي المطعم، من الصباح الباكر حتى منتصف الليل، يومياً. ولذلك، وقع أمر العناية بالعائلة على كتف أمه، التي قال جرجي زيدان عنها:

«وكانت والدتي... قوية البنية، صحيحة العقل، دقيقة الإحساس كتومة، قليلة الكلام كثيرة العمل، لا تهدأ ليلاً ولا نهاراً للقيام بكل لوازم البيت».

وقد غرس ذهاب الوالد مع الفجر والعودة المتأخرة، وعمل الوالدة المستمر في ذهن جرجي زيدان:

«أن الإنسان خلق ليشتغل وأن الجلوس بلا عمل عيب».

وكان والد جرجي أمّياً، لذلك، لما اتسع نطاق عمله، وكثرت حساباته، رأى وجوب تعليم ابنه القراءة، ليساعده في العمل. وكان المعلم الياس، شقيق قسّيس العائلة، أول معلمي جرجي زيدان.

ثم نُقِلَ جرجي إلى مدرسة، عرفت بمدرسة الشوام، أنشأها جماعة من أدباء دمشق؛ هاجروا إلى بيروت. هنا، أخذ جرجي بعض مبادىء الحساب، والنحو، والخط. وكانت مدرسة ذات شهرة حسنة. وكان فيها معلمون افاضل. ولكنها أقفلت سنة ١٨٧٠ م. وكانت النقلة التالية إلى مدرسة الثلاثة أقمار، للروم الأرثوذكس (في الأشرفية).

يقول جرجي زيدان:

«ففي أواخر السنتين وانا في الحادية عشرة من عمري ومعارفي ناقصة احتاج والدي إليّ في لوكندته لأتولى مساعدته موقتاً في تقييد الأسماء وإرضاء الزبائن، ريثما يوفق الى سفرجي غير الذي تركه بالأمس... وامتدت الايام السبعة الأصلية إلى سبعة أو ثمانية أعوام».

هذه الأعوام، التي قضاها جرجي زيدان في أسواق بيروت، يقول عنها:

«قضيتها في أسواق بيروت بين عامتها، وأنا مضطر لمعاشرة أحط الطبقات فيها، لأن محلنا - أي اللوكندة - كانت حوالي ساحة البرج. انتقلَتْ من محل إلى آخر ولم تبعد عن تلك الساحة. وساحة البرج كانت يومئذٍ ملتقى الزعران الرعاع وأهل البطالة وفيهم السكير والمقامر وأهل الدعارة والخصام».

ثم جرب جرجي حظه في تعلم صناعة الأحذية، ولم ينجح، فعاد إلى اللوكندة، موقتاً، ريثما يفكر أهله في صناعة أخرى.

ويصف جرجي زيدان، بعفوية وصدق، ما كان يقوم على مقربة من اللوكندة، من أنواع الملاهي التي كانت تجري بالقرب من محلنا، الذي كان على شارع عربات الشام. فقد

«كان بجانبه قهوة تقدم فيها القهوة والشيشة اي الاركيلة... ويلعب أهلها في أثناء النهار بالدامة أو النرد أو الورق... فإذا غابت الشمس اقاموا فيها الالعاب والتمثيل وأهمها لعب السيف وتشخيص الكراكوز والشعوذة وحكاية القصص».

وقد كان للكراكوز

«سوق رائجة في ذلك العهد. وإنني لأستغرب الآن كيف كان الناس يحضرون لمشاهدة ذلك التمثيل. فقد كان تمثيلاً بذيئاً كله فحش وسوء أدب».

وأود أنا، كاتب هذه السطور، ان أقول إنني وأنا صغير، في أيام الحرب العالمية الأولى، كنت أحضر تمثيل كراكوز، في جنين بفلسطين، وكان التمثيل على الشكل عينه. والذي أراه أن كراكوز كان هو كراكوز تمثيلاً وفحشاً وسوء أدب حيث كان، في بيروت أم في جنين.

«كان اهل بيروت يومئذ طبقتين: العامة وهم الرعاع والصناع وسائر اهل الصنائع والتجارة الصغيرة؛ والخاصة وهم رجال الحكومة وأهل الثروة... ونشأت طبقة ثالثة تخرجت في المدارس البيروتية واكثرها كانت مدارس ارساليات... مثل المدرسة الكلية السورية والمدرسة الانكليزية للبنات ومدارس اليسوعيين وبعض المدارس الوطنية مثل البطريركية والحكمة».

وكان أول اتجاه لجرجي زيدان، في أن ينضم إلى الطبقة الثالثة، هو إقدامه على تعلم اللغة الانكليزية، وذلك لما عرف أن أحد زبائن اللوكندة، مسعود الطويل، من أهل الشياح، فتح مدرسة لتعليم الانكليزية. يقول زيدان:

«وكان اسم الانكليزية غريباً على مسامع البيروتيين، لانهم لم يكونوا يعرفون من فضائل الانكليز إلا قولهم «سكرة انكليزية»، لكثرة ما كانوا يشاهدون من البحرية الانكليز سكارى في شوارع المدينة. فإن بعض الدوارع الانكليزية التي كانت تتجول في البحر المتوسط. كانت ترسو في ميناء بيروت أحياناً، وينزل بحارتها للفسحة، بعد أن يكونوا قد انقطعوا في دورانهم أسابيع وأشهرا. فيطوفون بالبلد، يأكلون ويشربون، ويستولي على اكثرهم السكر. وإذا سكروا عربدوا بلسان لا يفهمه أحد فدار على السنة البيروتيين قولهم «سكرة انكليزية».

كان جرجي في سن الخامسة عشرة، لما أخذ بتعلم الانكليزية، عند المعلم مسعود الطويل. ثم اعتنى بالقراءة والتحصيل بنفسه. يصف جرجي زيدان تعلمه للانكليزية، فيقول:

«وبلغ من اجتهادي في درس هذه اللغة. اني كنت وانا اطبخ في الصباح، وطَبْخُنا عبارة عن وضع عشر حلل دفعة واحدة على الكوانين: واحدة للرز وأخرى للفصولية وأخرى الخ... وانا اعالجها كلها، افتح الكتاب بالانكليزية للمطالعة او الترجمة. فاقرأ فيه فإذا احتجت إلى تحريك حلّة، أو تقطيع لحم، وضعته مقلوباً على الطاولة وحركت ثم عدت إليه».

كان مما أثر في تطور جرجي زيدان الثقافي، يومها، صدور المقتطف. قرأ بعض الاعداد، وأدرك الفائدة من استمرار القراءة في المقتطف، فلم يلبث أن اشترك فيه. وتعلم الدوبيا عند التجار. وكان يتردد على اللوكندة الشيخ ابرهيم اليازجي، العالم في لغته، الأنيق في لباسه، الشروال والطربوش المغربي. وكذلك كان من الزوار عبد الله البستاني. هذان كانا من كبار علماء اللغة. وكان جرجي يحضر احتفالات شمس البر، التي كانت فرعاً من جمعية اتحاد الشبان المسيحيين بانكلترا. وتعرف جرجي زيدان بالدكتور

اسكندر البارودي، الذي كان تلميذاً في مدرسة الطب في الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأميركية اليوم).

تكونت عند جرجي زيدان الرغبة في دراسة الطب في الكلية، ليكون بذلك عوناً لأهله. واجتمع بصديقه البارودي الذي أوضح له ما يقف في الطريق من المشاكل والصعوبات. لكن جرجي زيدان اعتزم أن يعد نفسه، خلال عطلة الصيف، ليتقدم لامتحان دخول الطب، في مواد يتعلمها الطلاب، عادة، في سنة على الأقل. واشترط جرجي على اسكندر البارودي أن يكون معلمه. وفعل ذلك. ونجح.

ويقول الكاتب:

«أصبحت في يوم الاربعاء في (التاريخ ناقص) سنة ١٨٨١ وانا تلميذ من تلامذة الطب في المدرسة الكلية، وأنا لا أصدق أنني حصلت على هذه الأمْنِيَة. وفتحت دكاناً بقرب بابها لبيع المأكولات عهدت بها إلى أخي متري. واستأجرت غرفة اقيم فيها بقرب المدرسة. فاشتغلت الدكان بضعة أشهر ثم وجدتها لا تفي بالمطلوب فتركتها، وتفرغت للدرس. ولكنني ما لبثت أن اهتممت بالقسط الثاني. فوُفِّقت إلى شاب أعلمه اللغة العربية... واشتغلت أشغالاً أخرى استعنت بها على دفع القسط الثاني وثمن الكتب.

«وكنت أشعر أول الامر أنني غريب عن هذا الجو. لكن ذلك لم يطل. فقد الفتهم والفوني. وكان طلاب الطب جميعهم ٤٥ طالباً، منهم تسعة في صف المبتدئين» (أي صف الكاتب).

ويتحدث جرجي زيدان عن معلمي الكلية ومنهم فانديك وورتبات ولويس وبورتر وبوست (بوسط)، وجاء موعد الامتحان وإعلان النتائج، فكان لجرجي زيدان امتيازان - في الكيمياء التحليلية واللاتينية.

ويعطينا صورة عن «الكلية» وأقسامها الثلاثة: علمي وطبي ولاهوتي، وكان رئيسها دانيال بلِسْ. وكان للكلية عمدة مقيمة فيها، وكان لها «عمدة عليا» أعضاؤها موجودون في دمشق وزحلة والقدس واللاذقية وعبيه وثمانية في بيروت من أصل أربعة عشر عضواً. وقد ذكر هذه التفصيلات الإدارية وأشرنا نحن إليها هنا، لأن ذلك ارتبط بحادثة اتحد فيها جميع تلامذة الطب في المطالبة بحقوق لهم. ويقول عنها زيدان:

«وهي أول حادث من هذا النوع في الشرق».

ونحن نتفق معه في ذلك، خصوصاً من حيث أثرها.

والحادث هذا يمكن تلخيصه، من كلمات الكاتب نفسه، بما يلي:

«اتفق في ذلك الوقت (أي سنة ١٨٨١) انتشار مذهب داروين (القائل بالتطور). فألقى فيه الدكتور لويس (استاذ الكيمياء) خطاباً على التلامذة (لم يتعرض فيه للدين في شيء). لكن ذلك الرأي (أي مذهب داروين) كان لا يزال حديثاً ورجال الدين يعدونه مخالفاً لقواعد النصرانية. فحسبوا هذا الخطاب نقطة سوداء للدكتور لويس واشتكوه إلى عمدة المدرسة الكبرى في أميركا. فالجأته الى الاستعفاء لأنها شديدة الحرص على المبدأ الديني الذي أنشأوا تلك المدرسة من أجله».

يقول زيدان:

«كان الطلبة يحبون لويس ويعتبرونه، فلما صدر قبول استعفاء لويس في أثناء الفصل الأول من السنة التي نحن بصددها... انحاز تلامذة الطب لجانب فانديْك ولويس، والأول كان يحب الثاني ويقربه. وأجمعوا على اقامة الحجة ومطالبة المدرسة بحقوق لهم عليها، ومن جملتها أن يكون الدكتور لويس أستاذ الكيمياء فيها».

وكان من لوالب الحركة اسكندر البارودي وسليم جريديني. واشترك جرجي زيدان في ذلك، احتراماً لاسكندر البارودي. وكان يعقوب صروف وفارس نمر، صاحبا المقتطف، يؤيدان الطلاب تأييداً معنوياً.

وقد اعتبر جرجي زيدان هذه الحركة أمراً يستحق التدوين فقال:

«إن الحركة التي قام بها طلاب الكلية مما يحق تدوينه لانه بدء نهضة جديدة بين تلامذة المدارس في الشرق لم يسبق لها مثيل. والفضل فيها راجع إلى تربية المدرسة نفسها، فإنها كانت تربي تلامذتها على حرية الفكر

وحرية القول، وعوّدتهم على الحرية الشخصية والمساواة في الحقوق، حتى ان التلميذ كان يشكو استاذه إلى عمدتها إن توهم انه خرج في معاملته عن الحدود المفروضة له. والعمدة تنصف صاحب الحق ولو كان اصغر التلامذة. هذا الروح الذي تمتاز به هذه المدرسة من مدارس الشرق كان لها تأثير كبير في ترقية النفوس في هذه النهضة، وهي التي سوّغت لتلامذة الطب في هذا العام التّظلم للعمدة لاعتقادهم بصواب عملهم».

ويقول زيدان:

«بلغ تلامذة الطب أن الدكتور لويس استقال من أوائل كانون الأول سنة ١٨٨٣، فأجمعوا على الاحتجاج. فانقطعوا عن المدرسة يوم الاثنين ٤ كانون الأول المذكور، وهم ٤٥ شاباً، كل تلامذة الطب. واجتمعوا اجتماعهم الأول في احدى قاعات المستشفى البروسياني (الالماني). وكلهم من أهل الدراية. وقد تعوّدوا الاجتماع في المدرسة نفسها أو في «جمعية شمس البر» وبعضهم في الماسون. فساعدهم ذلك على التكاتف والانتظام في أعمالهم. ومناقشاتهم».

وبعد أن يشير إلى انتخاب هيئة تشرف على شؤون الجمعية؛ كان رئيسها زيدان، وكاتبها اسكندر بارودي، وأمين صندوقها جرجي بان، وغيرهم خطباء ومساعدون. ويقول زيدان، عن انتخابه رئيساً:

«ولم أوَلَّ رئاسة تلك الجلسة لفضل فيّ، فقد كنت من صغار التلامذة مقاماً، ولكنهم جعلوا الرئاسة اسمية لحفظ النظام في الجلسة... واختاروني لعدم وجود المنافسة بيني وبين احد من التلامذة».

وكان الاتحاد موضوع الجلسة الأولى. ووضع، في جلسة تالية، صيغة أقسم عليها التلامذة واحداً واحداً. وهذه صورتها:

«اقسم بالله وبشرفي أن احافظ على العهود التي قررناها في هذه الجلسة وعلى الثبات إلى النهاية مع الجمهور».

ومع أن الاحتجاج، أصلاً، كان على خروج الدكتور لويس من المدرسة قبل نهاية السنة، والاستفهام عمن ينوب عنه، لأن هذا كان يهمهم من حيث ثقتهم بعلمه، فإن العريضة، التي تقدم بها الطلاب إلى العمدة، شملت أموراً أخرى، كان التلامذة صابرين عليها.

وبعد اجتماع التلامذة بيومين، طلبت العمدة إليهم أن يعودوا إلى الدراسة، وإلا وقعوا تحت طائلة القصاص المدرسي. إلا أن اللجنة انصرفت إلى كتابة الاحتجاج والعريضة. وقد جاء في العريضة:

«اتينا نطلب الطب في مدرستكم على أساتذة معلومين تحت ظروف معلومة حسب قوانين مقررة. فنصرف الدرهم ونكابد المشقة لتتميم ما يطلب منا محافظين على واجباتنا. فحدث في هذه الأثناء نقض بعض العهود التي دخلنا عليها. ومن حيث أن الروابط بيننا وبينكم هي تلك العهود لا غير، وقد نُقِضَ بعضها، فاصبحنا خائفين أن تنقض كلها. فأصبحنا في اضطراب عظيم فتوقفنا عن ملازمة الدروس».

وقد عددت العريضة المطالب، وأهمها عودة لويس، وإلغاء الفحص الطبي المحلي، ما دام لا يقبل في الآستانة، وتسهيل فحص الطلاب في الآستانة بالعربية، كما كانت قبلاً، وعدم تقييدنا بتقديم الفحص بالتركية أو الفرنسية. ووقع العريضة جميع الطلاب.

وجاء جواب العمدة (٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٨٢ م) غير كاف، وأجاب الطلاب عليه برسالة تشدّد على تحديد وتوضيح الأمور المطلوبة قبلاً، ومن اهمها تعيين أستاذ الكيمياء والتأمين على الأساتذة الباقين. وفي اليوم التالي (٧ كانون الأول/ ديسمبر) بحث الطلاب في رفع شكواهم إلى العمدة العليا. وأعد الطلاب عريضة تقدم لهذه اللجنة. كما انصرف بعض الطلاب إلى الاتصال بالكبراء في المدينة لإطلاعهم على الحالة. وقدمت العريضة إلى العمدة العليا. يقول زيدان:

«ودارت المباحثة في المطاليب فقر الراي على أن يعهد بذلك إلى عمدة المدرسة الأصليين. وإنما ساقهم إلى هذا التعصب الجنسي واحتقار ابناء العرب».

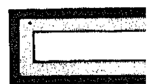
وقررت الهيئة المذكورة توقيف التلاميذ عن المدرسة والمستشفى شهراً، ثم لا يعاد منهم بعدها، إلا

من استرد اسمه من ذلك التحرير أي العريضة. ولم يرجع من الطلاب إلا ستة، لأسباب فصلها زيدان في مذكراته. أما الطلاب الباقون (٣٩) فقد كتبوا عريضتين شديدتي اللهجة. لكن دون جدوى. وجربت العمدة جميع أنواع الإغراءات، فلم تنفع.

وانتهى الأمر بأن بعض تلامذة الصف المنتهي علمهم امتحنهم فانديك في منزله، وامتحن بعضهم أمام لجنة رسمية في بيروت، وأتموا امتحانهم في استانبول. أما الصفوف الأخرى فقد انتثر عقد طلابها. وعزم جرجي زيدان على الذهاب إلى مصر لإتمام الطب في القصر العيني. وذهب هو وأمين فليحان في تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٨٣ م.

«ولكن للأسف لم نفلح بما أردنا».

وهنا تقف المذكرات.



١٢ سبعون ميخائيل نعيمة

يعتبر الذين كتبوا سيرتهم الذاتية، بمثل ما وضعها ميخائيل نعيمة، قلّة بين رجال الفكر والأدب من أبناء الضاد. ورجال السياسة فعلوا هذا في مذكراتهم، مثل أحمد شفيق باشا. لكنه، في مذكراته، ذكر الأمور العامة، ودوّنها أحداثاً. أما نعيمة فقد وقف على السبعين، ونظر خلفه، عبر عشرة عقود، وانتظم تجاربه القروية والمدنية، التعليمية والجامعية، الأدبية والفكرية، في ديار الاغتراب المبكر والمتأخر، وفي الوطن أولاً وآخراً، ثم كتب، فجاء كتابه «سبعون»، في أجزائه الثلاثة، «كلاً ووحدةً».

وكان لقراء نعيمة ومحبيه أمل، هو أن يلحق جزء رابع الأجزاء الثلاثة السابقة، تدوّن فيه حياة الرجل في ربع القرن الأخير.

وفي كتاب من هذا الحجم وبهذه التفاصيل يحار المرء ماذا يختار وماذا ينتقي والرجل أديب ومفكر وفيلسوف وشاعر؛ وفوق ذلك، هو نفسه «وحدة وجود». ولعلّ هذا مما مكّن له أن يكتب سيرته الذاتية بهذه «النظرة الكلية». أما آراؤه في الحياة، والأدب، والنفس، وما إلى ذلك، فهي منثورة في كتبه؛ ويستطيع من أراد أن يطلع عليها، فلا حاجة للخوض فيها. ولكن من المفيد هنا، أن نتصيّد موقفاً خاصاً، يعبّر فيه نعيمة عن لمحة من حياته، بأسلوبه الرائق، أو ننتقي صورة رسمها بقلمه الأنيق، فنجعل منها نموذجاً لتصويره ولتعبيره.

وفي هذه الحالة، قد يكون التركيز على مصادر تفكيره الأدبي، إطلاقاً، أمراً مناسباً. ومعنى هذا أنه يترتب علينا، قبل كل شيء، أن نتعرّف إلى تنقلات ميخائيل نعيمة زمنياً تمهيداً لمحاولة تتبع هذه المصادر التي أشرنا اليها.

ولد نعيمة في بسكنتا في خريف ١٨٨٩ م، وقضى السنين الأولى هناك. ثم ذهب، أو على الأصح، أُرسِلَ إلى الناصرة، حيث ظل هناك أربع سنوات من ١٩٠٢ م إلى ١٩٠٦ م. وفي سنة ١٩٠٦، ذهب إلى بولتافا، في روسيا، طالباً حيث ظل خمس سنوات إلى ١٩١١ م.

وفي سنة ١٩١١، ذهب إلى أميركا الشمالية، بعد أن كان قد وطّن نفسه على الذهاب إلى باريس. وقد امتدت فترة إقامته بالولايات المتحدة من سنة ١٩١١ م إلى سنة ١٩٣٢ م، حين عاد إلى لبنان، وعاد يقيم في بسكنتا، ويشتو في الساحل اللبناني. هذه هي المتنقلات الرئيسية في حياة هذا الرجل العجيب في تفكيره، وفي نتاجه وفي آرائه وفي مواقفه. والغرابة مصدرها، في رأيي، أنها تتسم بالشجاعة والجرأة.

يقول ميخائيل نعيمة، في هذا الذي سماه باب الكتاب:

> «لكن فضول قرائي ـ وهو فضول مغفور ومشكور ـ يأبى الاكتفاء بمشاركتي في حياتي الفكرية. انهم يريدون أن يعرفوا التربة التي نبتت فيها هذه الافكار، والأجواء التي فيها تبلورت، والأسس التي تقوم عليها، والعقبات التي واجهتها وذلّلتها، والتي واجهتها ولم تذللها بعد، وإلى أي حد تساير حياتي أفكاري. وإلى أي حد تغايرها».

وكأن نعيمة، بهذه الكلمات، يستبق هذا الذي فكرنا به نحن، من قبل. إذن فلنحاول أن نختار، من هذا الكتاب، المقاطع التي تعبر عن هذا الذي ذكره المؤلف نفسه ـ الأفكار وكيف نمت وتبلورت وانتصرت وفشِلَت وما إلى ذلك. لنترك مدرسة بسكنتا الوطنية، ولنترك المدرسة الروسية في بسكنتا، ولننتقل إلى الناصرة. لقد كوفىء ميخائيل على نجاحه في مدرسة ضيعته الروسية، بأن اختير ليذهب إلى «دار المعلمين الروسية في الناصرة». وكان حلمه أنه سيصبح معلماً أو حتى مديراً لمدرسة، تحت إمرته معلمون ومعلمات، كما كان حال مدير المدرسة الروسية في الضيعة.

لقد وضع ميخائيل نعيمة في عناوين فهرست كتابه عنواناً للفترة التي قضاها في الناصرة: «بين عالَمَين». فما هما هذان العالمان؟

لا شك في أن العالم الأول كان عالم القرية بسكنتا الذي كان نعيمة يدركه تماماً لما وصل الناصرة، التي كانت «بلدة». لكن العالم الثاني وهو عالم بولتافا، في روسيا، لم يكن قد خُلِقَ حتى في مخيلة نعيمة يومها، لكن نعيمة يكتب «سبعون»، بعد أن أصبح عالم بولتافا نفسه قديماً في ذاكرته، لكنه كان حياً في وعيه. فلنر، على كل، ما الذي تأثر به نعيمة في فترة الانتقال هذه.

يقول نعيمة، عن الناصرة وأثرها في نفسه:

«هنا ـ في الناصرة ـ ومنذ ألف وتسعمئة سنة درج أول ما درج ذلك الطفل العجيب الذي تسبح باسمه الملايين شرقاً وغرباً. انك ههنا، وفي سائر أرجاء فلسطين، يا ميخائيل، لفي دنيا من السحر والبركة. فحيثما مشيت، وانى تطلعت، نبت لك من الماضي السحيق وجوه وأحداث بغير عد... وأحبها اليك وجه المعلم وأحداث حياته...».

ويضيف:

«فالشعور الديني العميق الذي حملته معي من سفح صنين أخذ يزداد عمقاً في الناصرة».

وفي الفصل الذي عقده عن سنواته الأربع في الناصرة، تحدث عن معلميه، العرب والروس منهم على السواء. وقد تذكرت هؤلاء الأساتذة العرب، لأنني عرفتهم في شبابي المبكر. ولعلّ الأثر الثاني، الذي تركته الناصرة ومعلمو مدرسته في نفس نعيمة، هو الذي سماه الشعور الوطني. يقول نعيمة:

«والأهم من ذلك ان المعلم انطون بلان كان أول من نبّه فينا الشعور الوطني. فقد كان يحدثنا، كلما سنحت الفرصة، عن البؤس الذي تعانيه بلادنا تحت النير التركي، وعن استبداد عبد الحميد... فلا بد للعرب، اذا هم شاءوا عيشاً فيه شيء من الاستقلال والكرامة من أن يستردوا أرضهم وحريتهم السليبة. وعلى المسلمين منهم أن يستردوا الخلافة المغتصبة. فالخلافة للعرب وحدهم. ولا يجوز أن تنتقل إلى الأتراك والأعاجم».

وكان انطون بلان حمصي الأصل. وقد تعلم في روسيا. ولا شك، عندي، أن انطون بلان، كان متأثراً بآراء عبد الرحمن الكواكبي، خاصة فيما يتعلق بالخلافة.

وبالانتقال الى عالم نعيمة الجديد ـ إلى بولتافا في روسيا، نتبين أن نعيمة اختير ليذهب اليها، لأنه كان في مقدمة طلاب صفه. وكان إرساله إلى روسيا مكافأة له على جده في العمل، وعمق تفكيره وشعوره بالواجب. وفي بولتافا ـ أو في روسيا على الأصح ـ أدرك شيئاً جديداً ذكّره، ولا شك، بما كان يقوله انطون بلان عن الدولة التركية. يقول نعيمة:

«إنني في روسيا ضيف... ولكنني، وقد امتزجت حياتي بحياة البلاد إلى حد بعيد، أصبحت... أحس الضغط الهائل الذي يتعرض له شعبها «من فوق» ـ من الامبراطور وحاشيته الفاسدة؛ ومن طبقة الأشراف المتمسكة بحقوقها والمغفلة واجباتها نحو الشعب؛ ومن مجلس «الدوما» المحشو بالمحافظين المتهالكين على النفوذ وكرسي الحكم».

ولا ننوي أن نسير مع نعيمة، عبر السنوات الخمس، التي قضاها في بولتافا، في سمنار للدراسات العلمية اللاهوتية، والذي كان يؤهل المتخرجين فيه للدخول إلى الاكاديمية اللاهوتية، لمتابعة الدراسة العليا في اللاهوت. والسمنار كان منه واحد في عاصمة كل ولاية، أما الاكاديميات، فكانت أربعاً لروسيا بأجمعها.

اننا لا نستطيع متابعة نعيمة هناك. ولكننا نستطيع أن نستقرىء عما أفاده نعيمة من هذه السنوات ـ تعلماً ودرساً وقراءة ومعاشرة ومغامرة وحتى ثورة مع طلاب بولتافا في السمنار. يقول نعيمة نفسه، عن الفترة التي قضاها في روسيا:

«لقد كانت فترة جني أدبي وفير، وفترة غليان فكري وفوران عاطفي وامتداد روحي. وكان منها أن فتحت عيني على الضحاضيح التي كانت تعيش فيها بلادي ـ بل جميع البلاد العربية ـ بل الشرق كله وبخاصة في دنيا الفكر والفن والأدب».

ويضيف نعيمة:

«فالكتاب والشعراء عندنا كانوا لا يزالون يتبارون في ستر عقمهم الفكري والروحي بالعبارات المنمقة والقوافي الطنانة».

وأذكر، بهذه المناسبة، أن أول كتاب كامل، قرأته لنعيمة، كان «الغربال»، الذي نقد فيه الكثيرين من أصحاب القلم. لكن كنت قد وقعت على شيء مما كتب في كتاب جمع مختارات من الأدب المهجري، صدر في مصر، في مطلع العشرينات. وقد أعجبت، يومها، بقصيدة «النهر المتجمد». وكم استغربت، لما عرفت، من قراءة «سبعون نعيمة» أن هذه القصيدة صاغها، أصلاً، بالروسية، وهو في تلك الديار.

ويقول نعيمة، عن الفترة في روسيا، أنها مكّنته من التعرف إلى المرأة، بلحمها ودمها. ويقول في ذلك:

«والرجل الذي لا يعرف قلب المرأة ـ لا يعرف قلبه. والرجل الذي لا يحاسب نفسه أدق الحساب عن علاقته بالمرأة تحاسبه الحياة اقسى الحساب عن استهتاره بمقدساته».

وثمة أمر آخر أثارته في نفسه إقامته في روسيا. وهو أن عقله أخذ ينظر إلى أمور الكون وما يتصل به من جديد، ويعيد الفكرة، التي كان قد ورثها عن بسكنتا والناصرة. ويقول:

«أخذت أشعر ان ذلك الثوب يضيق بي، وأن جوانب منه تتفتق وتتمزق باستمرار. ولا حيلة لي في رتقها... ورحت أطرح على نفسي طائفة من الأسئلة، تتلاحق وتلاحقني باستمرار، وتتعلق بكل الأسرار الكونية، التي يمكن ان تثار».

وبعدها انتقل نعيمة إلى المخيم الثالث سنة ١٩١١ م، وظل في الولايات المتحدة إلى سنة ١٩٣٢ م. وفي هذه الفترة، درس القانون والأدب في جامعة ولاية واشنطون، وانتقل الى نيويورك وخدم في الجيش الأميركي. لكن المهم هو أن ميخائيل نعيمة الكاتب، بدأ عمله هناك، وفي هذه الفترة. وفي نيويورك أنشأ هو وتسعة آخرون «الرابطة القلمية». ولعلّ المرء يتساءل عن أول انطباع تركته أميركا، وكانت نيويورك المدينة الأولى التي هبطها وقد جاء بحراً، في نفس هذا الفتى ـ ابن الاثنين والعشرين عاماً.

فقد كتب نعيمة في «سبعون»، يقول:

«كان أخي يتوقع ان تخطف الدهشة أنفاسي عندما أبصرت نيويورك من البحر، وما فيها من ناطحات سحاب... وعندما دخلنا المدينة وسرنا في شوارعها المكتظة بالحركة والناس ولم يكن أخي يدري أن الفترة القصيرة التي أمضيتها في روسيا كانت قد جعلت مني شبه متوحد في فكره وروحه. فقد تركت بولتافا ـ وهي دسكرة إذا قيست بنيويورك ـ وبي نقمة على المدينة التي انحرفت بالانسان عن سبيله السوي وراحت تدفعه في شعاب تحف بها من كل جانب شتى المطامع، ولا يؤنسها شيء من الرحمة والعدل والمحبة، ومن اليقين أنها والسالكين فيها ليسوا للفناء».

ويصف نعيمة نيويورك، وازدحام شوارعها بالناس وبوسائل النقل والتنقل، والعجيج والضجيج اللذين تنعم بهما. وفي وصفه دقة؛ ولكن الشعور هو شعور قرف. وهو شعور استمر معه، بالنسبة الى مدينة الماكينة والآلة، في نيويورك وغيرها.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان نعيمة قد انتهى من دراسته (١٩١٦ م)، وانتقل الى نيويورك. فعمل في جمعية سوريا الحرة. وهناك أنشئت الرابطة القلمية، كما قلنا. لكن فترة خدمة عسكرية، في فرنسا، تخللت ذلك، بعد أن انضم نعيمة الى الجيش. ويصف تجربته، في هذه المدة القصيرة، بكثير من التفصيل، الذي نعيمة قادر عليه، دون أن ننكر ذلك عليه.

ومما قاله، لما انتهت الحرب:

«قبيل ظهر الحادي عشر من تشرين الثاني (١٩١٨) اذ كنا نسير في شارع موحل في قرية متهدمة، التقانا ضابط فرنسي كان يسير وحده فحيانا، ووجهه يطفح بشراً وقال انتهت الحرب. لقد كان لنا أن نقفز فرحاً ـ أن نرقص ـ أن نغنّي. ولكن التعب الذي كان قد أخذ منا، والجوع الذي كان يعضنا، والوحل الذي كنا غارقين فيه حتى الكواحل، والوسخ العالق بأيدينا وشعور لحانا، والقمل الذي كان يرعى في أبداننا ـ كل هذا انتزعت منا حتى الشعور بالفرح. فكيف بالقدرة على التغني به؛ لذلك تابعنا سيرنا وكأن بشارة الهدنة كانت لسوانا».

إلا أن الأمر ينتهي بأن يلتحق ميخائيل نعيمة بجامعة ران بفرنسا، وذلك كان مكافأة له، ولبعض الجامعيين في الجيش. فكان من حظه تحقق حلم قديم له، أن يدرس في فرنسا. وان كان غرض أميركا، من هذه العملية بالذات، توثيق عرى الصداقة مع حليفاتها. وعاد نعيمة بعد ذلك إلى اميركا في صيف ١٩١٩ م، وإلى نيويورك، ليقيم إقامة دائمة فيها. وليُعنى «بالفنون» المحتجبة والرابطة وشؤون الوطن وبنفسه وبآرائه وبقلمه؛ وفوق ذلك، التفتيش عن عمل.

ويصف نعيمة نشاطه ونشاط عبد المسيح حداد، في «السائح»، التي حلّت مكان «الفنون» نادياً، ومستقراً، ومنفساً لأعضاء الرابطة. وهناك وصف مفصل لناحية من نواحي حياة الجالية في نيويورك. ولعلّ من أدق ما كتبه ووصفه حفلة يوبيل الهدى الفضي في نيسان/ ابريل ١٩٢٣ م، وما سبق ذلك من شد وارتخاء، بين الجماعة التي كانت الهدى تخصها، ومن إصرار صاحب الهدى، نعوم مكرزل، على أن تكون الرابطة مدعوة، وأن يكون أحد أعضائها خطيباً. وهناك أمور أخرى، تظهر لنا، مع الأسف، أن أبناء بلادنا، إجمالاً، ينقلون إلى المهاجر خصومات الضيعة، ومهاترات الحي، وتحرشات الأسر. وينفقون الكثير من الجهد في ذلك، بدل أن ينفقوا هذا الجهد في سبيل تثقيف أنفسهم!

ولا يمتنع نعيمة عن ذكر الأمور الخاصة به. فهو، فضلاً عن أنه كاتب وأديب وشاعر ومفكر أو لأنه كاتب وأديب وشاعر ومفكر له أيضاً قلب له حقه في الحياة. ومن ألطف فصول الجزء الثاني، من «سبعون» فصل عنوانه: في «الريف»، هو «قصة قلب» في فترة قصيرة. كذلك المقال الذي كتبه للعدد الممتاز من «السائح»، مع المقدمة التي أدت اليه. والمقال يصف حالة المهاجر الطامع في الثروة، في ديار غير دياره، فلا يحظى بالثروة، ولا ينعم ببلده وطبيعته الأصيلة.

وفي أواخر سنة ١٩٣١ م قرر نعيمة أن يعود إلى وطنه. فقد ذهب إلى اميركا ليتعلم، لا ليهاجر، وقد أخرته الحرب هناك... وقد جاهد بعد ذلك في الحياة الأدبية، وكان له فيها دور كبير. وفي آخر الجزء الثاني من «سبعون»، يقول نعيمة:

«تركت أميركا وليس في جيبي من غناها الفاحش سوى خمسمئة دولار ـ فقط لا غير! وما اللوم في ذلك عليها بل علي. فالدولار لا يغدق نفسه بوفرة إلا على الذين يتعبدون له. وقد تبين لي انني ما كنت... منهم».

ويضيف:

«على أنني إذا لم اغترف من أميركا إلا ذلك النزر اليسير، فقد اغترفت من الخبرة المادية والروحية ما يحسبه زاداً لا يُثمّن بمال. ففي خلال السنوات العشرين التي عشتها هناك تيسّر لي أن أرافق الثورة الصناعية والعلمية والفنية والاجتماعية في أعنف مراحلها».

وعاد نعيمة سنة ١٩٣٢ م، وهنا نقف مع سيرته الذاتية. أما ما تبقّى، وهو الجزء الثالث من «سبعون»، الذي يتناول اثنين وثلاثين من عمره المديد، فيحتاج إلى معالجة لاحقة.

١٣ سوانح خمسين سنة فؤاد الخوري

هذا الكتاب، الذي بين أيدينا، هو مزيج من المذكرات والسيرة الذاتية. ذلك أن فؤاد الخوري، الذي سلخ خمسين سنة من حياته في المحاماة والقضاء والوزارة والنيابة، جاء، بعد هذه المدة، يدوّن ما تستطيع الذاكرة لملمته من شؤون ماضية، وما تقوى على استعادته من صور سالفة

«لما مرّ امامي وحولي من أحداث القضاء والمحاماة في لبنان».

وقد رأى في حياته أخباراً وعبراً وفكاهة، فدوّن ذلك كله تدويناً منطقياً، بلغة صحيحة، دقيقة التعبير، شأن المحامي النابه والقاضي العادل.

وقد استخدم فؤاد الخوري، وهو في الرابعة عشرة من سنّه، في محل تجاري ليفيد مادياً، لكن رغبته كانت أن ينضم إلى جماعة المحامين. ولكن كيف السبيل إلى ذلك، وأين يدرس القانون؟

نحن نتكلم عن لبنان في مطلع القرن، يوم لم يكن في لبنان معهد لدراسة القانون. وهنا يأخذ فؤاد الخوري بيدنا، ليدلنا على كيفية الاستعداد للدخول في ميدان المحاماة. يقول:

«وما كان ولوج باب المحاماة بالأمر الصعب في ذلك الزمن حيث لم يكن في لبنان، وقد كان ذا استقلال اداري، ولا في سائر الاصقاع والمدن التابعة للدولة العثمانية معهد لتدريس الحقوق ما عدا عاصمتها الآستانة. وقد كان تحصيل هذا العلم في معهدها ـ بلغته التركية التي كنت أجهلها ـ على أمثالي ولا سيما من الوجهة المادية صعباً عزيزاً. اجل لم يكن ولوج باب المحاماة صعباً إذ كان يكفي الطالب أن يدرس على قاضٍ ضليع أو محامٍ بارع بأحكام الشرع الإسلامي، في «مجلة الاحكام العدلية»؛ وقانون أصول المحاكمات الحقوقية؛ وقانونَ أصول المحاكمات الجزائية؛ وقانون الجزاء وقانون التجارة. ولم يكن درسها يستغرق عادة أكثر من سنة يقوم بعدها الطالب بممارسة المحاماة مباشرة. أو إذا شاء قدم فحصاً امام لجنة عليا معينة في المتصرفية من رجال الشرع. فينال رخصة بتعاطي المحاماة، ويصبح حالاً في مصاف المحامين، يستطيع أن يرافع لدى اي محكمة شاء من المحاكم البدائية والاستئنافية».

ويعود فؤاد الخوري فيذكر بعض أولئك الذين دَرّس عليهم الحقوق. يقول:

«ومما سهل لي درس الحقوق، وقد صممت على اعتناق المحاماة أن المرحوم ملحم خلف الذي كان يشغل وظيفة المدعي العام في جبل لبنان كان يسكن مع شقيقه المحامي نجيب خلف في بلدتي الحدث. وكنت أثناء ترددي عليهما أجد لذة في الاستماع إلى ما كان يدور بينهما من نقاش فقهي أو حديث في شؤون المحاماة. وكان ملحم يومها يعمل في تاليف كتاب يتعلق بأصول المحاكمات الجزائية».

وقد قبل ملحم أن يعطي فؤاد الخوري دروساً في علم الحقوق، مقابل قيام هذا بنسخ أوراق الكتاب وغيرها.

وبعد سنتين، أي سنة ١٩١٢ م، بدأ فؤاد الخوري العمل بالمحاماة، وأنشأ له مكتباً في الجديدة، مقر قائمقامية المتن. ومما سَرّه في ذلك، أن عهد اليه أحد الوجهاء المثرين بقضاياه العديدة، لقاء بدل سنوي. لكن أمراً طريفاً حدث بعد ذلك، يرويه فؤاد الخوري بقوله:

«ذات يوم، بينما كنت جالساً في مكتبي سألني أن افتش له عن ورقة بيضاء تكون قديمة العهد. فعثرت على ورقة من هذا النوع، ودفعتها اليه. وكم دهشت في اليوم التالي عندما سلمني بعض سندات له على أشخاص طلب مني أن اقدم بها دعاوى عليهم، وبين تلك السندات الورقة القديمة التي طلبها مني في اليوم السابق، وقد تحوّلت إلى سند دين مكتوب بخطه على شخص مهاجر إلى اميركا امضاؤه في ذيل هذا السند مكتوب بخط يشبه خط الموكّل».

ويضيف فؤاد الخوري:

«وبعد شيء من التردد، رددت اليه السندات وسائر أوراق دعاويه، وطلبت منه اعفائي من الوكالة».

ويلاحظ الكاتب فرقاً بين دعاوى أهل المدن ودعاوى أهل القرى في ذلك الوقت. يقول في ذلك:

«لقد دلني الاختبار على أن دعاوى أهل المدن لم يكن في الغالب هدف المنازعين منها سوى المنفعة المالية. أما دعاوى التنافس على تنفيذ الكلمة، فقد كان، ولا يزال، موطنها الدساكر والقرى. وسبب ذلك أن أهل المدن أصحاب مهن وأعمال ومتاجر يشغلهم دائماً العمل فيها والجري وراءها. فلا فضل من الوقت لديهم ينفقونه في غير الكسب والمنفعة. أما القرى، فالعمل فيها قليل، والوقت متسع فسيح للقال والقيل، فينفتح المجال للتنافس ولو في ميادين القضاء على تنفيذ القول والكلمة».

يحدثنا فؤاد الخوري عن أسلوب المحاكمات، في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى. وحري بالتذكر أن فؤاد الخوري كان يتحدث عن جبل لبنان ومتصرفيته. ونحن يهمنا، من جميع المذكرات أو السِّيَر الذاتية، التي اخترناها، أن نعود إلى أبعد الأيام عند هؤلاء الكتاب، لنكشف عن شيء من التاريخ. أما الأمور الحاضرة فلها مكانها، وفي وقت آخر.

يقول الكاتب:

«ولا أنسى أيضاً كيف كان أسلوب المحاكمات في المحكمة البدائية ومرافعات المحامين لديها. فعلى أحد جانبي هيئة المحكمة في قوس المحاكمة يجلس كاتب للقضايا الحقوقية، وعلى الجانب الآخر كاتب للدعاوى الجزائية. فإذا دعي طرفا الدعوى لحضور الجلسة، حضر وكيلاهما أمام الكاتب وأخذ كل بدوره يملي مرافعته املاءً فيدونها في محضر المحاكمة كلمة كلمة. وبعد الانتهاء من تدوينها، يسلمها إلى رئيس المحكمة لتوضع تحت المذاكرة في الوقت المناسب بينه وبين عضوي المحكمة قبل اصدار الحكم».

ويضيف قوله:

«وكثيراً ما كانت تجري المحاكمة والمرافعة في المحكمة التي تكثر قضاياها من المحاكم البدائية ـ على النحو المار ذكره في دعويين معاً بوقت واحد جزائية وحقوقية، تلك لدى كاتب الجزاء وهذه لدى كاتب الحقوق».

ويقول فؤاد الخوري:

«في ذلك العهد كان كاتب ضبط الجزاء في محكمة المتن شاباً في بدء الصبا... حسن العشرة، جميل الطلعة، ابن بيت كريم، محدود المعرفة، بطيئاً في الكتابة. كان يرتبك عند تلقين المرافعة حين تزيد حروف الكلمة عن خمسة. وكثيراً ما كان يدون بعض حروف الكلمة على أن يكمل بعدئذ باقيها، إذا كان الملقن عجولاً».

وقد يستغرب المرء لماذا احتفظ هذا الشاب بوظيفته، ما دامت هذه حاله؟ لكن فؤاد الخوري، يجيب عن ذلك بقوله:

«وعلى الرغم مما كانت حالة هذا الموظف تدعو رئيس المحكمة إلى التمرمر، فقد كان يغض الطرف عنه اكراماً لشخصية محترمة كان ينتمي إليها، وصل إلى الوظيفة بواسطتها».

ومما يذكره صاحبنا، في سوانحه، عن المحاكمات يومها، قوله:

«وعندما يكون رئيس المحكمة من المعروفين بالالمعية والتمرس بالقضاء يصدر الحكم بالدعوى في نفس النهار على اثر تلك المرافعة وعلى اثر مذاكرة خاطفة بينه وبين القاضيين الجالسين على جانبيه».

ويبدو أن اهتمام محامينا، فؤاد الخوري بنظم الشعر ظهر مبكراً نسبياً. لذلك، كان من عمله قصيدة عنوانها: «نجوى قاض» (١٩١٢ م)؛ نظمها لمناسبة امتداد أيدي الزعماء الأقوياء، من السياسيين وأصحاب الأموال، إلى القضاء. فكان، جرّاء ذلك، جنوح بعض القضاة عن جادة الحق.

ونختار، من هذه القصيدة، الأبيات التالية:

ويْحــي انــا القــاضي الــذي اهــواؤه تقضي عليــه بمــا تشــاء وتــامــرُ
ويْحــي أرى درب الــعــدالــة بيّنــا واحيــد عنــه كــانني لا ابصرُ
فيــهيــج مــوج إرادتــي، لكنــه حــالاً عــلى شــاطــي الــهــوى يتكسرُ

ومنها:

يــا قــوم لا تستكبــروا او تنكــروا حــالي، فــانتــم اصلُــهــا والمصدرُ
انتــم فتحتــم للقضــاة جيــوبكــم فقضــوا بمــا شئتــم وشــاء الاصفــر
فمــا تــغــير حــالكــم وتقــومــت اخــلاقكــم فقضــاؤكــم يتــغــيرا!

هذا ما كان عليه الحال قبيل الحرب العالمية الأولى.

ولعله مما يلذ للبعض، أن يعرف شيئاً عن تشكيل محاكم جبل لبنان. يقول فؤاد الخوري:

«كانت محكمة الجنايات واستئناف الجزاء مؤلفة من قضاة كل منهم من طائفة من طوائف الجبل وهي: المارونية والارثوذكسية والروم الكاثوليك والاسلام السنيون والاسلام الشيعيون برئاسة قاض من الطائفة الدرزية. ومثلها قضاة محكمة الاستئناف الحقوقية برئاسة قاض من الطائفة المارونية».
« وعندما يكون أحد المتقاضين في دعوى من طائفة البروتستانت يضاف إلى هيئة المحكمة قاض بروتستانتي عند رؤية تلك الدعوى. وكان المرجع الأخير لتدقيق الأحكام الصادرة عن هاتين المحكمتين محكمة التمييز في الآستانة».

وكانت ثمة قضايا تجارية. لكن:

«لم تكن محاكم لبنان في ذلك العهد تنظر في القضايا التجارية، ولو كانت حادثة ضمن أراضيه وحتى بين لبنانيين، بل كانت تنظر فيها محكمة بيروت التجارية».

وأحسب أن ذلك يعود، إلى أنه لم يكن في لبنان مراكز تجارية كبرى، وأكثر التجارة اللبنانية، أي المتصرفية، كانت تتم عن طريق مرفأ بيروت، الذي كان فيه ميناء حديث العهد نسبياً، ويرتبط مع دمشق والداخل بطريق العربات والسكة الحديدية.

وكان هناك، فضلاً عن ذلك، نوعان من القضاء؛ الواحد القضاء الاداري

«الذي كانت السلطة فيه لمجلس الادارة في المتصرفية. هذا القضاء كان يوزع تكاليف الحكومة سنوياً، ويراقب أنواع الواردات والنفقات وانشاء الطرق وما إلى ذلك».

أما القضاء الآخر، فهو القضاء العسكري. وكان على رأسه مجلس عسكري، يتألف من ضباط.

«هذا المجلس كان ينظر في الدعاوى العسكرية، عندما يكون الجرم عسكرياً بحتاً، أو كان المعتدى عليه من صنف الجند».

وهنا يحدثنا فؤاد الخوري عن موقفه من الوظيفة يومها، فيقول:

«ووضعت نصب عيني الحصول على وظيفة حكومية ـ ولو وظيفة كاتب في بعبدا مركز الحكومة القريب من سكني ـ يضمن راتبها بعض ما يتوجب علي من اسعاف عائلتي. وأخذت اسعى للوصول إلى هذا بجميع الوسائل التي تيسرت لي. وظللت سنة أو سنتين أعقد الآمال على الوعود التي كانت تبذل لي عبثاً».

ويضيف:

«إلى أن فتح الله امامي ابواب الرزق في المحاماة. وبينما كنت أغترف بلذة من مواردها إذ بي ادعى لتسلم الوظيفة التي كنت أطلبها في قلم محكمة الاستئناف الجزائية في بعبدا. وكم دُهِش رئيس المحكمة عندما اعتذرت عن عدم قبولها...».

وفي سنة ١٩١٩ م، أي بعد دخول الفرنسيين إلى لبنان، بُدِىء بتنظيم مهنة المحاماة، من حيث الإذن

بتعاطي المهنة، وما إلى ذلك. ونظمت هيئة المحاماة في شكل نقابة. وقد عينت الحكومة، يومها، رئيس النقابة، ثم تم انتخاب اربعة أعضاء.

يقول فؤاد:

«وفي اول اجتماع للهيئة في ١٩ كانون الأول ١٩١٩ اصدرت اول قرار يتضمن الطلبات التالية. أولاً: ان تكون اللغة العربية وحدها لغة المحاكم الرسمية. ثانياً: ان يكون لجميع المحامين المأذونين الحقوق نفسها. ثالثاً: ان يكون رئيس النقابة منتخباً لا معيناً. ورابعاً: ان تهتم هيئة النقابة بوضع القوانين لسلك المحامين، وتعرض هذه على جمعية المحامين العامة».

ونتبين من هذا، أن المحامين كانوا يشعرون بالدور الملقى على عاتقهم، وبحاجتهم إلى تنظيم المهنة. ويعلق فؤاد الخوري، على المطالبة بأن تكون اللغة العربية، اللغة الرسمية الوحيدة في المحاكمات، بقوله:

«ذلك نظراً لما كان يجمع كلمتهم من الشعور الوطني والتضامن النقابي».

وكان أول نقيب انتخب، هو ألبر قشوع سنة ١٩٢١ م.

وفؤاد الخوري حريص على أن يروي عدداً من النكات، التي كان ابطالها مشاهير رجال القانون في العشرينات، مثل ابرهيم المنذر، والكسي كاتسفليس، وأمين تقي الدين، ويوسف السودا، وغيرهم. وحري بالذكر، أن هؤلاء، كانوا قد هاجروا من لبنان إلى القطر المصري أو غيره، تخلصاً من ظلم الحكم التركي، وعادوا، بعد زوال هذا الحكم، إلى البلاد.

يقول فؤاد الخوري، عن أمين تقي الدين:

«كان امين تقي الدين من حملة الاقلام الذين غادروا وطنهم لبنان الى القطر المصري كسباً لحرية القلم وتخلصاً من ظلم الحكم التركي. فكان يسمع صوت بيانه في لبنان من منبر مجلة الزهور أو نوادي الأدب المصرية. وعاد بعد الاحتلال الفرنسي إلى وطنه وتعاطى المحاماة مع جبرائيل نصار... وقد بقي جانب الأدب طاغياً عنده على المحاماة. فما كتب مرافعة في قضية الا استهلها او ختمها بقطعة تجلى فيها حسن الصياغة وزهو البلاغة».

«وكان في ساعات الفراغ من المحاماة يلتف حوله الزملاء يستمتعون بمنظوم جديد له، او بجزء ادبي من مرافعة، او بما يروى عن المحدثين من أعلام الشعر الذين عرفهم في مصر شخصياً مثل خليل مطران وأحمد شوقي وحافظ ابرهيم واسماعيل صبري، صاحب القول:

اقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة	ولا بشافعة في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمنا	حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا».

ولفؤاد الخوري صور، رسمها لشخصيات قضائية وقانونية طريفة جداً. منها ما قاله، عن الشيخ محمد الجسر، وهو:

«نقلت محكمة الاستئناف إلى بيروت (١٩٢٠) وقلد منصب رئاسة محكمة الجنايات واستئناف الجنح الشيخ محمد الجسر... ومع أن الشيخ محمد ما تولى قبل رئاسة هذه المحكمة منصباً قضائياً بل وظائف ادارية، فإنه لم يمض عليه سوى وقت قصير جداً حتى تجلّت كفايته القضائية بأجلى مظاهرها، ولمع ذكاؤه الفطري بصورة جعلت رفاقه في هيئة المحكمة، وجميعهم قضاة قدماء، يعترفون بل يستسلمون لآرائه في القضايا التي تكون لديهم قيد المحاكمة».

ومن الأشياء، التي اختفت من بيروت، شجرة قصر العدل، وذلك منذ أن نقل قصر العدل، من مقره القديم إلى جهات المتحف. وقد وصف فؤاد الخوري هذه الشجرة، بقوله:

«تتوسط قصر العدل ساحة وسيعة مكشوفة تشمخ في جوانبها ثلاث شجرات من نوع الشجر الافريقي ذي الورق العريض، لها جذع ضخم وفروع متعددة وأغصان كثيفة ممتدة. كان المحامون يتفيأون ظلها زمراً

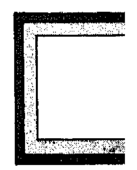
وفئات على مقاعد خاصة بهم بين تناول قهوة او مبردات لاستراحة بعد مرافعة، أو لتشاور في مسـألة. ويكثـر تجمعهم عندما يرتفع صوت أحدهم بنكتة بارعة أو حديث جذاب أو خبر طارئ».

وقصر العدل، كان، في أيام الأتراك، قشلة. لذلك، فإن المحامين لم يعرفوا ظـل هذه الشجـرة الوارف، إلا بعد أن خرج منها ضباطها وجنودها وسياطهم، وأصبح المبنى للعدل، والشجرة للظل.

وهنا نقف مع السوانح، فنحن لم نقصد أن نتناول الكتاب بكامله.

القِسمُ الرّابع

لبنان في كِتاباتِ الآخرين



١

لماذا كتبوا عن لبنان

من المفيد جداً أن نتعرف إلى كتابات الآخرين، أي غير اللبنانيين، عن لبنان، بلداً وشعباً وحضارة. على أن الأمر الذي شغلني، هو سؤال دار في خلدي، لما بدأت أفكّر في هذا الموضوع. لماذا اهتمّ الآخرون بالكتابة عن لبنان؟

السؤال ولا شك مهمّ، ولعل الإجابة عنه توضح لنا الطريق، التي يجب أن نسلكها، في متابعتنا للموضوع. ونذكر، قبل كلّ شيء، أن الكتابة عن لبنان ليست أمراً حديث العهد. فقد ورد ذكر أجزاء منه في القرن العشرين قبل الميلاد، في نصوص ووثائق عديدة. وهنا سنترك الأسطورة جانباً، وإلا كان علينا أن نعود إلى ما قبل ذلك بكثير.

ورغبة منا في الاجابة عن السؤال، «لماذا اهتمّ الآخرون بالكتابة عن لبنان؟»، يتوجّب علينا أن نلقي نظرة على طبيعة هذا البلد، وموقعه بالنسبة للرقعة المحيطة به، والتي تشمل، بحسب التقسيم الحالي، سوريا وفلسطين والأردن وتركيا والعراق ومصر. وبطبيعة الحال، إن هذا التعداد، لا يقتصر على الجيران المباشرين. وهذا أمر طبيعي، فالحدود السياسية، قديمها وحديثها، ليست هي التي تعيّن التأثر والتأثير. فتنقّل الناس كان حرّاً، في الأيام الغابرة وفي أيام الامبراطوريات الواسعة خاصة. لكن هذا التنقل، هو الذي يؤدّي إلى تبادل المنافع، والمتاجر والآراء، وعناصر الحضارة بأجمعها.

ولعلّ النقطة الأولى، التي يجب أن تذكر حول موقع لبنان، هي أنه يقتعد ساحلاً على البحر المتوسط، ويحوي سلسلة جبال مرتفعة، توازي هذا الساحل ويلي ذلك سهل البقاع الواسع الخصب الجميل. وهذا يمتد شرقاً حتى قمم لبنان الشرقي. ومن هناك تبدأ الأراضي السورية.

وهذا السهل الساحلي، أو سلسلة الجيوب الساحليّة الصغيرة، المتدة من الشمال إلى الجنوب، يحتضن كلٌّ منها ميناءً كان، بالنسبة للعصور القديمة، ذا موقع هام. فطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور ـ ونكتفي هنا بالأهم والأكبر من الموانىء اللبنانية ـ كانت على اتّصال مستمرّ، منذ أن ركب أهلها البحر، غرباً وشمالاً، ومنذ أن خاض أهل البلاد، القاصية والدانية، البحر، وصولاً إلى موانىء لبنان. فكانت السفن تذهب من هذه الموانىء الى مصر وآسيا الصغرى مثلاً، بل إلى أبعد من ذلك تدريجاً. فقد تبادلت هذه الموانىء الزيارات، التجارية طبعاً، مع موانىء البحر الإيجي، ثم مع موانىء شمال افريقية، وصقليّة، وجنوب فرنسا، واسبانيا. وكانت الصلات التجارية، بين هذه الموانىء المتوسطية، جميعها، نشيطة على طول الزمن؛ ولو أن هذا النشاط كان يتعثر أحياناً.

ومعنى هذا الكلام، هو أن موانىء لبنان، الفينيقيّة الكنعانيّة، كانت تتلقى مختلف أنواع المتاجر، من الجهات البحرية والديار التي تقع خلفها. ولكن ماذا كانت هذه الموانىء تصنع بكل ما كان يُحمل إليها؟

من المعروف أنه قام، منذ الألف الثالث قبل الميلاد، في الرقعة التي رسمنا حدودها العامة في البدء، قطران، كلّ منهما كان غنياً، وكلّ منهما كان لديه «فائض» من نتاجه، وكلّ منهما كان يحب أن يبيع هذا الفائض، ليحصل، في مقابله، على أشياء غير موجودة عنده. والقطران هما: أرض الرافدين ووادي النيل.

وكان هذا نتيجة لقيام المدن في أرض الرافدين، وتنظيم الريّ هناك، وفي وادي النيل، والاهتمام بالصناعات، والاهتداء ـ تدريجاً ـ إلى استعمال المعادن ـ النحاس ثم البرونز ثم الحديد. ثم انضمت آسية الصغرى إلى هذين القطرين.

أما المتاجر والسلع والبضائع، فكانت تنقل من أي من هذه الأقطار الثلاثة إلى الآخر، عبر البحر الذي يصل بين آسية الصغرى ومصر. لكن السفن القديمة الصغيرة، لم تكن تستطيع قطع المسافات الطويلة، على دفعة واحدة. فكان لا بدّ لها من موانىء تتوقف فيها، وتلجأ إليها. ويبدو أن الموانىء اللبنانية والفلسطينية، وهي الفينيقية ـ الكنعانية، كانت هي المحطات الضرورية، للتجارة والسفن.

وكان لا بدّ أن ينتج عن ذلك أمر آخر، وهو أن ربابنة هذه السفن، والتجار الذين تحمل السفن بضائعهم، أصبحوا، مع الوقت، يبيعون بضائعهم، في هذه الموانىء، إلى التجار فيها، ويبتاعون بعض ما يحتاجون، ويعودون إلى بلادهم، مختصرين الرحلة الطويلة الشاقة.

وأخذ بحّارة هذه الموانىء وتجارها يذهبون، في سفنهم، إلى الموانىء الأخرى، القريبة والبعيدة. فيحملون إليها ما عندهم، ويعودون منها بما يجدونه فيها. ولذلك، أصبحت هذه الموانىء، التي تعمر الشاطىء، من أوغاريت، أو رأس الشمرا شمالاً، إلى غزة جنوباً، أسواقاً ومخازن؛ يعثر فيها المرء على الكثير من البضائع.

وكانت هذه الموانىء، الممتدة من آسية الصغرى إلى مصر، تتصل بطريق بريّ، يصل بينها. وقد عرف هذا الطريق قديماً، لكن لما استولى الرومان على المنطقة، بنوا طريقاً آخر، ورصفوه بالحجارة. وكان هذا طريق العربات في أيامهم.

أما المدن، الكثيرة والكبيرة، التي قامت في الجزء الجنوبي من أرض الرافدين، في أرض سومر أو شنعار ـ فكانت لها علاقات تجاريّة مع الخليج العربي، وما وراء الخليج العربي. وكانت لها صلات مع آسية الصغرى. وكانت تتصل بمصر، عن طريق سوريا ولبنان وفلسطين. إذ كانت القوافل، القادمة من أرض الرافدين، تفرغ أحمالها في المدن الداخلية، مثل: حمص ودمشق وبيسان. ولكن القسم الأكبر من هذه الأحمال، كان ينتهي به الأمر في الموانىء. وكان لجبيل وصيدا وصور حصة الأسد.

ويعود ذلك إلى المهارة التجارية، التي كان أهل هذه المدن يتمتعون بها، واستعدادهم للإفادة من موقع مدنهم وإفادة زبائنهم. وهكذا، فقد أصبحت هذه الموانىء المتوسطية اللبنانية وغيرها، هي مراكز التبادل التجاري، الذي كانت المنطقة تحتاج إليها، كي تحصل كل جماعة على ما عند الآخرين.

والجدير بالذكر، أن الممرات الطبيعية، بين بعض الموانىء والمدن الداخلية، كانت ذات أثر في السير التجاري. فهناك ممر طرابلس حمص؛ وممر صيدا مرجعيون دمشق؛ وممر بيروت دمشق، الذي كان الأقل استعمالاً في القديم، بسبب سقوط الثلوج على منطقة ظهر البيدر وما حوله، في فصل الشتاء، بحيث كان الطريق يقفل لمدة طويلة.

وكان التاجر هو الذي ينقل البضائع، ويسد حاجات الناس. لكن قيام الامبراطوريات في المنطقة، وتوسعها العسكري جعلاها المشرف على الطرق والتجار والتجارة. وقد بدأ هذا حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م.، على يد المصريين والسومريين والآكديين؛ ثم على يد المصريين ثانية، في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ثم على يد الآشوريين والكلدانيين والفرس، خلال الفترة الممتدة من القرن الثاني عشر ق.م. إلى القرن السادس قبل الميلاد.

اذن، كان لبنان مستقراً لحضارته الخاصة؛ وممراً للحضارات المختلفة، التي عرفت في المنطقة

بأسرها؛ وتاجراً، يسهل للزبائن الحصول على حاجاتهم؛ من نحاس آسية الصغرى وقبرص وسيناء؛ وفخار أثينا والعالم الايجي؛ وخيول الهكسوس؛ وعاج افريقيا؛ وخشب الابنوس، الذي كان ينقل من أواسط افريقيا إلى مصر، ثم إلى لبنان؛ وقماش الكتان، وجلود الثيران. وحتى الأسماك، كانت تنقل من مصر إلى بلاد الشام.

ويظل للبنان فضل آخر على المنطقة، يتمثل بأخشابه. فخشب الأرز والشربين، كان يلزم، بكثرة، لكل من أرض الرافدين ووادي النيل.

وكان هؤلاء التجار يحبون، عندما يستطيعون ذلك، أن يدوّنوا أخبار تنقلاتهم. إلا أن الملوك، كانوا على ذلك أقدر، وإليه أسرع. إذ كانوا يدوّنون أخبار معاركهم وانتصاراتهم، نقوشاً على جدران الهياكل، أو يقيمون لذلك نُصباً خاصة. وللتدليل على أهمية أعمالهم الحربية، كانوا يذكرون المدن التي احتلوها؛ وهدموها؛ وما حملوه منها، من مغانم؛ وما فرضوه على السكان، من مغارم؛ وكم صادروا من الأملاك؛ وعدد الأسرى والسبي. ولعلّ بعضهم، كان يبالغ في ذلك.

وكان ثمة من يقصد لبنان زائراً أو هارباً من ظلم. ومن هؤلاء وأولئك، كان يقوم من يتغنّى بجمال هذا البلد وطبيعته. فجباله السامقة، وأوديته السحيقة، وينابيعه المتعددة، وغاباته الجميلة، وطيوره الغرّيدة، وبيوته الفريدة، شكلاً وبناءً، وحدائقه الغناء، وبساتينه الفيحاء، والثلج الذي يغطي قمم جباله، وقد يغطي من الجبال حتى الخصور، كل تلك أمور تثير، في نفس الزائر، الرغبة في أن يقول شيئاً، عن هذا البلد وأهله.

وجميع هذا، الذي أشرنا إليه، وارد في النقوش والنصوص والأخبار والرحلات والأشعار ـ ومنها الكثير الكثير ـ التي وضعها المئات من الكتّاب والرحّالة عن هذا البلد وأهله.

لكن، من الطبيعي أننا لن نتمكن من الإحاطة بهذه الكتابات جمعاء. والسؤال، أو السؤالان، على الأصح اللذان يتبادران إلى الذهن هما: أين نبدأ؟ وكيف نتخيّر من نتحدث عنهم، أو ما نتحدث عنه؟

وفي اعتقادنا أن تخير الأشخاص، الذين كتبوا عن لبنان، ووصفوه، أساسه تقديم نماذج منتزعة من أكثر العصور، إن لم تكن منها جميعها. وسنفتش عن أقدم أثر مدوّن، جاء فيه ذكر للبنان، وكتبه الآخرون، لنبدأ به.



٢ لبنان في النقوش القديمة

يردُ اسمُ لبنان في كثير من النصوص والنقوش والوثائق القديمة. ومن الطبيعي أن نقع على بعض النصوص الطويلة، نسبياً، فضلاً عن بعض النصوص التي لا يعدو كونها إشارة إلى لبنان، أو إلى مدينة من مدنه.

وفي الواقع، لن نُعنى هنا بما هو إشارةٌ إلى اسم لبنان؛ بل سنعنى، بشكل خاص، ببعض النصوص الطويلة، نسبياً.

ولنبدأ بواحد، من أقدم النصوص التي بين أيدينا، وهو أخبار سنوحي. كان هذا نبيلاً مصرياً، يشغل منصباً كبيراً في بلاط الفرعون امْنِمَنْحت الأول، الذي توفي حوالي سنة ١٩٦٠ ق.م. وخشي سنوحي على نفسه، فخرج من مصر هائماً على وجهه إلى فلسطين، ثم إلى بلاد الريتنو. التي شملت شمال فلسطين والجزءين الجنوبيين من سوريا ولبنان، ووصل إلى جبيل، أي بيبلوس.

ومن سوء حظنا، أن الجزء الذي يلي ذلك من النقش تالف. لذلك، فإننا لا نعرف ماذا حدث له في جبيل. إنما الذي يمكن تصوره، أن وصوله إلى هذا الميناء، لم يكن مجرد مصادفة. فقد كانت جبيل، يومها، الميناء الرئيسي للعلاقات الفينيقية ـ المصرية التجارية. ومهما كان نوع العلاقات التجارية، فالمهم أن مصر وأرض الرافدين وغيرهما، كانت تتاجر مع المدن الفينيقية. فتبتاع، وتبيع، وتقايض سلعاً بسلع. وقد بدأت هذه التجارة في القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

لكن، منذ أواسط القرن الخامس عشر ق.م.، أصبحت العلاقات مع مصر تقوم على الفتح. وكذلك مع أرض الرافدين فكانت حملات الفرعون تحتميس الثالث، الذي حكم من سنة ١٤٩٠ إلى ١٤٣٦ ق.م.، والذي وسع حدود مصر كثيراً، وجعلها امبراطورية واسعة. ذلك أن مصر، بعد طرد الهكسوس من ديارها، سنة ١٥٦٧ ق.م.، أخذت توسع رقعة نفوذها في أفريقيا وفي آسية. وكانت حملة تحتميس الثالث الأولى والمهمة هي التي تغلب فيها على أمراء الكنعانيين في معركة مجدّو، سنة ١٤٦٩ ق.م.؛ وقد صرف سبعة شهور في حصار هذه المدينة، المعروفة أيضاً باسم اللجون أو تل المتسلم، والواقعة في شمال فلسطين. وفيما كان الجيش المصري يحاصر مجدّو، بقيادة تحتميس؛ أرسل هذا فرقة من جيشه إلى لبنان الجنوبي، فاحتلت تلك الأجزاء من لبنان، وبنت حصناً قوياً في تلك الجهة. لكننا لا نعرف مكان هذا الحصن تماماً. لكن يبدو أن هذه الحملة، لم تؤد إلى احتلال لبنان. لذلك، نجد الفرعون يرسل رئيس المحاسبين في بلاطه إلى صور، في لبنان، ليبتاع الأخشاب اللازمة لبناء مركب الإله «رَعْ» الاحتفالي. إلا أن الحملات، الست عشرة، التي تلت ذلك، كانت نتيجتها أن وقعت المدن الفينيقية تحت السيطرة المصرية؛ وأصبح الاتّجار بين البلدين خاضعاً للنفوذ والسلطة المصريين.

ويبدو أن الحصول على أخشاب الأرز، كان أمراً ضرورياً، لبناء مركب الإله رع، سنوياً، في مناسبة معينة. لذلك، فإن نقش سيتي الأول، حاكم مصر بين ١٣١٨ و ١٣٠١ ق.م.، يُظهر لنا الآسيويين (وهي هنا تعني سكان المنطقة الممتدة من جنوب فلسطين إلى شمال سوريا وإلى أرض الرافدين شرقاً) يقطعون الأشجار، تمهيداً لشحنها إلى مصر، لبناء السفينة المذكورة.

ثم ضعفت الامبراطورية المصرية، وفقدت سلطتها على المدن الفينيقية. لذلك، نجد وينامون يرسل الى فينيقيا وكيلاً تجارياً، ليشتري الأخشاب اللازمة. وهذه الأخشاب، يجب أن تكون من الأرز، لأنها ستستعمل أيضاً لبناء مركب الإله رع. فقد أصبح استعمال أخشاب الأرز جزءاً من الطقوس المتعلقة بهذه الاحتفالات الدينية للإله رع.

وقد حمل ويناموّن معه ذهباً وفضة، ثمناً للأخشاب. وهذا معناه، أن الرسول التجاري جاء مبتاعاً للأخشاب. ولعله كان ينوي شراء أشياء أخرى، من مدن الساحل اللبناني ـ الفلسطيني.

لكن، فيما كانت السفينة، التي حملت ويناموّن ومساعديه وأمواله، تتزود بالمؤن، في واحد من الموانىء في الطريق، سرق بحار من بحارتها الذهب والفضة، وهرب بهما. ولم يتمكن المسؤولون، في ذلك الميناء، من القبض عليه. وبطبيعة الحال، لم يجد أمير تلك المدينة أنه من واجبه التعويض على ويناموّن، لأن اللص كان من جماعة التاجر المصرية. ولم يكن مواطناً من الميناء ولعله دور.

ومرّ ويناموّن بالموانىء، الواحد بعد الآخر. ومع أن النص المتعلق بهذا الجزء من مذكرات ويناموّن، إذا جاز التعبير، مشوه فالمهم، بالنسبة لنا، هو ما تبقى. ونحن نجد هذا التاجر الرسمي في صور ثم في جبيل. وهنا تتخذ قضية التاجر شكلها النهائي.

وفي جبيل، استعاد ويناموّن ما يعادل الفضة التي سرقت منه؛ وهو ثلاثون دِبناً، ولكنه لم يحصل على الذهب أو ما يعادله. وبحكم أنه يملك ثمناً للأخشاب، فقد أوصى عليها، فقُطعت من الغابات المجاورة لجبيل، وحُملت إلى الميناء، ووُضعت في السفينة. وكان ويناموّن ينتظر غَسَق اليوم التالي، ليُقلع نحو مصر، لما وصله الأمر من زكر ـ بعل، أمير جبيل، بأن يتوقف عن السفر، ويأتي إلى بلاطه.

وانصاع ويناموّن للأمر، مكرهاً، وذهب إلى القصر وهناك، سأله الأمير عن أوراق هويته، والرسائل الرسمية، التي تُخوِّله حق شراء الأخشاب، لمناسبة دينيّة رسمية. وكانت أوراق التاجر قد انتُزعت منه، في آخر مخفر مصري.

عندها قال له الأمير:

«لقد مر عليك، كما قلت، خمسة أشهر ويومٌ واحد منذ أن غادرت هيكل أمون ـ رع. وأنت لا تحمل تذكرة هوية؛ ولا رسالة من الكاهن الأعلى؛ ولا أمراً رسمياً، يسمح لك بشراء الأخشاب. وأنت مررت بصيدا، وقضيت بعض الوقت هنا. في صيدا ومدينتي (أي جبيل)، يوجد سبعون سفينة تنقل المتاجر بين مصر وهذه المدن. ومنها نحو خمسين سفينة تعمل لحساب التاجر المصري الكبير ورقت ال».

فما الذي كان يرمي إليه زَكَر ـ بعل، أمير جبيل، من ذلك؟ من الواضح، أنه لم يكن يعرف ويناموّن، وهو التاجر الرسمي، للصلات التجارية بين البلدين. ويبدو أن أمير جبيل، كان يشير إلى أن التاجر المصري الرسمي، كان باستطاعته، لو كان صادقاً، أن يحصل على تعريف، أو كفالة، أو حتى المال اللازم من أحد ربابنة هذه السفن، المعروفين في جبيل؛ في حين أن ويناموّن، لم يكن معروفاً، أو على الأقل لم يتعرف عليه أولئك التجار.

وقد دوّن التاجر المصري في بُرديَّة طويلة، الحوار الذي دار بينه وبين أمير جُبيل، إذ أن التاجر قال له:

«إنني قَدِمت بلدك لأحصل على الأخشاب اللازمة لبناء السفينة العظيمة لاحتفالات ملك الآلهة، رع. وهذا أمر مألوف فقد أرسل ابوك الأخشاب، وأرسل جدك الأخشاب».

وقال له الأمير:

«نعم لقد فعل أجدادي هذا. ولكنهم فعلوا ذلك في مقابل أشياء لقد أرسل المصريون أيام أبي وجدي ست سفن محمَّلة بالسلع المصرية أفرغت حمولتها في مخازنهما فما الذي تحمله أنت لي أنا بالذات؟».

ثم نشر الأمير برديات بين يديه، وقرأ منها، على مسامع التاجر، ما دل على أن التجار دفعوا، فضلاً عما حملوه، نحو ألف دِبْن من الفضة.

يتضح من هذا القول، أن زكر ـ بعل، أمير جبيل، كان يحصل على شيء مقابل السماح للأخشاب بأن تُحمل الى مصر. فقد أضاف:

«انا لست تابعاً لأولئك الذين ارسلوك، لذلك بعثوا معك بالفضة والذهب. لكن أين السلع المصرية المألوفة؟».

قال التاجر:

«سيصلك ما تريد. ابعث إلي بأمين سرك، لأحمله رسالة إلى أمراء الأطراف الشمالية في مصر، وهم يقومون بأعمالهم هناك بتفويض من أمون. وعندما يعود يكون قد جاء معه بما تطيب له نفسك».

وهذا ما حدث. فقد عهد أمير جبيل برسالة وينامون إلى أمراء الأطراف، إلى أمين سره، وهذا نقل الرسالة اليهم. إلا أن أمير جبيل، أرسل معه سفينة محملة بالأخشاب كانت جُزءاً ممَّا أراد التاجر المصري أن يبتاعه أصلاً.

وقد تم كل شيء على ما أراده وينامون. وتقول البردية:

«عاد الرسول من مصر في الوقت المعين حاملاً معه، ذهباً وفضة فضلاً عن عشر قطع كبيرة من الكتّان الملكي. وعشر بالات من الكتان الجيد من مصر العليا، وخمسمئة لفة من ورق البَرْدي المصنع أي الجاهز للكتابة عليه، وخمسمئة جلد ثور وخمسمئة حبل، وعشرين كيساً من العدس، وثلاثين قفصاً من السمك».

وحمل رسول الأمير إلى وينامون هدايا شخصية كي يفيد منها لمصلحته.

وقد سر زكر ـ بعل، أمير جبيل من ذلك وأمر ثلاثمئة رجل، ومعهم ثلاثمئة من الابقار، بالخروج إلى الغابات، لقطع الأشجار وإعداد اللازم من الأخشاب. وقد تركت الأخشاب موسماً كاملاً في الجبال، كي تجف؛ ثم نقلت إلى جبيل، حيث حملت، وغادرت الميناء. على أن خصوم وينامون، لحقوا به في عرض البحر. وألقت به العواصف إلى قبرص. فتبعه خصومه. لكن أميرة قبرص أمنته على نفسه . والذي نعرفه مع أن ورقة البردي، المدون عليها أخبار وينامون تالفة عند هذه النقطة، هو أن الرجل وصل بسفينته وحمولتها إلى مصر.

ودليلنا على ذلك، أن المدوَّنة رواية شخصية، بقلم وينامون. وما كان ليدوّن قصته لولا أنه عاد إلى مصر حياً، ومعه سلعه وتجارته.

وفي القرن الرابع عشر ق.م.، بدأت دولة الحثيين تؤسس ملكها في آسية الصغرى؛ ثم أخذت تتوسع في سوريا. وفي أول القرن الثالث عشر ق.م.، اشتدت المنافسة والخصومة، بين المصريين والحثيين، في سوريا ـ فوصل هؤلاء إلى أواسط البلاد. ووقعت بين الفريقين معركة قادش، حول سنة ١٢٨٠ ق.م. واتضح بعدها، للفريقين، أنهما متعادلان، وأن أياً منهما، لن يتمكن من كسب نصر حقيقي على الآخر. فعقد الملكان، المصري والحثي، معاهدة في تلك السنة، بحيث أصبحت المنطقة، الواقعة إلى الشمال من خط يمتد من نواحي حمص إلى الشاطىء شمالي طرابلس، تابعة للحثيين؛ وظلت الأجزاء الجنوبية تابعة للمصريين.

ومع أن لبنان لم يشترك في هذه المعارك، فإن المعاهدة ظهر عليها اسم إلهة لَبْلانا والمقصود لبنان. ووضع أسماء الآلهة، التي كانت تعبد في المنطقة بأكملها، على المعاهدة، هو لتقويتها. فالآلهة لم تكن شهوداً فقط، بل كانت ضمانة للحفاظ على الاتفاقية، لإحلال السلم في البلاد.

ومن المعروف أن مدن سومر وأكْد ومدن شمال العراق كانت لها صلات تجارية مع مدن الساحل الشامي بأكمله. وجدير بالذكر، أن الموانىء التالية: رأس الشمرا (أوغاريت) وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا ودور ويافا وغزة؛ والمدن الداخلية التالية: حلب ودمشق وتدمر وبصرى والبتراء؛ كانت الأسواق الرئيسية، حيث يتبادل التجار السلع والمتاجر والبضائع بالجملة. ولم تكن جميع هذه المدن، والداخلية منها خاصة، متعاصرة.

ولسنا هنا في صدد الحديث عن أدوار هذه المدن التاريخية، بل نحن معنيون بناحية خاصة وهي: ما الذي دوّن في مدن المنطقة الواسعة عن لبنان؟ وحتى هذه المدوَّنات إنما ذكرناها بشكل عام. وقد ذكرنا

ما وجد منها في مصر. لكن من المفيد الانتقال الى المشرق، إلى أرض الرافدين. وهنا لن نرجع القهقرى إلى القرون الثلاثين أو العشرين، بل نود أن نتناول نقشاً أحدث عهداً.

نحن نعرف أن النقوش التي لدينا من أرض الرافدين، لا تحملنا القهقرى إلى مثل العهود المصرية القديمة. ولأننا نحن لا نؤرّخ للمدن، ولكننا معنيون بالنقوش المتعلقة بلبنان، فإننا لا نبحث هنا عن نقوش يشكّ الباحثون بصحتها. ومن هنا، فإننا سننتقل عن نقش يعود إلى أيام تغلات بلاسرّ الأول، الذي ملك آشور، بين سنتي ١١١٤ و ١٠٧٠ ق.م.، لا إلى قبله.

والمعروف عن هذا الملك، أنه كان، في أيامه، من كبار الفاتحين. لذلك فقد دوّن أخبار حروبه ومعاركه في نقش أشار فيه إلى انتصاراته الأولى، التي كان الإله أشّور عونه فيها على البلاد الواقعة إلى الغرب من مملكته واحداً واحداً. وكان من الطبيعي أن يأتي على لبنان.

وهذا ما ورد في النقش، عن لبنان:

«ذهبت إلى لبناني (لبنان) حيث قطعت الأشجار للحصول على خشب الأرز اللازم لهيكل انو و أدد، الإلهين العظيمين، وحملت ذلك إلى أشور. أتممت بعد ذلك سيري إلى بلاد أمورّو (سورية). وقد أخضعت بلاد امورّو بكاملها».

ويستمرّ الملك قائلاً:

«لقد دفعت كلّ من ببلوس (غبال) وصيدا (صيدوني) وأرواد (أرمادا) الضريبة التي فرضتها عليها. وركبت بعد ذلك سفينة أروادية إلى سموري. وفي طريقي اليها، قتلت حيواناً بحرياً، يسمونه فرس البحر».

ويأتي دور أشّور نصر بعل الثاني، ملك آشور من سنة ٨٨٣ حتى سنة ٨٥٩ قبل الميلاد. وكان هذا الملك محارباً، طويل الباع. وفي النقش الذي خلّد فيه أعماله الحربية يذكر انتصاره على عدد من الملوك، وفرضه الضريبة عليهم، ومنهم ملك كركميش الحثي، وملك حثينا، وملك أريبو، وهذه المنطقة حثيّة أيضاً. ثم وصل إلى أمورّو.

وهنا يأتي الجزء الذي يهمنا من النقش. وفيه يقول أشّور نصر بعل:

«ثم استوليت على جبل لبنان بكامله، ووصلت البحر الكبير الذي يحاذي بلاد أمورّو. وقد غسلت أسلحتي في مياه البحر العميق. وقدّمت ضحايا من الكباش لجميع الآلهة. وكانت الضريبة التي حصلت عليها من مدن الساحل ـ صور وصيدا وجبيل ومحلاّتا ومن أرواد، التي هي جزيرة في البحر ـ تتكوّن ممّا يلي: الذهب والفضة والقصدير والنحاس والأوعية النحاسية والثياب الكتانية المزخرفة الحواشي والقرود والسعادين وخشب الأبنوس والعاج وخشب الدارصيني».

ويشير الملك، في النقش، إلى أنه صعد إلى جبال أمانوس، حيث قطع الكثير من الأشجار، من الأرز والشربين، وبعث بذلك كله إلى بلاده.

ومنذ أيام أشّور نصر بعل، أخذ ملوك آشور بالاهتمام بالسيطرة الدائمة على البلاد التي يحتلّونها. ومن هنا نجد أن خلفاءه اهتموا بذلك. لكن موضوعنا لا يحملنا على الوقوف عند عمل كلّ من هؤلاء الملوك. فلا بد من الانتقال الى نقش خلّفه تغلات فلاسرّ الثالث، ملك آشور، من سنة ٧٤٤ إلى سنة ٧٢٧ ق.م. وقد انتصر هذا الملك على ملوك الممالك الآرامية، التي كانت قد قامت في بلاد الشام الشماليّة، قبل أيامه بقليل، ودمّر بعض المدن، بعد أن حصل منها على الضريبة المفروضة.

والمدينتان اللبنانيتان، اللتان يرد لهما ذكر في نقوشه المتعددة هما جبيل وصور. فالأولى، ورد ذكرها إلى جانب الممالك الآرامية. أمّا صور فيقول عنها:

«أرسلت أحد ضباطي الى صور الذي تسلم من ملكها متّنا مئة وخمسين وزنة من الذهب ضريبة».

ولم يكن هذا الشيء الوحيد الذي فرضه الملك الآشوري على صور. لكن النقش مكسور بعد كلمة «ذهب».

والذي نصل إليه، من قراءة النقوش الآشوريّة، هو أن الملوك كانوا، الواحد تلو الآخر، يقومون بالحملات العسكرية، ويخوضون المعارك، ويحتلّون المدن، ويهدمون أسوارها، ويأسرون سكانها، ومع ذلك، كانت هذه المدن تثور، وكان لا بد من فتحها ثانية.

ولعلّ الأصحّ القول بأن هذه المدن، كانت تثور بسبب هذا التشدّد الآشوري، الذي كان يصل حد الهمجيّة أحياناً. والنقش الذي خلفه أسرحدّون، ملك آشور بين سنتيّ ٦٨٠ و ٦٦٩ ق.م.، والذي يرد فيه ذكر مدينة لبنانية، هي صيدا، يدل على ذلك.

وقد ورد في النقش المذكور:

«أنا أسرحدّون قاهر صيدا الذي سوّى جميع مبانيها بالارض. بل إنني هدمت أسوارها وأسس الأسوار والقيت بالحجارة والتراب في البحر. وبذلك أزلت من الوجود معالمها بل حتى المكان الذي كانت صيدا تقوم عليه، حتى لكأن عاصفة عاتية قد مرّت به. وكان ملكها، عبد ملكوت، قد هرب في سفينة، آملاً أن يحميه البحر منّي. لكنني قبضت عليه كما يقبض على السمكة».

ثمّ نقرأ في النقش:

«وبعد أن قبضت على ملك صيدا قطعت راسه. ثم حملت من المدينة غنيمة كبيرة من الذهب والفضة والحجارة الثمينة والثياب الكتانية وجلود الفيلة والعاج وخشب الأبنوس وجميع ما حوته المدينة وقصره خاصة. وجميع ذلك كان بكميات كبيرة. وحملت هذا جميعه إلى آشور. هذا فضلاً عن الأبقار والحمير التي لا تحصى».

ويتبجّح أسرحدّون، في النقش المذكور، إذ يقول:

«وكانت الغنيمة تشمل أيضاً زوج الملك وأولاده وجميع رجال البلاط ونسائه».

وعندنا أخبار أشور بانيبال الذي ملك بين سنتيّ ٦٦٨ و ٦٣٣ ق.م.، وفي واحد من النقوش التي خلفها، يقول:

«في الحملة الثالثة قدت جيشي ضد بعيل ملك صور، الذي تقوم مدينته على جزيرة، وسبب الحملة ضده هو أنه لم يكن يصغي للاوامر الملكيّة التي أصدرها اليه، ولم يعمل بما أمرته به شخصياً. [ولمّا وصلت مدينته] احطتها بجنودي الأشداء، وسيطرت على وسائل اتصالها البرية والبحرية. وبذلك قطعت عن السكان المؤن والزاد. فحملتهم على قبول نيري. عندها جاء ملك صور بابنته وببنات أخوته ليقمن بخدمتي. وفي الوقت ذاته، أحضر ابنه ياهيملكي ليقوم بخدمتي كعبد».

ونلحظ في النقش شيئاً، يراه بعض المؤرخين غريباً. فقد كان من المألوف، أحياناً، أن يدخل شاب أو فتاة من أسرة الملك أو الأمير المقهور في حاشية الملك المنتصر. لكن الجديد في النقش ما يلي، إذ يقول أشور بانيبال:

«قبلت ابنته وبنات اخوته وما حملن من الدوطة أو البائنة».

هذا هو الجديد في هذا النوع من العلاقة .

ونعرف، من مناسبات مختلفة، أن الموانىء الواقعة في شرق المتوسط، كانت أسواقها تمتلىء بالسلع المختلفة، التي كانت تنقل اليها من موانىء مصر والعالم الإيجي وبقيّة أنحاء اليونان. وان هذه الموانىء بالذات، كانت تتجمّع فيها سلع، تحمل إليها من المناطق الداخلية. ولعلّ النقوش الآشورية، التي أشرنا اليها، أوضحت لنا شيئاً عن تنقّل هذه السلع من الموانىء اللبنانية شرقاً. لكن مع فرق مهم. فقد كانت هذه السلع، في العصور المبكرة من الاتّصال بين لبنان وسوريا وأرض الرافدين، تنتقل على أيدي التجار،

بيعاً وشراءً. فيفيد منها التجار ومن لفّ لفهم من أصحاب الحمير والخانات والحوانيت والصناع. لكن في أيام الآشوريين، أو بعض ملوكهم على الأقل، تبدّل الحال عما كان عليه بتبدل الطريقة التي كان الملوك يحصلون فيها على هذه السلع ـ ضريبة أو غرامة حرب أو غنيمة. وهذا الشكل الجديد، مهما كان اسمه، هو «سلب ونهب».

وانتهت دولة الآشوريين؛ وخلفتها في أرض الرافدين، دولة الكلدانيين. وكان ملوكها، مثل ملوك آشور، رجال حرب وتوسّع وتسلّط. فقد أصبحت هذه، لقرون خلت، هي الصيغة الناجحة في المنطقة. واستمرّت هذه الصيغة لقرون ستتلوها. وكان من ملوك الكلدانيين الكبار نبوخذ نصّر الثاني، من سنة ٦٠٥ إلى سنة ٥٦٢ ق.م..

قاد هذا الملك حملات إلى الغرب، عبر الفرات، ثم عبر العاصي. ومع أن نبوخذ نصّر معروف عنه أنه كان يسبي الشعوب، التي يحتلّ بلادها، وينقلها إلى جهات أخرى؛ أكثرها الى الشرق، فان النقش الخاص بلبنان، يختلف عن ذلك. يصف النقش حالة لبنان لما وصله نبوخذ نصّر، بعد توليه العرش بمدة قصيرة، ثم يذكر ما صنعه، من أجل سكانه. إذ يقول:

«في ذلك الزمن كان لبنانو أي لبنان، جبل الأرز وهو الغابة الكثيفة المرعة التي كانت تخصّ مردوخ إله بابل الجديدة. كانت رائحتها عطرة، وكان أرزها الشامخ مما لم يرغب فيه آله، ولا قطعه ملك من قبل... وقد أراد مردوخ خشباً صالحاً لتزيين قصر حاكم السماء والأرض. وقد كان لبنان يومها يخضع لعدو أجنبي الذي كان ينتزع منه خيراته وثرواته، وكان سكانه قد أخرجوا من ديارهم».

ولم يكتفِ هذا العدو الأجنبي، على حسب قول النقش، بذلك؛ بل تعقب هؤلاء القوم. ويتابع النقش القول:

«وقد لجأ القوم إلى منطقة نائية. ولما كنت مؤمناً بقوة سيديَّ الإلهين نبو ومردوخ، فقد نظّمت جيشاً للقيام بحملة إلى لبنان. وقد أدخلت السعادة الى نفوس شعبه إذ قضيت على عدوه قضاء مبرماً حيث ثقفته. وأعدت الشعب المشتّت إلى دياره».

ثم ينتقل نبوخذ نصر، في هذا النقش، إلى انجازاته العمرانية، فيقول:

«وقد فعلت ما لم يفعله ملك قبلي. لقد شققت طريقاً مستقيماً، إذ ازلت الصخور الضخمة من هذا الطريق، فأصبح بالإمكان نقل جذوع الأرز الضخمة الى السهول (ومن هناك كانت تحمل إلى النهر). ومن ثمّ كانت تحملها مياه الفرات إلى حيث يقيم إلهي مردوخ. وهكذا كانت هذه الجذوع البالغة الجمال المتازة في اصنافها، الآتية من لبنان تصل إلى أيدي الصناع في بابل».

ونبوخذ نصر هذا هو الذي حاصر صور، فيما بعد، فامتنعت عليه ثلاث عشرة سنة. فلما احتلّها، وكان الحصار قد أثّر في المدينة وسكانها، لم يبقِ فيها حجراً على حجر. ولم تقم لصور، بعدها، قائمة، في القرنين التاليين. لكنها استعادت نشاطها، في أيام الدولة الفارسية.

وما أكثر ما مرّ بنا ذكر الأرز في لبنان وأخشابه. ونودّ هنا أن نذكّر أنفسنا، بأن هذه الأخشاب، كانت مطمح رجال الحكم وكبار الأثرياء والتجار في المنطقة الممتدة من أرض الرافدين إلى أرض الكنانة. وخشب الأرز يصلح للأثاث والأشياء الفنيّة، التي تُزيَّن بها المنازل. والواقع، أن أخشاب الأرز والشربين في جبال لبنان، وجبال أمانوس، كانت، في كثير من فترات التاريخ، أحد الأسباب الرئيسية للحملات العسكرية، ولو أنها لم تكن قط السبب الوحيد.

ويرد ذكر شجر الأرز والشربين ووصفه في عدد كبير من أسفار العهد القديم. وفي بعض الحالات، يكون الوصف شعراً جميلاً. لكن في سفر ابن سيراخ، الذي وضع في القرن الثاني، قبل الميلاد، شيئاً خاصاً. فالحكمة تشبّه بشجرتي الأرز والشربين. يقول ابن سيراخ بلسان الحكمة:

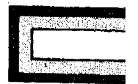
«ارتفعتُ كالأرز في لبنان وكالسرو في جبال حرمون. كالنخل في السواحل وكغـراس الورد في أريحـا. كالـزيتون النضير في السهل... فاح عرفي كالدار صيني وانتشرت رائحتي كالمرّ المنتقى».

ففي هذه الصورة، بل الصور، تجميل للأشجار والحكمة، وتمجيد للإنسان الحكيم. وبهذه المنـاسبة، فهناك اشارة جميلة، في أحد أسفار العهد القديم، هي من نوع المعاملات الزراعية، إذ أن الكاتب يبيّن لنا الطريقة التي ينقل بها الأرز، لزرعه من بقعة إلى أخرى، في المنطقة. ولا بد من ذكر أن أنواع الأرز كثـيرة في المنطقة المشرقية، إلا أنه أكثر أنواعاً متى تجاوزناها، ووصلنا الى شمال غرب أفريقيا، مثلاً.

أمّا ما ورد حول نقل الأرز لزرعه فهو:

«وآخذ أنا من فرع الارز العالي وأغرسه، واقطف من راس خراعبه غصناً وأغرسه على جبـل عال وشـامخ. في الجبل العالي أغرسه فينبت أغصاناً ويحمل ثمراً ويكون أرزاً واسعاً. فيسكن تحتـه كلّ طـائر، كـلّ ذي جناح يسكن في ظلّ اغصانه. فتعلم جميع أشجار الحقل إلى الرب وضع الشجرة الرفيعة، ورفع الشجرة الوضيعـة، وييّس الشجرة الخضراء، وأفرخ الشجرة اليابسة».

وهكذا كان أرز لبنان، وموانىء لبنان، وسهول لبنان ، ونتاجا الأرض والبحر في لبنـان تجذب النـاس تجاراً ومحاربين ولاجئين في جميع العصور. وقد فعل القدماء ذلك، ودوّنوا أعمـالهم، وقرأنـاها، وأفـدنا منها.



٣ الكتّاب الكلاسيكيون ولبنان

الأدب الكلاسيكي هو جماع ما خلّفته الحضارة الأغريقية ـ الرومانيّة، خلال ألف من السنين. وقد دوّن هذا جميعه باللغتين اليونانية واللاتينية. أما من حيث الزمان، فقد كان هذا الأدب نتاج جهد، يبدأ بحلول القرن السابع قبل الميلاد، ويتوقف في القرن الرابع بعد الميلاد.

وليس من المألوف أن يدخل المؤلفون المسيحيون، من أهل القرن الثاني أو الثالث أو الرابع، قصر المؤلفين الكلاسيكيين الذين وضعوا أدباً كلاسيكياً في القرون الأولى للميلاد. فالأدب الكلاسيكي، من حيث طبيعته، هو أدب وثني. وقد يشار في بعض الأحيان إلى أدب أنه كلاسيكي، لكن هذه الاشارة تكون مشروطة بروح هذا الأدب. فهناك أدب كلاسيكي عربي، هو أدب التراث. وهناك أدب مسيحي شرقي كلاسيكي، كتب معظمه باللغة السريانيّة، في وقت من الأوقات. لكن، كما قلنا، هذا أدب مشروط بوصف معين.

إذن، فالأدب الكلاسيكي ـ باستعمال الكلمة مجردة ـ هو، حسب الوضع المتعارف عليه، أدب وثني، وهو لا يتقيد بنوع معين أو بشكل خاص. فالأدب الكلاسيكي يشمل الشعر والقصة والتمثيلية والفلسفة والتاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية والطبيّة إلى آخر ما هنالك من فروع المعرفة. ومما هو جدير بالذكر، أنه قد يغلب على واحد من هؤلاء الكتّاب الكلاسيكيين اهتمام بناحية خاصة من نواحي المعرفة، لكن الأمر الأعمّ والأغلب هو النظرة المألوفة لفنون المعرفة وهي أن هذه المعرفة هي وحدة أصلاً. هذه هي القاعدة.

ويبدو أن هذه النظرة، استمرت فترة طويلة. وهي المتحكمة في التطور الفكري للبشريّة، فعلماء العصور الوسطى العرب والمسلمون منهم والغربيون على السواء، كانوا ينظرون إلى وحدة المعرفة كأنها الأصل.

أما النظرة اليوم، فتختلف. فالتخصص الدقيق هو الأساس في العلم، على اختلاف وجوهه. ولكن التخصص المهني، على أسس متينة، يعود بنا إلى فكرة وحدة المعرفة.

بعد أن تحدثنا باقتضاب عن الأدب الكلاسيكي، لا بد أن نذكر بعض الأسماء، التي تعتبر كلاسيكيّة في انجازاتها. ولعلّ من أقدم الأسماء هوميروس، الشاعر اليوناني القديم، صاحب الإلياذة والأوديسي. وهذه الأسماء معروفة عند الجميع، ولكن يجب التذكير بها، ومنها: هيزيود الشاعر؛ وأفلاطون وأرسطو الفيلسوفان وابقراط الطبيب وهيرودتس وبوليبيوس وديوديوروس، الذين كتبوا في التاريخ، وبطليموس الجغرافي الأول وخلفاؤه، وهم كثر.

ولسنا نريد أن نلجأ إلى الاسطورة نستنطقها، وإلا لكنّا وقفنا عندها وقتاً طويلاً. بيد أنه لا يجوز، أن نتجاوز هوميروس، الذي نظم ملحمتين هما: الإلياذة والأوذيسي. وإذا جاز التخصيص في الأمر، قلنا إن الإلياذة تغلب عليها الأساطير النابعة في شرق البحر المتوسط، يونانيّة كانت أم غير ذلك، فيما قصص الأوديسي فيها نفحة غرب حوض المتوسط.

ولعله من المفيد التوقف عند الإلياذة قليلاً مع الاشارة إلى أن هناك من الباحثين الغربيين من يعزو إلى الأساطير المشرقيّة الكنعانيّة ـ الفينيقيّة أثراً كبيراً على هوميروس.

فهوميروس يشير في الإلياذة إلى مهارة الصيدونيين في صنع الفضة ونقش الأشياء المصنوعة منها. إنه يتحدث عن إناء فضيّ ويصفه وصفاً دقيقاً. وبعد اظهار الإعجاب به، يقول انه صناعة صيدونيّة، ونحن نعرف، أن اسم صيدا القديم هو صيدون. فلا بد أنه كان يعني صناعاً من صيدا.

وهيرودوتس، المؤرخ اليوناني، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، كتب تاريخاً للحروب الفارسية اليونانية، وكان قد رحل في المشرق؛ فزار أقطاره: فارس، مصر، وبعض مناطق بلاد الشام. ومن الطبيعي، وهو يتحدث عن قوة الفرس البحريّة، أن يذكر مدناً فينيقيّة، كانت عماد الأسطول الفارسي في البحر المتوسط. فهو يصف اكسركيس، الامبراطور الفارسي، وقد جاء يستعرض هذا الاسطول، المكوّن من نحو مئة وعشرين سفينة. فقد أقيم للامبراطور عرش مؤقت على منصة كبيرة، حيث جلس يراقب السفن تتسابق. وقد أبدى إعجابه، لما نالت السفن الصيدونية قصب السبق.

ويعدد هيرودوتس السفن التي أُعدت للاشتراك في الحرب. ويقول إن خير سفن الاسطول الفارسي، هي التي هيأتها المدن الفينيقيّة. وهناك ملاحظة حريّة بالاهتمام، وهي أن الامبراطور الفارسي، كان يعتبر جميع سكان امبراطوريته، زعماءً وأفراداً عاديين، تابعين له مع تفرّد في الرأي والتصرف من جهته. ومثل هذا الموقف، لا بدّ أن يأتي من يوناني عاش في تلك الفترة.

ولقد ظهر، في العالم الاغريقي الروماني، عدد من الجغرافيين، وكثيرون منهم كانوا يُعنون بالجغرافية الرياضية، بما في ذلك الفلك. من هؤلاء اراتستينس وبطليموس. وأمثال هذين كانوا، في نهاية المطاف، يحضّرون ما يسمى بالزيج، وهو جدول فلكي، يعيّن مواقع النجوم، وخطوط الطول والعرض، والأقاليم وطبيعتها. وليس من شك في أنه علم مهم، وكان له دور كبير في تقدم هذا الفرع من المعرفة. لكن ما يهمنا هو الجغرافي البلداني أو الاقليمي، كما نسميه اليوم.

ومن هذا المنطلق، من المفيد أن نعرف ما قاله مؤلف معروف أو ما رُوي عن لسان مؤلف مجهول، مما يخصّ الجماعة عن العادات والتقاليدُ والصنائع، فضلاً عن معرفة شيء عن وصف لبنان. ومن هنا، سنتوقف عند سترابو، ونترك الآخرين.

عاش سترابو في العقود الأخيرة من القرن الأول قبل الميلاد والعقود الأولى من القرن الأول بعد الميلاد، في عصري اغسطوس وخليفته. وهي أيام بلغت الامبراطورية الرومانية فيها الذروة. ومعنى هذا، أن سترابو، كان باستطاعته أن ينعم بالوصول إلى المعلومات التي يريدها في مدى واسع. فالامبراطوريّة، كانت تمتد من اسبانيا إلى الفرات، ومن آسية الصغرى إلى جنوب مصر. كما أن الكثيرين، كانوا يتاجرون مع الشرق، وغيرهم كانوا يأتون من المشرق. لذلك، كان مجال الاتصال واسعاً، والعالم الصبور، يحصل على ما يريد من المعرفة.

يقول سترابو، عن صور، إن الاسكندر خرّب المدينة، لما احتلها؛ لأنها استعصت عليه، فحاصرها طويلاً. ولما استولى عليها، عاقبها بالتدمير، وبِيْع الكثيرين من سكانها عبيداً. كان هذا سنة ٣٣٢ ق.م.، ويضيف الجغرافي:

> «لكن أهل صور، المعروفين بنشاطهم ومهارتهم، استطاعوا أن يعيدوا إلى المدينة أمجادها».

ويتحدث سترابو عن الأرجوان وصباغته، في صور، فيقول:

> «والأرجوان الصوري هو أجمل والطف من غيره. وفي صور عدد كبير من المصانع؛ الأمر الذي يجعل الإقامة في بعض انحاء المدينة مزعجة. لكن هذه الصناعة هي مصدر ثروة للمدينة».

ويعير سترابو صيدا عنايته، كما اهتم بصور. فيقول عنها، وعن سكانها:

> «الصيدونيون (أي الصيداويون) هم أهل معرفة عميقة في علمي الفلك والحساب، وهما ضربان من المعرفة يهمان الملاح والتاجر».

ويقول سترابو أيضاً، وهو، كما قلنا، وضع كتابه في العقد الثالث من القرن الأول للميلاد:

> «إن أكبر مصدر للمعرفة الآن في المشرق، نجده في لبنان والمناطق المجاورة».

ولم يجرد سترابو صيدا من الصناعات، فهو يقول:

«إن الرمل، الذي يوجد بين عكا وصور، يحمل إلى صيدا، حيث يستعمل في صناعة الزجاج، وهي صناعة متقنة وناجحة».

وبعد وفاة الاسكندر، قامت بين خلفائه حروب؛ هي المعروفة بحروب الوراثة. وكان أقوى هؤلاء الخلفاء، حوالي السنة ٣١٥ ق.م.، انتيغونس، الذي كان يخاصمه صاحب مصر وفلسطين، وحاكم مقدونيا. وبعد تنظيم شؤونه، أراد أن يُعد العدة، لمقارعة خصومه. فأوكل إلى هيرونيموس أمر جمع الأخشاب، اللازمة لبناء السفن، التي يحتاجها. وهذا الوكيل أعطى المعلومات الوافية عن غابات لبنان إلى ديودورس، الذي نقلها الينا.

يقول المؤرخ اليوناني ديودورس الصقليّ:

«إن انتيغونس، اتخذ صور القديمة مستقراً له، كي يعد العدة لحاربة خصومه. ودعا إليه ملوك الفينيقيين وحكام المناطق. وطلب من الملوك أن يقدموا العون على بناء السفن، وجمع هو قطّاعي الأخشاب وأصحاب المناشير من كل جهة، كما جمع بناة السفن؛ وقطع الأخشاب وأوصلها من جبل لبنان إلى البحر. كان هناك ثمانية آلاف قطّاع للأخشاب ونشّار لها، وكان هناك ألف من الثيران لجرها الى الساحل. وهذا الجبل يمتد مما وراء طرابلس إلى أراضي صيدا. وتغطيه أشجار الأرز والشربين، وهي أشجار في غاية الجمال والضخامة».

وأقام أنتيغونس ثلاثة مصانع كبيرة، لبناء السفن، في فينيقيا، في طرابلس وجبيل وصيدا. وكان هناك مصنع رابع في طرطوس، وكانت الأخشاب اللازمة له، تقطع من جبال طوروس.

ويتحدث كاتب مجهول عن صنع الكلس «الجير» في لبنان، فيقول:

«تُقطع الحجارة المخصصة لصنع الكلس قطعاً صغيرة نسبياً. وتُحرق هذه في أتون، لأيام، وقد يستعمل روث البقر، إذا وجد، لانه يحتفظ بحرارة منتظمة. وبعد أن تحترق هذه الحجارة، تصبح كلساً يخلط بالماء، عند الحاجة، ويستعمل في البناء».

ويقابل الكاتب بين طريقة إعداد الكلس في لبنان والطريقة الطبيعية، التي يحصلون بها عليه في قبرص، إذ يزيلون طبقة من الأتربة، ويعثرون على الكلس في مناجم، فيحفرون فيها، وينقلونه إلى مكان البناء.

وتظهر في المرسوم الذي أصدره ديوقلتيان، الامبراطور الروماني، من سنة ٢٨٤ إلى ٣٠٥ م، وحدد فيه أسعار جميع المواد التي يمكن أن تباع، وفي أنحاء الامبراطورية جمعاء، بعض المواد التي كانت تصدّرها مدن الساحل والداخل في لبنان، ومنها العسل، وخصوصاً العسل الفينيقي، والجلود، التي كانت تحمل من بابل، والصنادل البابليّة، والأرجوان الفينيقي، والحرير الخام، والصوف المصبوغ، والأقمشة الكتانيّة، والمناشف ومحارم الجيوب والقمصان.

وعندنا وثيقة، قديمة فعلاً، تعود إلى القرن الرابع للميلاد، أي إلى بدء العصر البيزنطي، وهي وثيقة مجهولة الهويّة. وقد وصلتنا عن طريق محام بيزنطي كان مغرماً بجمع مثل هذه الوثائق، اسمه هرمينو بولس. وقد عاش هذا في القرن الثاني عشر للميلاد.

تعيّن هذه الوثيقة القانونيّة المناطق، التي يمكن أن تقام فيها صناعات معيّنة، في المدن وما إليها. وهي تشمل الصناعات، التي قد يتأذّى السكان منها. والوثيقة طويلة؛ لذلك، سنكتفي بانتقاء بضعة أمثلة منها. وهي تقول:

«إن كل من يريد أن يقيم مصنعاً للاسبستوس، يتوجب عليه ان يبتعد مئة ذراع (أي حوالي سبعة وأربعين متراً ونصف المتر) عن البيوت المكوّنة من طابقين أو ثلاثة طوابق أو أكثر. أما إذا كانت البيوت مكوّنة من طابق واحد فقط، فيكتفي بأن يبتعد نصف المسافة فقط».

وهذا مثل آخر:

«إن صناعة الأجبان وعصير السمك النيء هما مزعجتان جداً بسبب الرائحة الكريهة المؤذية التي تنبعث من مثل هذا العمل. لذلك لا يجوز أن تقوم صناعة منهما في مدينة أو قرية. وإذا كان ثمة سبب خاص يحتم أن يقام مثل هذا المصنع في المدينة أو القرية فيجب ان تكون المسافة بين المصنع وبين أقرب بيت ستمئة متر».

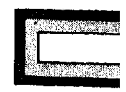
وتقول الوثيقة:

«يتوجب على صانعي الزجاج والأدوات الحديدية أن لا يقيموا مصانعهم في المدن. أما إذا كان ثمة حاجة ماسّة للسماح بذلك فإنه يترتب عليهم أن يقيموا مصانعهم في الأماكن النائية والقليلة السكان. ذلك بأن الخطر يأتي من النار المستعملة التي قد تؤدي إلى حرائق».

وعندنا أيضاً وصف من المؤرخ الكنائسي يوسابيوس لكنيسة بنيت في صور سنة ٣١٢ ـ ٣١٩ للميلاد، وهي أول باسيليكا مسيحية. والكلمة التي كتبها مؤرخنا هي مديح لأسقف صور باولينوس، الذي قام بالعمل. ومن المهم أن نذكر، أن هذه الباسيليكا قام ببنائها أحفاد الصوريين الذين بنوا هيكل الإله ملكارت، إله صور.

يقول المؤرخ:

«شاد باولينوس باسيليكا تفوق سابقتها في أناقة المواد المستعملة وغناها، مما يدل على أنه لم يبخل عليها بالنفقات. إنني أربأ بنفسي ان أعمد إلى وصف طول البناء أو عرضه، أو جماله أو عظمته التي يعجز اللسان عن وصفها. ولن أقول شيئاً في مظهر البناء المدهش أو في ارتفاعه الذي يطال السماء، وفوق ذلك أخشاب الأرز اللبناني الثمينة التي تعتلي البناء كله. وقد قيل في هذه الأخشاب، تشبه أشجار أرز لبنان الذي أنبته الله».



٤ جغرافيو العرب ولبنان

كان للعرب باع طويل في الكتابة الجغرافية. ومع أننا لا ننوي الافاضة في هذا الموضوع، لأننا لسنا معنيين، بذلك هنا، فإنه لا بدّ لنا من وقفة قصيرة، نشير فيها إلى أمرين أساسيين، يتعلقان بالتأليف في الجغرافيا عند العرب. وأول هذين الأمرين هو أن العرب كانوا، في الدور الأول، ينقلون عن الأمم السابقة كاليونان والهنود والفرس. وكان الذي نقلوه، في غالبه، يتعلق بالجغرافية الفلكيّة.

أما الأمر الثاني فهو أن الجغرافيين العرب أوجدوا، في القرن العاشر، ما يصح أن يسمى المدرسة الجغرافية العربية. ولكن سبق هذا، في القرن التاسع، ظهور كتب هي مزيج من الأثر اليوناني، طبيعياً، والعناية بموارد الدولة العربية الاسلامية وادارتها، سياسياً ومحليّاً. ومن الكتب التي عنيت بهذه النواحي، «المسالك والممالك»، الذي وضعه ابن خرداذبه، وكتاب «الخراج وصنعة الكتابة» لقدامة بن جعفر، وكلاهما وُضعا في القرن التاسع.

ولكن الجغرافيين البلدانيين، وجغرافيي القرن العاشر، وهم الذين يمثلون الجغرافيا العربية المستقلة، كتبوا فيما يصح أن نسميه الآن «الجغرافيا الاقليمية»، وإن كنا نفضل «الجغرافيا البلدانيّة».

ومن المناسب أن نذكر هنا أشهر الجغرافيين البلدانيين، الذين ظهروا في القرن العاشر. والبارزون من هؤلاء المؤلفين هم: البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي. والبلخي هو أول من استقل عن بطليموس، الجغرافي اليوناني المشهور. ومؤلفات الباقين، أي الاصطخري وابن حوقل والمقدسي تمتاز بأنها تعتمد على المشاهدة، فضلاً عن القراءة الكثيرة والعميقة. وكل من هؤلاء الكتاب، عني بالرقعة العربية الاسلامية أصلاً، وتنقل في أجزائها. فابن حوقل زار الرقعة من حدود الهند إلى الاندلس.

وقد عقد المقدسي فصلاً في كتابه، «أحسن التقاسيم» بيّن فيه ما لقيه من الصعوبات في تنقله من جهة إلى جهة، كي يجمع مواد كتابه. قال:

> «إنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً غير الكدية وركوب الكبيرة. فقد تفقهت وتأدبت وتزهدت وتعبّدت وفقّهت وأدّبت وخطبت على المنابر وأذّنت على المنائر وأممت في المجالس».

واذا تصفحنا كتاب «الخراج» وصنعة الكتابة «لقدامة بن جعفر»، نجد أخباراً عن لبنان، ففيه يقول:

> «وأما الثغور البحرية [في لبنان] فهي طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحصن الصرفند وصور. وبصور صناعة المراكب».

ويضيف:

> «ومقدار ما يغزو في الغزاة من مراكب الشام ومصر من الثمانين إلى المئة مركب».

ويحدثنا ابن الفقيه، في كتابه «مختصر كتاب البلدان»، عن سواحل لبنان، وهو يقصد المناطق أو الكور الساحلية، فيذكر أنها صيدا وبيروت وطرابلس وصور. ولسنا ندري تماماً إذا كان ترتيبه للموانىء على أساس أهميتها في عصره، إذ أن الترتيب ليس جغرافياً.

وفي «مختصر كتاب البلدان» وصف آخر للبنان، هو قوله:

> «ولبنان هو الجبل الذي يكون عليه العبّاد والابدال. وعليه من كل الثمر والفواكه. وفيه عيون كثيرة عذبة».

وقد دهش ابن الفقيه، لدى رؤيته بعلبك، فاعتبر حجارتها من عجائب الشام الأربع. ويقول:

> «إن فيها ـ أي بعلبك ـ حجراً ارتفاعه في السماء عشرة أذرع في عرض خمسة عشر ذراعاً في طول خمسة وأربعين ذراعاً».

ومن المرجح أنه يشير إلى حجر الحبلى.

ويقول في مكان آخر، إن للبنان صيدا وصور، وهذه مشهورة بصنع الشبه أي البرونز والنحاس الأصفر. على أن الشجرة التي أسرت لبّ ابن الفقيه، هي شجرة الكرمة. ويؤكد على

«أن اسم الكرم مشتق من الكرم والاكرام والتكرم».

على أننا نعثر في مكان آخر، وهو يتحدث عن البقاع وكرمه، على وصف أدبي جميل لهذه الشجرة، إذ يقول:

«ولنا الكرمة افضل الاشجار، والعنب سيد الثمار، (والكرمة) ناعمة الورق ناضرة الخضرة، غريبة تقطيع الورقة، بديعة الزوايا، مليحة الحروف، حسنة المقادير، كأنما قوّرت من سَرَقة حرير، واستخرجت من ثوب نسيج».

ويستمر المؤلف في وصفه قائلاً:

«كثيفة الظل خفيفة الفي، لدنة الأغصان ليّنة الافنان، خضرة الأطراف كريمة الاخلاق، سلسة القياد رفيعة جوهر الاعواد، لذيذة الجنى قريبة المجتنى، صغيرة العجمة رقيقة الجلدة، عذبة المذاق، سهلة المزدرد، كثيرة الماء فاضلة المخبر على المنظر، شريفة العنصر والجوهر».

ومن جغرافيي القرن الرابع هـ/ العاشر م ابن حوقل. وهو من نصيبين في أرض الرافدين. وقد بدأ الرحلة سنة ٩٤٢ م من بغداد، وعاد إليها بعد ثلث قرن. وقد زار، خلال هذه المدة، ديار الاسلام من الهند إلى اسبانيا. وتغلغل في مناطق أخرى كثيرة؛ حتى أنه وصل إلى بلاد البلغار. وقد قرأ كثيراً فجاء كتابه «صورة الأرض» يجمع هذه الاختبارات جميعها.

يصف ابن حوقل بعلبك بقوله:

«هي مدينة على جبل، وعامة ابنيتها من حجارة قد بنيت على اساطين شاهقة. وليس بأرض الشام ابنية حجارة اعجب ولا اكبر منها. وهي مدينة كثيرة الخير والغلات والفواكه الجيدة. بيّنة الخصب والرخص. وهي قريبة من مدينة بيروت التي على ساحل بحر الروم (البحر المتوسط) وهي فرضتها وساحلها».

ويشير إلى أهل بيروت، فيقول عنهم:

«وفيهم من إذا دعي إلى الخير اجاب واصغى».

ثم يضيف قوله:

«وببيروت هذه كان مقام الأوزاعي. وبها من النخيل وقصب السكر والغلات المتوافرة الكثير. وتجارات البحر عليها دائرة واردة وصادرة. وهي مع حصنها حصينة منيعة السور، جيدة الأهل، مع منعة فيهم من عدوهم، وصلاح في عامّة امورهم».

ولعلّ أكبر الجغرافيين البلدانيين العرب، هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر البناء، المعروف بالمقدسي، صاحب كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم». وهو مولود في بيت المقدس، ومن هنا جاءت تسميته. وهذا المؤلف غني، ليس بالمعلومات الجغرافية العاديّة فحسب، بل هو حريص على جمع المعلومات المتنوعة، بحيث إننا نعثر في طيّات كتابه على أخبار اقتصادية ومعارف اثنوغرافيّة ولمحات اجتماعية لا مجال لذكرها هنا.

ومما يلفت في كتاب المقدسي، هو أنه في نهاية حديثه عن كل من الأقاليم التي يعالجها، يأتي بفصل يسميه «جمل شؤون هذا الاقليم» وهو يقوم بدور الخلاصة ـ الخاتمة من جهة، ويضم إليه المؤلف ما قد يكون فاته ذكره، أو لم يجد له مكاناً مناسباً من قبل.

والمقدسي أول جغرافي عربي تنبه إلى الاقسام الطبيعية لبلاد الشام، ولبنان وسطها، فهو يقول:

«وضع هذا الاقليم، أي بلاد الشام، ظريف، هو أربعة صفوف. فالصف الأول يلي بحر الروم وهو السهل وفيه جميع مدن السواحل، والصف الثاني الجبل مشجّر ذو قرى وعيون ومزارع وفيه لبنان. والصف الثالث هو البقاع في لبنان والغور في فلسطين، والصف الرابع سيف البادية وهي جبال عالية باردة».

ويقول أيضاً:

«وأما جبل لبنان فهو كثير الأشجار والثمار المباحة».

ويقول عن بعلبك:

«بعلبك مدينة قديمة فيها مزارع وعجائب. معدن الأعناب، وسائر مدنها طيّبة رحاب. وأشد اقليم الشام برداً بعلبك وما حولها. ومن أمثالهم، قيل للبرد: اين نطلبك؟ قال بالبلقاء، قيل له: فإن لم نجدك؟ قال «بعلبك بيتي».

ويتحدث المقدسي حديثاً مقتضباً، ولكنه ذو دلالة، عن جبل عاملة (جبل عامل) فيقول:

«وجبل عاملة ذو قرى نفيسة وأعناب وأثمار وزيتون وعيون. المطر يسقي زروعهم. ويطل الجبل على البحر، ويتصل بجبل لبنان».

ويقول أيضاً إن عسله خير العسل، مثل عسل ايلياء، أي القدس، لأن النحل يرعى السعتر.

ويحدثنا عن مدن الساحل الرئيسية، فيقول:

«وصيدا وبيروت مدينتان على الساحل حصينتان. وكذلك طرابلس إلا أنها أجل... وفي جبال بيروت معادن حديد».

وكعادته، يختم المقدسي الفصل بذكر المسافات، ويقول إن المسافة، بين دمشق وكل من بيروت وصيدا وطرابلس، هي يومان.

ولم يتوقف تقدم الجغرافيا العربيّة عند مدرسة القرن العاشر. فنحن واجدون ثلاث صفحات ناصعة في تاريخ هذا العلم. أولها الادريسي، نابغة الخارطة العالمية، وهو من أهل القرن الثاني عشر. وثانيها المعجميون الجغرافيون؛ وشيخهم هو ياقوت الحموي، صاحب «معجم البلدان». أما الصفحة الثالثة، فهي التي تزدان بالموسوعيين، أمثال: النويري والعمري والقلقشندي. وفي موسوعاتهم الكبيرة، فصول مهمة عن جغرافية العالم المعاصر لهم، وهم من أهل القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

والادريسي، الذي كان صفحة مشرقة في تاريخ الجغرافيا عند العرب، هو أبو عبد الله محمد الشريف الادريسي. ولد في مدينة سبتة بالمغرب، في أوائل القرن الثاني عشر، وطلب العلم في بلده، وفي قرطبة في الأندلس. وقد كان فيما درسه، وعني به عناية خاصة، العلوم الرياضية والفلكيّة والجغرافيّة والطب، وما يتبع ذلك من اهتمام بالنبات ومنافعه.

وكان من عادة علماء العرب والمسلمين أن يرحلوا بعيداً في طلب العلم، فقد زار الادريسي الشمال الافريقي والاندلس وجزءا من فرنسا؛ وقضى في المشرق بعض الوقت. وأخيراً، يظهر الادريسي في بلاط روجر، صاحب صقلية. فقد دعاه الملك ليكون ضيفه، ويسّر له وسائل العمل العلمي من حيث المكان والناس الذين يفدون إلى البلاط، والتجار الذين يهبطون الجزيرة. إذ كان هؤلاء يعطون الادريسي ما عندهم من معرفة وخبرة وتجربة، وما يعرفونه عن بلادهم.

وفي هذا البلاط رسم الادريسي خارطة للأرض، على كرة من الفضة. ورسم شرحات لهذه الكرة، كان مجموعها يكوّن خارطة العالم المعروف يومئذ. ثم وضع كتاباً يفسّر فيه الأمرين اسمه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». وقد كان الفراغ من هذا العمل سنة ٥٨٤ هـ أو سنة ١١٥٤ م. وبعد ذلك بفترة قصيرة، وقعت في بلرمو ثورة، كانت الدائرة الفضية، أي الكرة الادريسية، إحدى ضحاياها. لكن الخارطة والكتاب أنقذا. وبهذه المناسبة فإن خارطة الادريسي نشرها المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥١ م.

وقد وصلنا وصف لبيروت، من قلم الادريسي، هو قوله:

«بيروت مدينة على ضفة البحر عليها سور حجارة كبيرة واسعة. ولها بمقربة منها جبل فيه معدن حديد جيد يقطع ويستخرج منه الكثير، ويحمل إلى بلاد الشام. وببيروت غيضة أشجار صنوبر مما يلي جنوبها تتصل إلى جبل لبنان. وتكسو هذه الغيضة اثنا عشر ميلاً في مثلها. وشرب أهل بيروت من الآبار».

ويضيف، ويبدو أنه ينقل عن آخرين:

«ومدينة بيروت حسنة الأسواق وجامعها بديع الحسن. وتجلب منها إلى ديار مصر الفواكه والحديد. ولسورها برجان ولها بساتين ونهر وهي خصبة. وكان يقيم بها الامام الأوزاعي الفقيه. ولها ميناء جليل».

وعندما نذكر الجغرافيين، لا بد من ذكر الموسوعيين فإن الذين برزوا بشكل خاص في المشرق، وفي عهد المماليك على التخصيص، هم الذين وضعوا مجلدات ضخمة، كثيرة العدد، تناولوا فيها ما كان يحتاجه المشرفون على ديوان الانشاء، أي دائرة المراسلات الرسميّة في الدولة. وكتبهم هذه شملت الجغرافيا والتاريخ والأدب والمراسم والنظم. والمراسلات وما إلى ذلك.

وحصة الجغرافيا، في هذا كله، كانت كبيرة، وكانت تتناول النواحي الادارية، فضلاً عن الأوصاف الطبيعيّة. وعندنا، من ابن فضل الله العمري، وصف لطرابلس، يبيّن لنا الدور الذي كان لتلك المدينة في أيام العمري، أي في النصف الأول من القرن الرابع عشر.

قال العمري، عن طرابلس:

«ولها نهر يحكم على دورها وطبقاتها حيث يجري الماء في الأماكن العالية من الدور التي يرقى اليها بالدرج. وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء خفيفة الماء ذات أشجار وكروم ومروج وأغنام وبقر. ويجتمع فيها الجوز واللوز وقصب السكر والثلج. ويعمل بها السُكّر. وتأتيها وفود البحر، وترسو بها مراكبهم وهي موضع زرع وضرع، وهي الآن مدينة كثيرة الزحام. وبها مارستانان، أي مستشفيان، ومساجد ومدارس وزوايا وحمامات موصوفة، وأسواق جليلة. وجميع بنيانها بالحجر والكلس مبيضة ظاهراً وباطناً. بها غوطة ويحوط بغوطتها مواضع من مزدرعاتها».

وكان القلقشندي، وهو من أهل النصف الثاني من القرن الرابع عشر وأوائل القرن التالي، واحداً من أقدر من تعرض لموضوع ديوان الانشاء والمراسلات، في كتابه المسمى: «صبح الأعشى في ديوان الانشا». والقلقشندي ينقل كثيراً عن سابقيه، لكنه يذكر مصادره. فوصفه لبيروت وطرابلس، منقول عن العمري.

وقد وضع القلقشندي فصلاً، في آخر كتابه، تناول فيه نقل الثلج، من لبنان إلى مصر، في أيامه:

«كانت للثلج هجن تنقله في البر وسفن تنقله في البحر حتى يصل إلى قلعة القاهرة. وقد كانت هذه المراكب ثلاثاً في السنة أيام الملك الظاهر بيبرس. ثم اخذت في الزيادة حتى بلغت احد عشر مركباً. كانت المراكب تخرج من بيروت أو طرابلس وتأتي دمياط في البحر، ثم يُخرج الثلج في النيل، ثم ينقل على البغال السلطانية إلى مخازن السلطان في القلعة. وقد جرت العادة ان المراكب إذا سفرت سفر معها من يتداركها من ثلاجين لمداراتها».

وبمثل هذا الاسلوب، كان السلاطين يتمتعون بالشراب المبرّد.



٥

ناصري خسرو في لبنان

من بين الكتابات التي اخترناها عن لبنان صفحات منقولة عن الرحّالين. والسائح أو الرحالة، يختلف عن الكاتب الجغرافي. فالكاتب الجغرافي يسأل، ويستقصي، ويحقق، أملاً في أن يشمل حديثه كل جزء من المنطقة، التي يتعرض لدرسها.

أما الرحّالة، فينقل ما يشاهده؛ وبذلك تكون صورة جزئية، ولكنها ثمينة، من هذه الناحية. وهذا ما نجده عند الرحالة ناصري خسرو. فصوره عن لبنان وعن غيره من الأقطار جزئية، ولكنها مليئة بالحياة والحركة. فالرجل، لما وصل إلى لبنان، سار على ساحله، من طرابلس الى صور، فهو يصف المدن الكبرى، مع لمحات لطيفة فيما يلي:

لكن وقبل أن ننقل وصف ناصري خسرو وصوره للبنان، يجدر بنا أن نتعرّف إلى هذا الرجل، ذي الاسم الغريب على المسامع، بعض الشيء.

ناصري خسرو فارسي الأصل والنشأة والثقافة. وهو من أهل القرن الحادي عشر م/ الخامس هـ. وقد تنقل بين بلاده والهند، وعمل في بلاط السلاطين. وكان منغمساً في اللهو، إلى أن تراءى له في ليلة رجل في حلم نهاه عن المعاصي؛ فارتدع وسمع نصح الهاجس، بأن يذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج.

ومع أننا معنيون بتحرك ناصري خسرو في لبنان، إلا أنه لا بأس، في أن نرافقه ـ بسرعة ـ في طريقه من مرو. فقد مر بأشهر المدن الاسلاميّة والعربية يومها، مثل: نيسابور والري وتبريز وأخيراً دخل سوريا، بطريق منبج. وفي شمال سوريا زار حلب والمعرة وحماة. وفي المعرة، لقي أبا العلاء المعري، ثم اتجه من تلك الجهات إلى الساحل، فدخله عند عرقة. واتجه جنوباً إلى طرابلس.

وحري بالذكر أنه لما وصل ناصري خسرو إلى بلاد الشام، كان النفوذ الفاطمي هو المسيطر في المنطقة. ذلك بأن الدولة الفاطمية، التي انتقلت إلى مصر، أواسط القرن الرابع للهجرة/ القرن العاشر الميلادي، اخضعت فلسطين وعدداً من المدن اللبنانية الساحلية لسلطانها. أما حلب وما إليها فكان حكامها الحمدانيين. ويبدو أنه كان عند ناصري خسرو استعداد لتفهم النظرية الفاطمية. لكن هذا تم له لما وصل القاهرة، وأقام فيها ثلاث سنوات وبعض السنة.

وكان ناصري خسرو في لبنان في سنة ٣٣٨ هـ وسنة ١٠٤٧ ميلادية. وقد وصل حلب يوم السبت في الخامس من شعبان، الموافق للسادس من شباط. وقضى نحو أسبوعين متنقلاً بين مدن الساحل اللبناني، من طرابلس إلى صور إذ نجده في عكا في الأسبوع الأخير من شعبان. والمهم هنا أن ننقل ما قاله ناصري خسرو عن لبنان.

يقول الرحّالة، عن طرابلس وأرياضها:

«وحول المدينة المزارع والبساتين وكثير من قصب السكر وأشجار النارنج والترنج (الاترج أو الكباد) والموز والليمون والتمر. وكان عسل السكر يجمع حينذاك. ومدينة طرابلس مشيّدة بحيث أن ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر. فإذا ماج علت أمواجه السور».

ويقول الرّحالة أيضاً:

«أما الجانب المطل على اليابس فيه خندق عظيم عليه باب حديدي محكم. وفي الجانب الشرقي من المدينة قلعة من الحجر المصقول عليها شرفات ومقاتلات من الحجر نفسه، وعلى قمتها عرادات لوقايتها من الروم، فهم يخشون أن يغيروا هؤلاء على طرابلس بالسفن».

ونحن نعرف، أن العرب احتلوا بلاد الشام بأكملها، في العقد الرابع من القرن السابع الميلادي. وقد ظلت تلك البلاد، تتبع الدول التي قامت في المنطقة: الراشدون والأمويون والعباسيون. لكن في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، استقوى الروم البيزنطيون على الموانىء الشامية الشمالية، بسبب الضعف الذي أصاب الدولة في هذه الديار. ومن هنا اشارة ناصري خسرو إلى تحصينات طرابلس، خشية الهجوم الرومي.

وهناك ملحوظة ثانية، يجدر بنا أن نتذكرها، بالنسبة لطرابلس. إن زائر طرابلس اليوم، قد لا يرى آثار هذا الذي وصفه ناصري خسرو. ذلك بأن المدينة، كما نعرف، احتلها الصليبيون الافرنج، في أوائل القرن الثاني عشر للميلاد، وظلوا يحكمونها نحو قرنين. ولما أخرجهم منها المماليك، في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، هدّم السلاطين المدينة ميناءً وحصوناً وأسواراً حتى لا يعود إليها الافرنج، الذين كانوا ما يزالون يقيمون في قبرص.

ثم اكتشف سلاطين المماليك، بعد ذلك، الحاجة إلى ميناء وقلعة وأسوار في المكان. فبنوا القلعة على التل، وهي القلعة التي يراها زائر طرابلس اليوم، مع ما مرّ بها من تطور، بقية العصر المملوكي، ثم أثناء العصر العثماني. وأكبر الظن، أن طرابلس القديمة، التي زارها ناصري خسرو، هي التي تقع حول الميناء اليوم. والميناء بلد مستقل عن طرابلس المدينة.

ويقول ناصري خسرو، في وصفه لمدينة طرابلس:

«ومساحة المدينة الف ذراع مربع».

والذي نراه أن هناك خطأ في التعبير، إما أصلاً، أو نقلاً، فألف ذراع مربع، ليست مساحة تستحق الاهتمام. والمرجح أن ناصري خسرو أراد أن يقول ان مساحة المدينة هي ألف في ألف ذراع. وعندها يصح القول.

ويتابع ناصري خسرو:

«وفنادق المدينة أربع أو خمس طبقات، ومنها ما هو ست طبقات أيضاً. وشوارعها وأسواقها جميلة ونظيفة، حتى لتظن ان كل سوق قصر مزيّن».

ويبدو أن ناصري خسرو، كانت له عناية بالطعام والشراب، لذلك، نجده يلقي الملحوظات، المتعلقة بالأطعمة، في مظان كثيرة من رحلته. فهو يقول، عن طرابلس:

«وقد رايت بطرابلس ما رايت في بلاد العجم من الأطعمة والفواكه، بل احسن منه مائة مرة».

وكم كنا نحب لو أن ناصري خسرو ذكر لنا بعض أنواع الأطعمة التي رآها في طرابلس، فقارىء كتابه يتساءل دائماً، ومراراً، هل كانت الحلاوة بجبنة والجزرية، مثلاً، معروفتين يومها؟ وهل المفروكة قديمة في عاصمة الشمال اللبناني؟

وينتقل ناصري خسرو إلى جامع المدينة، ونحسب أنه يقصد الجامع الكبير، كما يتضح من وصفه، فهو يقول، في ذلك:

«وفي وسط المدينة جامع عظيم، نظيف، جميل النقش، حصين. وفي ساحته قبّة كبيرة تحتها حوض من الرخام، في وسطه فوّارة من النحاس الأصفر».

ويتابع الرّحالة وصفه للمدينة التي سحرته، على ما يبدو طبعاً قبل أن يصل القاهرة التي شدهته، وأدهشته، فيقول:

«وفي السوق مشرعة ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير، يأخذ الناس منه حاجتهم ويفيض باقيه على الأرض ويصرف في البحر».

ولعل الذي قصده ناصري خسرو، بكلمة «مشرعة»، هو «السبيل»؛ إذا وافقنا على ذلك مترجم رحلة ناصري خسرو إلى العربية، الدكتور يحيى الخشاب. فالكلمة المألوفة، في بلاد الشام، هي السبيل. وكثيراً ما نقرأ على سبيل: «وقف هذا السبيل فلان بن فلان» الخ... إذ أن السبيل كثيراً ما كان وقفاً، سواء أكان الواقف رجلاً رسمياً أم رجلاً من عامة الناس. لذلك، فالذي يصفه ناصري خسرو هو سبيل له خمسة صنابير، أي حنفيات، ومعناها خمسة منافذ للماء كي يتمكن أكثر من شخص واحد، أن يستعمله، في وقت واحد.

أما بقية هذا الوصف المقتضب الشيق، فهو:

«ويقال أن بها عشرين الف رجل. ويتبعها كثير من السواد والقرى».

وليس في أن يتبع طرابلس كثير من القرى أية مشكلة. ولكن ما معنى قوله: «ويقال ان بها عشرين الف رجل؟» وبعبارة أخرى: كم كان عدد سكان طرابلس، بحسب هذه العبارة؟ هل نعتبر أن كل رجل كان رأس أسرة؟ وهل نفرض أن معدل أعضاء الأسرة ـ أباً وأماً وأولاداً ـ هو خمسة؟ وهل يعني هذا أن طرابلس كان عدد سكانها نحو مئة ألف نسمة؟ لا أعتقد أن هذا العدد غريب، إذ أنّه من الممكن أن يكون عدد سكان طرابلس وأرباضها مئة ألف نسمة. فالمدينة كانت مشهورة بالزراعة، كما رأينا من ذكر الزروع في أرضها. يضاف إلى ذلك الصناعة والتجارة. يقول ناصري خسرو:

«ويصنع اهل طرابلس الورق الجميل مثل الورق السمرقندي، بل أحسن منه».

ويضيف قائلاً:

«وتحصّل المكوس في هذه المدينة. فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والفرنج والاندلس والمغرب العشر للسلطان، فيدفع منه ارزاق الجند. وللسلطان بها سفن تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة».

ويلخص الرحّالة الحالة السياسية في طرابلس، بقوله:

«وطرابلس تابعة لسلطان مصر. قيل وسبب ذلك انه في زمن ما اغار عليها جيش الروم، فحاربه جند سلطان مصر وقهروه، فرفع السلطان الخراج عنها، واقام بها جيشاً من قبله، على رأسه قائد لحمايتها من العدو».

ولما غادر ناصري خسرو طرابلس، سار على شاطىء البحر ناحية الجنوب، فمر بقلعة تسمى القلمون. ثم بلغ مدينة جبيل، التي يحيط بها سور حصين شاهق الارتفاع، وحول مدينة جبيل النخيل. ويقول الرحالة:

«وقد رايت في يد غلام بها وردة حمراء وأخرى بيضاء ناضرة. وكان ذلك في اليوم الخامس من شباط».

ويقول ناصري خسرو، عن جبيل، إنها:

«مثلثة، تطل زاوية منها على البحر، وحولها النخيل وغيره من اشجار المناطق الحارة».

وبعد هذه الزيارة المقتضبة لجبيل، يستمر الرحالة في سيره نحو الجنوب، فيصل بيروت، والغريب، أن ناصري خسرو، لم يذكر، عن بيروت، سوى وصفه للطاق. ويقول:

«ولم يبق هناك ابنية سوى الطاق».

ولا شك في صحة هذا القول، لأننا نعرف أن بيروت بعد أن خربها الزلزال الكبير، سنة ٥٥١ م، لم يعن بها العناية التي تستحقها. ويبدو أن الموانىء ودور السلاح، التي أنشئت على الشاطىء، لم تكن بيروت في عدادها. ويقول ناصري خسرو:

«والوادي المجاور لهذه الناحية مملوءة بأعمدة الرخام، تيجانها وجذوعها».

ثم يتساءل:

«وليس في هذه الجهة جبل حتى يقال بأن الحجارة والاعمدة جاءت منه».

ويصل إلى صيدا، وكأنه يتنفس الصعداء حين يقول:

«ثم بلغنا مدينة صيدا، وهي على شاطىء البحر أيضاً. يزرع فيها قصب السكر بوفرة، وبها قلعة حجرية محكمة ولها ثلاث بوابات، وفيها مسجد جمعة جميل يبعث في النفس هيبة تامة. وقد فرش كله بالحصير المنقوش».

ويعجب الرحالة بصيدا، فيقول:

«وفي صيدا أسواق جميلة نظيفة. وقد ظننت حين رأيتها، إنما زينت لقدم السلطان أو لان بشرى سعيدة أذيعت. فلما سألت، قيل لي هكذا عادة هذه المدينة دائماً. وفيها حدائق وأشجار منسقة حتى لتقول ان سلطاناً هاوياً غرسها. وفي كل من هذه الحدائق كشك».

ويجب أن نذكر أن صيدا، كانت الميناء الذي كان يصل دمشق بالعالم البحري الخارجي. كما كانت صيدا محطة لمناطق حوران. أما بالنسبة لهذه، فالأمر طبيعي. لكن أن تكون صيدا ميناء دمشق، فهذا الأمر يحتاج إلى تفسير مقتضب، وهو ان جبال لبنان الغربية تعترض المرور بين بيروت ودمشق، نحو ثلاثة أشهر في السنة، بسبب سقوط الثلوج وتراكمها عليها في فصل الشتاء؛ وعندها ينقطع الاتصال نسبياً. أما طريق صيدا إلى مرجعيون، ومن هناك إلى دمشق وحوران أيضاً، فالأمر أيسر.

وقد أصبحت بيروت ميناء دمشق وما إليها، بعد بناء سكة الحديد، في أواخر القرن التاسع عشر، وإنشاء «البور» في بيروت، في الوقت نفسه تقريباً.

ويقول ناصري خسرو إنه سار خمسة فراسخ، من صيدا حتى بلغ صور. والفرسخ يقدر بنحو ستة كيلومترات. فما الذي رآه في صور؟

يقول:

«وصور ساحلية أيضاً. وقد بنيت على صخرة امتدت في الماء، بحيث أن الجزء الواقع على اليابس من قلعتها، لا يزيد على مئة ذراع والباقي في ماء البحر».

كانت صور في الأزمنة القديمة، ومنذ زمن انشائها، تقوم على جزيرة مفصولة عن البرّ، ولما جاء الاسكندر إلى لبنان سنة ٣٣٢ ق.م.، وحاصر صور، استعصت عليه، لأنها كانت تعتمد على صلتها بالبحر، وصعوبة مقاومة ذلك من البر.

فطمر الاسكندر الجزء المائي، الذي كان يفصل الجزيرة عن البر، فوصل القسمين، وأصبحت صور، منذ ذلك الوقت، تبدو وكأنها مبنية على شبة جزيرة صخرية!

ويقول الرحالة:

«وأسوار القلعة مبنية بالحجر المنحوت، وقد قدرت المدينة بألف ذراع في كل جهة. وفنادقها، مثل فنادق طرابلس، تتكون من خمس طبقات أو ست. وكلها متلاصقة وفي كثير منها نافورات».

ويبدو أن الأسواق كانت تؤثر في صاحبنا. ولو أننا نتابع زيارة ناصري خسرو للقاهرة، لكنا رأينا مدى اهتمامه بالأسواق. وفي هذا الصدد، يقول عن صور:

«وأسواقها جميلة كثيرة الخيرات. وتعرف مدينة صور بين مدن الشام، بالثراء. والقاضي في صور اسمه ابن أبي عقيل، وهو رجل طيّب ثري».

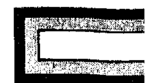
ويضيف الرحالة قوله:

«وقد بني على باب المدينة مشهد به كثير من السجاجيد والحصير والقناديل والثريات المذهبة والمفضضة».

ويختم وصفه لصور بقوله:

«وتأتيها المياه من الجبل. وقد شيّد على بابها عقود حجرية يمر من فوقها الماء الى المدينة. وفي الجبل واد مقابل لها، إذا سار السائر فيه ثمانية عشر فرسخاً، أي نحو مئة وعشرة كيلومترات نحو المشرق، بلغ دمشق».

ومن صور اتجه ناصري خسرو إلى عكا، متخذاً الطريق الساحلي. وله أوصاف جميلة دقيقة لأماكن في فلسطين، وخصوصاً القدس، ثم يذهب إلى القاهرة.



٦
ابن جبير ومعاصروه

يجب أن نتذكر، عند الكلام على أحد كبار الرحالة العرب، وهو ابن جبير، أن المسرح السياسي في بلاد الشام بأجمعها، كان قد تغيّر. ففي سنة ١٠٩٩ للميلاد، كان الصليبيون قد احتلّوا القدس. وبعيد ذلك، كانت أساطيلهم وجيوشهم قد استولت على الموانىء الشامية، من انطاكية إلى يافا. وكانوا قد اقاموا في بلاد الشام مملكة القدس، وثلاث امارات هي: الرها وانطاكية وطرابلس.

وفي الجهة المقابلة، كانت بلاد الشام ومصر، قد مرّت بتجارب سياسيّة خاصة. فالخلافة الفاطمية في مصر، قد أخذت تتأخر، سياسياً واقتصادياً؛ وسلطة الخلافة العباسية قد انحسرت عملياً عن شرق البحر المتوسط. وقامت مكانها دويلات السلاجقة والزنكيين. وكان نجم الأيوبيين في صعود.

وجاء ابن جبير بلاد الشام سنة ١١٨٥ م، أي قبل معركة حطين بسنتين. وصاحبنا اندلسي، من مواليد بلنسية سنة ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م. تفقّه على أبيه، ودرس الادب على علماء عصره، فبلغ فيه الغاية.

وقد عمل ابن جبير كاتباً في بلاط صاحب غرناطة؛ ثم اعتزم أداء فريضة الحج، فأعانه سيده على ذلك. وانتقل من غرناطة إلى سبتة في المغرب، حيث ركب مركباً للجنويين. ووصل، بعد ثلاثين يوماً، إلى الاسكندرية، ومنها إلى القاهرة، ثم الى الحجاز، بطريق موانىء البحر الأحمر.

وبعد أداء الفريضة، انتقل إلى الكوفة، وزار بغداد والموصل، وعاد بطريق حلب وحماة وحمص ودمشق وعكا. ومن هذه المدينة، أقلع في مركب افرنجي، إلى صقليّة. وقد مرّ ابن جبير، في طريقه من دمشق إلى عكا، بجنوب لبنان، كما أن السفينة، التي أبحر فيها من عكا، توقفت في صور. ومن هنا، كان لنا حظ الحصول على وصف جميل لهذه المدينة.

وتذكرة ابن جبير هي أخبار رحلته الأولى، ذلك أن الرجل، رحل مرتين الى المشرق. أمّا الواحدة، فقد كانت بُعيد معركة حطين، التي انتصر فيها صلاح الدين على الصليبيين، في سنة ١١٨٧ م. والأخيرة من رحلاته، حج فيها، وزار بيت المقدس، ثم تحوّل إلى الاسكندرية. وأقام فيها يحدّث ويؤخذ عنه حتى وفاته سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م.

دوّن ابن جبير أخبار رحلته على شبه مذكرات يومية. وكان يستعمل فيها التقويم القمري مع السنة الهجرية، والتقويم الشمسي دون السنة. وكان ابن جبير صاحب ذوق أدبي رفيع وقلم بارع؛ لذلك جاءت أوصافه رائعة. وهو يفعل ذلك سواء في ذكر مناسك الحج أم صعوبات السفر أم وصف المشاهد الطبيعيّة.

وفي سيره من دمشق إلى عكا، مر ابن جبير بمنطقة تبنين؛ فقال عنها:

> «ورحلنا من تبنين سحر يوم الاثنين، وطريقنا كله على ضياع متّصلة، وعمائر منتظمة، سكانها كلهم مسلمون وهم مع الافرنج على حالة ترفيه... وذلك لأنهم يؤدون لهم نصف الغلّة، عند اوان ضمّها، ويدفعون جزية على كلّ رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك».

ويضيف ابن جبير:

> «ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها ايضاً. ومساكنهم بأيديهم، وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل. رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع...».

وما ذكره ابن جبير لا ينطبق على جميع ما كان بأيدي الافرنج. إذ لا بد أن يقع، هنا أو هناك، ظلم على السكان. ولكن ابن جبير يروي ما شاهده، وهذا نقبله منه لكن تعميمه، قد يكون بحاجة إلى التعديل.

والمدينة اللبنانية الوحيدة، التي شاهدها ابن جبير، وأدرك الكثير من شؤونها، كانت صور. وهو يقابل صور بعكا؛ لأن المدينتين، كانتا بين الموانىء الكبرى في ذلك الوقت. فيقول:

«صور أنظف من عكا سككاً وشوارع، وأهلها الين في الكفر طبائع، وأجرى إلى برّ غرباء المسلمين شمائل ومنازع. فخلائقهم أشجع ومنازلهم افسح وأوسع وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن. وعكة أكبر».

ويعجب ابن جبير بحصانة المدينة ومنعتها، فيقول في ذلك:

«وأما حصانتها ومنعتها فأعجب ما يُحدَّث به. وذلك أنها راجعة إلى بابين أحدهما في البرّ والآخر في البحر. والبحر يحيط بها إلا من جهة واحدة. فالباب الذي في البر يُفضَى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو اربعة كلها في ستائر مشيّدة محيطة بالباب».

لكن باب البحر أعجب ابن جبير أكثر من الباب البري. فقال فيه:

«وأمّا الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيّدين إلى ميناء. وليس في البلاد البحرية أعجب منه ا وصفاً. فسور المدينة يحيط بها من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص. فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها. وتعترض بين البرجين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج».

وهذه السلسلة، التي كانت معروفة في عدد كبير من المدن البحرية، تمنع المراكب من الدخول أو الخروج، إلا عند رفعها. ويضيف ابن جبير:

«وعلى ذلك الباب حرّاس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم. فشأن هذه الميناء عجيب في حسن الوضع والصفة. لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل الصغار، وإنّما ترسو خارجها، والمراكب الصغار تدخل إليها. فالصورية اكمل وأجمل وأحفل».

ويبدو أن ميناء صور، كان قد بني على هذه الصفة، أيام ابن طولون، الذي كان حاكماً لمصر وأكثر بلاد الشام، في القرن التاسع الميلادي؛ ولو أن العناية بالميناء، تعود إلى قبل ذلك.

ولسنا ندري فيما إذا كان ابن جبير، قد سرّ بوصفه العرس الذي شهده في صور، وهو عرس للافرنج. لكن الذي يهمنا، اننا حصلنا على هذه اللقطة الأدبية الطريفة. يقول:

«زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام قرب مينائها. وقد احتفل لذلك جميع النصارى، وهم من الافرنج، رجالاً ونساء. فقد اصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية».

وخرجت العروس من بيتها، فقال ابن جبير، يصف المشهد:

«خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنهما من ذوي أرحامها. وهي في أبهى زيّ وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهّب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم. وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفّت بشبكة منسوجة. وعلى ركبتها مثل ذلك منتظم».

ومع أن ابن جبير، استعاذ بالله من الفتنة، فإنه تابع الوصف بدقة وأمانة. قال:

«والعروس رافلة في حليها وحللها تمشي فتْرى في مشي الحمامة أو سير الغمامة، نعوذ بالله من فتنة المناظر. وأمامها جلّة من رجالها النصارى في أفخر ملابسهم البهيّة، تسحب أذيالها خلفهم، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات، يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن في أرفل الحلي».

ويعود الرحالة إلى الوصف، فيقول:

«والآلات اللهوية قد تقدمتهم، والمسلمون والنصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم، ولا ينكرون عليهم ذلك. فساروا حتى أدخلوها دار بعلها. وأقاموا يومهم ذلك في وليمة. قادنا اتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخرفي».

فلو أغمضنا أعيننا، واستذكرنا كلمات ابن جبير، لتمكنا من تصور هذه الحركات، التي دبجتها يراعة كاتبنا. فلو كنا نتمتع بموهبة الرسم، لوجدنا ما يعيننا على رسم لوحة فنية.

وان كنا نأسف لشيء فهو أن ابن جبير، لم يتنقل في لبنان، فيصف لنا مشاهده الطبيعيّة وآثاره الجميلة، على نحو ما فعل، بالنسبة للعراق وسوريا والحجاز ومصر.

على أنه من حسن حظنا أن رحالة اسبانياً آخر جاء بلاد الشام قبيل ابن جبير بنحو عشر سنوات. هذا الرحالة، هو بنيامين التطيلي من سرقوسة، حيث بدأ أسفاره، فانتقل الى ايطاليا وبلاد اليونان والقسطنطينية وهبط انطاكية. ومن هذه المدينة، سار على الساحل الشامي إلى عكا، ثم اتجه إلى نابلس فالقدس. ولسنا معنيين هنا بما تبقى من رحلته. لذلك، فإننا سنكتفي بمرافقته على الساحل اللبناني.

لقد نقل بنيامين قصصاً وأخباراً غريبة، سمعها من الناس، دون أن يرفّ له جفن، لكنه عندما يتحدث عن الأمور الاقتصادية تجارة وصناعة وزراعة ومواصلات فإنه يكون دقيقاً. فمن النوع الأول، ما رواه عن شيخ الجبل، ممّا سمعه من الناس في اللاذقية. ولكنه عندما يصل إلى طرابلس، ويسميّها طرابلس الشام، يذكر، فيما يذكر، الزلزال الذي أصاب سوريا قبل مجيئه بمدة قصيرة، ودمّر طرابلس وأدّى إلى مقتل الألوف من سكانها. ويقول، بالمناسبة، إن هذا الزلزال قتل من أهل فلسطين عشرين ألفاً.

ويقول بنيامين، إنه سار يوماً واحداً، من طرابلس حتى وصل إلى جبيل. ويقول عن جبيل، إن المجلس القائم على شؤونها، يتكوّن من سبعة جنويين، والرئاسة بينهم دائماً لواحد من أسرة امبراكو. وسبب هذا الوضع هو أن وليم امبراكو الجنوي، عهدت إليه مدينة جنوا بقيادة الاسطول، الذي أرسلته المدينة التجارية الكبيرة إلى بلاد الشام، ليكون في عون الافرنج الصليبيين.

وقد احتلّ الاسطول جبيل سنة ١١٠٩ م، لذلك اقطعت جبيل إلى وليم امبراكو، القائد البحري؛ واحتفظ خلفاؤه بهذه الزعامة بعده. ولما جاء بنيامين إلى المدينة كان وليم امبراكو، الحفيد، هو الرئيس. أمّا الأعضاء الستة الآخرون، فكانوا ممّن تنتدبهم جنوا لادارة المدينة اللبنانية.

وينتقل بنيامين بعد ذلك، إلى بيروت التي لم تؤثر كثيراً فيه. لكن صيدا، كانت أبعد أثراً في نفسه. فقد قال عنها، إنها مدينة عظيمة حقاً. وهنا يشير إلى العداء المستحكم بين صيدا وبين جماعة من السكان، يقيمون في المناطق الجبلية الداخلية. ويسميهم الدروز. لكن الرحالة يروي عنهم ما سمعه محلياً. ولعلّ الشيء الوحيد الذي ذكره، وكان صحيحاً، انهم يعتقدون بالتقمص.

ويزور الرحالة صور، التي يقول عنها، إنها بلدة جميلة جداً. ويحدّثنا عن الميناء، الذي يحرسه برجان، تصل بينهما سلسلة حديدية تُسحب ليلاً؛ وبذلك، تحول دون اللصوص وسرقة المراكب أو القوارب. ويضيف قائلاً:

> «والتجارة والصناعة رائجتان في صور. إذ ان المدينة فيها المهرة من العاملين بصنع الزجاج الصوري المشهور. وعلى مقربة من صور تقوم صناعة الصباغة بالارجوان. والصناعتان قديمتان في المدينة. وصور الآن مدينة مشهورة بالتجارة، وهي من المدن القليلة التي تملك تجارها جميع السفن التابعة للمدينة، فضلاً عن انهم يملكون سفناً كثيرة تنتقل متاجرة في أنحاء البحر المتوسط».

ومن صور، ينتقل بنيامين الى عكا، ومنها إلى نابلس فالقدس فدمشق فبغداد. وعاد من بغداد وغرب فارس إلى مصر، بطريق جنوب بلاد العرب. ثم عاد إلى بلاده اسبانيا.

وقد يبدو غريباً أن يذكر اسم المنيطرة، في مناسبة الحديث عن لبنان، في كتابات الآخرين. لكن المنيطرة كانت، في القرون الوسطى، مركزاً اقطاعياً واستراتيجياً هاماً، بالنسبة إلى جرود جبيل، والخبر الذي نورده هنا منقول عن الفارس العربي، الأمير اسامة بن منقذ، صاحب كتاب الاعتبار.

وأسامة بن منقذ اسم معروف، لذلك لن نتوقف عند التعريف به. وكل ما ننقله الآن خبر أورده عن الطب الافرنجي. قال:

«طلب صاحب المنيطرة الافرنجي من عمي أن ينفذ له طبيباً يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل اليه عمي طبيباً عربياً نصرانياً اسمه ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد. فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى».

فروى الطبيب ثابت، على قول ابن منقذ:

«احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دمّلة، وامرأة قد لحقها نشاف. فعملت للفارس لبّيخة ففتحت الدمّلة وأصلحت. وحمّيت المرأة ورطبت مزاجها، فجاءهم طبيب افرنجي فقال للفارس: أيما أحب اليك تعيش برجل واحدة أم تموت برجلين. فكان جواب الفارس أنه يعيش برجل واحدة».

ويستمر أسامة بن منقذ في روايته، فيقول:

«فطلب فارساً قوياً وفأساً قاطعاً، فحضر الاثنان. وأنا حاضر، فحطّ ساقه على قرمة خشب وأمر الفارس أن يضرب الرجل ضربة واحدة ليقطعها. فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت، فضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات لساعته».

ويقول ابن منقذ، على رواية ثابت:

«إن الطبيب الافرنجي نظر إلى المرأة وقال ان في رأسها شيطاناً. وطلب أن يحلق شعر رأسها، وعاد فسمح لها بأكل الثوم والخردل، فزاد بها النشاف. فأخذ الموسى وشق رأسها وسلخ وسطه حتى كشف العظم وحكّه بشدة، فماتت في وقتها».

وينهي أسامة رواية ثابت بقوله:

«وسأل ثابت هؤلاء القوم هل بقي لهم إليه حاجة. فلما قالوا لا، قال: فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أعرفه».

٧ وليم الصوري ومعاصروه

يلاحظ الذي يُعنى بما كتب عن لبنان والأقطار المجاورة له في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، أن الكتّاب والرحّالة أخذوا ينظرون إلى المنطقة نظرة شاملة، بدل النظرة الجزئية السابقة. وثمة أمر آخر يجدر الانتباه له، وهو أن الأمور العادية، الخارجة عن طقوس الزيارات الدينية، أصبحت موضع اهتمام الكتّاب والزوار. فهناك أمور تتعلق بطبيعة البلاد، وثمة وصف للانتاج الزراعي أو الصناعي.

ولعل أحد أسباب هذا التطور أو التبدل، هو أن زوار هذين القرنين، أي الثاني عشر والثالث عشر، كانوا هم أنفسهم أكثر التصاقاً بالطبيعة من سابقيهم، أو لعلّهم كانوا أوسع أفقاً فكرياً ممن جاء البلاد قبلهم. من هنا تنوع اهتمامهم؛ وبدا ذلك فيما خلفوه.

ومن هذا النوع من الكتّاب وليم الصوري، رئيس أساقفة صور، فقد وضع كتاباً في سنة ١١٨٣ م سماه: «**تاريخ الصليبيين**». والمؤلف لا يقدم لنا معلومات ذات قيمة، بالنسبة لعدد من الرحالة حتى من السابقين، هذا بقطع النظر عن اللاحقين. ومع ذلك، فوصفه لبلاد الشام جيد؛ وتعود جودته إلى النظرة. إذ أن وليم من الأوائل الذين نظروا إلى البلاد النظرة الشاملة، قبل أن يتجه إلى التفاصيل والجزئيات. فبلاد الشام عنده، وهو يسميها سوريا، تمتد من أعالي دجلة إلى مصر، ومن كيليكيا إلى البحر الأحمر، وبعد ذلك يُعنى بتقسيمها إلى مناطق أو أجزاء.

وهذا التقسيم، هو مزيج من المناطق الطبيعية والاقسام الادارية. إذ أن وليم الصوري، يذكر الجزيرة الفراتية، وسوريا الشمالية، وسوريا الداخلية، ولبنان أي الجبال والساحل اللبناني والولايتين العربيتين: حوران وشرقي الأردن، وأدوم، والأقضية الثلاثة التي تنقسم اليها فلسطين.

وعند الاشارة إلى أقسام فلسطين الادارية، يقول ان هذه الأجزاء الثلاثة، كانت مراكز الادارة فيها، هي القدس وقيسارية وبيسان. وهذا التقسيم، فيه التاريخ الروماني والبيزنطي، كما أنه يحوي التوزيع الاداري على أساس الأسقفيات، التي عرفت بعد ذلك، والذي عاد إلى البلاد أيام الصليبيين.

وفي سنة ١١٨٥ م، أي بعد أن كتب وليم كتابه بسنتين، زار المنطقة فوكاس، وهو راهب كريتي، وقد ترك **وصفاً مختصراً** للبلاد. وأسلوب فوكاس رائع، وصوره كثيرة الألوان متناسبتها. وهو، إذ يقدم كتابه إلى القراء، يتساءل، ما الغاية من هذا الكتاب؟

ويجيب عن سؤاله بقوله:

> «إن أولئك الاشخاص الذين لم يتح لهم أن يمتعوا ناظريهم بمرأى هذه الأماكن البالغة البهاء، ومع ذلك فهم يقعون على ذكرها كثيراً، سيفيدون من كتابي، على ما اظن، اكثر بكثير مما قد يفيدون ممن يسمعونهم دون أن يحددوا كلامهم».

ويضيف فوكاس قائلاً:

> «وأحسب أن الكتاب يجب أن يمنح حتى أولئك الذين شاهدوا تلك الاماكن متعة ناتجة من معرفة الشيء الذي يتحدث عنه كتابي».

ولعلّ الخاتمة، التي أنهى بها فوكاس كتابه، تظهر مدى العناية التي بذلها في الكتاب. فهو يقول:

> «فإما وجد القارىء فيما كتبت فائدة، فإنني احسب أنني جوزيت خير الجزاء عما بذلت من جهد، وإلا فليعد ابني هذا إليّ، فإن صراخه يعيد إلى نفسي ذكريات عذبة عن الاماكن المقدسة وغيرها التي زرتها، وهذه الذكريات تبعث النشوة في خيالي».

ويصف فوكاس جبل لبنان، فيقول:

«إن جبل لبنان جميل جداً ومشهور جداً وعظيم جداً، يكسوه رداء من الثلج، وتنحدر ذيول منه على جوانبه. تكثر في سفوحه أشجار الأرز والصنوبر والسرو، وتزيّنه الأشجار المثمرة من مختلف الأنواع».

ويقول فوكاس، في وصف ينابيع الماء فيه:

«تنبثق من أوديته وكهوفه أنهار تسرع في جريانها نحو البحر على شكل يخطف الأبصار».

ويقول أيضاً:

«وتقوم طرابلس عند أقدام الجبل؛ وهي صغيرة جداً من حيث المساحة، وقد بنيت على رأس المرتفع الذي يخرج من البحر، ومما يدعو إلى الإكبار الأسوار المنيعة التي تدور بها، وجمال أبنيتها».

ويتوقف فوكاس بعض الوقت عند كل من الموانىء اللبنانية، ليلقي عليها نظرته، وليستمتع بها، ثم يختصر وصفها في عبارات قصيرة، لكنها معبّرة، فجبيل جميلة. لكن بيروت:

«كبيرة كثيرة السكان، تحيط بها الأرباض الواسعة والحدائق النضرة».

وينتقل ليتحدث عن ميناء بيروت، فيقول:

«ليس للمدينة ميناء طبيعي، لكن الذي بني حولها هو عمل فني رائع. فقد صنعها الفن هلالاً واحتضنتها المدينة عاطفة عليها».

ويبدو أنه كان لبيروت، كما كان لكل مدينة ساحلية، برجان كبيران في نهايتها؛ في كل منهما أصل لسلسلة ضخمة، كانت تسحب ليلاً، لتسد السبيل على من يريد أن يدخل الميناء، معتدياً أو لصاً.

ويلي بيروت، على الساحل، مدينة صيدا، ذات الميناءين التوأمين. الواحد في الداخل، والثاني خارج المدينة. ويذكرنا فوكاس بأن هذين الميناءين، كانا قديمين؛ وأن المؤرخ تاتيوس، قد وصفهما وصفاً دقيقاً، في قصته المسماة: «غرام كليتوفون ولوسيّي».

ولكن الذي لم يتنبه له فوكاس، هو أن الميناءين القديمين طرأ عليهما تبدل كبير، بين الوقت الذي وضع فيه تاتيوس قصته، والزمن الذي كان فيه فوكاس في صيدا. لكن المهم، هو أن فوكاس، يود أن يشير إلى أن صيدا حافظت على أهميتها، طيلة هذه الفترة.

وتبهر صور فوكاس، كما بهرت ناصري خسرو، في القرن السابق. فيقول عنها، إنها تفوق في جمالها كل مدينة في فينيقيا. ويضيف:

«وهي مبنية على شبه جزيرة واسعة، وأبنيتها أجمل وأفخم من أبنية طرابلس».

ويعجبه ميناؤها الخارجي، الذي يشبهه بميناء بيروت، لكنه، حسب قوله:

«أوسع وأجمل وأبراجه اعلى من أبراج ذاك».

ويحدثنا عن نبع، على مقربة من صور. وبعد أن يروي عنه قصصاً منتزعة من أساطير المنطقة الوثنية والدينية، يقول:

«إن النظر اليه يملأ القلب سروراً، خاصة وقد أقيم فوقه بناء جميل وفسقية تنفر منها المياه، التي تجري في أقنية إلى المرج المحيط به».

وقد تسلق فوكاس البناء إلى أعلى البرج القائم فوقه، فوقعت عيناه على رقعة واسعة من الأرض تكسوها أوراق النباتات الخضراء.

وينحدر فوكاس بعد ذلك جنوباً، متتبعاً الساحل إلى الناقورة فعكّا، التي يقول عنها، إنها تتفوق، في

حجمها وعدد سكانها، على كل مدينة أخرى. ولا غرابة في ذلك، فقد كانت يومها الميناء الأول بالنسبة للفرنجة وللمملكة اللاتينية في فلسطين.

ومع أننا نتحدث عن الموانىء اللبنانية، فإننا ننقل هنا، عن ابن جبير، وصفه لعكا، التي أقام فيها بعض الوقت، وهو في طريق عودته إلى الاندلس. قال يصف عكا:

«وهي قاعدة مدن الافرنج، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالاعلام. مرفأ كل سفينة والمشبهة بعظمتها بالقسطنطينية. مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق. سككها وشوارعها تغص بالزحام، وتضيق فيها مواطىء الاقدام».

وما دمنا نتحدث عن كتّاب القرن الثاني عشر الميلادي ورحاليه، فقد يكون من المناسب، أن نضم إلى وليم الصوري وفوكاس الكريتي، ثيودوريتش الألماني. ويبدو أن هذا، كان أسقف مدينة ورتزبرغ، وأن زيارته لبلاد الشام، كانت حوالى سنة ١١٧٢ م. ومن الضروري، أن نذكّر أنفسنا دوماً، بأن أكثر هؤلاء الرحالين كانوا حجّاجاً وأنهم كانوا يعنون بالأراضي المقدسة أولاً وقبل كل شيء.

ومعنى هذا، أن أي شيء يكتب عن بقية بلاد الشام، أو أي جزء من المشرق، إنما يأتي مصادفة. وقد يكون سبب مثل هذه الكتابة، الطريق الذي اتبعه الحاج أو الرحالة.

ونود أن نستبق الأمور بعض الشيء، فنذكّر بأن هذا الأمر تبدل فيما بعد، ذلك بأن عدداً كبيراً من الرحالين، بدءًا من القرن الرابع عشر الميلادي، كانوا عيوناً لبعض أهل الحكم في الغرب، جاءوا المشرق، ليتعرفوا على أحواله، ولينقلوا أخباره إلى القائمين على الشؤون العامة في أوروبا.

لكن ثيودوريتش هذا، كان، بالنسبة إلى فلسطين ، أول من نظم دراستها الجغرافية. وطريق صاحبنا في فلسطين واضحة لكنه في آخر كتابه، يضيف بضع صفحات، يتناول فيها دمشق وفينيقيا. فيقول إن صور، هي المدينة الرئيسية، في فينيقيا. ويعدد المدن الأخرى الساحلية، فيأتي على ذكر طرابلس، وجبيل التي توجد فيها قلعة حصينة. ويتوقف عند بيروت، فيقول، في وصفها:

«بيروت مدينة غنيّة وحصينة وكبيرة ومزدحمة بالسكان».

وصيدا، في رأي رحالتنا، مدينة شهيرة. إذ أنها موطن ديدو، التي يرجع إليها الفضل في تأسيس مدينة قرطاجة في الشمال الافريقي. وينتقل ثيودوريتش إلى صور، فيقول فيها:

«وتقوم صور على الشاطىء، وتتفوق على غيرها من المدن بمتانة أسوارها وقوة ابراجها».

ويقول أيضاً:

«يكاد البحر يدور بثلاث جهات منها، فيما نجد الجهة الرابعة محصنة بطريقة قوية جداً. إذ تمتد على شكل مواز لأسوارها القوية الخنادق والستارات والأبراج والفرجات. وليس لها، من جهة البر، سوى مدخلين، محروسين كل ببوابة رباعية».

ولصور، بحسب رواية رحالتنا ثيودوريتش، ميناءان، الميناء الداخلي، ويستعمل لسفن المدينة، أما الميناء الخارجي، فهو للسفن الأجنبية. وللميناء سلسلة تمتد بين برجين، تسحب، عند الحاجة، فتقفل الميناء.

ويبدو أن سلسلة الميناء هذه، لم تكن توضع في المدن لمجرد الحراسة فحسب، بل لعلّ أحد أغراضها، هو منع السفينة الأجنبية من الخروج من الميناء، قبل أن تدفع ما يترتب عليها من الرسوم.

وبهذه المناسبة، ورد في بعض الكتب الصينية، التي تحدثت عن موانىء الصين، التي كانت تستقبل السفن الأجنبية، إن هذه السفن، كان يؤخذ منها الشراع والمرساة (الباطر)، لمنعها من السفر، قبل دفع الرسوم المتوجبة عليها.

ويذكرنا ثيودوريتش، بأن صور كانت مركزاً لأسقفية. وهذا، ولا شك، واضح من اشارتنـا، قبلاً، إلى وليم الصوري، على أنه كان أسقف صور. وثيودوريتش وفوكاس ووليم متعاصرون.

وفي سنة ١٠٩٩ م، احتل الصليبيون بيت المقدس، بعد أن كانوا قد استـولوا عـلى انطاكيـة والرهـا (ادسّا). وتوسعوا، خلال العقود الثلاثة التالية، في بلاد الشام، وأنشأوا ثلاث امارات في الـرها وأنطـاكية وطرابلس ومملكة القدس اللاتينيـة. ففي المئة سنـة، أو ما يقـرب من ذلك، التي مـرت على وجـود هؤلاء الفرنجة في بلاد الشام، زاد عدد الحجاج المسيحيين، الذين قصدوا البلاد المقدسة. وكثـيرون منهم دوّنوا أخبار زياراتهم وحجّهم. ولكن القلة منهم، خرجوا عن وصف الكنائس وأماكن العبادة والطقـوس المتعلقة بالأعياد الدينية.

وجاء في الفترة نفسها، عدد من الرحالين العرب إلى بلاد الشام، من جهات مختلفة. ولعلّ أبرزهم، هو ابن جبير الاندلسي. وابن جبير، تحدث بإسهاب عن الحج وشعائـره ومكة المكـرمة والمـدينة المنـورة؛ لكنه وصف الأماكن الأخرى، التي زارها وصفاً دقيقاً.

ومن هذه الأخبار والمعلومات والأوصـاف، أمكن الحصول عـلى الكثير من لفتـات السائـح عن لبنان، ولكن أكثر ما رُوي وذُكر، كان يتعلق بالموانىء والمدن الساحلية الواقعة على الطريق. أما الداخل، فلم يبرز إلا لماماً، عند الأجانب. وبعض هؤلاء الحجاج؛ حتى لما كتب عن فلسطين، لم يذكر كل شيء. فهنـاك واحد منهم يقـول، إنه تجنب الاشـارة الى عشرات من الكنائس وأمـاكن العبادة، التي تخص الفئـات الـدينيـة الصغيرة، لكثرتها. فذكرها جميعاً، يجعل ظل الكتاب ثقيلاً.

وفي سنـة ١١٨٧ م، انتصر صلاح الـدين على الصليبيـين في معركـة حطـين. واستـرد القـدس، من حكامها، في السنة عينها. والذي نلاحظه، في القرن الثالث عشر الميلادي والقرن الذي يليه، هو تبدل لهجة الكتّاب الأوروبيين، كما سنرى ذلك لاحقاً.

٨ يعقوب دي فتري وبركارت وجماعتهما

في سنة ١١٨٧ م، خرج الصليبيون من القدس، ومن تلك السنة حتى خروجهم النهائي من بلاد الشام سنة ١٢٩١ م، كانت عكا عاصمة ما ظل اسمه «مملكة القدس اللاتينية»، وأضيف إليها غالباً، «في عكا». وقد دارت بعد حطين معارك حول عكا وغيرها، لكن لم يكن في أي منها، بعد استرداد القدس، معركة فاصلة.

وأخيراً، توصل صلاح الدين الأيوبي وريكاردوس، ملك انكلترا، الى توقيع صلح الرملة، سنة ١١٩٢ م. وتوفي صلاح الدِّين بعد ذلك بفترة وجيزة. وظلت الأمور تتأرجح، حتى قيام دولة المماليك، سنة ١٢٥٠ م. وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، تم للملك الظاهر بيبرس، وللناصر قلاوون، وللأشرف خليل أن يضعوا حداً للوجود الفرنجي، في المشرق العربي.

كان من الضروري ذكر هذه الأمور، كي نتمكن من استحضار خلفية، ولو بسيطة، للرحالين، الذين سنتحدث عنهم، وعما وضعوه، مما له صلة بلبنان.

ومن الطبيعي، أن يكون موقف الرحالة الأوروبيين، حجّاجاً كانوا أم تجاراً، في القرن الثالث عشر الميلادي، مختلفاً عما كان عليه في القرن السابق. لذلك، فهناك أمور كثيرة، كانت تؤثر في تطوير المواقف وتبديلها. فإذا أخذنا الوضع السياسي، بشكل عام، عند الفريقين نلاحظ أن الجبهة العربية الاسلامية، كانت تمر بها فترات الجبهة الموحدة القوية، أيام صلاح الدين مثلاً، ثم في أوائل عهد المماليك. فضلاً عن ذلك، فقد أعاد انتصار المشارقة في حطين، ثم في عين جالوت، نوعاً من الثقة بالنفس اليهم، وهو ما كانوا قد فقدوه من قبل.

في مقابل ذلك، كانت الجبهة الفرنجية مضعضعة مضطربة. نتيجة لذلك، غيّرت بعض الحملات طريقها، فبدلاً من الوصول إلى البلاد المقدسة، احتلت القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م، وظهرت الرغبة التجارية والاقتصادية واضحة في تصرف المؤسسات والقوى الفرنجية. ومن ثم لم تستطع هذه أن تصمد أمام القوى النشيطة الحديثة الصاعدة في المنطقة.

وحري بنا أن نذكر، أن نحو قرن من الاختلاط التجاري والثقافي والاجتماعي، كان قد مرّ على الجماعة الفرنجية، منذ أن وصلت بلاد الشام. وكان من أثر ذلك تبدّل، ولو محدود ، في النظرة والزاوية، نحو أهل البلاد. كما أن أهل البلاد، تبدّلت نظرتهم، بعض الشيء، بالنسبة للأجانب.

وكان من نتيجة هذا الاختلاط، أن أصبح الفرنجة، ونقصد المؤلفين والكتّاب والرحالين، أوسع أفقاً من سابقيهم. وكذلك بدت عندهم الرغبة في تفهم الأجواء الجديدة، التي سيعيشون فيها. ولعلّ مما يدل على ذلك، أن أكثر من واحد من رحالة هذا القرن، كانوا يعنون بالبلاد على أنها وحدة جغرافية طبيعية.

ولا شك بأن هذا الأمر، ينطبق على العموم، في أكثر الحالات. فالذين أرادوا أن يقصروا كتاباتهم على فلسطين، نظروا الى البلاد على أنها وحدة، وكتبوا عنها كذلك. والذين كانت بلاد الشام بأجمعها موضع اهتمامهم، تعاملوا معها على أنها وحدة.

على أن الأمر كان أبعد من مجرد الاهتمام بطبيعة البلاد بالذات، أو جغرافيتها، كما نقول. كان هناك اهتمام بالجماعات، التي كانت تقطن البلاد. فيعقوب يظهر اهتماماً كبيراً، للتعرف على الطوائف المسيحية المختلفة.

وكان هناك تبدل في موقف هؤلاء الرحالين، أو بعضهم على الأقل، من الاسلام. فنحن نجد، أن تتمار يحاول التعرّف على الإسلام ، ويضع ترجمة مختصرة للرسول. وهناك غيره. صحيح أننا نعثر على جماعة

لم يفهموا الاسلام فهماً صحيحاً؛ لكن هذا من طبيعة الأمور. فالمحاولة كانت في بدئها. وكان لا بد من مرور عشرات السنين، أو حتى المئات منها، قبل أن يتمكن الأجنبي من فهم هذه الأمور بالدقة الكافية.

يتضح، من هذه العجالة، أن الأمور تبدلت في هذه الفترة. وسنرى، أن تبدلاً آخر، سيدخل على أولئك الأجانب الذين سيكتبون عن لبنان أو بلاد الشام، من خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين. هناك نجد أن بواعث الرحلة تتبدل، ومن ثم، فإن وسائل التعرف وطرقها تتبدل أيضاً.

أما وقد أشرنا الى التغييرات ودوافعها، فلا بد من التعرف إلى نفر من هؤلاء الرحالين. وأول سائح أوروبي، من القرن الثالث عشر الميلادي وصلتنا أخباره، هو ولبرند. فقد زار سوريا ولبنان، وحج إلى القدس، سنة ١٢١١ م، ومع أن ولبرند وصف الموانىء الشامية، فإن ما ذكره كان مختصراً جداً، بحيث أننا لا نفيد من أقواله جديداً.

وكان الزائر التالي هو تتمار، الذي زار المنطقة سنة ١٢١٧ م، ابّان قيام هدنة بين المسلمين والفرنجة. يحج تتمار، ويصف القدس وصفاً مجتزءًا، ويقول ان الذين سبقوه، قد أفاضوا بما فيه الكفاية. لذلك فإنه لا يريد أن يكرر القول على غير جدوى.

ولكن تتمار، عوّض عن ذلك، في وصفه لأماكن أخرى. فهو يعطينا وصفاً جميلاً لدمشق، مثلاً. ووصفه غني بالصور والألوان. فقد شبهها بالجنة، لكثرة ما يحيط بها من الحدائق الغناء، ذات الأشجار المنوعة والأزاهير المتعددة الألوان، التي تسرح فيها العنادل وتغرّد؛ حتى في فصل الخريف.

وهذا الكلام يذكرنا، بوصف ابن جبير لدمشق، الذي اعتبرها تُسامتُ الجنة. ولعل ما يجب أن يذكر لتتمار، ولو أنه يبعدنا عن لبنان، هو أنه مر بالبتراء سنة ١٢١٧ م، ووصفها وصفاً مجملاً، كان الأخير من نوعه، لمدة طويلة.

ويبدو أن موقع البتراء، المحاط بالجبال، حجبها عن الرحالة مدة طويلة. لذلك، كانت البتراء، خلال ستة قرون، اسماً في الذاكرة، بالنسبة للعالم العربي. حتى زارها لدوغ بركهارت سنة ١٨١٢ م، فكانت زيارته لها اكتشافاً جديداً لعاصمة الأنباط.

ومن الرحالة أيضاً وليم الصوري، الذي كان مؤرخ الصليبيين، في القرن الثاني عشر الميلادي. وكذلك كان ثمة مؤرخ للقرن الثالث عشر الميلادي هو يعقوب دي فتري، أسقف عكا. وقد سيم سنة ١٢١٧ م. وكان، يومها، قد أقام عشر سنوات في البلاد المشرقية.

وكتاب يعقوب دي فتري يحتوي على معلومات جغرافية مفيدة جداً. كما أن معلوماته، عن الطوائف المسيحية المحلية، دقيقة. لكن ما كتبه عن الاسلام، لا يدل على فهم صحيح للأمور.

وينطبق، هذا الذي ذكرناه عن يعقوب والاسلام، على عدد كبير من الأمور التي يدونها في كتابه. ففيما يتحدث عن أهل البلاد، نجده يُدخل في حديثه قصصاً خرافية عن أقزام أو رجال ذوي أذناب أو قرون.

ومثل ذلك يقال عن أمور أخرى. فبينما يخبرنا عن نبع ماء قرب مدينة ما، تراه ينتقل فجأة، فيروي اعتقادات العامة بشأن ارتباط أنواع من المياه بالعقم والحمل. ومع ذلك، فإن ملاحظاته حول الأرض والنبات والمزروعات، بالنسبة للمنطقة، غاية في الدقة.

ويبدو أن تدريب يعقوب دي فتري وثقافته عمادهما اللاهوت، بحكم منصبه والقانون على ما يظهر من كتابه. ذلك أن أفضل أجزائه، هي التي يصف فيها تنظيم الوحدات السياسية، التي أقامها الصليبيون في بلاد الشام، أي المملكة اللاتينية والامارات الثلاث.

وقد وصف يعقوب دي فتري ثلاثين مدينة، تقع على الساحل الشامي، بين أنطاكية ومصر. ولكن ليس في المعلومات التي يعطينا إياها جديد.

وثمة من رحالي القرن الثالث عشر الميلادي بركارت، وهو راهب دومينيكي ألماني، كتب عن الأراضي المقدسة وجوارها سنة ١٢٨٣ م. وكان قد أقام في القدس وعكا، وتجول في البلاد. لذلك، جاءت أخباره نتيجة تجربة شخصية.

وبركارت هذا، كان من أول الرحالين الذين عُنوا، بشكل خاص، بالآثار. وقد اشتهر بحملته على اللاتين، الأوروبيين المقيمين في البلاد المقدسة والامارات الفرنجية في المشرق.

وثمة أمر آخر حري بالذكر، بالنسبة لهذا الراهب الدومينيكي، وهو أنه من أوائل الذين وصفوا الجماعة الاسلامية وعاداتها وصفاً دقيقاً.

ويجدر بنا أن نذكر، أن الادريسي وصاحب «تقويم البلدان»، أوردا الكثير عن المدن اللبنانية. فالادريسي يقول، عن بيروت، إنها:

«مدينة على ضفة البحر ولها بمقربة منها جبل فيه معدن حديد جيد، يستخرج منه الكثير ويحمل إلى بلاد الشام. وبها غيضة أشجار صنوبر مما يلي جنوبها تتصل إلى الجبل».

ويقول أبو الفداء، صاحب «تقويم البلدان»، عن بيروت وجبيل، ما يلي:

«وبيروت على ساحل البحر لها بساتين وهي خصبة. وهي فرضة دمشق... وبينها وبين مدينة جبيل ثمانية عشر ميلاً. وجبيل لها ميناء وسوق وجامع».

ويُعنى أبو الفداء بالطرق. فهو يتحدث عن الطريق من صيدا إلى دمشق، كما عرف في أيامه، أي في القرن الثالث عشر للميلاد، فيقول انه كان يتجه من صيدا إلى مشغرة إلى كامد (اللوز) وعين الجر (عنجر) في البقاع، ثم إلى دمشق.

وقد وصف أبو الفدا مشغرة بقوله:

«ومن مدينة صيدا إلى مشغرة وهي من أنزه بلدان تلك الناحية، فواديها في نهاية الحسن بالأشجار والأنهار».

ووصْف أبي الفداء لطرابلس، لا يختلف كثيراً عما وصلنا، وذكرناه من قبل. لكنه يذكر قصب السكر، يزرع فيها. فهو يقول:

«ولطرابلس بساتين وأشجار كثيرة ويزرع بها قصب السكر».

ويذكر ارتباط طرابلس ببعلبك. وهذه، كما يقول:

«لها قلعة حصينة عظيمة البناء وهي ذات أشجار وأنهار وأعين. وهي كثيرة الخير، كثيرة المنازه».

ولدينا وصف من بركارت الدومينيكي لصور، جاء فيه قوله:

«دورة سور المدينة أكبر من دورة سور عكا. وقد أقمت فيها مرة عشرة أيام. والماء في جهاتها كثير، وأهل صور يوزعون المياه على كل أجزاء السهل المحيط بالمدينة. فيروون البساتين التي ينمو فيها الكرم وقصب السكر، وهو كثير. وينال صاحب صور منه رسوماً كثيرة».

ونورد هنا وصف الرحالة نفسه لعكا، للمقارنة بين المدينتين. يقول الكاتب:

«عكا مدينة حصينة بأسوارها وأبراجها وخنادقها وبقية أساليب التحصين المتينة إلى درجة كبيرة. يحيط بعكا من الشرق سهل متسع خصب جداً، سواء في ذلك أرضه المفتلحة ومروجه وكرومه وبساتينه التي تنمو فيها أنواع مختلفة من الفاكهة».

ويصف داخل المدينة فيقول:

«وفي داخل المدينة أمكنة كثيرة محصنة وقلاع وحصون تخص الفرق المختلفة كفرقة المستشفى أو فرقة الهيكليين أو جماعة التوتون. ولها ميناء كبير جداً في جنوبها تستطيع السفن أن ترسو فيه».

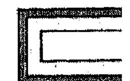
كان صلح الرملة، الذي عقد بين صلاح الدين وريكاردوس، إيذاناً بتنشيط التبادل التجاري، بين الموانىء الشامية والداخل. ففي واقع الأمر، أنه لما عقد الصلح، نودي في الناس، أن من شاء، من الفريقين ـ العربي والفرنجي ـ أن يذهب إلى بلاد الآخر، فليفعل.

وهذا لا يعني، فيما اعتقد، أن الحروب توقفت بين الفريقين نهائياً. لكن على ما يبدو، لم يكن ثمة ما يمنع تبادل القوافل والاتجار، بين الأجزاء التي لا تكون خطوط معارك أو ميدان قتال.

لكن الأمر المهم، الذي يلاحظه المرء، هو أن الموانىء الشامية ـ السورية واللبنانية والفلسطينية ـ كانت دوماً محط أنظار التجار. وهم الذين كانوا يحركون القوى المختلفة، لتأمين مصالحهم. وهذا يبدو لنا أوضح في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، أي بعد القضاء على الصليبيين، وإخراجهم من البلاد.

وبعد احتلال المماليك للبلاد التي كانت تحت إمرة الفرنجة، خشوا أن يعيد هؤلاء الكرة، فيعودوا لاحتلال الموانىء، خصوصاً أن قبرص، كانت ما تزال تحت حكم من تبقى من الصليبيين. فدمر سلاطين المماليك أكثر الموانىء، وهدموا أسوارها وأبراجها. وهذا أمر سرى على أكثر المدن الساحلية.

وتدخل التجار الأوروبيون، إثر ذلك، تدخلاً اجمالياً، باعتبار أنهم يمثلون جزءاً من البندقية أو جنوا أو فلورنسة أو غيرها. وقامت المدينة، المعنية بالأمر، بالتقرب من السلاطين. ورأى هؤلاء الفائدة من التجارة، فعقدوا اتفاقات مع المدن؛ كانت فيها الفائدة المشتركة للفريقين، كما كانت مفيدة للتاجرين العربي والشرقي إلى أقصى الحدود التجارية، ومفيدة للتاجر الأوروبي إلى أبعد أسواقه.



٩ ابن بطوطة وانداده

شُغل عدد من رجال السياسة والحرب، في القرن الرابع عشر الميلادي في أوروبة، في البحث عن الأسباب التي أدّت إلى زوال الحكم الصليبي في المشرق. وشُغل عدد آخر في وضع برامج لحملات فرنجية جديدة. واقتضى الاهتمامان، أن يحاول أصحاب الأقلام وأهل الفكر، أن يتعرفوا إلى الأوضاع التي كانت سائدة في المشرق العربي، لعلّهم يستخرجون من ذلك عبراً أو عوناً في التخطيط.

لذلك كانت كتابات الرحّالين، الذين زاروا بلاد الشام مثلاً، في القرن الرابع عشر الميلادي، ذات طابع جديد وخاص أيضاً. لكن هذا لا يعني، بطبيعة الحال، أن الرحالة العادي والحاج المؤمن انقطعا عن المجيء إلى المنطقة، ولكن عندما نستعرض ما وضعه بعض هؤلاء الرحالين، مثل دوبوا ودي نوغاره ودي پادو وفيليب، نجد فرقاً كبيراً، بين الرحالة والحجاج السابقين وهؤلاء.

لقد وضع رحالة القرن الرابع عشر الميلادي بحوثاً عن موارد الثروة والقوة العسكرية عند المماليك، في بلاد الشام ومصر. كما أنهم كتبوا، بتفصيل، عن الطرق المؤدية الى المشرق وما فيها من صعوبات، سواء في البر أو البحر. ولا يجوز أن ننسى كذلك اهتمام الكتاب بالتحصينات، التي كانت قائمة في المدن المختلفة.

كما أن هناك رحالين زارا المشرق في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي. هما: كروشي وبروكارد؛ كان يشغلهما أمر واحد، هو دعوة جميع المشارقة إلى اعتناق الكثلكة، سواء في ذلك المسيحيون الشرقيون والمسلمون واليهود. بل إن بروكارد، كان يدعو إلى إعداد حملة صليبية تهاجم القسطنطينية، بقصد إرغام المسيحيين البيزنطيين على اعتناق الكثلكة والتبعية للبابا.

من رحالي القرن الرابع عشر الميلادي، المبكرين، سنودو. ومع أن الرجل، كان يريد أن تقوم أوروبة بحملات جديدة على المشرق، فإن أهمية دراسته، بالنسبة لنا، هي أنها تزودنا بمعلومات اقتصادية فريدة عن بلاد الشام ومصر.

وممّن زاروا المشرق، وكتبوا عن بعلبك وصيدا وصور وبيروت، دي فيرونا. وهناك أيضاً فون سوخم، وهو مثل سنودو، كبير العناية بالشؤون الاقتصادية. إلا أن الرحالة الطريف، كان يوحنا مندفيل. وسنعود إليه، بعد الكلام على شيخ الرحالين العرب اطلاقاً، وسيد رحالي العصور الوسطى إجمالاً: ابن بطوطة.

فهذا الرحالة، هو الذي طبع الرحلة، في القرن الرابع عشر الميلادي بطابعه الخاص. إنه طنجي المولد، من أبناء سنة ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٤ م. وقد عرفت أسرته باشتغالها بالعلوم الشرعية؛ وسار هو على خطة أسلافه. وحتى في رحلاته، أفاد من هذه المعرفة. فقد عينه الحاج المغربي قاضياً على المشاركين في الرحلة، وهم في تونس، في طريقهم إلى مصر. وعمل في القضاء، في الهند، وفي جزر ملديف.

ولا نعرف رحالة، قطع من الأميال، وزار من البلدان، مثل الذي فعله ابن بطوطة، في العصور الوسطى. فقد اجتاز العالم، من طنجة إلى أقاصي الهند والصين وسومطرة، ثم عاد فزار السودان الغربي والاندلس. ودخل القسطنطينية، ومر بأواسط آسية.

وكانت مصر المحطة الأولى الكبرى، في رحلة ابن بطوطة الأولى، في طريقه إلى الحج. وكان طريق البحر الأحمر معطلاً، يومها؛ فاضطر ابن بطوطة الى السير إلى الحجاز مع الحاج المصري البري، فاجتاز سيناء إلى بلاد الشام، ووصل القدس.

والقارىء لرحلة ابن بطوطة، يجد أن ذكره للأماكن المختلفة في بلاد الشام، لا يسير على طريق سوي. ذلك أن ابن بطوطة، لم يدوّن أخبار رحلاته، التي دامت قرابة ثلاثين سنة، بنفسه. ولكن لما استقر في

بلاط سلطان فاس، في المغرب روى أخبار رحلته لابن جنيّ، الذي دوّنها بأمر من السلطان. وقد يكون سها عن ترتيب تنقله، في بعض الأحيان.

من هنا، كنا مضطرين أن ننتقل مع ابن بطوطة، على نحو ما كتب، لا ما زار فعلاً. فهو يقول، في وصف طرابلس:

«ومدينة طرابلس هي احدى قواعد الشام وبلدانها الضخام، تخترقها الأنهار وتحفّها البساتين والأشجار، ويكنفها البحر بمرافقه العميمة، والبر بخيراته المقيمة. ولها الأسواق العجيبة مع المسارع الخصيبة».

ويشير ابن بطوطة إلى أن المدينة، التي يصفها، هي الحديثة. يقول، في ذلك:

«وهي حديثة البناء، وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملكها الفرنج، فلما استعادها الملك الظاهر بيبرس خُربت».

لكن الواقع هو أنه كان وقت طويل نحو قرن وبعض القرن، بين التخريب للقديم ولبناء الجديد. ذلك أن تخريب الملك الظاهر لطرابلس، كان يقصد منه جعل المكان غير صالح لأن يعود إليه الفرنجة، وكانت مملكتهم قائمة بعد في قبرص. لكن اتضح، فيما بعد، أن هذا الذي صنع في طرابلس، ثم صنع في غيرها من مدن الساحل، لم يكن يكفي لمنع الفرنجة. بل كان من الواجب اقامة بناء محصن بالأبراج والأسوار.

وعندها بنى المماليك طرابلس الحديثة على تل يشرف على الميناء. هذه هي طرابلس التي وصفها ابن بطوطة.

والمدينة البحرية الثانية، التي روى ابن بطوطة أخبارها، هي صور، فهو يقول:

«ثم سافرت من عكا إلى مدينة صور وهي الآن خراب وبخارجها قرية معمورة. ومدينة صور هي التي كان يضرب بها المثل في المنعة والحصانة... وبناؤها ليس في الدنيا أعجب ولا أغرب شأناً منه. وكان ميناؤها يحمل السفن الكبار».

ويروي ابن بطوطة قصة تنقله في لبنان، فيقول:

«ثم سافرت الى مدينة صيدا، وهي على ساحل البحر، حسنة كثيرة الفواكه، يُحمل منها التين (اليابس) والزبيب والزيت الى بلاد مصر».

وكان ابن بطوطة ينزل ضيفاً عند القضاة أو العلماء، حيث ينعدم النزل أو الفندق أو الزاوية أي الخانقاه. وفي صيدا، نزل عند قاضيها. فيقول، في ذلك:

«نزلت عند قاضيها كمال الدين الاشموني المصري، وهو حسن الأخلاق كريم النفس».

والواقع، أن القاضي كمال الدين أكرم وفادة ابن بطوطة، حتى نعته بحسن الأخلاق وكرم النفس؛ لأن ابن بطوطة، لم يتورع قط عن ذمّ من لم يكرمه، حتى ولو كان من الملوك، على نحو ما فعل في مالي، من السودان الغربي.

ويصف ابن بطوطة بيروت، بقوله:

«وهي صغيرة حسنة الأسواق، وجامعها بديع الحسن، وتجلب منها إلى الديار المصرية الفواكه والحديد».

وقد نالت بعلبك حصة كبيرة من رواية ابن بطوطة. ومع أننا لا نعرف، تماماً، الطريق الذي اتبعه ابن بطوطة في تنقله في بلاد الشام، فالذي يمكن ترجيحه هو أن الرجل، ذهب إلى بعلبك من بيروت أو طرابلس. فهو يقول:

«ثم وصلنا من جبل لبنان إلى مدينة بعلبك».

ومهما كان الطريق الذي سلكه ابن بطوطة في توجهه نحو بعلبك، فقد تركت المدينة في نفسه أثراً كبيراً. قال عنها:

«وبعلبك حسنة قديمة، من أطيب مدن الشام، تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيفة، وتخترق أرضها الأنهار الجارية، وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية».

ونشعر أن ابن بطوطة يتلمظ، وهو يقول:

«وبها يصنع الدبس المنسوب إليها، وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب، ولهم قربة يضعونها فيه فيجمد، وتكسر القلة التي يكون فيها فيبقى قطعة واحدة. وتصنع منه الحلواء، ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن».

ويضيف قائلاً:

«وهي كثيرة الألبان ويجلب منها الى دمشق، وبينهما مسيرة يوم للمجدّ. وأما الرفاق المتنزهون فيخرجون من بعلبك، فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبداني، كثيرة الفواكه، ويغدون منها إلى دمشق».

ولما كان ابن بطوطة، مع الحاج المغربي، في طريقه من طنجة إلى مصر، أصيب الركب بمطر عظيم، وهم على أبواب قسنطينة، في بلاد الجزائر. فلما بلغ الخبر حاكم قسنطينة، أعان الجماعة على شؤونهم، وأهدى ابن بطوطة إحراماً بعلبكياً. وكان من الطبيعي أن يذكر ابن بطوطة الأحرام، لما وصل بعلبك، وأن يقول في ذلك:

«ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها من الأحرام وغيره».

إلا أن الذي دهش له ابن بطوطة، فوصفه بدقة، هو مهارة صناع المدينة في صنع الأشياء الخشبية. فهو يقول، في ذلك:

«ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه، التي لا نظير لها في البلاد. وهم يسمون الصحاف - أي الصحون - بالدسوت. وربما صنعوا الصفحة وصنعوا صفحة أخرى تسع في جوفها وأخرى في جوفها إلى أن يبلغوا العشر. ويخيل لرائيها أنها صفحة واحدة».

ويقول ابن بطوطة، عن صنع الملاعق الخشبية:

«وكذلك الملاعق يصنعون منها عشراً الواحدة في جوف الواحدة، ويصنعون لها غشاء من جلد. ويمسكها الرجل في حزامه. وإذا حضر طعاماً مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة، ثم يخرج من جوفها تسعاً».

لقد كان للعنوان، الذي اخترناه لهذا المقال، ابن بطوطة وأنداده، معنى خاص. فالقرن الرابع عشر الميلادي عرف رحالة أوروبياً كبيراً، هو ماركو بولو، الذي قضى، هو الآخر، سنوات طويلة في بلاد الشرق النائية. ودوّن أخبار رحلاته. وهو في الواقع ندّ لابن بطوطة، من حيث سعة الرقعة، وزمن الرحلة، والمعلومات التي يعطينا. لكن ماركو بولو، لا يهمنا، لأنه لم يزر مشرقنا، الذي ينتظم بلاد الشام.

ونعود هنا إلى يوحنا مندفل. فمن هو هذا الرحالة؟ وهل نستطيع أن نعتبره ندًّا لابن بطوطة أيضاً؟ وما هو مدى صحة كتاباته؟

لقد كتب مندفل عن نفسه، يقول:

«أنا يوحنا مندفل، الفارس المولود في انكلترا... ركبت البحر في سنة ١٣٣٢ وزرت بلاداً مختلفة وجزراً كثيرة واجتزت بلاد التتار وفارس وأرمينية الصغرى والكبرى وليبيا والعراق وجزءاً كبيراً من اثيوبيا وأمازونيا والهند الكبرى والصغرى وجزراً حول الهند... حيث تقطن شعوب متباينة في قوانينها وعاداتها وحتى في أشكالها البشرية».

لقد ارتاب المؤرخون في أكثر ما ورد في رحلة مندفل. وأكثرهم يرى أنه زار أجزاء من المشرق العربي، أما ما تبقى، فقد نقله من مظانه المتنوعة، وأضفى عليه شيئاً من خياله.

وخلاصة القول، ان ابن بطوطة يبقى المنار الأعلى والأوضح بين رحالي العصور الوسطى، لا بين رحالي القرن الرابع عشر الميلادي فقط. ويظل لا ندّ له!

١٠ دو لابروكييه الرحالة الحاج الدبلوماسي

في سنة ١٣٩٦ م، أرسلت أوروبة، بقدر ما كان يمكن لها أن تجتمع يومها، حملة ضد الدولة العثمانية. ذلك بأن هذه الدولة، كانت قد اجتازت بحر مرمرة ومضيقيه إلى أوروبة، وفتحت جزءاً لا يستهان به من البلقان، واتخذت أدرنة عاصمة لها، وهددت مناطق مجاورة من القارة الأوروبية.

فقد كان الغرض من الحملة الأوروبية، أن تضع حداً لتقدم الدولة العثمانية أولاً؛ وبعد ذلك، يمكن التعامل مع هذه، في عقر دارها، لكن الذي حدث، هو أن الحملة الأوروبية، غُلبت في معركة نيكوبوليس، وتفرق القوم أيدي سبأ.

وكانت حملة بحرية سابقة، قد أرسلت الى الاسكندرية، قبل ذلك بنحو ثلاثين سنة؛ وفي سنة ١٣٦٥ م، على وجه الدقة، ونجحت في احتلال الميناء ونهب المدينة. لكن هذا، كان أمراً عارضاً. فالواقع الذي لا خلاف حوله، هو أن معركة نيكوبوليس، سنة ١٣٩٦ م، كانت خاتمة الفصول الطويلة، التي تُسمى الحروب الصليبية.

لكن ذلك لم يمنع رجال الحكم والسياسة والكتّاب والدبلوماسيين من الحديث عن السبل، التي يمكن أن تؤدي الى احتلال المشرق، بقطع النظر عما يمكن أن تُسمى الحملات الجديدة. صحيح أن كلمة «الصليبية»، كانت لا تزال شائعة على ألسنة المتحدثين وأقلامهم ، لكن الناحية التجارية، كانت أوضح صورة الآن منها قبلاً.

وبين أيدينا أسماء العشرات من أولئك الذين انتُدبوا، أو انتَدبوا أنفسهم، لدرس جميع ما يتصل بأمر الحملات والاحتلال، كالطرق والحصون والجنود والتنظيم والموارد الاقتصادية والعلاقات بين حكام المنطقة وغيرهم، شرقاً وغرباً. كل أولئك ، كانوا موضع اهتمام ودرس وتمحيص وتدقيق ، وأخيراً كتابة بشكل تقارير رسمية تُرفع إلى أولي الأمر.

وأحد أولئك الدبلوماسيين، هو برتراندون دو لا بروكييه. وكان هذا اللورد تابعاً لدوق برغنديه، فيليب. فانتدبه هذا لمهمة سياسية في المشرق. ومن هنا كانت رحلته. ويقول دو لا بروكييه، في مقدمة كتابه: انه وضعه

> «ليجذب قلوب الناس الراغبين في رؤية العالم، وليرضي سيده دوق برغندية، وليقدم المعلومات عن البلاد الواقعة وراء البحار اللازمة لمن تحدثه نفسه من الملوك والأمراء بفتح القدس، أو لتكون المعلومات لمن يريد الزيارة أو الحج جاهزة له».

أبحر بروكييه في شهر أيار/ مايو ١٤٣٣ م من البندقية، متجهاً نحو يافا. ومن هذه، انتقل الى القدس بطريق الرملة. وبعد زيارتها، ذهب إلى سيناء، وعاد ليتنقل في بلاد الشام، مفتِّح الأذن والعين.

وهنا لا بد من السؤال: إذا كان بروكييه رحالة سياسياً أو عيناً لدوق برغندية أو لغيره، فما معنى زيارته للقدس؟

من الملاحظ، أن أكثر الزوار والرحالين، والتجار والسياسيين منهم على السواء، كانوا يرون واجباً عليهم، أن يزوروا الأماكن المقدسة. ومن ثم، فإن زيارة القدس وغيرها من البقاع المباركة، كانت جزءاً من حياتهم ورحلتهم.

أما لماذا لم يزر مصر؟ فلا نحسب أنه كان مصادفة، بل يجب أن نذكر أن ملكي انكلترا وفرنسا انتدبا رحالة آخر، هو غلبرت لانوي، لزيارة مصر ودراسة أحوالها. فذهب هذا، سنة ١٤٢٠ م، إلى الاسكندرية، وقضى في مصر بعض الوقت، وزار البلاد المقدسة، وعاد الى البندقية.

ويبدو أن لانوي وبروكييه كانا سياسيين اقتسما المشرق العربي، كي يدرس كل منهما جزءًا منه. وليس في ذلك غرابة، فليس من المستبعد، أن يكون قد تم شيء من التنسيق بين دوق برغندية، وهو فرنسي، وملك فرنسا!

ولقد زار بروكييه أكثر المدن السورية الداخلية. وفي النهاية، يبدأ عودته براً من دمشق إلى فرنسا، عبر حلب وأرمينية وآسية الصغرى. وبعد أن يقضي ردحاً من الزمن في القسطنطينية، يُتم سيره، فيصل فرنسا في سنة ١٤٣٩ م. أي أن إقامته في المشرق وديار الدولة العثمانية، دامت نيفاً وثلاثين سنة.

ومن الطريف، أنه قضى في القسطنطينية سنوات، قبل احتلال العثمانيين لها. إذ إن هذا، تم سنة ١٤٥٣ م!

وبعد أن زار بروكييه وصحبه من النبلاء القدس، اتجهوا نحو يافا. ومن هناك، استأجروا مركباً نقلهم إلى عكا، التي يقول عنها رحالتنا:

«هذا ميناء حسن، عميقة مياهه ومحروسة جوانبه. ويبدو أن المدينة كانت، في سابق عهدها، كبيرة وحصينة، أما الآن فلا يوجد أكثر من ثلاثمئة بيت، تقوم في ناحية قصية منها، بعيدة عن البحر».

وعرف بروكييه وصحبه أن سفينة ناربونية، كانت منتظرة في بيروت. ولما كان صحبه راغبين في العودة إلى فرنسا، أسرع الجميع في طريقهم الى بيروت. يقول بروكييه:

«ومررنا في طريقنا من عكا إلى بيروت، بصور، المدينة المحاطة بسور والتي تملك ميناء جيداً».

وتستمر الجماعة الصغيرة في سيرها، فتمر بصيدا، التي كان لها ميناء على شيء من الحسن. وتصل إلى بيروت. ويصف رحالتنا بيروت، فيقول:

«كانت بيروت أكبر مما هي الآن بكثير، لكن ميناءها لا يزال في حالة حسنة، فهو عميق وتجد السفن فيه الحماية الكافية. ونرى في جهة منها آثار قلعة كانت حصينة وقوية لكنها قد أصبحت الآن ركاماً».

ولم يكن بروكييه ينوي العودة بحراً. لقد خطّط للعودة براً، عبر سوريا وآسية الصغرى. وقد عاد بهذا الطريق. لكن الأمر الذي ليس واضحاً، هو: متى قرر بروكييه القيام بهذه الرحلة؟ أو العودة بهذا الطريق؟ فهو يقول، في كتابه: ان الخطة، خطرت له، وهو في القدس.

إذا صح أن بروكييه، كان منتظراً منه، أن يدرس الجزء الشمالي من بلاد المشرق وآسية الصغرى، فقد تكون الخطة نفسها، أي العودة براً، قديمة.

لكن كان باستطاعة بروكييه، أن يزور سوريا وآسية الصغرى، ويعود بحراً، من أي ميناء إلى فرنسا. فمن الممكن، أن بروكييه أراد أن يطلع على أحوال البيزنطيين والدولة العثمانية من الداخل، فعاد براً. والواقع، أن الرجل تعرف الى الجيوش العثمانية، وزار المدن في الدولة، وتصادق مع رجال حاشية السلطان مراد.

وقد لجأ بروكييه الى تاجر ثري جنوي كان مقيماً في بيروت، اسمه جاك برفيزين، للاستفسار عن الطريق الممكن اتباعه. يقول بروكييه:

«نصحني جاك بأن اذهب إلى دمشق مؤكداً لي انني سأجد هناك تجاراً من البندقية وقطلونية وفلورنسة وجنوه وغيرها. وارتأى ان استشارتهم قد تفيدني. وأعطاني جاك رسالة توصية إلى تاجر جنوي في دمشق اسمه اسكوت».

وذهب بروكييه إلى دمشق. لكنه أراد أن يصطحب واحداً من أصحابه، فأقنع سانسون أن يرافقه، لكنه لم يخبره عن سبب هذه الزيارة المفاجئة. واستأجر الرجلان الدواب اللازمة مع المكاري، المشرف عليها. وجازا، في طريقهما، جبال لبنان الغربية والبقاع.

يقول بروكييه:

«كان طريقنا عبر جبال تقبع في أكنافها قرى تحيط بها كروم غنية. وهبطنا بعد هذه الجبال إلى واد يسمونه «وادي نوح» وهو ليس واسعاً جداً. لكنه جميل ونزه وخصيب، ويرويه نهر ويقطنه العرب».

ويبدو أن طريق بروكييه، كانت على مقربة من كرك نوح، حتى ذكر الوادي بهذا الاسم، ولم يسمه سهل البقاع.

ويضيف بروكييه:

«إنني أنبّه أولئك الذين قد تضطرهم الأحوال أن يقوموا بهذه الرحلة الى ضرورة أخذ الحيطة ضد البرد الشديد الذي يتعرض له المسافر. فإنني لم أعرف برداً مثله في حياتي».

وقد وصل الركب إلى دمشق، في يومين ونصف اليوم. فالجماعة كانت مجدّة. وبعد أن قضى بروكييه وسانسون الزيارة، عادا إلى بيروت. واقترب وقت النزول إلى السفينة. وعندها، أسرّ بروكييه إلى واحد من الصحاب بنيّته، في أن يظل في بيروت، ليعود إلى بلاده براً، عن طريق دمشق وحلب والقسطنطينية. فرحل الرفاق، وخلفوه في بيروت.

وقد أقام بروكييه في منزل تاجر بندقي، اسمه بربريكو. وكان بروكييه ينوي أن يزور الناصرة وجبل طابور، الواقع على مقربة منها. لذلك، فقد رتب بربريكو الأمر. يقول بروكييه:

«نزلت أثناء اقامتي في بيروت في دار تاجر بندقي هو بول بربزيكو... وهذا دبّر لي مكارياً يحملني إلى الناصرة ثم يوصلني إلى دمشق، ويعود الى بول بوثيقة مني تعرفه بأخباري وبسلامتي. وقد أشار علي المكاري أن ارتدي ثياباً شرقية، ففعلت».

ويصف بروكييه الاحتفال بالعيد، الذي حضره في بيروت، فيقول:

«شهدت احتفال المسلمين بأحد أعيادهم في بيروت. بدأ الاحتفال مساء، فكانت الجماعات تسير في الشوارع فرحة طربة. وكانت المدافع تطلق من القلعة احتفاء بالعيد. وأطلقت الألعاب النارية التي بلغت ارتفاعاً كبيراً».

ولا بد أن بروكييه، الدبلوماسي السياسي، حاول التعرف على أسرار هذه الصواريخ كما يسميها. فهو يقول في ذلك:

«وقد استطعت أن أتعرف إلى سر هذه الصواريخ، وحملت معي إلى فرنسا طريقة صنعها ونماذج منها».

ويضيف أمراً، يعتبره مهماً:

«لأن هذه الصواريخ متى صنعت على مقياس كبير أمكن استعمالها لحرق السفن في البحر. هذا ما بلغني أثناء اقامتي في الشرق».

لكن مما يؤسف له، أن بروكييه، لا يخبرنا عما تم بشأن مثل هذه التجربة، أو فيما إذا لم تجرب.

ونعود إلى بروكييه، وهو في طريقه من بيروت إلى الناصرة. لقد سلك الطريق البحري، الذي سيوصله إلى عكا، إذ قال:

«والطريق يتعرج تبعاً لبعد الجبال أو قربها من الشاطىء، إذ انه يقع بين الشاطىء والجبل. وبعد ركوب ساعة من البيت، مررت بغابة من أشجار الصنوبر الطويلة. ويُعنى سكان البلاد بهذه الغابة ويحرصون عليها، إلى حد أن قطع الشجر منها ممنوع البتة».

هذه اشارة قديمة الى صنوبر بيروت، ومع ذلك، فليست الأولى. فهناك شاعر بيزنطي، كان يعيش في بيروت، في القرن الرابع للميلاد، وقد أشار إلى هذه الغابة أيضاً. ومر بروكييه فوق جسر حجري بعد ذلك، لعله كان جسراً فوق الدامور. يقول الرحالة:

«وكان على مقربة منه خان أرحنا فيه ليلتنا».

وطريق بروكييه هذه، كانت تأخذه إلى صيدا وصور. وهو يقول:

«في اليوم التالي وصلنا صيدا. وهي مدينة تقع على الشاطىء، ومحاطة من جهة البر بخندق، لكنه ليس عميقاً. ومثل ذلك يقال عن صور».

وهذه تنقل اليها المياه، على قناة، من نبع، يقع إلى الجنوب من المدينة.

ويعلق بروكييه على المدينتين، بقوله:

«إن المدينتين، اللتين كانتا من قبل كبيرتين وغنيتين، قد دمرتا وهدمتا على ما يبدو من آثار الاسوار والأبراج».

وسار بروكييه في طريقه، حتى بلغ عكا، فقال عنها:

«هذا ميناء جميل عميق ويدور به سور يحميه. أما المدينة فهي صغيرة وبعيدة عن البحر».

وكما أقام بروكييه في بيروت عند تاجر بندقي، أقام في عكا أيضاً عند تاجر بندقي آخر اسمه أوبرت فرانك.

لقد زار بروكييه بيروت ودمشق وعكا وغيرها من مدن المنطقة، في القرن الرابع عشر للميلاد. وكانت البلاد تحت سلطة المماليك. ومع ذلك، نجده يقيم عند تاجر بندقي، ويتعرف في بيروت إلى تاجر جنوي، ويقال له، بأن دمشق فيها تجار من أربع أو خمس جماعات أوروبية. ويمكن تفسير هذا الأمر، بأن المماليك، بعد أن استقر لهم الأمر في مصر وبلاد الشام، وبدءًا من أوائل القرن الرابع عشر للميلاد، أي قبل زيارة بروكييه بنحو قرن، أخذوا يسمحون للتجار الأوروبيين بالاقامة في المدن البحرية والداخلية؛ بحيث يعملون في جميع أنواع التجارات، مستوردين، ومصدرين، ووسطاء. وهذا ينطبق على القاهرة والاسكندرية، كما ينطبق على بيروت وعكا ودمشق.

وكان بروكييه شبه مندوب سياسي، لتقصي الحقائق النافعة، لمن يريد ان يعد حملة إلى المشرق.

لقد كتب بروكييه ما سمع وما رأى، لكنه في تضاعيف ما كتب، لم يشجع على القيام بحملة ضد المشرق؛ ولو أنه لم يذكر ذلك بوضوح. أما الذي نصح الأوروبيين بالامتناع عن مثل هذه الأمور، فهو فيلكس فابري، الذي زار المشرق في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد.

١١ الأب دنديني في لبنان الشمالي

يختلف الأب دنديني عن غيره من الرحالة، في أنه كُلِّف، رسمياً، بمهمة خاصة، في مكان معين. فالكنيسة المارونية، التي كان قد مرّ عليها حتى القرن السادس عشر للميلاد، قرون، وهي تابعة للبابوية، دارت حولها إشاعات في روما، تناولت نواحي العقيدة والطقوس الكنسية.

لذلك، انتدب البابا، كليمنت الثامن الأب دنديني، ليقوم بزيارة شمال لبنان، حيث يوجد مركز البطريرك الماروني في قنوبين، ومقابلة غبطة البطريرك وعقد مجمع كنسي، لتوضيح بعض القضايا. وقد كان الأب دنديني يتولّى تدريس الفلسفة، في مدرسة بروجيه، لما انتدبه البابا لهذه القصادة، سنة ١٥٩٦ م.

يقول دنديني عن مهمته:

«في ١١ حزيران [من السنة ١٥٩٦] مَثُلتُ بين يدي قداسة [البابا] وعرضتُ له ما بُلِّغته عن أمره، واستعدادي للقيام بكل ما يأمرني به بكل أمانة ونشاط... ملتمساً منه أن يمدني ببركته ليتهيأ لي أن اخترق ما يعترض سبيلي من المصاعب للوصول إلى الغاية المطلوبة... واخيراً التمست منه الرخصة في زيارة القبر المقدس... فأجاب ملتمسي».

وهناك أمور أخرى، كُلِّف الأب دنديني الاهتمام بها، ولعلّ أهمها، كانت المدرسة المارونية، التي كانت قد أُنشئت في روما سنة ١٥٨٤ م، بعناية البابا غريغوريوس الثالث عشر، وخريجيها الذين عادوا إلى لبنان، ولم يجدوا عملاً في الكنيسة.

وقد دوّن دنديني أخبار هذه الزيارة، بكثير من التفصيل. ونحن هنا، نودّ أن نفيد من الأمور الأخرى، التي كتبها القاصد الرسولي، وصفاً لمناطق شمال لبنان. إذ أن القضايا المتعلقة بالكنيسة بالذات، لا تدخل مجال اهتمامنا.

كان دنديني ايطالياً، وقد دوّن أخبار رحلته باللغة الايطالية. وهذه طبعت، للمرة الأولى، باللغة الأصلية، سنة ١٦٥٦ م. وقد نقلت الى الفرنسية. أما نحن، فإننا رجعنا إلى الترجمة العربية، التي قام بها الخوري يوسف يزبك عن الايطالية رأساً والتي نشرت في المجلة البطريركية، تباعاً، ثم نشرت كتاباً مستقلاً سنة ١٩٣٣ م.

وصل دنديني ورفيقه إلى لبنان في ٢٥ آب/ اغسطس سنة ١٥٩٦ م، وقد رست السفينة التي حملته في ميناء طرابلس وكانت مسيرته قد بدأت من البندقية ومرّ في طريقه بقبرص. وكانت النقلة الأخيرة، من قبرص إلى طرابلس، في سفينة صغيرة، تحمّل فيها دنديني وبقية الركاب عنتاً شديداً:

«بسبب صغر السفينة وإهمال نوتيتها».

فلما وصل إلى طرابلس، شعر بالارتياح. وفي ذلك يقول:

«والنتيجة بلغنا ميناء طرابلس، وإذا أمامنا خمسة أبراج مستحكمة تحرس شواطئها. فشدّ ما كان سروري وارتياحي، رغماً عما قاسيته من داء الدوار البحري، وانقطاعي عن تناول الطعام مدة يومين. صعدت ورفيقي إلى البر، فأركبته حماراً ومشيت أنا قاصديْن المدينة. وما كان أشد لفحات شمس هذه البلاد التي لا يفارقها الحر حتى في لياليها».

ولا غرابة في أن يشعر بالحر، فقد وصل إلى طرابلس في أواخر شهر آب/ أغسطس ويقول، بعد ذلك:

«لم أكن أحبس النظر عما كان يطرأ عليه من المشاهد حباً للاطلاع على حقائق الأمور تنويراً للذهن وتفكيهاً للخاطر».

وكان مما شاهده في الطريق:

«خمسين الى ستين جملاً محمّلة رماداً يقودها رجال من الأعراب أقوياء البنية. وهذا الرماد هو نتيجة حريق أعشاب يلقونه في حجرة فلا يلبث أن يتحجّر. ثم يصدرونه الى البلاد الأوروبية وإلى جمهورية البندقية [خصوصاً] لعمل الزجاج البلوري».

وكانت الأشجار والبساتين، مما لفت دنديني، فقال:

«وما كان أجمل مناظر البساتين والحدائق النضرة المرصّعة بمختلف الأشجار تستقبلنا بروائحها العطرة».

ويقول دنديني:

«مما شاهدته مما فكّه الفكر وانسانا مشقة الطريق هو ما اصطلح عليه سواقو الدواب من اللهجات الغريبة التي يسوقون بها دوابهم دون الاستعانة بالعصا أو بمناخس حديدية أو واسطة أخرى. فلم أملك النفس من الضحك».

وأقام دنديني ورفيقه في ضيافة مواطن ايطالي من البندقية. يقول الكاتب، عن وصولهما إلى منزل مضيفهما:

«نزلنا في طرابلس ضيفين على أحد مواطنينا من أهل البندقية، فأكرم مثوانا واحتفى بنا كثيراً، وعلى الخصوص رفيقي الذي سبقت له معرفة به. وبداعي انحراف صحته ذهب صديقي الى السرير الذي أعد له. اما أنا فبعد ان صلّيت ذهبت إلى الكمرك [الجمرك] لأستخلص ما حملته معي من ايطالية من الآنية والأدوات والحلى الكنسية، لأقدم بعضها للبطريرك من قبل البابا، والبعض الآخر لأوزعه على كنائس الطائفة».

ويقول دنديني عن طرابلس:

«إن موقع طرابلس على سفح جبل يبلل أقدامها البحر بمائه ويغسلها بأمواجه. تعلوها على تلة صخرية قلعة تشرف عليها. وهي غنية بصادراتها وتجارتها بالحرير والرماد والقطن المغزول والعنب والصابون والشموع التي يُحسن صنعها فيها».

ويقول أيضاً:

«عدد المسيحيين كبير في هذه الأسكلة [الميناء] من روم أرثوذكس وموارنة، أما المسلمون فهم العدد الأكبر فيها».

ويصف الرحالة زي سكان الطوائف المختلفة في طرابلس، رجالاً ونساءً، ويقول عن الزي النسائي:

«أما زي النساء في ملابسهن فهي القميص والجلابية والمضربية والسراويل والأخفاف. ويسترن رؤوسهن بعرقيات أو طاقيات من صوف أو جوخ أو حرير أحمر أو أزرق مطرزة بالذهب والفضة».

ويضيف:

«وبعضهن يرصّعن هذه الطاقيات بالنقود الذهبية أو الفضية ويقال لها صفّة أو شكة. ويجدل النساء شعورهن ويتركنها مسترسلة على أكتافهن أو تُضمّ خصائل [جدائل] بشريطة. ولا يجعّدنها فوق الجباه. ووجوه النساء تظل بهيئاتها الطبيعية دون تصنع وطلاء. إنما يضعن في أصابعهن خواتم، ويزيّن الآذان بالأقراط الذهبية، والمعاصم بالأساور».

ويلاحظ دنديني أن الأقراط والأساور، مرتبطة بغنى المرأة وثروتها. ويقول:

«والإسورة عريضة صفحة واحدة خلاف أسورة نساء بلادنا. ولا تقتصر هذه الأسورة على المعاصم لتحسدها الرِّجل، بل هي أيضاً، أي الرِّجل، ينالها نصيبها منها وتدعى إذ ذاك خلخالاً».

ويخبرنا عن المرأة في الشارع، فيقول، في ذلك:

«لا تشاهد المرأة بزيّها أو بحلاها في الأزقة والشوارع، بل في بيتها. وعندما تخرج منه فإنها تتأزّر بإزار من كتان أبيض أو من قطن أو من حرير أسود يحجبها عن النظر حتى يديها. وأما وجهها فتحجبه بقطعة من قماش أبيض أو أسود».

ويتنبّه دنديني إلى أن هذا الزيّ عند النساء، لا يقتصر على طائفة دون أخرى، إذ أن المسلمات والمسيحيات، كن يرتدينه على السواء. وحتى اليهوديات، كن يفعلن الشيء نفسه.

وبعد ذلك، غادر دنديني طرابلس، مخلفاً صديقه الأب فابيو فيها، بسبب مرضه، ووصل قنوبين قبيل غروب الشمس في أول أيلول. وذهب لزيارة البطريرك في غرفته الصغيرة، حيث كان معتكفاً بسبب تقدمه في السن وانحراف صحته. وقدم له براءة البابا. ثم ذهب لتناول طعام العشاء في دير لبناني. وأرسل في اليوم التالي يستدعي رفيقه من طرابلس، فجاء هذا، لكنه لم يكن قد شفي. فظل ملازماً الفراش في قنوبين خمسة عشر يوماً.

وقد تحدّث دنديني إلى غبطة البطريرك بخصوص عقد مجمع، وطال الحديث بين الرجلين. وأخيراً قبل دنديني بوجهة نظر البطريرك بوجوب تأجيل عقد المجمع إلى أن يتعافى صاحب الغبطة. ومن هنا أخذ الزائر نفسه بالعناية بالمنطقة للزيارة والاطلاع. وكان أول ما فكر بزيارته الأرز، فالغابة قريبة من قنوبين. يقول دنديني:

«وإذ لم اكن بعيداً عن غابة الارز المشهورة، اغتنمت الفرصة لزيارتها. وما أوعر الطريق المؤدية إليها. يُدْعى هذا الأرز مقدساً، ويدعون أنه يعود إلى القرن العاشر قبل الميلاد. ومع أن أشجار هذه الغابة هي قليلة يزعم أهل المحل استحالة عدّها. أما أنا فعددت ثلاثاً وعشرين شجرة، وآخر من رفاقي عدّ أربعاً وعشرين شجرة».

ويضيف الزائر قائلاً:

«ممنوع قطع شجرة من هذه الغابة... يشاهد هناك جدول ماء يدعى نهر قاديشا ومعناه النهر المقدس. تنساب مياه هذا النهر في الوادي؛ وما أعذب خريرها في الأذن، وأجمل منظرها للعين».

وبهذه المناسبة، فإن هذا الماء، الذي ينبع من مغارة تحت غابة الأرز، هو الذي ينتهي في طرابلس باسم نهر أبو علي.

وقد شمل اهتمام الأب دنديني خاصية التربة في المنطقة، وعوائد السكان وطرق معيشتهم. فكان يسأل أصحاب الخبرة ويختبر بنفسه، ما أمكنه ذلك. وانتبه إلى النشاط الذي يبديه الفلاح في تلك المنطقة. فيقول:

«إن أيدي اللبنانيين النشيطة جعلت من هذه الجبال سهولاً كثيرة الخصب. ومن شاهد كثرة الحيطان المتدرجة في سفوح هذه الجبال، وارتفاعها لتقي التربة من الانهيار، لعَلِمَ نشاط هذه الجماعة وهمتها».

ويعدد الرحالة ما تجنيه الناس من هذه الأرض. فيذكر الحبوب بأصنافها والخمر المشهور بطعمه اللذيذ وطيب نكهته، والحرير والعسل والشمع والزيت والقطن. كما يربي السكان الخروف الكبير السمين والماعز والطيور الداجنة، وهي الدجاج والإوز والبط والحمام.

وقد نقل عن أهل المنطقة أن الحيوانات البرية، المعروفة لديهم، تشمل الدب والنمر والضبع والخنزير البري؛ فيما يدخل في عداد الطيور البرية الحسون والشحرور والنسر والحمام البري وعصفور التين. ويقول إن الحجل يكثر في المنطقة، ويشبه الدجاجة بكبره! ويلاحظ أمرين يتعلقان بالحيوانات والطيور الداجنة، الأول هو أن أبراج الحمام ليس لها ما يماثلها في البلاد التي عرفها؛ والثاني هو أن الخنزير الداجن لا أثر له هناك.

والكرمة في لبنان لفتت دنديني. فهو يقول:

«يزرع اهل لبنان الكرمة على خطوط مستقيمة على بعد متساو بين خط وآخر. ولا يستعملون المساميك لرفعها،

بل يلقونها على الأرض. وما أذهلني في عنب هذه الكرمة هو كُبر العنقود، وكبر حبته التي توازي حبة الخوخ عندنا».

ويذكّر قراءه بأن المنطقة غنية بكل أسباب المعيشة. وقد يكون في جوف الأرض معادن. وقد قيل له انه يوجد بعض الحديد في جبال لبنان. ويروي عن رفيق سفره المحلي يوسف خاطر:

«أنه منذ مدة قليلة ذبح جدياً من الماعز فوجد أسنانه مفضضة».

ويبدو أن دنديني قبل الحكاية فلم ينكرها، أو لعلّه تأدب.

وقد نفذ دنديني إلى بيوت أهل القرى في لبنان الشمالي، ووصف الكثير من عاداتهم. فمن ذلك قوله:

«يسكن الموارنة في تلك المنطقة القرى الصغيرة الكثيرة والمتفرقة. يتعممون العمامة ويلبسون ثوباً قصيراً إلى الركبة أو إلى وسط الساق، وفوقه السبنية أو القباء. أسلحتهم القسي والسيوف والخناجر. وهم كريمو الخُلق».

أما داخل بيوتهم الصغيرة، فلا

«طاولات ولا موائد ولا كراسي. يجلسون على الحصر أو البسط. وعلى هذه يجلسون، ويمدون الأسمطة للطعام ويفرشون الفرش للنوم. وفي حالة الأكل فإنهم يجلسون في حلقة حول قصعة الطعام ويأكلون منها جميعاً. وإذا جلست الأسرة للأكل ودخل عليهم أحد وقت الأكل فإنه، بعد التحية، يُدعى للأكل فيجلس بجانب أحدهم ويشاركهم طعامهم».

هذا طبعاً وصف لبيوت الفلاحين، لكن لا بد أن الأغنياء منهم كانوا لا يختلفون عنهم في الأسلوب، وإنما في أنواع الأطعمة التي يقدمونها. فقد كان هذا هو نسق المعيشة عند الفلاحين في بلاد الشام، في الفترة التي جاء فيها دنديني لبنان، أي في القرن السادس عشر الميلادي.

ومع أن دنديني كان مكلفاً بقضايا ومسائل معينة، فإن ذلك لم يمنعه من التعرف على أحوال السكان وما تنتجه البلاد. لذلك فقد كان تقريره، الذي وضعه، يشمل معلومات وفوائد ذات قيمة كبيرة. فإلى جانب الاهتمام بالغلات الزراعية والمصنوعات والمآكل، حدثنا عن الضرائب التي كان سكان شمال لبنان يدفعونها إلى حاكم طرابلس، إذ كانوا يتبعونه.

ويعدّد دنديني ما يتوجب على اللبناني دفعه، ويبيّن أساليب التحصيل. وهو يتحسّر على هؤلاء الناس. ولو أن دنديني تجوّل في مناطق أخرى من بلاد الشام، لوجد الأمر نفسه في أجزاء أخرى. فالضرائب كانت متنوعة. لكن الأهم من تنوعها هي طريقة جمعها. يقول دنديني:

«يتولى تحصيل الأموال الأميرية، أي الضرائب الرسمية، أمير هو غير الحاكم المنصّب من قبل سلطان الأتراك. فهذا الأمير يرسل جباة لتحصيل المطلوب، لكنه لا يقف عند الحدّ الذي يقرره الحاكم الأعلى، بل يضيف إليه مثله كي يغنم هو النصف الآخر».

ويخيّل لنا أن دنديني لم يفهم تماماً نظام تلزيم الضرائب، الذي كان شائعاً في نواح كثيرة من الامبراطورية العثمانية. فبموجب هذا النظام، كان على الملتزم أن يدفع للدولة مبلغاً مقطوعاً، هو قيمة الالتزام. أما هو ورجاله والحكام المحليون الذين يساعدونه، فلا بد لهم أن يضيفوا مبالغ أخرى تذهب إلى جيوبهم.

ويضيف رحالتنا:

«على أن الجابي بالذات لم يكن يُحرم أيضاً نصيبه من البخشيش».

وإذا لم يكن لدى الشخص المبلغ المطلوب، فإنه يستدين لوفاء ما عليه للدولة. والاستدانة تكون عادة من تجار المدينة، الذين كانوا يتقاضون فوائد عالية على مثل هذه القروض!

ولعل مما استغرب دنديني وجوده، هو الضريبة على الموتى. فهو يقول:

«لم تقتصر هذه الضرائب على الأحياء فقط، بل تناولت الموتى أيضاً. ولذلك يتوجب على الورثة أن يدفعوا ضريبة الوفاة عن مورثيهم كي يعيشوا بطمأنينة وسلام. وهذه الضريبة تدفع للحاكم. وقد عيّنت الحكومة مأموراً لهذه الغاية يتجوّل دون انقطاع في المدن والقرى ليتقاضى الرسوم عن الموتى».

ويُجمل دنديني القول في هذه القضايا:

«لا يشفع شيء أمام الحكم سوى الفلوس ولا يمثل أحد أمام محكمة دون أن يملأ يده بالهدايا والرشوة. ومن دفع أكثر نال مرغوبه».

وإذا كان دنديني يتعاطف مع الناس، بسبب موقف الحكّام منهم، فإنه يشفق على السكان، بسبب جهل الكهنة. فيقول في ذلك:

«الكهنة على وجه العموم هم كالعامة من الشعب تنحصر معارفهم بالقراءة والكتابة في لغتهم العربية الأصلية، ويحسنون أيضاً القراءة والكتابة باللغة السريانية».

لكن الزائر لا ينسى أن يشيرا إلى بضعة كهنة، يحسنون الفلسفة واللاهوت. وهؤلاء هم الذين أتموا دروسهم في روما. ويضيف دنديني قوله:

«وسيكثر عدد العلماء بين الكهنة لما يبذله أرباب الأمر من العناية والغيرة في تهذيب ناشئتهم وتعليمهم وتدريبهم في المدرسة التي أُنشئت لهم في رومة. وستحقق أماني السكان إذ سيحصلون على رعاة علماء أفاضل».

ويذكّرنا دنديني بأنه لا مطابع عند سكان شمال جبل لبنان. ويجب أن نذكر أن الطباعة أصلاً كانت حديثة العهد في أوروبة. ومن ثم، يقول دنديني:

«إن الموارنة يتولّون نَسْخ كتبهم بأيديهم. وطريقة الكتابة عندهم أن يأتي الكاتب بقصبة صغيرة يبريها بمدية على شكل ما نعمله نحن بريشة الإوز أو أحد الطيور. وفي نهاية المطاف انعقد المجمع في ٢٨ أيلول [١٥٩٦] حساباً غربياً الموافق ١٨ منه حساباً شرقياً، لأن الموارنة لم يزالوا حتى ذلك العهد تابعين للحساب الشرقي».

ولعل من المناسب هنا أن نشير إلى أن الحساب الشرقي، هو الحساب اليولياني الذي يعود إلى أيام يوليوس قيصر. وقد اكتشف، في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، أنه كان ثمة خطأ في الحساب، بحيث أن الزمن تأخّر يومها عشرة أيام. وقد صُحِّح الحساب بأمر البابا غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٨٣ م. ولكن الكنائس الشرقية لم تقبل بهذا الحساب يومها. ومن هنا ذكر موعد انعقاد المؤتمر في تاريخيْن.

وبهذه المناسبة، فإنه ثمة حساب شرقي، يُتّبع إلى اليوم في الكنائس الشرقية، لكن الفرق أصبح الآن ثلاثة عشر يوماً، بدل عشرة أيام. وقد قُبل الحساب الغربي، المسمى الغريغوري باسم البابا، في الكنيسة المارونية سنة ١٦٠٦ م. فقد أمر بذلك البطريرك يوسف الرزّي.

وكان بين القضايا، التي ترتب على دنديني الاهتمام بها، مسألة طلبة المدرسة الرومية وخريجيها. والمدرسة هذه هي في الواقع، المدرسة المارونية التي أنشأها البابا غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٨٤ م. وقد وقف عليها الأملاك والأرزاق الغنية. وعهد البابا بادارتها يومها إلى الآباء اليسوعيين. وكان الغرض منها تهيئة رعاة للكنائس المارونية.

ويبدو أن هذه المدرسة دارت حولها وحول المتخرجين فيها أمور أهمها سن القبول بالمدرسة، وثانياً مستقبل المتخرجين فيها. ذلك أن بعض الطلاب، الذين أرسلوا من لبنان أو من حلب أو من قبرص، كانوا صغار السن. لذلك فقد تقرر، نتيجة البحث والمناقشة، أن يكون عمر الطالب ١٤ سنة، وقد أتقن القراءة

والكتابة، قبل أن يذهب إلى روما. فضلاً عن ذلك فإنه كان يجب أن يصحب الطلبة رجال ثقة، حكماء؛ يُعنون بأمور سفرهم.

وأثار دنديني قضية أولئك الذين كانوا قد أرسلوا إلى روما، وعادوا وقد تعلموا ما كان بإمكانهم أن يتعلموه، لكن لم يجدوا عملاً في الكنائس. وكل ما حصل عليه القاصد الرسولي هو وعد بأن يُعنى أصحاب الحل والعقد بالأمر في المستقبل. وهذه الأمور والكثير غيرها، بحثت في المجمع الذي عقد في عهد البطريرك سركيس.

ولما أنجز دنديني مهمته، وعقد المجمع وبحث في الأمور المختلفة والشؤون المنوعة، المتعلقة بالعقيدة والقداس والمجتمع، أراد أن يقوم بزيارات متعددة في المنطقة، ومنها زيارة البلاد المقدسة. وبدأ رحلته بالفعل. وبعد زيارة بعض الأديرة وصل مع صحبه إلى اهدن لزيارة دير مار سركيس. وقبل أن يستقر بهم المقام، جاءهم من ينبئهم، أن البطريرك سركيس يعاني آلام الموت. فأسرعوا عائدين، لكنهم وجدوه قد لفظ أنفاسه قبل وصولهم بساعتين. وكان ذلك في اليوم الخامس من تشرين الأول/ أكتوبر حساباً غربياً والخامس والعشرين من أيلول/ سبتمبر حساباً شرقياً سنة ١٥٩٦ م.

وكان ثمة أمران يجب أن يتما: الأول مواراة البطريرك سركيس المتوفى، والثاني انتخاب بطريرك جديد. أما الأمر الأول، فقد تمّ في اليوم التالي للوفاة. يقول دنديني:

«عند الظهر حملوه إلى معبد القديسة مارينا حيث واروه في الحجرة المعدة لدفن البطاركة جالساً على كرسي من خشب».

أما انتخاب البطريرك الجديد، فقد اقتضى حديثاً ومشاورات، كان لدنديني فيها دور كبير.

«فقد تقرر موعد الانتخاب بعد ١٩ يوماً من وفاة البطريرك».

ورغب أعيان البلاد إلى دنديني أن يبقى ليوم الانتخاب. ومع أن دنديني لم يشارك في الانتخاب، بمعنى أنه لم يحضره، فإنه، كما يقول:

«لم أدع الفرصة تفوتني دون أن أفاوض البعض بشأن البطريرك الجديد وببعض أمور أخرى».

ورغبة منه في أن يكون بعيداً عن قنوبين، وقت الانتخاب، فقد ذهب إلى طرابلس.

يقول دنديني، نقلاً عمن كان هناك:

«ولم يأتِ اليوم الثالث عشر من تشرين الأول بموجب الحساب الغريغوري موعد انتخاب البطريرك حتى ضاقت ساحة الدير وما جاوره عن استيعاب الوفود الذين جاء بعضهم من أطراف البلاد، ويقدر عددهم بالفي شخص ونيّف. وقد انتخب رئيس دير قزحيا يوسف الرزّي بطريركاً بأكثرية الأصوات».

والبطريرك الجديد، كان ابن أخي البطريرك المتوفى.

وأراد دنديني أن يزور البلاد المقدسة، إلى أن يتاح له أن يتفاوض مع البطريرك الجديد. فانتقل إلى طرابلس، ومع أنه وجد سفينة، فقد تأخر في طرابلس مدة شهر كامل بسبب سقوط المطر الغزير واشتداد العواصف. لذلك عاد الرحالة إلى قنوبين، ليتحدث الى البطريرك الجديد في شؤون الطائفة. وكان من المناسب أن يعقد مجمع جديد، لأن الأساقفة موجودون في روما. وهذا ما حدث فعلاً. وكان أهم ما قرّر في هذا المجمع، هو تأليف كتب في التعليم الديني، صالحة للصغار. وقد عهد إلى أخي البطريرك بهذه المهمة.

ثم عاد دنديني، بعد هذا كله، إلى التفكير بزيارة الأراضي المقدسة. فترك مذكرة لغبطة البطريرك يوسف، ثم سار من قنوبين إلى طرابلس، ووصل الى المدينة، وقضى فيها بعض الوقت قبل أن يعثر على سفينة تنقله إلى يافا. وقد تمّ له ذلك، لكن دنديني لا يحدثنا، في الكتاب الذي بين أيدينا عن زيارته للقدس، إنما يحدثنا عن السفينة الصغيرة التي عاد فيها من يافا إلى طرابلس. يقول:

«لكن الظروف أبت أن تسهّل لنا الأمور في العودة في فصل قامت قيامته علينا. فركبت سفينة صغيرة في شهر كانون الأول كان يخرقها الماء من كل جهة. فرأى ربّانها أن يشغل نوتيتها بتفريغ الماء منها على طول المسافة بين يافا وطرابلس أي نحو مئتي ميل».

وأخيراً، وصل دنديني إلى طرابلس. وهناك، احتفل مع بقية الطوائف المسيحية بعيد الميلاد. وكان التجار الأوروبيون الأكثر سروراً بذلك، إذ لم يكن لهم كاهن، يُعنى بهم.

وكانت سفن فرنسية ثلاث ترابط في ميناء طرابلس، مزمعة السفر الى ايطالية. لكن لم يتح لدنديني السفر في أي منها. فقد كانت احدى هذه السفن تقصد مالطة؛ والثانية تتجه نحو صقلية.

يقول دنديني:

«من حسن الحظ أننا لم نسافر مع أي من هاتين السفينتين، فقد غرقت واحدة وأسر الانكليز الثانية. وقد انقذتنا العناية الإلهية من الأمرين».

وركب دنديني السفينة الفرنسية الثالثة إلى اسكندرونة. يقول في وصف هذه السفينة:

«هذه السفينة وإن كانت صغيرة لكنها كانت كبيرة بمعداتها. وكان بحاروها أصحاب خبرة وأقوياء. عندها نزعنا عنا ثياب زيّ الزوار والحجاج، ولبسنا أثواب تجار أي ثوب مبطن «مُضرَّبيَّة»، وتعممنا بعمائم مقلّمة، وكان ذلك في اليوم الثالث من كانون الثاني نصف الليل. وكان البحر أولاً هادئاً مسالماً».

لكن كان لا بد لدنديني من أن يتعب في تنقله. إذ أن البحر لم يلبث أن هاج وماج، وأخذت أمواجه ترغي وتزبد مدة ثلاثة أيام متوالية، إلى أن بلغ اسكندرونة بعون الله. ومن هناك ركب السفينة التي جاء فيها من ايطالية الى طرابلس.

وقد وصف دنديني اسكندرونة بقوله:

«اسكندرونة فرضة بحرية صغيرة تحوي على عشرين أو اثنين وعشرين بيتاً. بيوتها خشبية مسقوفة بالقش. لا يسكنها إلا التجار الذين يعانون من المشقة والارهاق الكثير في سبيل ارباح تافهة».

وقد لقي دنديني صعوبات كبيرة في سبيل عودته في قبرص، إذ وُشي به الى السلطات، بأنه جاسوس، فهرب، خشية أن تحتجزه الحكومة.

وهكذا كلف البابا دنديني بمهمة لدى البطريرك، فحصلنا نحن على وصف للبلاد وأهلها.



١٢ تبدل الأزمنة

احتل الأتراك العثمانيون بلاد الشام في السنة ١٥١٦ م. وفي السنة التالية، قضوا على دولة المماليك، واستولوا على مصر. وخلال العقود الخمسة أو الستة التاليـة، شملت سلطتهم ليبيا وتـونس والجزائـر في شمال افريقيا، وبعض المناطق العراقية واليمن. وهكذا فقد أصبحت سـواحل البحـر المتوسط، الجنـوبية والشرقية، وجنوب شرق أوروبا وحدة سياسية واسعة، تحت اشراف استانبول. وهذا كان له أثران هامان: الأول، أن أصبحت هذه الرقعة الواسعة جداً وحـدة تجاريـة، يمكنها أن تتعـامل مـع الأسواق الأخـرى تعاملاً واحداً. والثاني، استقلال هذه المناطق إدارياً.

حدث هذا في القرن السادس عشر وبعض القرن السابع عشر الميلاديين. لكن الدولة العثمانية، على ما كانت عليه من قوة عسكرية، وعلى انتصارها في كثير من المعارك، فـإنها كـانت أقل من ذلـك ادارياً. فقـد تركت للأمراء والزعماء والقادة المحليين أمر ادارة مناطقهم. صحيح أنها لم تترك لهم الحبل على الغـارب، لكن ليس من الصعب على من له حنكة، أن ينتقل من حالة التبعية إلى حالة تشبه الاستقلال.

ومن الأمثلة على ذلك، فخر الدين الثاني المعني، الـذي لا تهمنا في هـذا الوقت، قضيتـه السياسيـة، ولكن ما ترتّب عليها. فلما استقرّ الأمير المعني في إمارته، جبلاً وساحلاً وداخلاً استطاع أن يتعامل مع التجار الأوروبيين على طريقتـه، ووفقاً لمخططـاته، وتبعـاً لمصلحته بقطـع النظر عن السيـاسة التجـارية الرسمية. وذلك، لأنه لم يكن هناك سياسة تجارية رسمية. وأخيراً، جرّدت الـدولة جيشـاً ضده، للقضـاء عليه.

وقد كان في أنحاء الامبراطورية الواسعة مثل فخر الدين كثيرون، وإن لم يتـزامنوا وإياه. فضلاً عن ذلـك، فالفتـرة المذكـورة كانت فتـرة تجارة المحيطـات التي كانت، إلى درجـة كبيرة، بعيـدة عن البحـر المتوسط. ومن المعروف، أنه في الوقت الذي كان العثمانيون يقومون فيه باحتـلال بلاد الشـام ومصر، كان البرتغاليون قد اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح إلى البحار الشرقية، وأخذوا يحتكرون تجارة التوابـل والأفاويه، وخاصة الفلفل، بالنسبة لأوروبا. كما أن الاسبان وقعوا في القرن السـادس عشر الميلادي عـلى ثروات العالم الجديد. وإذا، فما الذي بقي للبحر المتوسط ومنطقته الشرقية من التجارة؟

هنا، يجب أن نذكر أن البرتغـاليين، لم يكـادوا يسيطرون عـلى مصدر التـوابل ويبـدأون بحملها إلى أوروبا، حتى فرضوا على الأسواق الأوروبية أسعاراً احتكارية. وبذلك أصبح المستهلك يدفـع ثمناً بـاهظاً لما يحتاجه. كما أن المدن الايطاليـة والفرنسيـة، التي كانت لهـا سفن تمخر عبـاب المتوسط إلى أسـواقه الشرقية، لتحمل منها حاجـة أوروبا من التـوابل ـ هـذه المدن خسرت تجـارتها. فكـان عليها، أن تحـاول استعادتها. وهنا يأتي دور التاجر البندقي والفرنسي والانكليزي، بالنسبـة للمنطقة أولاً، ومن ثمّ بـالنسبة للدولة التي كانت لها السيطرة على المنطقة بأجمعها.

وكان على التاجر، مهما كانت تبعيتـه السياسيـة، أن يحاول عقـد اتفاقـات مع الدولة من جهة، ومع الزعيم أو الحاكم المحلي من جهة ثانية، كي يؤمن له مكاناً في السوق. وهـذه السوق، التي كـانت عادة في المشرق العربي، كان ينتظر منها أن تستورد التوابل والعطور وبعض الحجارة الكريمة. وكان من الطبيعي أن يكون الطريق المتّبع متصلاً بالخليج العربي. ومن هنا، فإننا نجد أن حلب تستأثـر بحصة الأسـد من التجارة الشرقية ـ من الخليج إلى بغداد فحلب فالإسكندرون.

لذلك نجد أن موانىء المتوسط تفقد مكانتها التجارية. وكان للتجار الانكليز مكانة خاصة هناك. عـلى أن هذا لا يستمر طويلاً. فالمنافسة بين فرنسا وانكلترا، كانت قـوية. وبـدءًا من أيام فخـر الدين، بـدأت

صيدا تستعيد مكانتها نسبياً. ثم بعد عام ١٦٦٠ م، تصبح صيدا، على ما يرى المرحوم الدكتور انطوان عبد النور:

> «المركز التجاري الأساسي في سورية الجنوبية. فهي مخزن كل انتاج سورية الجنوبية ـ أي لبنان وفلسطين، يرسلُ تجارها لتجميع المحاصيل وكلاء لهم إلى الرملة وعكا وبيروت وطرابلس. فيقيم الوكلاء طوال العام في مراكزهم ويشترون البضائع ويشحنونها الى صيدا على زوارق محلية، وتعود اليهم بالمال والبضائع الأوروبية التي يحتاجون إليها».

ويستمر الدكتور عبد النور في وصفه لتجارة صيدا، فيقول:

> «وفي صيدا يوضّب الانتاج ويُشحن على السفن الذاهبة الى الغرب. فأساكل سوريا الجنوبية كانت اذن على نوعين: أساكل تؤمن جمع انتاج المناطق المحيطة بها، وأخرى [كصيدا] تقوم بجمع البضائع من الأساكل الصغيرة، ومن الأرياف بواسطة القوافل، وبتصديرها إلى الخارج».

وفي القرن الثامن عشر الميلادي، أيام ظاهر العمر والجزار، وقد حكما إيالة صيدا من عكا، خلال النصف الثاني من القرن المذكور، أخذت عكا مكانة خاصة لجمع المتاجر والسّلع، على نحو ما كانت تقوم به صيدا. فقد ضمن هذان الحاكمان الأمن في شمال فلسطين وجنوب لبنان، وشجعا التجار الفرنسيين، الذين استقروا في عكا، ومن هناك، انطلقوا في تجارتهم. على أن الذي يجب أن يذكر دائماً، هو أن التنافس التجاري الأوروبي كان هو المسيطر على تجارة الدولة العثمانية. وهذه المنافسة كان مجالها وممثلوها، فرنسا وانكلترا وهولندا، بعدما فقدت البندقية دورها بعد سنة ١٥٧٠ م. وكانت الأدوار، بالنسبة للتفوق والتأخر، تتأرجح، وتختلف.

وفي سنة ١٧٩٩ م حاصر نابليون عكا، بعد أن كان قد احتل مصر، ولكنه لم يتمكن من احتلالها. فعاد الى مصر، ثم الى فرنسا. وكانت حملة نابليون ذات أهمية خاصة، بالنسبة لبلاد المشرق. لقد كانت الإعلان الرسمي عن اعتماد الدول الأوروبية سياسة السيطرة الفعلية على هذه المنطقة، وذلك تحقيقاً لمطامع اقتصادية، تكون السياسة والحرب الوسيلتين المؤديتين إليها. ومع أن الاحتلال الفعلي احتاج إلى وقت طويل ـ مصر ١٨٨٢ م، وبلاد الشام والعراق ١٩١٨ م ـ فإن المقدمات والتدخلات والعمل على استمرار ضعف الدولة العثمانية وتفككها، كانت جادة. وقد أعانت الدولة العثمانية، بما مرّ بها، خصومها على نفسها.

وفي هذه الفترة ـ أي في القرن التاسع عشر الميلادي ـ لم يكتفِ التجار بمحاولة الاستيلاء على الأسواق بل تقدموا في أنحاء الدولة العثمانية بمشاريع لبناء الموانىء وإنشاء السكك الحديدية، مقابل امتيازات معينة. ومن هذه المشاريع، سكة حديد برلين ـ بغداد أصلاً، ثم السكك الحديدية التي مُدَّتْ بين بيروت ودمشق، ثم الى حماة وحلب، وبين يافا والقدس.

أما سكة حديد الحجاز، فكانت مشروعاً عثمانياً حميدياً اسلامياً. وكل ما هناك، أن التكنولوجية في أجزائه الأولى، كانت المانية. لكن المشروع، كان بعيداً عن الاستعمار ومخططاته.

ولا ننسى أن المنطقة، التي سيطرت عليها الدولة العثمانية، أفادت من ذلك شيئاً كثيراً. فقد سهل الاتصال بين أجزائها، وقامت فيها مدن كبيرة. صحيح أن هذه المدن مثل القاهرة ودمشق وحلب والقدس وبغداد، كانت موجودة، لكنها نمت واتسعت.

والذين زاروا المنطقة، من الرحالين والكتّاب ورجال السياسة والمال والتجار، وخصوصاً من أهل الغرب، حرصوا على تدوين أخبارهم في يوميات أو مذكرات أو تقارير أو كتب وضعوها. وبعضُ ما كتب، كان للتسلية الشخصية. وبعضه، كان أعمالاً أدبية مجرّدة. لكن أكثره كان مما يمكن أن يفيد، إما المؤسسات التجارية، مثل شركة المشرق أو شركة الهند الشرقية البريطانيتين، أو المؤسسات الحكومية، كالذي عرف عن «فولني» و «علي بك العباسي»، من حيث ارتباطهما بالبلاط الفرنسي.

وعلى كل، فنحن مدينون لهؤلاء بكثير من المعلومات، حتى التي كتبها المغرضون منهم، التي استقيناها مما وضعوه. على أن البلاد ـ وهنا نقصد لبنان بشكل خاص ـ وصفها رحالة عرب. ومن جماع ما نحصل منه، نكوّن ناحية من نواحي تاريخها.



١٣ جون ساندرسون يزور لبنان

رجال من جنسيات مختلفة ومتعددة زاروا لبنان والمنطقة، في العصور الحديثة، بيد أن أكثرهم كانـوا من الانكليز والفرنسيين. وقد يكون سبب ذلك هذا الاهتمام بالأساكل، أي الموانيء كما كانت تسمى، لمـا فيها من متاجر وأسواق ومـرابح. فـإذا خفّت الحركـة التجاريـة في الموانيء، وجـد هؤلاء في الداخـل ما يجذبهم. وحتى إذا أقفرت الأسواق من المتاجر، جاء المنطقة زوار من نوع آخر.

فهناك رجال السياسة؛ وهناك جماعات المبشرين؛ وهناك الحجاج، الذين لا يبغون من الزيارة، إلا أن ينعموا بدخول الأراضي المقدسة. ولطالما وسعوا نطـاق حجّهم، بزيـارة دمشق ولبنان. بـل وقد تضطـرهم السفن الى الوصول الى ميناء في لبنان، أو حتى في مصر، كي يتمكنوا من العودة.

ومن هنا جاءت هذه الرحلات المنوعة، من حيث الأوصاف والمعلومات، ومن حيث الانطباعات. فـالذي تنكسر به السفينة، فتلقيه على الشاطىء، لا يمكن أن تكون انطبـاعاتـه مثل الـذي يصل الميـناء مطمئناً. والذي قد يتعرض للصوص في الطريق، وما كان أكثرهم، لا يمكن إلا أن يُنحي باللائمة على ادارة البـلاد وحكامها.

فضلًا عن ذلك، فهؤلاء القـوم، كانـوا يأتـون بلاداً تختلف عن بـلادهم في كل شيء، وكـانوا يلتقـون جماعات بعيدة كل البعد عما ألفوا. ومن ثم، فقد كانت مواقفهم تختلف من حالة إلى حالة. على أنه يظـلّ، عندما نُقْصي هذه الأمور عن كتاباتهم، بإمكاننا أن نستعين بما كتبوا على كتابة تاريخنا.

وسنتناول هنا جون ساندرسون (John Sanderson)، وهو بريطاني من جماعة التجار.

وساندرسون لندني المولد والنشأة. ولد سنة ١٥٦٠ م، وبعد سنوات قضاها في المدرسـة، ثمّ في تلقي الدروس الخصوصية في الكتابة وأصول المعاملات الحسابية التجارية، انتقل الى حانـوت والده. ولم يطـل ذلك، فقد دخل في خدمة تاجر، ليتدرب على العمل بأنواعه، كي ينضمّ إلى المؤسسة التجارية.

ولا بد هنا من ذكـر أن سانـدرسون كـان يتضـايق من نظـام المدرسـة التي أُرسل اليهـا. وبما أننـا معنيون بزيارة ساندرسون للبنان، فقد يكون ثمة متعة في معرفة هذه القصة.

فقد كتب جون ساندرسون ترجمة ذاتية؛ جاء فيها، فيما يتعلق بالمدرسة، ما خلاصته: روت له والدته أن طفولته كانت بائسة؛ بسبب ضعف بنيته، وبسبب بثور كانت تظهر على جلده، فتؤلمه وتؤذيـه. أما هـو فيقول عن مدرسته:

> «إن بؤسي في المدرسة كان كبيراً... فقد كان فيها معلمان مجنونان. وقـد ضربني احدهمـا، وهو المـدعو كـوك وكان مدير المدرسة، بحيث انه ترك على فخذيّ ندباً ما تزال موجودة الى الآن».

وقبل أن ينهي ساندرسون مدة الخدمة القانونية مع التاجر، نقله هذا إلى جماعة أخرى من التجـار. ويبدو أن مثل هـذا الأمر، كـان جائـزاً. هذا مـع العلم بأن سـاندرسـون، لم يُستشر، ولم يعرف بـالأمر. وعندها، أرسله المسؤولون الى استانبول، ليكوّن صلة تجارية مع المولـين المحليين هنـاك، وكان يـومها في سن الرابعة والعشرين، فقضى هناك أربع سنوات، وعاش في منزل السفير البريطاني.

وكانت العلاقات التجارية بين استانبول وانكلترا، آنذاك حديثة العهد، وقد نظمهـا السفير هـاربورن نفسه. وكان السفير الفرنسي يحـاول أن يمنع التجـار البريطـانيين من الحصـول على إذن بـالاتجار مـع استانبول ومع الولايات العثمانية، على اعتبار أن هذا كان حكراً على الفرنسيين. لكن هاربورن دبّر الأمور، وحصل على الإذن ـ البراءة، قبل وصول ساندرسون بفترة وجيزة. وأثناء السنوات الأربع التي قضاها في العاصمة العثمانية، أُرسل ساندرسون الى الاسكندرية في مهمة تجارية.

وفي طريق عودته، مرّت السفينة بمدينة طرابلس. وهناك، مرضَ ساندرسون، وقضى نحو ستة شهور في مرض وعلاج ونقاهة. ومنها سافر إلى لندن. وكان «لمعلمه»، التاجر الأصلي، حصة من المتاجر التي حملتها السفينة، وهي من «النيلة». وقد بيعت في أسواق لندن بسعر سبعة شلنات للباوند، أي الرطل الانكليزي (٤٥٤ غراماً). ويعلّق ساندرسون على ذلك، بقوله:

«هذه الأسعار المرتفعة تدلّ على حاجة الصباغين للنيلة».

وقد زار ساندرسون المشرق ثانية لسبع سنوات، بين سنتي ١٥٩١ و ١٥٩٨ م.

لكن أثناء زيارته الثالثة للمشرق، والتي تمت بين سنتي ١٥٩٩ و ١٦١٢ م، جاء لبنان، وزار فلسطين. وقد وصل الى استانبول أولاً، ثم ذهب إلى صيدا. ويقول إنه مرّ بصور يوم أول حزيران/ يونيو، وفي اليوم عينه، ألقت السفينة مراسيها في صيدا.

والطريق الذي اتبعه ساندرسون من صيدا الى دمشق، شمل النقاط التالية: السمقانية والباروك وطرف جبل الشيخ وسلسلة لبنان الشرقية. واقتصرت زيارة ساندرسون لصيدا على الآثار التاريخية.

وبعد زيارة البلاد المقدسة، عاد ساندرسون الى لبنان، بطريق دمشق. لكنْ هذه المرة عاد من دمشق إلى طرابلس. فمرّ بسهل البقاع، الذي يقول عنه، إن عرضه يتراوح بين عشرة أميال واثني عشر ميلاً؛ أما طوله، فضعف ذلك. وهو سهل خصب، غني بتنوع ألوان التربة والمزروعات فيه.

ويمرّ ساندرسون ببعلبك. لكنّ هذا الرجل التاجر، لا تلفته قلعة خربة، لا يسكنها أحد. بل إن كل ما يضيفه إلى ما تقدم هو أن القلعة تعود في تاريخها إلى العصر الذي عاش فيه سليمان. وهذا يقصّر عمر بعلبك ـ الهيكل ـ بما لا يقلّ عن عشرين عاماً. أما سهل بعلبك ـ البقاع، فيقول عنه ثانية:

«أروع بحر من الأرض رأيته في حياتي».

فهو يصفه بالبحر، لأنه مستو!

واجتاز ساندرسون وصحبه المنطقة بين بعلبك وطرابلس في الثالث عشر والرابع عشر من شهر آب/ أغسطس. ويشير إلى أنهم وصلوا الى قرية، هي عين عطا، ثم تسلقوا جبل لبنان الذي يقول عنه إنه أعلى جبل يجتازه البشر في العالم. وهذا كان قبل أن يتعرّف الغرب على جبال هملايا، ويحاولون تسلق جبل أفرست. ويضيف ساندرسون قوله:

«مع أن الوقت كان أحرّ أيام السنة فقد كانت جيوب من الثلج ترى على الجبل. وقد كان البرد شديداً بحيث أن يديّ جمدتا من شدته. لكن لما انحدرنا بضعة أميال، إلى الغرب، عدنا إلى طبيعتنا».

ويشير ساندرسون إلى شجر الأرز الكبير، الذي يقع على مقربة من بشري. وبعد أن يمتّع ساندرسون نظره بالطبيعة الجميلة، يصل مع رفاقه الى طرابلس، وقد عمّ الظلام المدينة. وقضى في طرابلس مدة طويلة، إذ إنه لم يغادرها نهائياً إلى لندن، إلا في أواسط شهر شباط/ فبراير سنة ١٦٠٢ م.

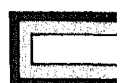
وأثناء إقامته هذه في طرابلس، عرف ساندرسون أن جماعة من الذين جاءوا معه على السفينة التي حملتهم من استانبول إلى صيدا، كانوا قد أودعوا سجن القلعة في طرابلس، وقد اتهموا بأنهم نهبوا مركباً، كان يحمل بضاعة من الصابون وغيره تخص الأمير وحاشيته. وعرف أيضاً أن خمسة منهم، كانوا معرضين للحكم عليهم بالقتل. وكان ساندرسون مقتنعاً أن التهمة باطلة. ولم يكن أمام أي منهم سبيل للنجاة من العقاب، مهما كان نوعه.

ولكنّ ساندرسون يقول:

«إن الله يسّر أمرهم. ذلك بأن قاضي طرابلس كان رفيق سفرنا على السفينة من استانبول إلى صيدا، وقد لقي منا جميعاً معاملة محترمة، فتقدمت منه ورجوته أن يتدخل. ففعل ذلك وبكل ما لديه من قوة ونفوذ. وبذلك أطلق سراح الجميع، إذ اقتنع المسؤولون بأنهم أبرياء، وذلك بشهادة القاضي».

وكان ساندرسون يأمل أن يبحر من طرابلس على ظهر السفينة «تروجان» (Trojan)، لكن هذه السفينة، ألقت بها العواصف الشديدة الى الصخور؛ فتحطم جزء منها، وانغرست في الرمال. لذلك سافر في ١٦ شباط/ فبراير سنة ١٦٠٢ م على متن سفينة أخرى، حملته الى اسكندرونة، ومنها إلى بلاده.

ولما كان ساندرسون في القدس، وقع خلافٌ بينه وبين بعض الرهبان الكاثوليك، حول زيارة مكان معيّن. فقد اتهموه بأنه ليس مسيحياً، ولا يحق له زيارة هذا المكان. لكنّ الخلاف سوّي يومها. إلا أن ساندرسون يقول إن هؤلاء نقلوا الخبر إلى جماعة من الرهبان في طرابلس، وأوعزوا اليهم أن يؤذوه. فهو يتّهم أحدهم بأنه اطلق عليه النار من بارودة صيد، وادّعى أنه كان يصيد العصافير. ولكن الله أنقذ ساندرسون والعصافير.



١٤ هنري مندرل في لبنان

من المعروف أن التجار الانكليز استطاعوا، في القرن السابع عشر الميلادي، أن تكون لهم امتيازات خاصة في الدولة العثمانية. وقد وضعت أسس هذه الصلات في أيام السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٩٥ م). وكان المركز الرئيسي لهؤلاء التجار، بالنسبة لبلاد الشام، هو حلب. والذي نعرفه أنه في الربع الأخير من القرن السابع عشر الميلادي، كان هناك مجموعة لا يستهان بها من هؤلاء التجار.

وفي السنة ١٦٩٦ م عيّن هنري مندرل (Henry Maundrell) راعياً لهؤلاء التجار في حلب. ومندرل، كان قد تخرّج في جامعة اكسفورد. ورغب على ما يبدو، العمل في التدريس في الجامعة. لكن هذا المنصب، كان فيه كثير من التحدي، فترك أكسفورد، وذهب الى حلب. وقبل أن يقضي سنة هناك، أظهر بعض أفراد رعيته رغبة في الذهاب الى بيت المقدس، لقضاء أسبوع الفصح هناك. وكان هذا أمراً يرغب فيه المسيحيون، وخصوصاً الأجانب، أي قضاء أيام الفصح بالقدس. وبما أن أربعة عشر شخصاً من الجماعة، كانوا ينوون الذهاب، فقد قرر مندرل أن ينضم اليهم. فهو، كما قال، يكون في صحبة الأكثرية من رعيته.

وهكذا، فقد غادرت الجماعة حلب في أواخر شهر شباط/ فبراير ١٦٩٧ م، متجهة نحو الساحل السوري. ثم سارت على الطريق الساحلي حتى دخلت لبنان، عند النهر الكبير، وذلك في التاسع من آذار/ مارس. وكانت المدينة الأولى، التي وصلوا اليها، طرابلس. وكان دخولهم اليها حين مغيب الشمس. وكان مع الجماعة، بطبيعة الحال، عدد من المكارين، للعناية بدواب الركوب والنقل. يقول مندرل:

> «لما قاربنا طرابلس تلكأ المكارون لأنهم كانوا قد سمعوا بأن حكومة طرابلس ستستولي على البغال والحمير والخيول التي معهم لتسخرها في أعمال الدولة لذلك تركناهم في السهل وسرنا نحو طرابلس».

وهذا الأمر لم يكن مجرد إشاعة. ذلك أن الحكومة العثمانية، في تلك الأوقات، درجت على مثل هذا التصرف. وبهذه المناسبة، فإنه كان هناك أمر آخر، يتوجّب على المسافرين التنبه له، وهو دفع مال الغفارة (أو الخفارة)، إما للزعيم، أو للبدو، أو لأي مجموعة تطلبه ولا يمكن ردعها. ولما وصل مندرل وصحبه الى طرابلس، نزلوا في بيت يقطنه هاستنغر القنصل البريطاني وفيشر التاجر. وعلّق الرحالة على ذلك بقوله:

> «وهذا هو البيت الوحيد للانكليز في طرابلس».

قضى مندرل اسبوعاً، كانت له ولصحبه خلاله زيارات للمدينة وأرباضها، فقد أخذهم المستر فيشر إلى وادٍ قريب من المدينة، حيث تناولوا الطعام. ومندرل ذو إحساس رقيق بالطبيعة وجمالها. لذلك يشير إلى ذلك في كل مرة تقع عينه على بقعة ساحرة، وما أكثر مثل هذه البقاع في لبنان!

والذي أسف له مندرل، هو أن طرابلس تعفوها الرمال من جهة البحر، وأن الحكومة لا تهتم لذلك، بل إن تصرفها يكاد يكون مشجعاً لأن تغطي الرمال المدينة. وفي اليوم الثالث لوصولهم، ذهبت الجماعة لزيارة باشا طرابلس. فطرابلس كانت قد أصبحت يومها إيالة، وكان سلطان الباشا يشمل شمال لبنان كله.

يقول مندرل:

> «ليس من اللائق أن تزور مثل حاكم طرابلس دون أن تحمل له هدية. والهدية ترسل مسبقاً ويكون معناها طلب الإذن من الحاكم في هذه الحالة لزيارته، وهو الذي يعيّن الموعد».

إلا أن الرحالة يضيف:

«إن الهدية امر متوقع حتى بين الناس العاديين. إذ قلما يزور امرؤ شخصاً آخر دون أن يحمل له زهوراً أو برتقالة أو ما إلى ذلك».

وكان دير البلمند أحد الأماكن التي زارتها الجماعة. ويصف مندرل صعوبة الوصول إلى الدير من الطريق البحري، مع أن الرهبان المقيمين فيه، قد بذلوا الجهد الكبير لتسوية الطريق وتمهيده. وقد دخل الزوار الى الكنيسة، إذ كان الرهبان يهمّون بالقيام بخدمة المساء الإلهية. ولم تعجب الخدمة، على الطقس الأرثوذكسي، القس البروتستانتي، أولاً، لأنه لم يفهم الكلمات؛ وثانياً، لأن الطقس يختلف عمّا ألف. ولم يعجبه استعمال البخور. كما أنه استغرب تقطيع الأرغفة، بعد أن صُلّي عليها، وتقديمها لجمهور المصلّين.

وتحدّث مندرل عن رهبان البلمند، فقال إنهم كانوا طيبين ومجتهدين، لكنهم كانوا جهلة. بيد أنه يعذرهم، لأنه عرف أنه مطلوب منهم أن يقوموا بجميع الأعمال اللازمة في الدير: فهم يرعون الماشية، ويحرثون الأرض، ويقنبون أشجار الكرمة. كل هذه الأشياء، يقومون بها: أولاً، كي يؤمنوا حاجاتهم من الغذاء والكساء، ويساعدوا من يأتيهم من المحتاجين؛ وثانياً، وهو الأهم، كي يُرضوا جشع أولي الأمر من الحكام، وخصوصاً الأتراك منهم.

ويصف مندرل، بشيء من التفصيل، استقبال الباشا لهم وضيافته، إذ أن الهدية على ما يبدو كانت ثمينة، ولو أن المؤلف لا يتحدث عنها. ولما حان الوقت كي يغادروا طرابلس، لم يجدوا المكارين، ذلك أن خوفهم من الباشا كان كبيراً، فتركوا الجماعة، واختفوا. فكان على مندرل وصحبه أن يستأجروا الدواب اللازمة من جديد. ولما تمّ لهم ذلك، غادروا طرابلس. ومروا بالقلمون، ثم بالبترون، وأخيراً وصلوا الى جبيل؛ في اليوم الثاني لتركهم طرابلس.

وكان من الطبيعي أن يُعنى مندرل، وهو الجامعي المتعلم، بالآثار الكثيرة التي مرّ بها. فكان يتفحصها ويصفها وكان ينقل النقوش اليونانية واللاتينية التي يراها. لذلك تأثر كثيراً، لما مرّ بنهر الكلب، ورأى النقوش، ولكنه لم يتمكن من الوقوف الوقت الكافي لينقلها، لأن الطقس كان ماطراً عاصفاً، ويبدو أن صحبه تململوا، فسار آسفاً.

وبهذه المناسبة، من الواجب أن نتذكّر أن مندرل كان يزور البلاد قبل نحو ثلاثمائة سنة، وأن الآثار، التي نشاهدها اليوم واضحة، كانت مطمورة. ووجد البلدة يقطنها قليل من السكان.

قضى مندرل وصحبه ليلة في الخيام على ضفة نهر ابرهيم، وكانت العواصف والزوابع شديدة، والأمطار غزيرة. وفي صباح اليوم التالي، ظهرت مياه نهر ابرهيم، وقد احمرّ لونها، وأثرت في بقعة واسعة من البحر، عند مصبّ النهر. وفي ذلك يقول مندرل:

«وهكذا رأينا مياه نهر أدونيس [ابرهيم] مصبوغة باللون الأحمر، لكن ذلك كان بسبب تربة حمراء لا بسبب دم أدونيس الذي قتل هناك، على ما تروي الاسطورة».

ويُعجب مندرل بساحل جونية وجبال كسروان المطلة عليه، ويصف المنظر وصفاً جميلاً. وأخيراً يُطل على سهل بيروت. فيذكر اسطورة قتل التنين على مقربة من المدينة، وهي الأسطورة القديمة التي نقلتها الجماعات إلى القديس جورج.

وبهذه المناسبة، فإن أماكن كثيرة على الشاطىء الشامي تروي القصة على أنها تخصّها. ويافا، في فلسطين، تزاحم بيروت في التمتع بالقصة وملحقاتها.

ولما وصل مندرل الى بيروت، كان اسم فخر الدين ما يزال يذكر في المدينة وبعض أنحاء الجبل، فقد كان عدد كبير من الجسور، التي اجتازها مندرل وصحبه، بين طرابلس وبيروت، من تلك التي بناها فخر الدين. وقد حرص مندرل على زيارة بعض ما كان ما يزال قائماً من آثار الأمير الكبير. فمن ذلك، الخان

الذي نزل فيه الرحالة ـ كان هذا من الأبنية التي تُعزى لفخر الدين، تشجيعاً على الأقل. وبعد أن يصف صاحبنا المدينة وموقعها وآثارها وخصب أرضها، ينتقل الى قصر فخر الدين.

يقول الرحالة عنه إنه يقوم في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة. يقوم عند مدخله نافورة من الرخام، قلّما أن يرى لها مثيل عند الأتراك. وقد كانت تحيط بالقصر، على ما أُخبره مندرل، إسطبلات وأماكن للحيوانات النادرة. هذا، فضلاً عن القاعات الواسعة والغرف الكثيرة داخل القصر بالذات.

ولعلّ أكثر ما أُعجب به مندرل، هو بستان البرتقال، الذي كان يشغل رقعة مربعة واسعة من الأرض، مقسومة إلى ستة عشر جزءاً مربعاً أيضاً، بحيث تكون كل أربعة منها صفاً واحداً. مع وجود ممرات بين هذه المربعات. والممرات هذه تغطيها أشجار البرتقال، وهذه منسقة في نموها، من الجذر إلى أعلى أجزائها. ويقول مندرل:

«وقد بدت لنا، ونحن في هذه الزيارة، كأنها مذهّبة بسبب الثمار الناضجة والتي كانت تغطي الأشجار بشكل لم أرَ له مثيلاً على أشجار التفاح في انكلترا. وكان كل من هذه المربعات الصغيرة يدور به إطار من الحجارة، وداخل هذا الإطار رأينا مسارات للماء، بحيث يمكن للماء أن يصل إلى كل مربع في البستان. ذلك بأن هذه المسارات المائية توجد فيها فتحات يتسرب منها الماء إلى الأشجار، فيرويها.
وكانت تقوم الى الشرق من البستان ممرات أُنشئت على نشز من الأرض، فيما كانت الاستراحات الصيفية والأكشاك اللطيفة تقوم الى الشمال من البستان».

وغادرت الجماعة بيروت، ومرّت بحرج بيروت أو، كما يسمى محلياً، صنوبر بيروت. وقد أُخبر مندرل أن هذا الحرج، يعود إنشاؤه إلى فخر الدين أيضاً ونقل هو هذا، لكن الذي نعرفه نحن أن هذا الحرج، يعود إلى الأيام الموغلة في القدم. ولعلّ فخر الدين عُني به، ومنع قطع أشجاره. ويتابع رحّالتنا وصحبه السير، فيمرون بصيدا.

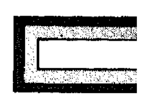
وعند مدخل المدينة تلقى الجماعة فئة من التجار الفرنسيين، الذين لهم أكبر مركز تجاري في المشرق بأجمعه في هذه المدينة، ومع أن جماعة مندرل ضربت خيامها خارج المدينة، فإن السادة الفرنسيين، كما يسميهم الكاتب،

«أخذونا الى حيث يقيمون في خان على شاطىء البحر. وهو مسكن الجالية الفرنسية بأكملها بمن فيها القنصل، وهو قنصل في صيدا ويحمل لقب قنصل القدس أيضاً. وبسبب هذا اللقب يترتّب عليه أن يقصد بيت المقدس في عيد الفصح. ومن واجباته هناك المحافظة على الرهبان باسم الامبراطور».

ويعلّق مندرل على ذلك بقوله:

«إلا أن الرهبان يحسبون أنهم في عافية بدون هذه الجماعة».

وأخيراً، سارت الجماعة من صيدا، ومرّت بصور. وصور، المدينة التي وقفت في وجه الاسكندر، اهتم بها مندرل، ووصفها وصفاً أثرياً. وبعد مسيرة بعض يوم من صور، وصلت الجماعة الى الناقورة، وانحدرت داخلة فلسطين.



١٥ عالمان دمشقيان في لبنان

زار لبنان، أو أجزاء منه على الأصح، في القرن السابع عشر الميلادي عالمان دمشقيان، هما رمضان بن موسى العطيفي، المتوفى سنة ١٦٩٣ م، وعبد الغني النابلسي، المتوفى في دمشق في سنة ١٧٣١ م. وليس ثمة من ترابط بين الرجلين سوى أنهما زارا المنطقة في القرن السابع عشر الميلادي، وخلّفا وصفاً لبعض الأماكن.

فقد قام العطيفي برحلته سنة ١٦٣٧ م. أما النابلسي فقد قام برحلتين إلى المناطق اللبنانية. في الأولى، التي تمت سنة ١٦٨٨ م، زار البقاع، بما في ذلك بعلبك، بطبيعة الحال. وفي الرحلة الثانية، خرج من دمشق الى صيدا، وبعد أسبوع قضاه فيها، انتقل الى بيروت، عبر عانوت ودير القمر والدامور. وقضى في بيروت يومين، ثم اتجه إلى طرابلس متبعاً الطريق الساحلي. وقد أعجبته طرابلس. فظلّ فيها أسبوعين، وعاد عن طريق إهدن وعيناتا، مجتازاً جبال الأرز، وبعلبك وكرك نوح. وكانت هذه الرحلة في سنة ١٧٠٠ م.

يتساءل المرء، عندما يقرأ مثل هذه الرحلات، عن مدى الفائدة التي تعود عليه. والواقع أن هذه قضية هامة، بالنسبة الى الرحالين وقرائهم. والأساس في الموضوع هو: لماذا يرحلُ شخص ما؟ وبعد أن يجيب المرء عن هذا السؤال، يخطر له سؤال ثان: ما هو مزاج الرحالة؟ وهذان الأمران يقرران ما يكتبه الرحالة، وكيف يكتبه. أما نحن، فإننا نريد أن نفيد من قراءة الرحلة.

وليس من شك في أنها قضية مهمة فعلاً: هل الرحالة، الذي نقرأ له في وقت ما، مؤرخ؟ هل هو جغرافي؟ هل هو من أهل الأدب؟ هل هو عالم ديني أم طبيعي؟ هل هو... إلى آخر ما يمكن أن يخطر على البال من الأسئلة. وبالنسبة لرحالَيْنا، اللذين نتحدث عنهما، نلاحظ فرقاً كبيراً بينهما. فالعطيفي، يدوّن فصلاً كاملاً في مدح السفر. ثم ينتقل الى تدوين رحلته، ومعه:

«صديق في المحبة صادق، ورفيق فيما أروم موافق».

أما النابلسي، فيقول عن زيارته الأولى للبقاع:

«لقد يسر الله تعالى لنا السير إلى أرض البقاع العزيز... بقصد زيارة من فيها من الأولياء والصالحين».

أما رحلته الثانية، التي ضمّت صيدا وطرابلس، فيقول عنها:

«قد اقتضت رحلتنا من دمشق الشام زيارة اخواننا من ذوي المجد والاحتشام... وقد دعينا الى زيارة طرابلس باشارة كانت من بعض الحكام في هاتيك البلاد».

ومن الجدير بالذكر أن النابلسي، كان عالماً معروفاً ومتصوفاً مشهوراً، وقد كثر في دمشق طلابه، من أهل البلد، ومن الوافدين عليها من جهات مختلفة. لذلك، نجده يزور تلميذاً هنا، وصديقاً هناك، وزميلاً هنالك.

ويصف الرحالتان المناطق والمدن وصفاً عاماً، بحيث تكاد تشعر، أحياناً، أنك لو بدّلت اسم مكان باسم آخر لما تبدّل الكلام، ولما احتجت إلى تغيير اللهجة والنبرة. والرجلان يُكثران من رواية الشعر. وللنابلسي رحلتان، والشعر عنده أكثر، وشعره هو نفسه كثير. وتكاد تشعر أحياناً أن مجرى الشعر عنده لا ينقطع أبداً.

وما دام العطيفي هو الأسبق، فسنتناوله هنا أولاً، وذلك لسببين: الأول، هو هذه المجموعة اللطيفة من الأقوال ـ نثراً وشعراً ـ التي تحضّ على السفر، مادحة، إياه، على تباين أنواعه واختلاف غاياته.

وأذكر أنني قرأت، قبل نحو ستة عقود من السنين أو أكثر، مقطوعة شعرية عن السفر، أعجبتني. وقد عثرت عليها عند العُطيفي. لذلك، أود أن أورد بعض أبياتها:

تغرّب عن الأوطان في طلب العُلى	وسافر ففي الأسفار خمسُ فوائدِ
تفرّجُ همٍّ واكتسابُ معيشة	وعلم وآداب وصحبةُ ماجدِ
فإن قيل: في الأسفار همٌّ وغربةٌ	وقطع قفار واقتحامُ شدائدِ
فموتُ الفتى خير له من مقامه	بأرض هوانٍ بين واشٍ وحاسد

ولأنني كثير الرحلة، فإنني أؤيد العطيفي فأقول: اذا استثنيت اكتساب المعيشة، فقد نعمتُ بالأمور أو الفوائد الأربع الأخرى. وكم آملُ أن أكتب يوماً من الأيام عن إفادتي من الرحلة في: تَفَرُّج الهمِّ والعلم والآداب وصحبة الماجدِ!

هذا هو الأمر الأول، الذي حملني على زجّ العطيفي في هذه الفصول. أما الأمر الثاني، فهو وصفه لطرابلس في ذلك الوقت. فهو الوحيد الذي تنبّه الى ناحية خاصة عن طرابلس، سأذكرها لاحقاً. لكن قبل ذلك، أريد أن أعرض الوصية التي ختم بها الباب المتعلق بالأسفار وفوائدها. قال:

«أوصى بعض الحكماء ابنه، وأراد سفراً، فقال: «إنك تدخل بلداً لا تعرفه ولا يعرفك أهله، فتمسّك بوصيتي تنفقْ بها ـ عليك بحسن الشمائل فإنها تدلّ على الحرية؛ ونقاء الأطرافِ، فإنها تدل على الملوكية؛ ونظافة اليد فإنها تشهد على النشوء في النعمة؛ وطيب الرائحة فإنه يظهرُ المروءة؛ والأدب الجميل فإنه يكسب المحبة».

خرج العطيفي من دمشق، وقطع مع صاحبه عقبة دُمّر. يقول:

«ثم استقبلنا وادي بردى نمشي على بساط من الأزهار، في ظل سرادق من الأشجار، ونترنّم بغناء الأطيار، ونمتّع العين بتكسّر الماء على الأحجار».

وبالمناسبة، فإنني أورد هنا وصفاً له لمحلةٍ في شرقي طرابلس، مرتفعة مشرفة على البلدة. قال العطيفي:

«فدخلنا إلى دار حسنة البناء. وصعدنا الى مكان مرتفع له شبابيك من جهة الغرب. وكان آخر النهار، والشمس تهوي للغروب. ومن عادة الشمس إذا قارب وقت الغروب من جهة البحر، لا تمنع الأبصار من رؤيتها، فرأيت شيئاً لم أرَ أبهج منه من المكان والزمان والمنظر العجيب».

أما عن طرابلس، فإن الرحالة يقول:

«دخلنا طرابلس... فإذا هي بلدة لطيفة، ماؤها كثير ورزقها غزير. جميع بنائها بالحجر ليس فيه شيء من الخشب... يشقها نهر تقع على حافتيه من الجانبين الجوامع والمدارس والقصور والشبابيك. وهذا النهر غير نهر السُقيا لبيوتها وحماماتها. والماء يصعدُ إلى أعلى مكان بها».

ويضيف:

«ولها قلعة في طرفها على جبل مطل عليها. وماء السُقيا يمرّ بطرفٍ من العلوّ، والنهر الآخر في سُفل وادٍ. وبها جميع فواكه دمشق وأكثر نباتات مصر. فلذلك يقول أهلها: هي دمشقية مصرية. وقد سمعت بعض اهلها يقول: بلدتنا هذه الهند الصغيرة. ويحيط بكل أطرافها بساتين وغياض ومتنزهات، ونسيمها لطيف، وبها ازاهر ورياحين، وأكثر ما حولها من شجر الحمض (أي الأشجار الحمضية). وهي على حافة البحر. إلا ان بينها وبين البحر ما تقدّم من البساتين».

ويبدو أنه من المألوف، في الشرق والغرب على السواء، أن يُعنى الحكام بمثل هؤلاء العلماء الرحالة. فالعطيفي يروي أنه اجتمع بحاكم طرابلس يومها:

«الأمير الكبير علي ابن الأمير الكبير محمد بن سَيْفا فدخل داره... فأكرمني غاية الإكرام وأمرني أن لا أغبّه في الزيارة».

هذا على غير معرفة سابقة به.

أما عبد الغني النابلسي، فقد كان عالماً معروفاً، يُسعى اليه، ولا يَسعى إلى الناس. ومن هنا كان اهتمام والي طرابلس ارسلان باشا به، اهتماماً من نوع آخر، فقد أرسل هذا إلى النابلسي وصحبه من يستقبلهم، وأنزلهم قصره. على كل، يجدر بنا قبل أن ننقل بعض ما قاله النابلسي عن لبنان، أن نذكر أنفسنا برحلتيه اللتين أشرنا اليهما قبلاً. الأولى، كانت للبقاع؛ والثانية، شملت صيدا وطرابلس، وعاد عن طريق جبل الأرز.

ففي رحلته الأولى، التي شملت البقاع فحسب، زار النابلسي كلّ وليّ من أولياء الله المدفونين في طريقه. لكنه يقف عند اليونيني، واليونيني، قبل أن يصبح ولياً بعد وفاته، كان عالماً مؤرخاً صالحاً. ولما توجّه النابلسي الى الدخول إلى بعلبك قال:

«ثم إننا توجهنا إلى الدخول إلى بلدة بعلبك المعمورة، لأجل تتميم الزيارة لمزاراتها المشهورة... فخرج للقائنا... حافظ تلك البلاد حضرة محمد الباشا حفظه الله، بجماعته وخدمه وعسكره وحشمه... ثم رجع معنا فدخلنا من الباب بأكبر هيبة وجلالة».

وخرج القوم إلى رأس العين. وهي متنزه بعلبك إلى يوم الناس هذا، وتقع شمالي المدينة. يقول النابلسي في وصف ذلك:

«ثم أمر باخراج الخيمة العظيمة، ذات النقوش المختلفة، لأجل الاجتماع والمؤانسة، وانشراح النفوس المؤتلفة. فضربت تلك الخيمة لنا في ذلك المرج الأخضر والروض الأزهر الأزهى، عند المكان المسمى برأس العين، فانشرح الصدر وقرّت العين. وترقرقت هاتيك المياه اللطيفة وانسابت في ذلك الجدول وهي بنا مطيفة».

ولعله من الواضح أن التزام النابلسي السجْع يضجر بعض الشيء. ولو أن السجع يزيد في المعنى، لكان ثمة مبرر لتحمّله. ويلي ذلك، في وصف رأس العين، شِعر بعضه نظم آنياً ـ نظمه النابلسي أو عبد الرحمن، تلميذه وصديقه ورفيقه في الرحلة، والبعض الآخر رُوي، لمجرد أن يُقتبس الشعر.

ويصف النابلسي بعلبك، البعض نقلاً عن سابقيه، وبعض الوصف من قلمه، وهو وصف لم نحصل على مثله من رحالة عربي.

وصف عبد الغني النابلسي في زيارته للبقاع قلعة بعلبك. كما وصف حصن قب الياس، الذي بناه فخر الدين المعني، أمير لبنان في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلاديين. أما رحلته الثانية، فقد زار فيها ثلاث مدن لبنانية كبيرة، نسبياً: صيدا وبيروت وطرابلس. وقد قضى أسبوعاً في الأولى، ويومين في الثانية، واسبوعين في طرابلس. وفي الرحلتين، يحرص الرّحالة على تدوين التاريخ، لكننا في الواقع لا نجد عنده أي اهتمام خارج اطار العلماء والأولياء، كما أن الاهتمام الرسمي به كان كبيراً.

بدأ اكرام النابلسي الرسمي في صيدا. فقد نزل الرّحالة وصحبه في دار صديق عزيز عليه اسمه لطفي جلبي. لكن محمد قبلان باشا، محافظ ثغر صيدا، أصرّ على السير الى حِماه. فذهب الى مجلسه. ومع أنه لم يقم في دار الباشا، فانه كان في رعايته مدة اقامته. ويذكر النابلسي زواره من أهل العلم والفضل. لكننا لا نسمع منه كلمة عن أولئك الذين كان يمر بهم في شوارع صيدا أو بيروت أو طرابلس. ومع أنه يتحدث عن المساجد والحمامات، فأنت لا تجد عنده ولو اشارة واحدة الى الأسواق وما تحوي. ويذكر أنواع المآكل النفيسة كثيراً، لكنه لم يصف لنا احدى هذه الموائد وصفاً واقعياً، كذكر أصناف الأطعمة.

ويحرص النابلسي حرصاً كبيراً على وصف خزائن الكتب الخاصة والعامة، التي يراها عند

أصحابها. وقد يستغرب القارئ عندما يسمع النابلسي يشير إلى كتاب اطلع عليه عند الباشا، وقال عنه انه كتاب عجيب، وله أسلوب غريب. والكتاب هو «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» تأليف شيخ الربوة الدمشقي. ويسهب في وصف الكتاب وفصوله. فهل يا ترى لم يكن النابلسي يعرف الكتاب حقاً. أم أن تصرفه هذا كان بسبب ان الكتاب كان في خزانة الباشا؟ نحن نرجح الأول.

ويعدد المؤلف مساجد صيدا وزواياها. ففيها ستة جوامع، تقام في كل منها الجمعة. وأكبرها الجامع العمري الكبير. ينتقل الى الحمامات، ليخبرنا أن في صيدا ثلاثة حمامات فقط، مع أنه كان فيها عدد أكبر قبلاً.

وصل النابلسي وصحبه بيروت في اليوم الخامس عشر من بدء رحلته. ويمر بمقام الأوزاعي، فيدعو الله تعالى ويقرأ له الفاتحة. ونزلت الجماعة في سراية حاكم البلدة وأميرها؛ وهي سراية رفيعة البنيان مشيدة الأركان. وحولها الأبنية كثيرة لكنها مهجورة. والسراية وما حولها من أيام الأمير عساف والأمير فخر الدين. وقد زارها أهل بيروت من العلماء النابلسي وجماعته. ودعاهم الكثيرون لقضاء أوقات السرور في مقاهي بيروت. لكن ليس ثمة فرق في الوصف بين مكان ومكان.

يقول النابلسي:

«وقد رأينا في بلدة بيروت المحمية زوايا كثيرة وجوامع وحمامات... فمن الزوايا زاوية مشرق الأنوار تسمى بزاوية ابن القصار... والجوامع التي بها أربعة أولها الجامع الكبير. ومنها جامع الأمير عساف. وهذا الأمير هو الذي عمّر السرايا التي مر ذكرها. وفي بيروت أربعة حمامات وكلها مهجور، ما عدا حمام الأمير فخر الدين بن معن. وهذا الحمام للميري، ويؤجره الحاكم كل سنة بألف قرش ومائتي قرش هو وقهوة هناك».

ويخرج النابلسي من بيروت، ويمر بجسر بيروت ذي القناطر الست، ولكن الماء يجري تحت واحدة منها. إلا أنه قد أخبر أنه في الشتاء يعم الماء القناطر جميعها. ويضيف قوله:

«وعلى أطراف هذا النهر رياض وبساتين يزرع فيها جميع الخضراوات والباذنجان واليقطين، وكذا الموز وقصب السكر والقلقاس والليمون... وكل ما يجلب الى دمشق الشام مما هنالك. فالجميع يجلب من هذا المكان».

وعندما يصل إلى انطلياس، يقول:

«على جوانب نهر انطلياس بساتين أنيقة وأشجار وريقة».

ويعيد قصة الكلب المقطوع الرأس الذي سمي نهر الكلب باسمه. ومر الركب بالبترون والقلمون. وقد تلقاهم أهل القلمون بغاية الإكرام، وهيأوا لهم الذبائح في أماكنهم والمبيت في منازلهم. لكن طرابلس كانت قريبة، فاستمرت الجماعة بعد صلاة العصر في الاتجاه نحو المدينة.

يقول النابلسي:

«وجاء للقائنا من طرابلس أشخاص عديدة... فسرنا حتى دخلناها والشمس على جناح طائر... فخرج للقائنا أولو المجد والمفاخر، أرسلهم حافظ الثغر ارسلان محمد باشا. وقد كان هيأ لنا داراً عظيمة عامرة فاخرة وعين لنا جميع ما نحتاج إليه ونتوقف عليه. فرحنا، بعد اقامة عنده امتدت عقيب صلاة العشاء الآخرة، إلى هذه الدار. والدار هذه منزل حسين جلبي آغا المينا بطرابلس المحمية».

وقد زار علماء طرابلس وقاضيها والمفتي فيها جماعة النابلسي، ودعوهم الى نزهات خارج المدينة، لكن ارسلان باشا كان يستقبلهم يومياً تقريباً. ويصف المؤلف جلسة في ايوان الباشا بقوله:

«فذهبنا «الى ايوانه» ونزهنا الطرف في محاسنه السنية وانتشقنا من نفحاته الزكية وجلسنا في منادمة أرق من نغم الهزار واعطار من نفحة الأزهار».

وكانت تجري في جلسات مختلفة مناقشات في أمور فقهية وفتاوى متنوعة. وكان لعبد الغني النابلسي الدور الأول في المناقشة والقول الفصل في القضايا. ويحدثنا عن كتب رآها في خزانة كل من مفتي بعلبك وقاضي المدينة وابن سنين العالم الكبير».

وقد زارت الجماعة الميناء، ونزلت في قصر آغا الميناء حسين آغا. ويروي أن صديقه الحاج نور الدين بشر، قال للجماعة:

«مرادنا اليوم نرمي الشبك ونصطاد أنواع السمك. فهلموا بنا ننزه الأرواح والأشباح ونركب في البحر مع الصيادين في الغدو والرواح. فنزلنا في البحر واصطدنا أنواعاً من لحوم السمك الطرية وعدنا إلى ذلك القصر الرفيع».

ولعلّ من الأشياء القليلة التي أشار اليها النابلسي، مما هو خارج عن مصاحبة الحكام والعلماء وزيارة المساجد ومشاهد الأولياء، ما رواه عن الميناء. قال:

«وقد رأينا على حافة الميناء جميع أنواع المراكب والسفن، وقد ذكر لنا أسماءهم صديقنا الحاج نور الدين المذكور. ولنعد ما سمعناه: اعلم أن أنواع المراكب وأسماءها كثيرة بلغت عدتها عشرين نوعاً، بعضها يخالف بعضاً في الصورة والهيئة، وأسماؤها متعددة، كل اسم يطلق على مركب مخصوص لا يتناول المركب الآخر، لكنه يطلق على المركب والسفينة».

ويعدد المؤلف العشرين نوعاً وأسماء من الماعونة والغليون الى الشنبر والبرمة والشكتباية. وكم كنا نحب، لو أن المؤلف وصف ولو البعض من هذه الأصناف. وبعد أن يعدّد هذه الأصناف العشرين يضيف قوله:

«وأسماء القلوع كثيرة ولكنها لازمة لها الا القارب فإنه لا يلزم له قلع».

ويبدو من كلام الرحالة أن الحالة العلمية في طرابلس لم تكن على ما يلزم، يقول:

«واعلم ايضاً أن ببلدة طرابلس المحمية مدارس وزوايا ومساجد لا تعد ولا تحصى. وسمعنا انه كان بها ثلاثمئة وستون مدرسة، ولكن اكثرها الآن متهدم وغالبها مهجور».

كانت المولوية ذات مكانة كبيرة ونفوذ قوي في المنطقة. ويبدو أن الباشا كان من أتباعها، أو مؤيديها على الأقل. لذلك دعا الجماعة يوماً كي تحضر الى المولوية، التي وجدها النابلسي ذات أشجار عطرية، وهي شبيهة بجنة النعيم. وتكررت الدعوة الى المولوية، من القاضي هذه المرة.

وكان ممن اهتم بالنابلسي مصطفى آغا، وقد كان ضابط الجند المعروفين بالقبي قول في دمشق، وكان قد ترك الوظيفة الى الاشتغال بالعلم في طرابلس. فدعا النابلسي وصحبه إلى ايوانه الفخم. وقد رأى المؤلف عنده كتباً لطيفة، ومجاميع منيفة، منها «سكب الأنهر على ملتقى الأبحر» و «شرح المنية» وديوان أبي نواس و «مجموعة لطيفة فيها شرح البردة».

واطلع النابلسي هناك على فتوى في حلّ الدخان المسمى بالتتن أصدرها الشيخ علي الحلبي صاحب السيرة. فقد سئل الشيخ علي الحلبي:

«ما قول شيخ الاسلام في شرب الدخان الحاصل في هذا الزمان. هل هو حرام على كل انسان أو على بعض دون بعض».

والفتوى طويلة تأخذ بوجهات النظر التفسيرية وتنتهي الفتوى بالعبارة الآتية:

«وحاصل الكلام انه حلال، فلا تغتر بمن تراه بليدا ويفهم تقليداً ويقول في ذلك بالتحريم».

وقد تلقى النابلسي «مكاتيب» مرسلة من الأحباب في دمشق. فكان ينقل بعضها في متن رحلته ومن الأخبار التي وصلته وأفرحته أنه ولد له ابن وهو في هذه الرحلة.

خرجت الجماعة من طرابلس في اليوم الرابع والثلاثين من أيام الرحلة التي يسميها النابلسي المباركة. وفي اليوم التالي، مرت باهدن. ثم جدّت الجماعة السير كي تجتاز جبل الأرز إلى قرية عيناتا. ويقول عن ليلة قضوها في الجبل:

«وبتنا بها (عيناتا) ليلة باردة كالزمهرير، ولا بدع في ذلك فإن الجبل هناك مغطى بالثلج الكثير. فلما رأينا ذلك جمعنا الحطب وأوقدنا النيران وبتنا تحت خيمة السماء المبطّنة بالدخان. ولم نزل بلا نوم كذلك حتى لاح الصباح وذهب الليل الحالك».

ومرت الجماعة ببعلبك، وزارت القلعة. ويبدو أن النابلسي زارها هذه المرة إكراماً لصحبه، وبعد زيارة لرأس العين، وقضاء بعض الوقت في الحمام. وفي صبيحة اليوم التاسع والثلاثين من الرحلة المباركة، خرجت الجماعة قاصدة دمشق، فمرت بالفرزل وكرك نوح، ثم بقرى أخرى حتى دمشق.

١٦ فولني في لبنان

اتسمت الزيارات والرحلات، التي قام بها عـدد من الكتّاب الأوروبيـين إلى المشرق في القرنـين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، بغايات لم تكن جميعها علمية أو أدبية. لقد كـان بعض هؤلاء الرحـالين من أهل السياسة، انتدبهم أولو الأمر في بلادهم ليتعرفـوا على جـزء خاص من أجـزاء المنطقة، بحيث تكـون أبحاثهم سبيلاً للإفادة من تلك المعرفة.

ولم يقتصر هذا الأمر على القرنين المذكورين. فحتى في العصور الوسطى المتأخرة، كان هناك شيء من ذلك. لكن سنتحدث عن العصور الحديثة، وسنتناول واحداً من هؤلاء، لا لنبحث عن مهمته السياسية، بل لنتعرف الى الذي كتبه عن هذه البلاد. والرجل هو فولني.

زار فولني المشرق في سنوات ثلاث: ١٧٨٣ و ١٧٨٤ و ١٧٨٥ م. والمتعارف عليـه عند البـاحثين، أن حكومة فرنسا أناطت به مهمـة خاصـة، هي استطلاع أحـوال ولايات السلطنـة العثمانيـة في مصر وبلاد الشام. ومما لا يخفيه الباحثون الفرنسيون هو أن نابليون بونابرت أفاد من كتابات فـولني كثيراً، لـما قاد حملته إلى مصر، ثم إلى فلسطين.

لقد قضى فولني أكثر السنة الأولى من رحلته في مصر. وتعرف إلى الكثير من شؤونها. إلا انه لم يتعلم العربية هناك. ومن ثم كان في اتصالاته نقص، تخلص منه لما جاء إلى لبنان، وتعلم العربية في دير لم يذكر اسمه. وتعلم العربية يسّر له من الاتصـالات ما لم يتـح لغيره. نحن نتكلم هنـا عن فولني، ولكن لـماذا لا نسمح له أن يتكلم عن نفسه، وقد ذكر أموراً طريفة في كتابه؟!

يقول فولني انه هبطت عليه ثروة مالية جاءته إرثاً. فقرر أن يفيد منها في الزيارات والرحـلات، إذ أن السفر:

«انجع الوسائل لتجميل العقل وتهذيب قوته المميزة».

وأدار الطرف، فوجد أن مصر وبلاد الشام، هما مهـد جزء كبـير من الحضارة الأوروبيـة. فضلاً عن ذلك، فإن أحوال الدولة العثمانية، كانت مما يدعو إلى استقصاء المعلومات عن أوضاعها، ليخلص فـولني إلى معرفة قوة الدولة ومواردها.

يقول فولني:

«ولدى عودتي إلى فرنسة بعد غياب ثلاث سنوات حسبت أن مباحثي قد تعـود ببعض الفوائـد. وعزمت عـلى نشر دروسي عن الحالة الراهنة في بـلاد الشام ومصر. وقـد شجعني على ذلـك ان المعلومـات عن تلك الأقطـار ناقصة، بسبب ان الرحلات إليها كبيرة المشقة. وقد عُني معظم الرحالين بالابحاث الاثريـة اكثر من اعتنـائهم بوضع البلاد الحديث».

ويضيف أن الكثيرين من الرحالين، اجتازوا البلاد على عجل، وكانت تنقصهم معرفة اللغة. وقد تردد فولني كما يبدو في الطريقة التي يضع فيها كتابه. فهو يقول:

«وكنت قد آليت على نفسي، بادىء ذي بدء، الا اتكلم إلا بمـا شاهـدت بأم العـين. على انني رايت، في سبيـل إرضـاء القراء ان استكمل صورة هذه الولاية بما دونتـه عن غيري كلمـا تمكنت التثبت من صحته... وتجنبت امرين، طريقة السرد المعتادة وتفاصيل السفر والحوادث اليومية».

ومن هنا، جاء الكتاب مؤتلفاً، معلوماته مستقاة من التجربة الشخصية والمراجع الأخرى. ولذلك نظم الكتاب تنظيماً تحليليًّـا. فقد تنـاول المؤلف، بالنسبـة الى بلاد الشـام، الموضـوع فصولاً: بحث فيهـا عن جغرافية البلاد؛ والحالة السياسية فيها؛ والسكان، رعاة ورُحَّلاً، ثمّ مستقرين؛ وخلاصة لتاريخ البلاد. ثم

تحدث عن الولايات التي تتألف منها بلاد الشام في أيامه، وكانت: ولاية حلب، وولاية طرابلس، وولاية صيدا، وولاية دمشق.

ويستعمل فولني للولايات كلمة «باشاويات»؛ وهي الكلمة التركية «باشالِك». ويلي ذلك فصول تتناول وضع سوريا السياسي والإداري والديني. ولا تفلت الأحوال الدينية والمذهبية من قلمه. وأخيراً، هناك ثلاثة فصول تُعنى بالصناعة والتجارة والعلم والتعليم وعادات السكان وتقاليدهم. وسنحاول، هنا، أن نذكر شيئاً مما دوّنه فولني عن لبنان، مما فيه فائدة ومتعة.

ومع أن كثيرين من الرحالة السابقين كتبوا عن سكان بلاد الشام، فإن فولني، كان من أول من فصّل الأخبار عن القوم الرحّل والرعاة، فعالج أمورهم تحت ثلاثة عناوين: التركمان والأكراد وعرب البادية. وخصّ كلّاً منهم بما يعتبره صفات مميزة له.

والمؤلف لا يطيل الحديث التاريخي، إلا أنه يخصص فصلاً طويلاً للشيخ ظاهر العُمر، الذي حكم شمال فلسطين وجُزءًا من جنوب لبنان بين سنتي ١٧٥٠ و ١٧٧٦ م. وكان لبنان، في ذلك الوقت، يقع في ولايتي طرابلس وصيدا إدارياً. ونحن لا تهمنا سياسة الدولة، ولا إدارتها بشكل خاص؛ لذلك، فإننا نود أن نتعرف إلى ما نعتقد أنه مشاهدات فولني الشخصية عن لبنان، في السنوات التي سبقت حملة بونابرت على فلسطين.

جاء فولني أيام كان أحمد باشا الجزار حاكماً لولاية صيدا (١٧٧٦ ـ ١٨٠٥ م). وقد كانت يومها تشمل ـ من لبنان ـ سهل صور والبقاع الجنوبي والسهول الساحلية الضيقة، الممتدة من صيدا الى بيروت. وما تبقى من لبنان، كان يدخل في ولاية طرابلس. ويلاحظ أن منطقة كسروان، تنمو فيها أشجار التوت والكروم. وورق التوت كان طعام دودة الحرير. وكان يترتب على والي طرابلس، أو والي صيدا، أن يزوّد أحدهما قافلة الحجاج إلى بيت الله الحرام بالمؤن والزاد: الحبوب والشعير والأرز. وكان يترتب على والي طرابلس، عندما يقع الدَّور عليه، أن يقود القافلة، التي تحمل المؤن بنفسه، إلى طريق الحاج الشامي في الصحراء.

يقول فولني إن تجارة طرابلس، كانت تدور حول خيط الحرير الخام، الذي كان يستعمل في صنع الدنتلّا. لكن يلاحظ أن هذه الخيوط الحريرية آخذة في التأخر. وقد استفسر فولني عن سبب هذا التأخُّر، فقيل له إن السبب يعود الى العطب الذي يصيب شجر التوت، فتصبح أوراقها غذاءً سيئاً للشرنقة.

وكان من الطبيعي أن يقول فولني: جددوا شجر التوت. لكن بعد أن أدرك الواقع علّق عليه بقوله:

> «هنا، أي في المشرق، قلما يفرشون أو يبنون، ذلك بأنهم عندما يبنون أو يغرسون الشجر، يعتبر الباشا الرجل الذي يقوم بذلك ثريًّا، وعندها يطلب منه مبالغ من المال ـ فوق ما يترتب عليه للدولة».

وكانت تجارة طرابلس، أيام زيارة فولني، في يد الفرنسيين. وكان لهم قنصل في المدينة، كما كان لهم ثلاث وكالات تجارية. وكانت هذه الوكالات تعنى بتصدير الحرير والاسفنج، كما كانت تستورد الأقمشة والسكر والبن (من جزر الهند الغربية).

وفي منطقة صور، من ولاية صيدا، كان يزرع التبغ. ويقول الكاتب إنه صنف جيّد، لا يقل جودة عن التبغ اللاذقي، أو اللاذقاني كما يسمى اليوم. أما المنطقة المعروفة بالشوف وما إليها، فتنتج كميات كبيرة من الحرير والخمور. ويضيف أن دمشق تعتمد على المنطقة الجبلية هذه في الكثير من حاجاتها. وعلى باشا صيدا، كما ذكرنا، أن يزود قافلة الحجاج بحاجتها من المؤن، عندما يطلب إليه ذلك.

وكانت بيروت تشغل مكانة كبرى تجاريًّا، ذلك أنها ميناء الجزء المتوسط من لبنان. ويصدَّر منها القطن والحرير، اللذان ينقل أكثرهما إلى القاهرة. أما ما يستورده تجار بيروت، فيدخل في عداده الأرُزّ والتبغ والبن والتوابل. وهذه المتاجر، ينقلها التجار الداخليون إلى البقاع وحوران، ويحملون إلى بيروت، في مقابل ذلك، القمح من تلك المناطق.

ويحيط ببيروت سور مبني من الحجارة الرملية. لذلك، فإنَّ قنابل المدافع تخرقه، لنعومته، دون أن تهدمه. وقد أزعج هذا الأمر الاسطول الروسي، الذي أطلق قنابل مدافعه على السور، بقصد تهديمه، لكنه لم ينجح.

ويضيف فولني، أن هناك أمرين يحولان دون تقدّم بيروت، لتصبح مدينة كبرى. وهما سلسلة الجبال القريبة منها، والتي تحول دون توسُّعها والثاني قلة الماء.

وها نحن، بعد قرنين من صدور كتاب فولني، لا نزال نتضايق من مشكلة المياه.

وقد شكا فولني صيف بيروت: فالحر شديد والماء ساخن. إلا أن المدينة، كما يقول الكاتب، لا تشكو من الأوبئة. ويعود الفضل في تحسين الأحوال الصحية في بيروت إلى حرج الصنوبر، الذي حسّنه واعتنى به فخر الدين. وفولني يقول، إن فخر الدين هو الذي غرسه. لكن نحن نعرف، أن هذا الحرج قديم جداً.

ويتحدث فولني عن دير القمر، فيقول إن عدد سكانها يتراوح بين ألف وخمسمئة وألف وثمانمائة نسمة. ويقول إن زحلة قد أصبحت، خلال العشرين سنة الماضية، مركزاً لتبادل السلع والمتاجر بين البقاع ودمشق وبيروت. ويروي المؤلف أن زحلة يوجد فيها كل شيء، حتى إنَّ النقود تُزوَّر فيها. ويقول، تعليقاً على هذا الخبر:

«إلا أن المزورين تمكنوا من تزوير القرش التركي، لكنهم لم يستطيعوا تزوير العملة الألمانية».

وينتقل فولني جنوباً حتى يصل صيدا، فيقول عنها إنها مدينة تجارية هامة، وهي ميناء دمشق الرئيسي. والفرنسيون هم التجار الأوروبيون الوحيدون الموجودون فيها. ولفرنسا قنصل في صيدا، وفيها خمس أو ست وكالات تجارية فرنسية. وتجارة صيدا تدور حول الحرير والقطن المغزول. وعدد سكانها يقارب خمسة آلاف نسمة. والعمل الصناعي الرئيسي في المدينة هو غزل خيوط القطن.

ولم يستطع فولني أن يكبح جماح نفسه، لما أخذ بالحديث عن صور. فلا بد من سرد شيء من تاريخها وهذا طبيعي. فهذه المدينة اللبنانية هي الوحيدة التي وقفت في وجه الاسكندر مدة طويلة. وقد أتعبته، قبل أن تغلَّب عليها. ثم إن صور، كانت لها أدوار بالنسبة للصليبيين. وبعد ذلك يقول إن صور اليوم لا تزيد عن قرية بائسة فقيرة، وتجارتها تقتصر على:

«بضعة أكياس من الحبوب والقطن الخام، وليس فيها من التجار الأوروبيين سوى تاجر يوناني هو الذي يقوم بالاهتمام بمصالح الفرنسيين المقيمين في صيدا».

ويضيف فولني إن واردات هذا التاجر اليوناني، لا تكاد تكفيه لإعالة أسرته.

وبعد أن تحدث فولني عن الواردات التي تصل الى الخزينة السلطانية، رأساً أو بواسطة التلزيم، أي التضمين، من أجزاء بلاد الشام استطعنا أن نعرف أن لبنان، كان يدفع، عن طريق التلزيم، اثني عشر ألف كيس، يصل للدولة منها ألف وخمسمئة وخمسون كيساً. وتجمع الدولة ضرائب مباشرة متنوعة، تقدر بألف كيس. ومعنى هذا، أن الدولة يصلها من لبنان ألفان وخمسمئة وخمسون كيساً.

ولكن ما معنى قولنا كيس؟ هل كان هذا وحدة معترفاً بها؟

نعم، فالكيس كان تعبيراً مالياً، يستعمل بالنسبة للخزينة، وكان يعتبر في المبيعات الضخمة. ومعنى الكلمة خمسمئة قرش. والقرش الرسمي أو الصاغ، كان أربعين بارة. وبالنسبة للعملات الأجنبية، التي كانت رائجة في المنطقة، كان القرش يساوي جزءًا من مئة وعشرين جزءًا من الجنيه الاسترليني، كما كان كل ثمانين قرشاً تساوي ليرة فرنسية. وكانت كل أربعة قروش تساوي سكيناً بندقياً من الفضة.

ويعلق فولني على ذلك بقوله إن الدولة التي كانت تحصل على هذه المبالغ الطائلة، ضرائب من لبنان، لم تقدم لأهله الأمن، اللازم لهم، ليعيشوا مطمئنين إلى أنفسهم وأموالهم وزروعهم. إذ إن كل من كان في البلاد من الجند ألف وخمسمئة جندي خيال (وكان يسمى السواري) وألف ومئة جندي راجل. أي أن

مجموع الأشخاص، المكلفين بحفظ الأمن، في منطقة وعرة في الداخل، وتجارية على الساحل، كان ألفين وستمئة جندي.

لكن الانكشارية كانت تُستدعى عند الحاجة. ولو أن هؤلاء، كان شرهم أكبر من خيرهم في معظم الحالات.

وما دمنا في سبيل استعمال لغة الأرقام، فلنذكر تقدير فولني لسكان لبنان في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر. ذلك أن الرجل، زار لبنان مع سوريا وفلسطين، سنتي ١٧٨٤ و١٧٨٥ م. ويقدّر عدد السكان بنحو ٥٨٥,٠٠٠ نسمة.

وهناك، في الواقع، أمور أخرى تحدث عنها فولني، وهي في غاية الأهمية والفائدة. فالرجل متعلم، وقد قضى في سوريا ولبنان مدة طويلة، وتنقّل كثيراً. وأهم من ذلك كله، أنه تعلم العربية، فكان بامكانه الاختلاط بالناس وقراءة ما تقع عليه يده من أشياء مكتوبة. فلم يكن كلامه عن كتب أو خزانة كتب وصفاً خارجياً، بل كان حديثاً يتناول الأمور من الداخل. طبعاً، هذا لا يعني أن الرجل اطّلع على كل خزانة كتب في لبنان، وخصوصاً الخزائن التي تخصّ أسراً تُعنى بالعلم في بيروت وطرابلس وصيدا.

قضى فولني وقتاً، لا بأس به، في دير مار حنا الشويري. ونحسب أنه تعلم العربية هناك، واطّلع على ما كان في مكتبه الدير من كتب مطبوعة ومخطوطة.

ويقصّ علينا فولني ما سمعه عن عبد الله زاخر، وهو رجل حلبي، كان نقاشاً وحفاراً ذا ازميل دقيق وخط رشيق وحرف أنيق. وعُني في شبابه، وهو بحلب، بقضية الطباعة، وبدأ العمل في مطبعة، سبك حروفها بنفسه. لكن الرجل اضطر، بسبب ضغط القوى الحكومية عليه، إلى الهرب من حلب، فلجأ إلى لبنان. وكان بحاجة إلى مركز يتخذه مقرًّا له، للقيام بالطباعة. وكان أخوه رئيساً لدير مار حنا الشويري، فعرض عليه أن يتخذ من الدير مقراً ومستقراً. فقبل ذلك، وأخذ يعمل بهمة. وفي سنة ١٧٣٣ م، نشر المزامير مطبوعاً طبعاً جيداً أنيقاً نظيفاً.

ونحسب أنه طبع المزامير، لأنه كان الكتاب الأكثر انتشاراً بين الناس. فالمعروف أن المزامير كان، بالنسبة للمسيحيين في لبنان وغيره، الكتاب المدرسي الأول، فيه يتعلم الأولاد القراءة.

فجدّي لأمي، الناصري المولد والنشأة والوفاة، ولد سنة ١٨٤٠ م، أي في السنة نفسها، التي أُخرج فيها ابرهيم باشا من لبنان وفلسطين وسوريا. ومعنى هذا، أنه تعلّم القراءة قبيل سنة ١٨٥٠ م، وكان المزامير كتابه المدرسي. لذلك، فإن عمل عبد الله زاخر، الذي توفي سنة ١٧٥٥ م، كان مفيداً جداً للتلاميذ. فقد عمل هذا الرجل على طبع عدد من الكتب، اطلع فولني عليها جميعها في دير مار حنا. ويذكر فولني هذه الكتب بأسمائها، مرسومة بالحرف اللاتيني؛ وهي ثلاثة عشر كتاباً، ثم يترجم أسماءها الى الفرنسية.

ونذكر من هذه الكتب، على سبيل المثال: «ميزان الزمان» و «أباطيل العالم» و «السواعيات» و «مرشد الكاهن». وجميع الكتب التي طبعت كانت دينية. وبعضها كان مترجماً. ويرى فولني أن بعض هذه الكتب ترجمها الآباء اليسوعيون، الذين لم يكونوا قد تمكّنوا من العربية. وأن عبد الله زاخر لم يقم بعملية الطبع فقط، بل كان يُصحح الترجمة، لأن الرجل، على ما يبدو، كان ضليعاً من اللغة العربية.

ثم ينتقل فولني إلى وصف المخطوطات، التي كانت موجودة في خزانة دير مار حنا. وهي واردة عنده في قسمين: الأول: يتناول مخطوطات دينية مسيحية في غالبها عددها أربع عشرة مخطوطة، منها ست مكتوبة أصلاً باللغة العربية والباقي مترجم. وبين المخطوطات العربية الأصل، كتاب في قضايا النحو للمطران جرمانوس فرحات وقصائد للأخ نقولا، وهو أخو عبد الله زاخر. أما بقية المخطوطات، فكانت كتباً عربية الأصل، بينها نسخة من القرآن الكريم، وما تبقّى من كتب التراث: القاموس للفيروزأبادي والفيّة ابن مالك وتفسير الألفية ومقامات الحريري وديوان ابن الفارض وكتاب في الطب لابن سينا ومفردات ابن البيطار.

ويضيف فولني قوله:

«هذه جميع الكتب الموجودة في خزانة دير مارحنا».

ويعتبر هذه المكتبة ممثلة للحياة الثقافية في لبنان، وخصوصاً في الجبل. ويشير إلى مكتبة دير المخلص، فيقول عنها إن الجزار نهبها ونقل كتبها إلى مكتبته في جامعه بعكا.

حريٌّ بالذكر أن فولني، كما ذكرنا قبلاً، لم يطّلع على خزائن الكتب الخاصة، التي كانت عند أُسر العلماء في بيروت وطرابلس وصيدا. وهو لم يطّلع على مكتبات دمشق وحلب. لذلك، فإنه يطلق ملاحظاته عن المكتبة التي عرفها، بحيث تشمل سوريا أيضاً، ويقع في خطأ التعميم دون سند.

ويحدثنا فولني عن حياة الرهبان في دير مارحنا، ويعتبرها حياة بائسة، جدية ومضنية أكثر من حياة الرهبان في أديرة أوروبا، وهو يعني فرنسا بشكل خاص. وإذا استثنينا رئيس الدير والمشرف على النفقات والمؤن، فإن جميع الرهبان يقومون بأعمال مختلفة من الحياكة والخياطة وصناعة الأحذية والبناء والطبخ، والعمل في المطبعة وتجليد الكتب والخبز. وكان الرهبان من قبل. يعملون في الأرض. لكنهم أخذوا، مؤخراً، يستأجرون الفلاحين (للعمل بالمحاصّة). لكن متى دخلت الغلّات الدير، تصبح مسؤوليتهم. وكان صنع الخمور يأتي الدير بمورد من الرزق وفير نسبياً.

وقد حسب فولني أن عدد الرهبان كان بين أربعين وخمسة وأربعين، ومع ذلك فإن نفقاتهم لم تتجاوز اثني عشر كيساً في السنة. بمعنى أن معدل ما كان ينفق على الواحد منهم، هو مئة وخمسون قرشاً. ويدخل في هذه النفقات ما كان يُصرف على الضيوف. فقد كانت أبوابهم مفتوحة لكل من يطرقها.

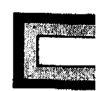
ويشير فولني مرات كثيرة الى صعوبة التنقّل في لبنان، بسبب وعورة الممرات الجبلية وانعدام الطرق. وقد شعر بالخوف، لما اعتزم ركوب دابّة للتنقل في الجبل. لكنه أدرك حالاً «رشاقة البغال» ومقدرتها على التنقل بسهولة ويسر. وعندها زال خوفه.

ويعقد الرحالة فصلاً عن الفنون والعلوم، وآخر عن عادات السكان وصفاتهم. وهو يتحدث، في هذين الفصلين، عن مصر وبلاد الشام حديثاً عاماً، دون التخصيص؛ حتى إن الأمثلة، التي يذكرها للدلالة على سلوك معيّن، وفي بقعة معينة، هي قليلة. وعلى كلٍّ، فهو ينعى على المنطقة إهمال الآداب والعلوم بوجه عام. ويلوم الدولة التي لا تقدم للشعب التعليم اللازم والمفيد له. ويشير إلى الأزهر في مصر، على أنه مركز هام للعلوم الاسلامية واللغوية.

وفي حديثه عن العادات والصفات، يصدر بحثه بأمرين: الأول، الاشارة الى أن كل شيء في المنطقة التي يتحدث عنها، بل وفي آسيا عموماً، مختلف تماماً عما هو موجود في بلاده وأوروبة. والأمر الثاني، هو أن الاختلاف هذا، لا يعني أن القوم هنا هم في حالة تأخُّر. وبعد ذلك، ينصرف الى وصف ما رآه، وما شاهده، وعاشه.

لكنه، مع ذلك، يغمز من قناة القوم هنا. فلئن قال إن حياتهم أبسط، فإنه كذلك يشير، ولو بلباقة الكاتب الماهر، إلى أن الجماعة هنا قد تأخروا كثيراً في الفنون والآداب والعلوم وصناعة الحضارة عما كان عليه أسلافهم، في العهود العربية الإسلامية الأولى، التي يسميها عهود الخلافة.

وعلى كلٍّ، فكتاب فولني حريّ بالقراءة.



١٧ جون كارن يزور لبنان

في القرن التاسع عشر، يصبح الرحالون، الذين يقصدون لبنان والمناطق المجاورة له، أكثر تنوعاً من ذي قبل. حيث نجد أن المبشرين والدبلوماسيين والتجار وممثلي المؤسسات المالية الكبيرة ومديري البنوك وأصحاب المشاريع يأتون في سبيل تحقيق الأطماع المختلفة في منطقة غنية، حتى قبل البترول، ومهملة، نسبياً، من الدولة التي تسيطر على مقدراتها.

وهناك أمر حري بالذكر، وهو أن عدداً كبيراً من هؤلاء الرحالين والزوار، ينظرون الى المنطقة بعين توراتية. أي أنهم يأتون الى بلادنا، وكأن الكتاب الوحيد بأيديهم هو الكمتاب المقدس، وخصوصاً العهد القديم.

والواقع هو أن الكتاب المقدس، وخصوصاً العهد القديم، كان دليل أكثرهم ومرشدهم، إما هو بعينه، أو بما كتب عنه لتفسيره. ولم يكن أبناء البلاد قد كتبوا ما يمكن أن يُرشد هؤلاء الرحالين إرشاداً صحيحاً. وهذا جون كارن، الذي زار لبنان وسوريا والأرض المقدسة وآسية الصغرى، في الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، هو على ما يقول مترجمه الى العربية، المرحوم رئيف خوري:

«إن المؤلف ـ مذ كان مبشراً ـ لا يفتأ يصدر عن انفعالات وأحكام تأثر بها في دعوته أو حرفته. فهو يتصدى احياناً لأمور مذهبية تخالف وجهة نظره، ويدعو جهراً أو خفية إلى أمور مذهبية على طرازها».

وهناك رحالة آخر يصف ثياب الكاهن الماروني وصفاً تشعر من خلاله أن الأمر لا يعجبه. ولكن لماذا؟ لأن هذا الثوب الكهنوتي يختلف شكلاً وزياً ولوناً عن الثوب الكهنوتي البروتستانتي الذي ألفه في بلاده.

لكن ذلك يجب ألا يحول بيننا وبين الافادة من بعض ما كتب هؤلاء الرحالون في توضيح تاريخ بلادنا، فنحن حريون بأن نتعرف الى ما عند جون كارن من صور لطيفة، طبيعية أو اجتماعية أو اقتصادية. فبيروت، كما رآها كارن: مرفأ لدمشق وداخل سوريا، وموقعها يصلح لتقبل المشحونات وما أشبه من أوروبة. فنشاطها التجاري أعظم من نشاط كل مرفأ آخر على الشاطىء الشامي.

ويضيف: وقد تحسنت بيروت وضواحيها جداً في الآونة الأخيرة، وما تزال مطردة في التحسن. فقد أصبح أجر بيت صالح، يتسع لعائلة صغيرة، يبلغ في هذه المدينة ثلاثين جنيهاً استرلينياً. فأما بيت يصلح لسكنى عائلة أكبر، ومعه حديقة، فيبلغ أجره خمسين استرلينية. فقد ارتفعت أجور المنازل بسبب وجود كثير من الفرنسيين. وارتفع سعر اللحم أربعة بنسات لكل أوقية. والبنس يساوي نصف قرش رسمي، أي صاغ.

ولما وصل كارن وجماعته صيدا، اضطروا إلى الاقامة في خان مهمل، وغرفة خربة. وهو يصف ذلك وصفاً دقيقاً صحيحاً. ثم تقوم الجماعة بزيارة أسرة من أسر التجار في صيدا. يقول جون كارن، واصفاً ذلك:

«كان الاختلاف بارزاً قوياً وباعثاً على الفرح والبهجة. قعدنا على سجادات وثيرة، واتكأنا إلى مساند ناعمة، وقدمت لنا القهوة والقصبات للتدخين، ودعينا إلى تناول شيء من طعام شرقي خفيف».

وقرر جون كارن، منذ تلك الليلة، أن يقصد في رحلاته بيوت الأهلين للنزول عندهم، حتى ولو كان هؤلاء الأهلون فقراء. وقد جرب ذلك أكثر من مرة ونجح.

وفي طريقه من بيروت الى طرابلس، مر كارن بنهر ابرهيم، وهو يسميه نهر أدونيس. ويروي قصة قتل الخنزير البري لأدونيس. ويشير إلى الاسطورة التي تقول بأن مياه النهر تصبح حمراء، مرة في العام، في

أول الربيع، لأن دم أدونيس يختلط بها. والواقع، كما نعرف نحن، هو أن التربة تنحل عند هبوب عاصفة مطرية قوية، فتختلط بالماء فتصبغه. وينقل المؤلف قصيدة للشاعر الانكليزي شلي عن هذه الأسطورة.

ويصل كارن طرابلس، فتسحره، فيقول، فيما يقول:

«وطرابلس أغنى بالحدائق من بيروت. وحظها من الوقاية والصحة يفوق حظ صيدا وعكا. وعلى ذلك يبدو أن طرابلس تجمع كل مميزات الراحة والمشاهد البديعة والخصب، وهي مميزات تغري الغريب الذي يلتمس العافية او المتعة، فيجعل منها مقراً لاستجمامه».

ويضيف ان في المدينة تجاراً أوروبيين مستوطنين فيها. وفيها قناصل لفرنسا وانكلترا والنمسا...

ولا بد من التذكير هنا، بأن طرابلس كانت يومها ميناءً تجارياً كبيراً. وكانت أهم بضاعة فيها للتصدير الصابون المصنوع في الجبال. وقد كانت تصدر منه نحو ثمانمئة كنتال في السنة. والكنتال هو مئة كيلوغرام. وكان ثمن الكنتال الواحد ثمانية استرلينيات، أي أن صادرات الصابون وحدها كانت حصيلتها ٦,٤٠٠ جنيه استرليني. وتلي الصابون في الأهمية سلعة الاسفنج. وكانت طرابلس تصدر مادة لصنع الصابون وكان لصناع الصابون خان حسن البناء خاص بهم.

ويسيل قلم جون كارن رقة وعذوبة، عندما تمتلىء نفسه ببهجة النظر أو كرم المضيف أو جمال المناظر. وقد وجد في لبنان بقاعاً كثيرة، ملك جمالها لبه، وانغرس في شغاف قلبه، وأنت تسير معه، خطوة خطوة، وكأنك تملأ عينيك منها، نظرة نظرة. وهذا الذي ستورده هنا، هو ترجمة. لكن الأصل هو، في الواقع، أجمل بكثير.

يقول كارن في وصف قرى الباروك:

«إن لبنان في نظر الراهب والراعي لاغنى بقاع العالم تلويناً وسحراً. يستطيع الراهب في هذه المنعزلات، ذات الجمال الرائع والخلاء والبساتين والمغارس، ان يشرف من جلاليه على البحر المغطّى بألف شراع، ويستطيع الراعي في كل يوم أن يقتاد قطيعه الى المنحدرات الخصبة والوهاد العميقة واغاريز الجبال التي تمد ظلها على الأغوار. وحتى هذه القرى الباروكية التي تبدو معلّقة في السحب او على حفافي المهاوي، تقدم زناراً رقيقاً يحيط بها من شجر الأرز والصنوبر وسائر الشجر مما يحجب الجلامد الهائلة ويخفف وحشة المشهد».

وراس العين، هو متنزه بعلبك وأهلها وزوارها؛ هذا ما نعرفه نحن عنه تجربة ومشاهدة ورواية. لكن هذه تجربة القرن العشرين. أما تجربة الأيام السابقة، فهي مختلفة. وقد سمعنا من المتقدمين في السن، أن رأس العين ومرجتها كانتا، من قبل، مكاني اللهو للأسر والأصدقاء، يقضون فيها اليوم أو أكثر من اليوم. لكن جون كارن يحدثنا عن مخيم في رأس العين، أقيم في الثلث الأول من القرن الماضي، وقد أقامته جماعة من الانكليز المقيمين في لبنان، وخصوصاً في بيروت.

ولعل زيارة كارن لهذا المخيم، جاءت بعد أن قضى ليلة في بيت لم يرقه في بعلبك، وبعد أن زار آثار بعلبك نفسها، وكانت في أكثرها مطمورةً تحت الأتربة والمنازل المتهدمة. فقد تضايق الرجل من ذلك. وهو على علم بوجود المخيم، وكان يحمل رسالة من القنصل البريطاني في بيروت الى الجماعة المخيمة هناك. فاتجه نحو المخيم، وهو مغتبط أن يغادر بعلبك وبيوتها، التي تُرك قسم كبير منها للخراب. وقد وجد البيوت التي تبدو مأهولة، قليلة جداً، حتى في شوارع المدينة الرئيسية.

وصل كارن الى المخيم، ماذا رأى؟ هذا ما قاله، واصفاً المشهد الذي وقع عليه نظره:

«يقع هذا المشهد في سهل بعلبك على مسافة ميلين من أنقاض الهياكل. وتبدو في المقدمة سلسلة جبال لبنان الشرقية. اما الجدران المتداعية التي ينعكس عليها لهب النار، فهي آثار كنسية مسيحية. وأما المخيم فهو مضرب جماعة من الانكليز استشرقوا بملابسهم وعمائمهم ولحاهم».

ويستمر كارن في حديثه بقوله:

«خلفت بعلبك ورائي ودخلت السهل الطلق. كانت الليلة طريئة مـلأى بالإلهـام، والريـح تهب عليّ من الجبـل. ودخلت المخيم، فوجدت الجماعة متكئين في راحة عظيمـة. واستقبلوني بتـرحيب حار. ثم خـرجنا من الخيـام لنقف إلى جانب النار الكبيرة التي اضرمها الخدم. فرأينا مشهداً رائعاً».

والوصف الذي خلفه كارن، عن أيامه في المخيم مع الجماعة، فيه ناحية شخصية. فالرجل انكليـزي، وقد لقي جماعة من أهل بلده، فعاش معهم أياماً، كأنه في بلـده، إلا أن الجو الطبيعي كـان أجمل وأشـد متعة. فهو يقول مثلاً:

«وشد ما كانت وقعات طعامنا أنسية مرحة. أما المؤن فكنا نجلبها دونما صعوبـة من النواحي المجـاورة لنا. والحق ان الخبز والزبدة الطازجة وأباريق الماء من الساقية ـ كل تلك كانت ترفاً عظيماً».

ثم جاء وقت التفرّق. فانصرف الجميع، بعد اقتلاع الخيـام، ووقف جون كـارن يعاني رحيـل الرفـاق حتى تواروا عنه. وعندها يقول:

«وبقيت رأس العين هي رأس العين جمالاً ولطفاً. غير أنها خلت من كـل حركـة للحياة وعـادت عباءة للكـآبة: الكآبة الحلوة العذبة».

هذا هو الرجل الرومنطيقي يتكلم الآن...

ويبدو، من كتابه، أنه لم يترك مكاناً في لبنان يعتب عليـه، حتى دير بـزمّار الأرمني في كسروان، فقـد زاره، واستضيف فيه. يقول:

«إذا وفد الغريب على هذا الدير وجد فيه ضيافة أنيقة، ورأى المائدة مزودة بالطيبات وفي جملتهـا أنواع شتى من الخمور تشهد بجودة الكروم والعصّارين. والغالب عليه أنه مدرسة لاهوت لا ديراً للرهبان. وفيـه نحو من عشرين طالباً».

وعلى بعد أربع ساعات من بيروت، وعلى مقربة من غوسطا، يقوم دير عين ورقة. وفيه يقول كارن:

«هو مؤسسة مارونية يتعلم فيه الموارنة اللغة السريانية ويتهيأون للخدمة الدينية».

لكن الذي لم يتنبه له كارن هو أن مدرسة عين ورقة، التي كانت تعنى أصلاً بتهيئة الشباب للخدمـة الدينية، كـانت تعلم اللغات اليـونانيـة والفرنسيـة والايطاليـة للطلاب، وأنـهـا كانت مؤسسـة في مستوى الكليات الجامعية يومها.

وختاماً سنورد شيئاً مما قاله كارن عن تجارة بيروت:

«إن بيروت مركز تجارة اللبنانيين. اليها يحملون قطنهم وحريرهم فيأخذون عوضه الأرز والتبغ والنقود، وبهذه يشترون القمح من سهول البقاع وحوران. ولا شك أن الحرير الخام اهم مادة تجارية تتعاطاها بيروت، تـأتي بعدها مواد القطن والزيتون والتين. وهي كلها تصدر الى القاهرة ودمشق وحلب. وما زال النشاط التجـاري في بيروت يزداد يوماً بعد يوم».

وهكذا ينقلنا هذا الرحالة الـذواقة الأديب من جمـال المناطق اللبنـانية المختلفـة الى أسواق لبنـان الكبيرة. وفي الحالتين يكتب برشاقة وبراعة وأسلوب جميل.



١٨ رسائل من مهندس: وليام مكسول

سنتناول، في هذا الحديث، رسائل كتبها مهندس، كان يعمل في المنطقة، وسنخص بالذكر الرسائل التي كتبها وهو في لبنان.

ولد وليام مكسول في بلفاست بأرلندة سنة ١٨٣٨ م. ودرس الهندسة. وعمل، منذ سنة ١٨٦١ م، في مكتب لشركة هندسية ومقاولات كبيرة. وأثبت جدارته ومقدرته، بحيث أخذ مدير الشركة يعهد إليه بأمور مهمة في بلاده أولاً، ثم في الخارج. وقد رشّحه المسؤولون ليكون مخططاً للطريق المزمع انشاؤه بين يافا والقدس. لكن هذا المشروع أُجّل. فاختير مكسول، ليمسح، ويخطط لسكة حديد، كان التفكير بانشائها في حوض الفرات يشغل بال رجال المال والسياسة والتجارة. وقد نجح، على ما لقيه من صعوبات ومضايقات رسمية، في رسم خارطة للمنطقة التركية.

فقد روى أنه، لما مُنع من الحصول على الآلات والأدوات اللازمة، استطاع أن يقيس المسافات مشياً منتظماً. وقاس الارتفاعات بساعة الإترويد، التي كان يحملها في جيبه.

وفي سنة ١٨٧١ م، أُرسل مكسول إلى بيروت. ذلك أن شركة فرنسية، حصلت على امتياز لجر مياه نهر الكلب إلى بيروت، لكنَّ تنفيذ المشروع كان بيد شركة انكليزية. وهي الشركة التي كان مكسول يعمل فيها. ومن ثم فقد أُرسل هذا المهندس الماهر، والدقيق في أعماله، ليشرف على التنفيذ. وأرسلت الشركة الفرنسية مندوباً عنها، ليكون المنفذ المقيم في بيروت.

وفي بيروت، وقع مكسول بين مراكز قوة ونفوذ متناقضة. فالماء ينبع من نهر الكلب، وهذا كان في متصرفية لبنان، التي أنشئت سنة ١٨٦١ م. والماء سيُنقل الى بيروت، وهذه كانت خارج المتصرفية، ويحكمها والٍ غير المتصرف. والماء، في ينابيعه، يفيد منه أهل المنطقة، ونقله الى بيروت يجردهم من مورد رئيسي في حياتهم. ومن المستفيدين من الماء الرهبان المقيمون في الأديرة المجاورة . وهؤلاء لهم نفوذهم والبطريرك الماروني يدعم حقهم في الحفاظ على الماء!

وقد نعم مكسول بمحبة زملائه ومعاونيه واحترامهم لما كان يعمل في بيروت. وقد عاد إلى لندن سنة ١٨٧٥ م. وبعد زيارة عمل إلى ألمانيا، أُرسل سنة ١٨٧٦ م كمفتش لأعمال الشركة، ليقدم تقريراً عن أعمالها. إلا أنه بعد عودته هذه المرة، ساءت صحته، وأُصيب بشلل جزئي؛ شُفي منه نسبياً. وأراد التغيير والتبديل، فسافر الى استراليا (١٨٧٨ م)، في زيارة لقريب له، وعاد سنة ١٨٨٠ م، إذ لم يجد الراحة التي أمل فيها.

وأثناء عودته من استراليا، وإذ غادرت السفينة ميناء نابولي الإيطالي في ٢٢ آب/ أغسطس ١٨٨٠ م، أُصيب بفالج، قضى عليه خلال بضع ساعات. وحسب قوانين البحر، أُلقي بجثمانه في البحر. ولما وصلت السفينة لندن، تقدم أخوه الوحيد لاستقباله، ففوجىء بالنبأ الأليم.

وأراد أصدقاؤه إحياء ذكراه، فكُلِّف أحدهم أن يجمع رسائله، التي كان يبعث بها إلى أقاربه الأدنين وأصدقائه الأقربين. فتمّ ذلك سنة ١٨٨٦ م، والرسائل تشمل أعماله في جهات مختلفة من بين رسائله، أما الذي يعنينا نحن فهو ما كتبه وهو في لبنان. سنختار من بين رسائله أيضاً، إذ لا سبيل إلى الحديث عن رسائله جميعها.

كان مكسول وزميل له يتنقلان من حمص الى بعلبك. وقد جُن عليهما الليل، فعرّجا على بيت، يطلبان النوم. فلُبي طلبهما، بعدما ساومهما صاحب البيت حتى على سعر الشعير لدوابهما، وقبلا النوم في مكان كان جزء منه بيتاً والجزء الآخر اسطبلاً، ومن ثم فقد تقاسما مكان النوم مع ستة خيول وست بقرات!

ويصف مكسول بعلبك. والفرق بين ما يقوله وما يقوله الآخرون، أنه ينظر إلى الآثار نظرة مهندس. وحريّ بالذكر ان القسم الأكبر من بعلبك كان يومها ما يزال تغطيه الحجارة والأتربة، التي تراكمت فوقها، بسبب تهدُّم الأبنية. وقد كان للزلازل دور كبير في التخريب.

وبعد ذلك، وصل مكسول الى طرابلس، التي يتحدث عنها حديث معجب ببساتينها وحدائقها. ويقول إن الميناء تبعد عن المدينة نحو كيلومترين ونصف الكيلومتر. وإنه من الممكن أن يستأجر المرء حماراً، يوصله من طرابلس إلى الميناء، بنصف قرش. وهذا المبلغ يساوي بنساً واحداً.

وفي رسالة مؤرخة يوم أحد الفصح سنة ١٨٧١ م، يقول مكسول:

«وصلنا بيروت (بحراً) وهي أهم مدينة في المشرق. والميناء ليس محمياً من الرياح، وفي الأيام العاصفة تجد المراكب الصغيرة صعوبة كبيرة في نقل الركاب الى السفن. وليس يبدو أن هناك رغبة عند الحكومة في بناء أحواض للسفن لا في بيروت ولا في غيرها. وقد نَمَتْ بيروت وأصبحت مكاناً مهمًّا بسبب إنشاء خط بحري يربطها بالخارج».

وبعد زيارة للقاهرة، بسبب تأخر العمل في بيروت، عاد مكسول الى هذه المدينة. وأقام في فندق «المنظر الجميل»، الذي كان يقوم على مقربة من فندق بسّول؛ وهما فندقا بيروت اللذان كان يؤمهما الأجانب.

وقد كتب بتاريخ ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٨٧١ م يقول:

«إن الباخرة التي حملتنا من بورسعيد، كان عليها أن تتوقف في يافا لإنزال حجاج كانوا يقصدون القدس. لكن العاصفة كانت قوية، فلم تتمكن السفينة من التوقف. وأملنا في أن نقف في حيفا، لكنّ فألنا خاب. واستمرت السفينة في سيرها حتى بيروت».

وقد قضى مكسول يوم عيد الميلاد في منزل القنصل البريطاني في بيروت.

وكتب مكسول، في اليوم التالي لعيد الميلاد، يقول إن الكعكة الخاصة بعيد الميلاد، كانت من صنع القنصل نفسه. فزوجته روسية ولعلها لا تجيد صنع هذه الحلوى. وقد حضر صلاة العيد في كنيسة البروتستانت، التي يحضرها الأميركان والانكليز من هذه الطائفة. وعدد الحضور كان نحو ثمانين شخصاً.

وفي الفترة الواقعة بين عيدي الميلاد ورأس السنة (١٨٧١ م)، زار مكسول المغارات التي ينبع منها نهر الكلب. وقد كتب في احدى رسائله يقول:

«إن القرنصات الصخرية في مغاور نهر الكلب هي اجمل بكثير من كل شيء رأيته في أي مكان. وقد اشعل الدليلان اللذان رافقانا قصباً جافاً، فبدت هذه القرنصات، سواء التي تتدلى من السقف أو التي تنبت من الأرض، غاية في الروعة. وقد سرنا حتى وصلنا بحيرة الماء الداكن. وزحفت مسافة قليلة ثم أوقدت قطعة من شريط المغنزيوم. وعندها بدت هذه النتوءات الصخرية على أروع ما يمكن!».

ويتحدث عن بلاط الغرف في بيوت بيروت الأنيقة، وأنه، في الغالب، من الرخام. ويرى أن الرخام رخيص في بيروت، إذ أن اليارد المربع، وهو نحو أربعة أخماس المتر المربع، يكلف نصف جنيه استرليني فقط، اي ستين قرشاً.

ويقول في إحدى رسائله، إنه كان على موعد مع مجلس بيروت البلدي، لكن الموعد أُجِّل يوماً. ولما ذهب مع المهندس الفرنسي، لم يجدا أياً من الأعضاء. فقد وصلت السفينة الفرنسية يومها، ولذلك كان جميع الأعضاء مشغولين، بسبب ارتباطاتهم التجارية مع الخارج ووصول البضاعة على السفينة.

ويوضح مكسول السر في تردي الأمور، فيما يتعلق بالعمل في جرّ الماء إلى بيروت، فيقول:

«يعود ذلك الى أن المدينة تقع تحت نفوذ وال هو غير الحاكم الذي تتبعه منابع نهر الكلب».

وأخيراً، اجتمع المهندسان، البريطاني والفرنسي، مع مجلس البلدية. كان ثمة أربعة أعضاء عند

الساعة الواحدة، وبعد ساعة جاء ثلاثة آخرون؛ وبذلك اكتمل النصاب القانوني. ودارت المناقشة، وطال أمرها. وأخيراً، قال أعضاء المجلس، انهم لم يحصلوا على معلومات كافية تمكنهم من الوصول إلى قرار.

وحسب مكسول وزميله الفرنسي أنه من الواجب زيارة المتصرف، أي حاكم متصرفية لبنان. فذهبا لزيارته، وكان المتصرف يومها فرنكو باشا، الذي حكم لبنان من سنة ١٨٦٨ م إلى سنة ١٨٧٣ م. وكانت نتيجة الزيارة قول سعادة المتصرف:

«لقد تلقيت رسالة الوكيل الفرنسي، واتصلت بغبطة البطريرك الماروني. وكل ما يمكن قوله هو أن المياه لا يمكن ان تُجرَّ من المنبع».

لقد كان مكسول طُلعة بطبعه وتدريبه. لذلك أراد أن يتعرف إلى صناعة الحرير، فزار مصنعاً لهذا الغرض، يقوم بالعمل فيه فتيات ورجال وأولاد، ويكونون في صفين متقابلين، يفصل بينهما طاولة تمتد على طول المبنى. وتقوم على الطاولة هذه أوعية للماء ذات حجمين ـ الكبير منها فيه ماء ساخن، يكاد يبلغ درجة الغليان، وفي الصغير ماء بارد. توضع الشرنقة وقتاً قصيراً في الماء الساخن، ثم تغطَّس بالماء البارد. والماء الساخن يحلحل الحرير المحيط بالشرنقة. والحرير الذي ينزع عن الشرنقة، لا يصلح لأنه يكون الخيط الذي يستعمل في الحياكة. لذلك فإن عدداً من هذه الشرائح الدقيقة، يكون بين الأربع والثماني، تضم إلى بعضها البعض، ليتم التوصل الى خيط حرير. ويتم هذا على الدواليب الموضوعة أمام البنات، والتي تدور فتغزل الخيط. وعندها يصبح الحرير صالحاً للتصدير.

وجاء ربيع سنة ١٨٧٢ م، وقضية جرّ الماء من نهر الكلب الى بيروت، ما تزال معلقة. وقد اضطر القوم الى انتظار بعض الوقت قبل أنْ تم التوصل الى حلّ.



١٩ وليام مكسول ودانيال بلس في مغارة جعيتا

يتحدث مكسول عن زيارة لمتروبوليت بيروت الماروني، بقصد كسب تأييده لجر الماء إلى بيروت. ويصف ثيابه الكهنوتية وصفاً دقيقاً، واستقباله لزواره الذين جاءوا للحصول على بركته، ويقول إن ثياب المتروبوليت بدت له غريبة. وهنا نودّ أن نقول إن وجه الغرابة عند هؤلاء الزوار الاجانب، هو أن ما يرونه، كان يخالف ما ألفوه. وإلا ما هو الفرق، من حيث الأساس، بين لباس متروبوليت هنا وآخر هناك؟

وفي ربيع سنة ١٨٧٢، ذهب مكسول مع الوكيل الفرنسي لزيارة البطريرك الماروني. وكان في رفقة هذين الرجلين اثنان آخران. الواحد يبدو أنه موظف، يشير اليه مكسول باسم قدري، والثاني مساعد المهندس البريطاني. وصلت الجماعة الى المقر البطريركي في بكركي. وانتظرت في قاعة الاستقبال، حيث قُدِّمت لها الليمونادة والحلويات. وبعد قليل، وصل الموكب البطريركي. يقول مكسول:

«وقفنا جميعنا لاستقبال غبطته. ما أنبل وجه هذا الرجل المتقدم في السن. قلما وقعت عيناي على وجه أجمل وانبل من هذا الوجه. وقطع غبطة البطريرك الصمت الذي خيَّم على الجميع لما نصحنا بأن نغطي رؤوسنا خشية ان نصاب بالبرداء. عندها تكلم الوكيل الفرنسي، وكانت اقواله تترجم إلى العربية، مع أنني واثق من ان غبطته يعرف الفرنسية».

كان ما قاله البطريرك قليلاً جداً. لكن هذا القليل أوضح للجماعة، بأنه لا أمل لها في جر مياه نهر الكلب الى بيروت. وأضاف رئيس الأساقفة، الذي كان في رفقة غبطة البطريرك، إن المياه هي ملك للجبل، ولا حق لبيروت فيها. ومع أنه اعترف بأن ما يذهب هدراً من الماء، أي يصب في البحر، قد يكون أكثر مما تحتاجه بيروت، لكن متى جرّ الماء إلى بيروت، فإن الجبل يخسره نهائياً.

يقول مكسول:

«واخيراً قيل لنا، إذا استطعتم أن تُقنعوا أصحاب الاملاك بأن مصالحهم لن تتضرر، فإن غبطة البطريرك ورئيس الاساقفة يمكنهما أن يمنحاكم التأييد».

وعندئذ دخل القاعة راهب أضناه السير، واستأذن بالجلوس. ثم قال:

«إذا أُتيح لشركة عامة أن تنال موطىء قدم في الجبل، فإنها تستطيع ان تفعل ما تشاء. إنها تأخذ بعض الماء اولاً، ثم تزيد الكمية، واخيراً فإنها تجرُّ مياه النهر كلها».

وكان جواب مكسول، أن شركة عامة في بلاده تتقيد بأحكام الامتياز الصادر بخصوص قضية ما. فإذا تجاوزت ذلك، تدخّل القانون لحماية أصحاب المصالح.

«ما هو القانون الذي نلجأ إليه نحن الفقراء هنا؟ إن الغني هو الذي يفيد من القانون! والشركة العامة ستحصل على حصة أكبر من تأييد القانون».

وكانت الزيارة التالية لنيافة مطران دمشق الماروني، الذي يقيم في الجبل في لبنان. وقد تلقى الجماعة، مرحباً بهم باللغة الانكليزية. وشرح له مكسول قضية مياه نهر الكلب وجرها الى بيروت. وكانت خلاصة جواب المطران، انه يعرف ما قد تجره مثل هذه القضية على سكان المنطقة، لكنه لا يمكنه أن يتحمل، لا هو، ولا غيره، أية مسؤولية لقضية قد تؤدي في المستقبل إلى مشكلات وازعاج.

وزار مكسول دمشق في شهر آذار/ مارس سنة ١٨٧٢ م، ووصف، باختصار، الطريق الذي اتّبعه في سيره من بيروت إلى دمشق. نحن نعرف أن طرق العربات بين المدينتين، في أيامه، كان قد أُنشىء على يد برتوي. وكانت عربات الدلجنس تعمل عليه. يذكر الكاتب أولاً بضع حقائق عن المسافة بين بيروت ودمشق

على خطٍّ مستقيم هي ٨٤ كيلومتراً، لكن طول الطريق الفعلي هو ١١٢ كيلومتراً، وذلك بسبب الجبال التي تعترض الطريق، فيتعرج هذا، كي تتمكن العربات من السير عليه. وكانت عربة الدلجنس تحمل أربعة عشر راكباً، وتحمل الحقائب فوقها، ويجرها ثلاثة بغال وثلاثة جياد. وكانت دواب الجر هذه تغير عشر مرات في الطريق [لعل هنا بعض الخطأ في الرواية] كي تنقل العربة هؤلاء الركاب خلال أربع عشرة ساعة بين المدينتين. ومعنى هذا، أن كل نقلة من بيروت الى دمشق أو بالعكس، كانت بحاجة إلى ستين رأساً من البغال والخيول. ونحسب أن مكسول لم يطلع على العدد تماماً.

يقول مكسول:

«بدأت العربة رحلتها في الساعة الرابعة صباحاً. بعد ست ساعات اجتزنا خلالها أعلى نقطة على الطريق هي ظهر البيدر، وشاهدنا القرى المنثورة على الجبال المرتفعة ثم وصلنا الى شتورا التي تبعد ستة وأربعين كيلومتراً عن بيروت. هنا أرحنا وتناولنا طعام الغداء. واجتزنا، بعد الغداء، عشرة كيلومترات في سهل البقاع الذي هو أخصب بقعة في بلاد الشام. وبعد سفر طويل مضنٍ وصلنا المحطة النهائية في دمشق».

وكانت ثمّة وسيلة أخرى للسفر بين المدينتين. إذ كان هناك عربةٌ تسمى الأُمينبوس (omnibus) التي كانت تسافر ليلاً. وقد عاد مكسول مع هذه العربة. لكن السفرة كانت مزعجة متعبة. فالعربة صغيرة بحيث لم يتمكن من مد رجليه. ولم يتمكن من النوم، وكانت الدواب، تبدل مرات في الطريق.

وبعد وصول مكسول الى بيروت، كانت الأعمال قد بدأت، لكنها كانت أعمالاً جانبية، هي حفر مجارير وإعداد للعمل الأكبر. وكان مكسول يقيم في فندق المنظر الجميل في بيروت (على مقربة من فندق السان جورج فيما بعد). وكان يخرج لمراقبة العمل، وقد يقضي ليلة أو أكثر في مخيم للعمال. ثم نصبت الخيام وأقيم هناك مخيم كبير في مكان قريب من جسر نهر الكلب، على ما يبدو من وصف الكاتب. ثم بني بيت خشبي كبير بدل المخيم. وأصبحت رسائل المؤلف تكتب في المخيم، ثم في البيت على التوالي.

وقد تغيب مكسول سنة وبعض السنة في لندن، لأشغال تتعلق بالشركة ومشروع جر مياه نهر الكلب الى بيروت. وبعد عودته، كان الجميع ما يزالون يقيمون في المخيم، زارهم والي بيروت. وكانت الشركة الانكليزية قد أرسلت، مع مكسول، مهندساً مقيماً هو شيفر، لكن الدور الرئيسي ظل للأول. وكانت زيارة والي بيروت تشجيعية فقط. إذ لم يكن له سلطة فيما يتعلق بالمياه في منابعها.

لكن زيارة رستم باشا، متصرف لبنان من سنة ١٨٧٣ إلى سنة ١٨٨٣ م، كانت ذات علاقة مهمة ومباشرة بالمشروع. فمياه نهر الكلب تقع ضمن منطقة نفوذه وادارته. وقد جاء رستم، مع موكبه الرسمي والموسيقى تصدح، عند الحاجة. ومع أن الحديث لم يتطرق الى المشروع، فقد سُرَّ مكسول من هذه الزيارة.

وقد كتبت آخر رسالة من الرسائل التي تحدثنا عنها في ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٨٧٣ م، ولم تكن الأعمال قد تمت. لكن بعد ثلاث سنوات أُرسل مكسول إلى بيروت، مندوباً عن شركة الأعمال المائية، للتفتيش عن الشركة وتقديم تقرير. إلا أن رسائله من بيروت، بين ٢٨ أيلول/ سبتمبر و٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٧٦ م، كانت تحوي جملة أخبار من نوع آخر. ذلك أن الرجل الذي كان قد زار مغارة النبع في نهر الكلب من قبل، ظل متشوقاً الى القيام بزيارة أخرى يوغل فيها داخل المغارة. وقد أتيح له أن ينظم فرقة صغيرة، للقيام بهذا العمل. كانت الفرقة مؤلفة من ستة أشخاص، يهمنا منهم اثنان، مكسول صاحب الفكرة الأصلية والدكتور دانيال بلس (Daniel Bliss).

ومن الطريف، أن مكسول يشير اليه على أنه أميركي فقط. ولكن الرجل المشار اليه، هو الدكتور دانيال بلس، الذي كان يومها رئيساً للكلية السورية الانجيلية في بيروت (الجامعة الاميركية اليوم)؛ وكان قد عمل على انشائها منذ سنة ١٨٦١ م. ولما افتتحت سنة ١٨٦٦ م، ولّي رئاستها وظل في عمله إلى سنة ١٩٠٢ م. وقد اكتشفنا، مؤخراً، من رسائل مكسول، أن بلس كانت له باع في اكتشاف هذه المغاور.

وقد زار الفريق المغاور أربع مرات، في فترات مختلفة. وكانت عُدة الرحلات الى داخل المغاور مجموعة من قرب الجلد الفارغة، التي كانت تستعمل للزيت، وقطعاً طويلة من الأخشاب وحبالاً. كانت هذه القرب تنفخ في داخل المغاور، وعندها تربط إليها الأخشاب بالحبال، بحيث تصبح قوارب تستعمل في الاكتشاف. وكان الفريق يحمل معه شموعاً للإنارة. أما قطع المغنيزيوم، فكانت تستعمل قليلاً، وذلك عند الحاجة، لرؤية المقرنصات. وكان الفريق يحمل معه شيئاً من الطعام.

وقد تم اكتشاف ما طوله ١٢٨٠ متراً من هذه الانفاق الطبيعية. ولم يكن هذا بالشيء القليل يومها. وكان مكسول يردد، في وصفه ما يراه، قوله أجمل ما رأيت وأروع ما وقعت عليه عيناي من المقرنصات. ولعله أراد أن يريح بال أصحابه، كي يتيقنوا من صحة قوله، فكتب في احدى رسائله يقول:

«وأنا لا أتكلم عن مثل هذا الجمال دون أن يكون لي شيء من التجربة في مثل هذه الأنفاق والمغاور الطبيعية».

ويروي الكاتب أنه وقف مشدوهاً، في واحدة من المغاور الكبيرة، لكثرة ما رأى من مقرنصات تشبه الأشجار والنباتات، وحتى وجوه الناس في بعض الأحيان. ورأى قطعة من المقرنصات تشبه «ملفوفة»، فأخذ يضرب قاعدتها بفأس ليقطعها. وقد ضرب كثيراً، حتى كسرها وأخرجها. ويقول عن نفسه، وهو يحاول كسرها:

«وكيف يمكن قلعها من مكانها، وقد استقرت فيه من قبل أيام آدم!».

وتعود طرافة هذا الكتاب، الذي تحدثنا عنه، إلى أنه رسائل، كانت تكتب بعد الحادثة بمدة قصيرة. وأن كاتبها دوّن ما رأى وسمع وما تأثر به. وأظن أن الجزء المتعلق بلبنان من هذه الرسائل، يجب أن ينقل الى اللغة العربية.

٢٠ القاياتي يزور لبنان

دخلت الجيوش الانكليزية مصر في سنة ١٨٨٢ م، محتلة، بعد أن تغلبت على أحمد عرابي باشا، وقضت على حركته. بعد ذلك، عمدت السلطات إلى محاكمة كل من كان له صلة بالحركة، فحكم على البعض بالإعدام، وعلى آخرين بالسجن، وعلى فئة ثالثة بالنفي. وقد اختار عدد كبير من المصريين أن ينفوا إلى بيروت؛ ومنهم، كما يعرف الجميع، الشيخ محمد عبده المصلح الكبير. وكان بين من نُفِيَ إلى بيروت الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي. وهذا الرجل دوّن أخبار رحلته، ولو أنها جاءت مقتضبة.

اختار القاياتي لرحلته اسماً مسجوعاً، فسماها: نفحة البشام في رحلة الشام. وقد عدنا إلى المعجم، لنتعرف إلى البشام، فوجدنا فيه: البشام (البيلسان) شجر عطر الرائحة طيب الطعم. والشيخ القاياتي يُعنى، بشكل خاص، بالناس الذين لقيهم في بيروت وغيرها من المدن التي زارها في لبنان وخارج لبنان. إذ أنه زار فلسطين ودمشق أيضاً.

يقول القاياتي:

«فدخلنا بيروت صباح الأربعاء ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٠٠ للهجرة، وبعد أن خرجنا من البحر نزلنا في خان من خاناتها بجوار الأسكلة المشهور بخان السيد، فما لبثنا به إلا يسيراً وقد وجدنا منزلاً للسكن في منازل آل القباني. وجاء الشيخ أحمد أفندي القباني، وهو الذي كان لنا صحبة وأخوة معه في عهد المجاورة بالأزهر... فنهضنا بغاية السرعة معه وركبنا في عربة مسرعة إلى أن دخلنا على بركة الله ذلك البيت».

وكان هذا البيت في «الباشورة»، على مقربة دور آل حمادة، وكان يومها محيي الدين حمادة رئيس بلدية بيروت. وبهذه المناسبة، فإن الشيخ محمد عبده، أقام في أحد منازل آل حمادة، أثناء اقامته في بيروت. ويذكر الشيخ القاياتي أسماء من لقيهم من العلماء في بيروت. ولن نذكر الجميع، لئلا يصبح المقال بأكمله جدولاً لأسماء هؤلاء القوم. لكن يجب أن نشير إلى عبد القادر القباني مدير جريدة «ثمرات الفنون» والسيد محمد أبو ابرهيم البربير والشيخ يوسف الأسير. ويترجم الشيخ القاياتي للشيخ ابرهيم الأحدب، ويذكر أيضاً المفتي عبد الباسط الفاخوري والشيخ أبو الحسن الكستي.

والقاياتي ينظم الشعر في المناسبات. ويروي أشعاراً لغيره، كلما سنح المقام، وكثيراً ما كان يسنح ويسمح. ثم يذكر نفراً من الذين تعرف إليهم في بيروت، ممن هم من خارجها. وأخيراً يزودنا بلائحة، ولو قصيرة، بأسماء عدد من المصريين، الذين كانوا في بيروت.

وهناك أمور تتعلق بالعوائد البيروتية، التي أعجبت القاياتي، فتحدث عنها قائلاً:

«وأما عوائدهم في المآكل والمشرب فهي لطيفة جداً. ينزل الشخص منهم في بكرة النهار الى السوق، فقبل ان يفتح مخزنه أو دكانه يذهب الى اللحام (الجزار) فيشتري منه اللحم، وإلى الخضري فيشتري منه الخضرة متممة بحامضها وليمونها وفاكهتها وسلطتها، ويضع ذلك كله في سل (سبت) ويرسله الى البيت مع صانعه، إن كان ممن لهم صانع وقليل ما هم، أو أجير يعطيه مصريتين. ويذهب هذا بالسل إلى البيت فيوصله الى ربة المنزل أو الصانعة التي عندها. ويذهب الرجل بعد ذلك إلى محل شغله، حتى إذا فرغ منه قريب الغروب، ذهب الى منزله فرأى العشاء حاضراً ناضراً، فيأكل وينام إلى مثله في اليوم التالي».

ولكن الشيخ القاياتي يضيف قوله:

«وقد يخرج بعد العشاء إلى المقهى فيشرب الارجيلة والقهوة إلى أن يمضي من الليل نحو ثلاث ساعات أو اقل أو اكثر ويرجع الى بيته».

ولعل الملاحظة التالية عن بيروت في ثمانينات القرن الماضي، حرية بالتذكر، يقول الشيخ القاياتي:

«ومن الخصال الحميدة في هذه المدينة أنه لا يوجد فيها تجاهر بالمعاصي أصلاً كشرب خمر وزنى وغير ذلك... وأيضاً فالمقاهي الموجودة بها، بل وبغالب مدن الشام، لا توجد فيها من المسكرات أو المخدرات كالحشيش والشيرة (الدخان المحشش) والبسط (الأفيون) التي عمت البلوى بها في مصر...».

وسُرَّ القاياتي من الطريقة التي عقدت بها الامتحانات العامة. فقال في ذلك:

«لقد حضرنا امتحان الجميع في مدارسهم في الامتحان العام في أواخر كل عام فرأينا فيهم من النجابة والإجابة ما يملأ القلب مسرة والعين قرة، ولا سيما مدارس البنات، فهن في غاية الثبات في الحساب والاعراب والقراءة والتجويد في القرآن، وجودة الصنعة في الخياطة، والاتقان... وتقوم البنت منهن أمام المجتمع الحاشد فترقى منصة الخطابة وتلقي على الحاضرين خطبة بليغة بلسان ذرب فصيح، من غير هجنة ولا تلعثم ولا لكنة».

وكانت مياه نهر الكلب، التي بدأ العمل فيها المهندس البريطاني مكسول في أوائل السبعينات، قد وصلت الى بيروت لما زار القاياتي المدينة. فهو يقول:

«وأما حالة بيروت في الماء، فأهل الثروة يدخلون الى بيوتهم الماء في حيّات من الرصاص... ويشترون هذا الماء من الكبانية الأوروباوية الموجودة بها الى الآن... يصل اليها في قساطل الحديد ويمشي في طرقاتها وشوارعها في تلك القساطل تحت الأرض. وقد عمل في كل حي من احيائها مجمع للمياه على حساب البلدية يسمى «حاووز»، وفي كل مسجد من مساجدها بركة من الماء على حساب البلدية ايضاً. ويدفع ثمن الماء للكبانية بمقادير يسمونها الأمتار».

وانتقل القاياتي وصحبه من بيروت إلى صيدا، على خيول استأجرها من المكارين. وأعجبه الطريق الذي مر بحرج بيروت، ثم سار الى جانب البحر. وتحدث عن الخانات التي ينزل فيها المسافرون للأكل والشرب، لأن فيها حوانيت لبيع الأشياء، من خبز ولبن وعلف للمواشي. لكن السفر من بيروت الى طرابلس، كان يتم بحراً. إلا أن الشيخ القاياتي وصحبه لم يجدوا في بيروت إلا الوابور العثماني متوجهاً بدولة والي ولاية بيروت الى اللاذقية، فساروا معه. وبعد زيارة اللاذقية، عادوا أدراجهم براً الى جبلة، ومن هناك بالوابور نفسه، بمعية الوالي أحمد باشا حمدي، إلى طرابلس. ويبدو أنه الى ذلك الوقت، كان الناس ينتقلون بحراً من يافا الى اللاذقية أو الاسكندرون، مروراً بحيفا وعكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس وجبلة.

ونزل القاياتي في الميناء، وسار مع عمر أفندي الملاّ الى أن ركبوا كروسة الترامواي الى المدينة، والأجرة قرش واحد فقط. وكروسة الترام هذه تحتاج إلى تفسير بسيط. فبعد أن مد خط الترامواي في بيروت، حصلت الشركة نفسها على امتياز لانشاء خط ترامواي بين مدينة طرابلس والميناء. وقد وضع الخط على الأرض، ووصلت عربات الترامواي، لكن القاطرة نفسها لم تصل، أو لعل الآلة لم تعمل. وعندئذ استعملت الخيول لجر عربات الترامواي.

ولما اعتزم القاياتي وصحبه زيارة القدس ونواحيها، ركبوا في وابور الخديوية المصرية المسمى «الرحمانية». وكانت شركة البواخر الخديوية تقوم بنقل الركاب والبضائع بين الاسكندرية والموانىء الشامية. وأنا أذكر الآن، أنني انتقلت في سنة ١٩٢٥ م من اللاذقية الى الاسكندرون عن طريق مرسين في باخرة تابعة لتلك الشركة. والقاياتي وجماعته، ركبوا البحر إلى يافا، وبعد إراحة فيها بضعة يام، انتقلوا الى القدس، وقاموا بالزيارات المألوفة.

وعادت الجماعة من القدس براً الى دمشق بطريق نابلس والناصرة وطبرية وجسر بنات يعقوب. وفي دمشق، زار القاياتي وصحبه المساجد والزوايا والمشاهد، والتقى العلماء، ووصف المدينة وعادات أهلها.

يقول الشيخ القاياتي عن عودته من دمشق الى بيروت:

«بعد أن فرغنا من الزيارات وقد طالت علينا الغيبة عزمنا على الرجوع للمنزل الأول والأولية. وقطعنا تذاكر

النزول في الكروسة المسماة الدالي جنص (الدلجانص) من كبانيتها قريباً من المرجة. بتنا تلك الليلة في بيت الوجيه السيد سعيد افندي الكيلاني. وقمنا قبل الفجر وتوجهنا للكبانية المذكورة. وبعد أن صلينا صلاة الصبح، ركبنا العربة وسرنا على بركة الله مسرورين برؤية تلك المزارع والضياع».

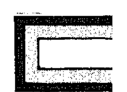
وأذكر أنني قرأت أن المهندس البريطاني مكسول لما كان في بيروت اضطر الى أن يستيقظ الساعة الثالثة صباحاً، كي يصل الى محل انطلاق الدليجانص الساعة الرابعة. ويبدو أن الانطلاق كان مبكراً، سواء أكان بدء الرحلة من دمشق أم بيروت.

ولو أننا أردنا أن نحصي جميع الأشخاص، الذين اجتمع بهم القاياتي، أثناء اقامته ثلاث سنوات ونيف، لاجتمع لدينا عشرات، إن لم نقل مئات. وأخيراً، حان وقت العودة الى مصر. واشترى صاحبنا ورفاقه تذاكر السفر بالرحمانية من الشركة الخديوية. وأكملوا التأهب للسفر بجميع ما كان معهم؛ من الفرش والأغطية والصناديق وغيرها.

يصف القاياتي وداع أهل بيروت له ولصحبه بقوله:

«وذلك عادة من يريد السفر من أعيان البلد إذ تهرع الناس لتوديعهم يريدون التخفيف على المودعين... فيصلون الصلاة في مسجد جامع، وهنا كان جامع سيدنا يحيى ويودعون اخوانهم، وقد فعلنا ذلك على عادتهم. فاجتمع خلق كثير من عظيم وحقير وصاروا يأخذون خاطرنا من المسجد بل الاكثر والأعظم لم يفارقونا حتى نزلنا في الفلوكة إلى الوابور. والبعض منهم نزل البحر في فلائك مخصوصة إلى ان ودعنا من البحر في الوابور، وكان هذا الوداع علينا من أشق وأشد ما راينا... وسافر الوابور قبيل الغروب، ووصلنا يافا صباحاً واقمنا بمينائها إلى الغروب ايضاً وسافرنا إلى ان وصلنا بورت سعيد في الصباح ايضاً، واقمنا مدة يسيرة وتوجهنا إلى اسكندرية ظهراً وما زال الوابور يمشي إلى أن دخلناها في الصباح ايضاً».

وتجدر الاشارة إلى أن في رحلة القاياتي وأحاديثه لقطات انسانية، تدل على ما شعر به نحو أهل بيروت، في مقابل ما أحاطوه به من رعاية وعناية ولطف وكرم...



٢١ لبنان في كتاب «القول الحق»

وقع في يدي، مؤخراً كتاب اسمه «القول الحق في بيروت ودمشق». اسم مؤلفه هو عبد الرحمن بك سامي، الذي زار بعض أجزاء بلاد الشام سنة ١٨٩٠ م. وفي السنة التالية، وضع هذا الكتاب، الذي قدّم له بقوله:

«جلت في اثناء الصيف الماضي في بيروت ودمشق ولبنان اياماً سررت فيها كثيراً من اعتدال الهواء وعذوبة الماء وجودة المكان ولطف السكان. وقد عنيت بكتابة هذه الأسطر الوجيزة وهي ملخص رحلتي في تلك الديار».

والكاتب، كما يقول في مفتتح الكتاب، بارح دار السعادة يوم الخميس في ١٩ يونيو/ حزيران ١٨٩٠ م في الباخرة النمسوية من قومبانية لويد، ووصل الى بيروت صباح الثامن والعشرين من الشهر عينه. أي أنه جاء من استانبول، فهي التي كانت تسمى دار السعادة. وفي المقدمة، يقول إنه وضع ملخص رحلته في تلك الديار الشامية:

«لعلها تكون مفيدة لإخواننا المصريين الذين يتوجهون اليها لتغيير الهواء».

والسؤال المطروح هو، هل عرفنا من الكاتب شيئاً جديداً، بالنسبة للبنان؟ وهل تغنّى، كما تغنّى غيره، بالطبيعة الأخاذة والهواء العليل والماء السائل كالسلسبيل؟ وهل أثنى على كرم السكان؟

لقد أثنى كاتب هذا الكتاب الصغير على كرم مضيفيه من آل حمادة في بيروت، إذ قضى أيامه في منزل رئيس بلدية المدينة، محيي الدين حمادة؛ الذي كان رئيساً للبلدية، لما زار المدينة الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي. واستقبل عبد الرحمن سامي استقبالاً حافلاً حين وصوله. فقد خفّ بعضٌ من كبار القوم إلى الباخرة، كما انتظره آخرون على رصيف الميناء. وكان عبد الرحمن يقضي فترة نقاهة في هذه الرحلة، فلا بدّ من كلمة عن الماء والهواء.

وكانت بيروت في تلك الأيام، التي جاءها فيها عبد الرحمن سامي، قد أصبحت مركزاً هاماً لأمور كثيرة وأشياء نافعة ولأنواع من الدراسات.

ويلاحظ هذا الرحالة، في أول كلام له عن ميناء بيروت، فيقول:

«ولا يسعني إلا القول إن ميناء بيروت غير مرتبة [هذا كتب قبل بناء المرفأ الجديد يومها]. ولاحظت أنه لا بد للمسافر الغريب الخالي من المعارف أن يتعب قليلاً اذا لم يتيسر له من يساعده».

ويضيف عبد الرحمن سامي قائلاً:

«وعلمت أن أغلب الكتب والجرائد التي من خارج هذه البلاد يمنع دخولها قبل تصديق مجلس المعارف في بيروت عليها، وذلك إذا لم تكن مطبوعة برخصة سنيّة».

واللطيف، أن هذه الجملة، أُقحمت هنا إقحاماً ولعل الكاتب لم يرد أن يلفت النظر اليها.

وقد أعجبته بيروت بشوارعها الواسعة، على النسق الأوروبي، ونور الغاز وجمال الأبنية وتنظيمها وكبرها وكثرة الجنائن فيها. ويشير إلى أن بيروت القديمة، ما تزال على الطراز القديم من جهة ضيق الشوارع. ويقول في الصفحات الأولى من رحلته:

«وبيروت الآن مدينة العلم والطب. ويعرف علو منزلتها من كثرة مدارسها، وقيمة أعمالها الخيرية من مستشفياتها».

ويبدو أن عبد الرحمن سامي زار الكثير من مؤسسات بيروت العلمية. إذ يقول:

«من جملة ما زرته المدرسة الكلية الأميركية (الجامعة الاميركية اليوم) الشهيرة، وهذه المدرسة لها فضل كبير على كثيرين من أهالي البلاد... والمدرسة مرتبة بحسب ترتيب مدارس انكلترا وأميركا، وقد قسمت ثلاثة أقسام: استعدادي أو تجهيزي وعلمي وطبي».

وقد زار الرحالة أيضاً المدرسة الأميرية، وليس ما يدلّ إلى أي مدرسة يشير. وقد وافق وصوله فصل الصيف، فلم يتمكن من زيارة مدارس أخرى، مثل المدرسة السلطانية والمدرسة اليسوعية والمدرسة البطريركية ومدرسة الحكمة. ويذكر أشهر مدارس البنات في بيروت: مدرسة الناصرة ومدرسة اللعازرية والمدرسة البروسية والمدرسة الأميركية والمدرسة الانكليزية.

قال عبد الرحمن سامي:

«أما هيئة سكان بيروت الاجتماعية، فمختلطة ما بين الحسن من العوائد الإفرنجية والشرقية، وليس عندهم محل لساقيات البيرا، وتقلّ عندهم المواخير وأماكن الموسات والملاهي التي تطرح بالانسان إلى مهاوي الفقر وتصرفه عن لذة الاجتماع بأهله وأصدقائه».

وتشغل المدارس بال صاحبنا أيضاً، إذ يعود اليها، ليخبرنا أن مدارس الذكور في بيروت تقدّر بسبعين مدرسة، ومدارس الإناث تقدّر بأربعين مدرسة. وفيها نحو سبعة آلاف تلميذ ونحو ستة آلاف تلميذة. يعلم الجميع ثلاثمائة وخمسون معلماً ونحو مئتين وخمسين معلمة.

ويخص الجمعية الخيرية الأرثوذكسية، المكونة من أربعة وعشرين عضواً، بكلمة طيبة، لاهتمامها بعدد من المدارس التابعة لها. وقال أيضاً عن مدارس بيروت.

«وقد صارت المدارس الداخلية في بيروت أشهر من نار على علم، وكلها تقبل التلامذة بأجور قليلة، وتعلم التلاميذ وتعتني بصحتهم وسلامتهم».

وقد زار صاحبنا الضبيّة، حيث زار:

«الوابور الدافع لمياه نهر الكلب الى بيروت... وفي الضبيّة أوتيل ومقهى تابع له وعدة محلات للاستراحة».

ويشير إلى أن أعمال توصيل المياه الى بيروت تمت على يد شركة انكليزية؛ وهي الشركة التي ارسلت المهندس وليام مكسول للقيام بهذه الأعمال.

كان «عبد الرحمن سامي» ما يزال يشكو آثار المرض لما وصل بيروت، وقد عالجه طبيب، هو «الدكتور ابرهيم أفندي صافي». ولعل هذا، هو السبب الرئيسي لاهتمامه بالمستشفيات في بيروت، فإنه يشير الى زيارة ثانية، قام بها الطبيب له. ووجد هذا أن صحته قد تقدمت، وذهب معه لزيارة المستشفى الحكومي. يقول في ذلك:

«ثم توجهت مع حضرة عزتلو محيي الدين بك حمادة لزيارة مستشفى الحكومة، فقابلنا هناك جناب الفاضل الدكتور خيري بك، نجل احد أعيان الآستانة العلية وأرانا مع رفقائه الأطباء غرف المستشفى ومعداته، فإذا هو كامل الترتيب، نظيف للغاية وجميع أسرته على أحسن ما شاهدت في المستشفيات».

ومن الواضح أن عبد الرحمن بك سامي، كان كبير العناية بالمؤسسات. فهو يقول:

«ثم زرنا مطبعة جريدة ثمرات الفنون فقابلنا حضرة الفاضل عزتلو عبد القادر أفندي قباني... وأرانا غرف المطبعة... ثم اتينا المطبعة الادبية فقابلنا فيها حضرة الفاضل خليل أفندي سركيس صاحبها ومدير جريدة لسان الحال الغرّاء».

ويثني الكاتب على معرفة كل من عبد القادر القباني وخليل سركيس واطلاعهما على شؤون السياسة والأدب والمعرفة. وقد تعرف فيما بعد على

«رشيد أفندي الدنا صاحب جريدة «بيروت البهية» ».

وأعجب الرحالة بسوق الصاغة في بيروت، فقال عن الصاغة:

«وبالحق إن لصاغة بيروت مهارة ومعرفة ودقة في العمل ولا سيما المعروف منه بكسر الجفت وغيره».

وبعد ثنائه على تجار بيروت ومهارتهم، يشير إلى معمل للورق، بقوله:

«أما معاملهم، كمعمل الورق الذي انشأه الخواجان «باحوط وشابت»، فتدلُّ على ميلهم لترقية الصناعة والتجارة».

ويضيف:

«أما معامل الحرير وغيره فعلى أتم نظام وأكمل إتقان».

ويعود الى مستشفيات بيروت، ليتحدث عنها بشيء من التفصيل. فيصف مستشفى البروسيني، الذي عرف باسم المستشفى الالماني، الذي كان يطبب فيه أطباء الكلية الاميركية وأساتذتها، ومستشفى اليسوعيين، الذي كان يشرف على ادارته أساتذة الطب في المدرسة اليسوعية. ويقول بعد ذلك:

«والمستشفى الجدير بالذكر المستشفى الوطني للروم الارثوذكس، فإنه أُنشىء على نفقة الوطنيين بمال المحسنين. ويطبب فيه مجاناً الفيلسوف الدكتور فان ديك والدكتور حبيب طبجي والدكتور سمعان الخوري وغيرهم».

وينتقل بعد ذلك ليذكر نفراً من كبار أطباء بيروت، وفيهم، غير الذين مرّ ذكرهم،

«شاكر الخوري وملحم فارس وعبد الرحمن الأنسي».

وهؤلاء من تلامذة كلية القصر العيني بمصر، ومنهم:

«أديب قدورة وسليم جلخ وحبيب وحنا جبور والياس شكر الله ويعقوب ملّاط».

وهؤلاء من خريجي الكلية الاميركية ومن مدارس أوروبا وأميركا.

وانتقل عبد الرحمن بك من بيروت إلى دمشق، لكنه قضى سبعة أيام في عاليه على الطريق. وكان سفره في مركبة لشركة طريق الشام الفرنسية، وهي الدلجانص، التي مرّ ذكرها مع كثير من الرحالين الذين زاروا لبنان بعد سنة ١٨٦٣ م. وقد نزل في عاليه في فندق بسُّول. وبهذه المناسبة، فقد كان لأسرة بسول فندق في بيروت، ظل يستعمل الى الستينات من القرن الحالي. ووصفه لمناطق لبنان، التي ترى من عاليه، جميل جداً. ويزور سوق الغرب؛ وهي:

«بلدة صغيرة لكنها لطيفة».

ويذكر عبد الرحمن سامي القرى التي زارها، أثناء إقامته في عاليه، والناس الذين زارهم، وقد قُوبل في كل مكان بالإكرام والتجلة والأنس. ويقول عن عالية «إنها مركز مديرية، أي قضاء».

«وفي فصل الصيف يرتّب فيها بيت للتلغراف فتصل بيروت وبيت الدين مركز متصرفية جبل لبنان».

ويذكر سوق الغرب بفنادقها للمصطافين والغرباء، وبأطعمتها اللذيذة وفاكهتها الكثيرة، ورخص الأثمان، وتمام الإتقان.

وقد أقام عبد الرحمن سامي ليلة في شتورة. وانتقل في اليوم التالي إلى دمشق. ويصف الطريق بشيء من التفصيل. وفي مقدمة الكتاب، قال المؤلف إنه تأمل أن يفيد منه الإخوان المصريون، الذين يتوجهون إلى تلك البلاد. وفي الصفحات الأخيرة من وصفه للبنان، يقول:

«ثم تركت عاليه وركبت الدليجانس وهي العربة الكبيرة التي تسافر يومياً من بيروت الى الشام، فوصلت شتورا ظهر النهار. وهناك قابلت جمهوراً من المصريين المصطافين».

ويعني ذلك أن اصطياف المصريين في لبنان، يعود إلى أواخر القرن الماضي!



٢٢ مؤسس الجامعة الاميركية في بيروت

لما بدأ المبشرون الاميركان أعمالهم في بلاد الشام، في العقود الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي، جاء عدد منهم الى بيروت وصيدا وطرابلس وجبل لبنان، وكانت إقامة البعض منهم طويلة. فقد أقام جسب ثلاثاً وخمسين سنة. وقضى فان ديك بضعة عقود من السنين. ومن هؤلاء المبشرين دانيال بلس، الذي وصل الى بيروت في سنة ١٨٥٦ م، وظل في البلاد الى حين وفاته سنة ١٩١٦ م، أي ستين سنة.

ودانيال بلس جاء مبشراً، وعمل في بيروت وعبيه وسوق الغرب قبل أن يتخلى عن العمل التبشيري، وينصرف، بدءًا من سنة ١٨٦٦ م، إلى تولّي رئاسة الكلية السورية الانجيلية، وهي الجامعة الأميركية اليوم، التي ظل رئيسها حتى سنة ١٩٠٢ م.

وبعد سنوات طويلة من قيامه بالعمل في لبنان، دوّن ذكرياته. وكانت زوجته تكتب باستمرار رسائل إلى أهلها وأصدقائها في أميركا، كما كان هو يكتب التقارير عن عمله، خصوصاً في الكلية، ويبعث بها الى مجلس الأمناء. وقد قام ابنه الأكبر، فردرك جون، بتحرير هذه المدونات من والده ورسائل والدته. فظهر من ذلك مجلد اسمه ذكريات دانيال بلس، الذي نشر في سنة ١٩٢٠ م. ومن هذا المجلد، سننتزع صفحات للتحدث عن لبنان في مدوّنة بلس.

أشارت مسز بلس في أول رسالة بعثت بها من بيروت الى منظر بيروت الجميل، كما يبدو للقادم اليها بحراً، عند الصباح المبكر. قالت في تلك الرسالة:

«إن منظر بيروت من المركب كان رائعاً حقاً، فقد سُحرت به».

ويقول ابنها فيما بعد:

«بقطع النظر عن الوقت الذي تصل فيه بيروت بحراً، فإن المنظر يكون اكثر ما يدعو الى السحر. إن الالوان التي تقع عينك عليها وانت تقترب الى الشاطىء بينما الشمس على وشك الشروق تملك عليك لبّك».

وهذا ما لاحظته، أنا شخصياً، لما وصلت مع أسرتي الى بيروت بحراً، في شهر نيسان/ ابريل سنة ١٩٤٩ م. كانت الشمس على وشك الشروق، وقد أخذت الباخرة تتهادى نحو الميناء، فيما كانت الشمس تلقي بأولى أشعتها الذهبية على بيروت وما يحيط بها، يميناً وشمالاً وجبلاً وشاطئاً. كان وصف هذا المنظر صعباً عليّ يومها. وكل ما أستطيع أن أقوله، إنني أدركت يومها لماذا قال الامبراطور غليوم، لما وصل إلى الميناء في سنة ١٨٩٨ م، «بيروت درة في تاج آل عثمان».

وكان بين المبشرين، الذين وصلوا الى لبنان سنة ١٨٤٠ م، الدكتور فان ديك. كان فان ديك طبيباً. ولم يمضِ عليه بعض الوقت في البلاد، حتى أتقن اللغات العربية واليونانية والسريانية والعبرية. يقول عنه بلس:

«لم ينل أي من المبشرين إعجاب سكان البلاد كما ناله الدكتور فان ديك».

وبعد فترة قصيرة في بيروت، ترك بلس وزوجته المدينة الى عبيه. وقد ورد في كتاب الذكريات:

«لم يكن في البلاد طرق للعربات، لذلك فالانتقال كان يتم على ظهور الخيل، فيما كانت قطع الاثاث وغيرها تحمّل على البغال. وقد يتكون حمل البغل من مكتب بأدراج في الجهة الواحدة وأرغن في الجهة الثانية، وبين هذين قد توجد طاولة أرجلها الاربع مرتفعة إلى فوق. وإذا وجد المكاري الظرف مناسباً فقد يضع بين أرجلها قفصاً فيه دجاجات».

والكاتب يصف كيفية حمل الصغار بقوله:

«كان الصغار يوضعون في صناديق تربط إلى جانبي البغل».

وبهذه المناسبة، كنا، في صغرنا، نعيش في دمشق، وكان الأهل ـ أهلنا وأصدقاؤهم ـ يذهبون سيراناً (يعني شطحة) وكان الصغار، في هذه الحال أنا وأختي، نوضع في شقتي الخرج الذي يحمّل على الحمار. ولما كانت مجموعة من العائلات تكوّن قافلة، لا يستهان بهـا، فقد كـانت، كما يقـول بلس، الأسرة المنتقلة بهذا الشكل مع الخيل والبغال والحمير تحمل أثاث بيت عائلة تامة.

وكان ڤان ديك قد أنشأ، في عبيه، سنة ١٨٤٣ م، مدرسة عليا، لتدريب الوعـاظ والمعلمين، للمـدارس التي يفتحها المبشرون، وللكنائس التي تؤسسهـا. وقد كـان فيها، لـما وصلها بلس سنـة ١٨٥٦ م، أربعة وعشرون تلميذاً. ومع أن دراسة الكتاب المقدس كانت الأساس، فإن مبادىء الجغرافية والجبر والهندسة والمثلثات والفيزياء، كانت تعلّم فيها. وقد أعد الكتب المدرسية، لهذه الموضوعات، باللغة العربية، الدكتـور ڤان ديك نفسه.

وقد جاء في الكتاب، الذي أشرنا إليه، قول بلس إن اللبنانيين أذكياء، سريعو التعلم والتكيّف، دقيقون في الحكم على الناس. وكانت الحياة بسيطة بقدر ما كانت معقـدة. أما بسـاطتها، فتعـود الى أن حاجـات الناس، كانت قليلة نسبياً، وكان نتاج الأرض يكفي السكان حاجاتهم. وأما تعقيدها، فيعـود الى القوانـين الاجتماعية، التي كانت تتحكم في تصرف القوم، والتي ورثتها الجماعة عن الأجداد.

ويقول المؤلف:

«إذا كانت الحضارة في اساسها الحصول على أدوات فنية تجعل الحياة مريحة والزراعة انجح والتنقـل أيسر، فالحياة اللبنانية كانت متأخرة حضارياً. أما إذا كانت الحضارة تأخذ بعين الاعتبار قواعد السلـوك والتصرف في المجتمع بنواحيه المختلفة، فاللبنانيون لهم حضارة شديدة التعقيد».

ويشيد المؤلف بأمانة اللبنانيين.

وقـد ورد في الكتاب، الـذي بين أيـدينا، بضعـة أرقام عن أسعـار الحاجيـات. دزينة البيض بستـة سنتات، ورطل الحليب بسنتين اثنين. ويقول أيضاً، إن أجرة الخادم شهرياً، هي ٣،٦٠ دولاراً.

وفي سنـة ١٨٥٨ م، نقل بلس الى سـوق الغرب. وفي سنتي ١٨٦١ و ١٨٦٢ م، بعـد أحداث سنـة الستين، كثر الحـديث بين بلس والـدكتور طـومسون عن الحـاجة الى التعليم العـالي في هذه البـلاد. وقد تبلورت القضية التي نوقشت مع الجالية الانكليـزية في بـيروت، حول أمـور أساسيـة هي: أولاً، الحاجـة الماسة الى إنشاء كلية في البلاد. ثانياً، إن التعليم في هذه الكلية، يجب أن يكون باللغة العربية. ثـالثاً، إن الأموال، اللازمة لمثل هـذا المشروع، يجب أن تجمع من أمـيركا وانكلتـرا. رابعاً، من الضروري أن يكـون لهذه المؤسسة مجلس أمناء في أميركا أو في انكلترا أو في كليهما، كي يكسب ثقة المتبرعين. ومن المنـاسب أيضاً أن يكون هناك مجلس إدارة محلي، يتكون أعضاؤه من أعضـاء الجاليـات الأجنبية في بـلاد الشام ومصر. وأخيراً، كان لا بد من الحصول على براءة، تعطي هذه الكلية الحق في منح الشهادات.

وفي اجتماع عقد في ٢٣ كـانون الثـاني/ ينايـر سنة ١٨٦٢ م، تمت المـوافقة عـلى النقاط المـذكورة، واقترح أن يعهد برئاسة هذه الكلية لبلس. وبعدما استشار بلس زوجتـه، وقررا أن يقبـل التكليف، صدر قرار عن مجلس المبشرين المحلي

«إن بلس سيكون رئيساً للكلية المقترح إنشاؤها، على أنه من الواضح انه سيستمر في عملـه في حقل التبشـير إلى أن تجمع الأموال اللازمة للبدء في العمل. ومع أن بلس سيحتفظ بعلاقتـه مع مجلس المبشرين فـإن الكلية المقترح انشاؤها لن يكون لها ارتباط عضوي بالهيئات التبشيرية».

ومن الطريف، أن ملاحظة أبديت أثناء المناقشات، وهي أن كلية للدراسات العليـا، يجب أن تنشأ في البلاد، وأنه لن يكون اليسوعيون هم السابقون إلى إنشائها. وقد أنشئت الكلية في سنة ١٨٦٦ م، وسميت

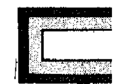
الكلية السورية الانجيلية، ولم يغيّر اسمها إلى الجامعة الاميركية، إلا في أعقاب الحرب العالمية الأولى. أما كلية القديس يوسف، فقد أنشئت سنة ١٨٧٥ م، وهي جامعة القديس يوسف اليوم.

ويتحدث كتاب الذكريات والتقرير، الذي سيرفعه الرئيس المقبل الى الهيئات في أميركا، عن جمع التبرعات من انكلترا ومن أميركا. ولأن الحرب الأهلية يومها جعلت الدولار يفقد شيئاً من قيمته، فقد كانت التبرعات الانكليزية، هي التي استعملت في انشاء الكلية. أما البراءة، فقد جاءت من مجلس ولاية نيويورك.

وقد ظلت الكلية في أبنية مستأجرة حتى سنة ١٨٧٣ م، حين انتقلت الى بناية الكلية أو بناية الساعة، كما تسمى عادة في حرمها الحالي.

وكانت الكلية، بحكم موقعها في بيروت، التي كانت آخذة في تبوّء المركز الخاص، كمدينة كبيرة وميناء تجاري للأجزاء الداخلية من البلاد، وخاصة دمشق - من الأماكن التي تزار، سواء في ذلك الأميركان والانكليز والعرب. ومن هنا، فقد كان لبلس صداقات كثيرة. ويذكر كتاب الذكريات أن بين زوار الكلية كان ثيودور روزفلت، الذي تولّى فيما بعد رئاسة الولايات المتحدة. وكان بلس كثير الاتصال بأهل الفكر والعلم من العرب المقيمين في بيروت. ويذكر أن بطرس البستاني كان صديقاً له.

وقد تعرّف بلس على المهندس البريطاني وليام مكسول، الذي كان يدير الناحية الفنية من الأعمال اللازمة لجر مياه نهر الكلب إلى بيروت. واتفق الاثنان على الدخول الى جعيتا، واكتشاف المغارة، وانضم اليهما ثلاثة آخرون. وقد نجح الفريق في السير ١٢٨٠ متراً داخل المغارة. وقد وصف بلس في ذكرياته هذه الحملات الثلاث داخل المغارة، لكن مكسول كتب عنها بتفصيل أكبر.



فهرس الأعلام

فهرس الأماكن